



تاريخ العصور الكلاسيكية الرومانية



السنة الثالثة



منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية (السويداء)

تاريخ العصور الكلاسيكية الرومانية

الدكتورة

ميسون المرعشلي

مدرسة في كلية الآداب الثانية

قسم التاريخ

الدكتور

زياد سلهب

أستاذ مساعد في كلية الآداب

قسم الآثار

١٤٣٥ - ١٤٣٦ هـ

٢٠١٤ - ٢٠١٥ م

جامعة دمشق



فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
١٣	مقدمة
١٧	القسم الأول: العهدان الملكي والجمهوري
١٩	الفصل الأول: التاريخ القديم وروما
٢١	أولاً- مصادر التاريخ الروماني
٢١	١- حقيقة مصادر التاريخ القديم:
٢٣	٢- مصادر التاريخ الروماني:
٤١	ثانياً- مقومات الحضارة الرومانية (الإطار الطبيعي والبشري):
٤١	I- جغرافية إيطاليا القديمة
٤٢	١- الموقع والحدود
٤٢	٢- السطح
٤٧	II- سكان إيطاليا القدماء
٥٤	ثالثاً- الحضارات المؤثرة في التاريخ الروماني
٥٤	١- الحضارة الأتروسكية
	الفصل الثاني: تاريخ روما من التأسيس حتى نهاية العهد الملكي (٧٥٣-٥٠٩ ق.م.)
٧١	٥٠٩ ق.م.)
٧٣	أولاً- نشأة روما بين الأسطورة والواقع:
٨٨	ثانياً - ملوك روما خلال الحكم الملكي (٧١٥-٥٠٩ ق.م.):
٨٨	أ- فترة حكم رومولوس (٧٥٣-٧١٦ ق.م.):
٩٠	ب- ملوك روما بعد رومولوس (الملوك السابينيين "٧١٥-٦١٦ ق.م.):

٩١	ج- العهد الأترووسكي (٦١٦-٥٠٩ ق.م.):
٩٦	ثالثاً - النظام السياسي في روما خلال العهد الملكي:
٩٦	١- النظام السياسي قبل ظهور روما:
٩٦	٢- النظام السياسي في روما الملكية:
١٠٣	رابعاً- المجتمع الروماني في العهد الملكي:
١٠٣	أ-طبقات المجتمع:
١٠٧	ب- الأسرة الرومانية "Familia" في العصر الملكي
١٠٩	ج- الديانة الرومانية في العهد الملكي:
١١٤	خامساً- الحياة الاقتصادية في العهد الملكي:
١١٦	سادساً- الجيش والفتوحات
	 الفصل الثالث تأسيس الدولة الرومانية الجمهورية
١١٩	(التوسع والفتوحات العسكرية)
١٢١	أولاً- الجيش الروماني:
١٢٦	ثانياً- حروب روما حتى بداية القرن الثالث من الحكم الجمهوري:
١٢٦	١- الحروب في القرن الأول من الحكم الجمهوري:
١٢٨	٢- الحروب في القرن الثاني من الحكم الجمهوري
١٣١	٣- روما تسيطر على أواسط شبه الجزيرة الإيطالية:
١٣٧	٤- حروب روما في القرن الثالث من الحكم الجمهوري:
١٤٢	ثالثاً- تنظيم إيطاليا بعد توحيدها من قبل الرومان:
١٥٠	رابعاً- التوسع الروماني في البحر الأبيض المتوسط:
١٧٣	خامساً- الثورات الاجتماعية ونتائجها:

١٧٤	أ- المرحلة الأولى: ظهور المصلحين:
١٧٨	ب- المرحلة الثانية: الاستيلاء على السلطة العليا بالقوة "مرحلة العنف"
١٧٨	• عهد سوللا (٨٢-٨١ ق.م.)
١٨٤	ج- المرحلة الثالثة -مرحلة التكتلات (عهد بومي ٧٧-٦٠ ق.م.):
١٨٤	١- بزوغ نجم بومي (٧٧- ٦٠ ق.م.):
١٨٥	• ثورة القنصل لبيدوس:
١٨٧	• ثورة سرتوريوس:
١٨٩	• ثورة العبيد (ثورة سبارتاكوس ٧٣-٧١ ق.م)
١٩١	٢ - انتخاب بومي وكراكوس قنصلين لعام ٧٠ ق.م
١٩٢	٣ - حملة بومي إلى الشرق
	الفصل الرابع تاريخ روما الجمهوري
١٩٧	(الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية)
١٩٩	أولاً - الصراع الاجتماعي بين الخواص والعوام
١٩٩	١- بدايات الصراع
٢٠٢	٢- مراحل الصراع
٢١٣	٣- النتائج
٢٣٦	ثانياً- المؤسسات السياسية وأجهزة الحكم في العهد الجمهوري
٢٣٧	ثالثاً- المجتمع الروماني في عهد الجمهورية
٢٤٩	رابعاً- الحياة الاقتصادية
٢٤٩	أ- الزراعة
٢٥٠	ب- مشكلة الديون

٢٥١	ج- الحرف والتجارة
٢٥٣	د- النقود
	خامساً- تأثيرات التوسع الروماني على المجتمع والاقتصاد الإيطالي في
٢٥٦	القرن الثاني قبل الميلاد
٢٥٦	١- التأثيرات الاجتماعية
٢٥٨	٢- التأثيرات الاقتصادية
٢٦١	سادساً- الأدب والقانون والفن
٢٦١	أ- الأدب الروماني الباكر
٢٦٣	ب- القانون
٢٦٤	ج- الفن
٢٦٩	القسم الثاني: عصر الإمبراطورية الرومانية
	الفصل الأول: انهيار الجمهورية وقيام الإمبراطورية الرومانية
٢٧١	نشأة الإمبراطورية الرومانية
٢٧٣	تمهيد
٢٧٥	أولاً- سقوط الجمهورية الرومانية
٢٧٥	١. يوليوس قيصر وإصلاحاته
٢٧٩	٢. سقوط الجمهورية الرومانية
٢٧٩	• الحرب الأهلية الثانية
٢٨١	• إصلاحات قيصر
٢٨٢	• مصرع يوليوس قيصر
٢٨٤	٣- الحرب الأهلية الثالثة (الصراع بين أنطونيوس وأوكتافوس):

٢٨٤	• أنطونيوس
٢٨٥	• أوكتافيوس
٢٨٨	• حكم الثلاثة
٢٩٠	ثانياً- قيام الإمبراطورية الرومانية
٢٩٠	١- تطهير إيطاليا
٢٩١	٢- أوكتافيوس والغرب
٢٩٢	٣- أنطونيوس والشرق
٢٩٣	٤- الحكم الثلاثي يصبح ثنائياً
٢٩٧	٥- قيام الحكم الإمبراطوري
٣٠٣	الفصل الثاني: تأسيس الإمبراطورية (عصر أغسطس)
٣٠٥	أولاً- أوكتافيوس الإمبراطور
٣٠٥	١. عودة أوكتافيوس إلى روما
٣٠٧	• ألقابه الخاصة
٣٠٩	• دستور عام ٢٧ ق.م
٣١٣	ثانياً- أعمال أغسطس الإدارية والسياسية
٣١٣	١- إيجاد نظام للحكم في شكل مجلس
٣١٦	ثالثاً- بناء الإمبراطورية في عهد أغسطس
٣١٧	١- الإصلاحات الاجتماعية
٣٢٠	٢- سياسة أغسطس الاقتصادية
٣٢٥	٣- الإصلاحات الدينية
٣٢٧	٤- خلافة أغسطس
٣٣٠	٥- موت أغسطس

٣٣١	٦-الحكم على أغسطس
٣٣١	الفصل الثالث: من الإزدهار إلى السقوط (خلفاء أغسطس)
٣٣٥	تمهيد
٣٣٦	أولاً- عصر السلام الإمبراطوري (١٤-١٩٢ م)
٣٣٦	١-الإمبراطور تيريوس "Tiberius" (١٤-٣٧ م)
٣٣٨	٢-الإمبراطور كاليغولا "Caligula" (٣٧-٤١ م)
٣٤٠	٣-الإمبراطور كلاوديوس "Claudius" (٤١-٥٤ م)
٣٤٤	٤-نيرون (٥٤-٦٨ م)
٣٤٨	٥-عام الأباطرة الأربعة أو عام الثورات (٦٨-٦٩ م)
٣٥٣	٦-الإمبراطور تيتوس "Titus" (٧٩-٨١ م):
٣٥٣	٧-الإمبراطور دوميتيان "Domitianus" (٨١-٩٦ م)
٣٥٥	٨-الإمبراطور نيرفا "Nerva" (٩٦-٩٨ م)
٣٥٦	٩-الإمبراطور ترايان "Trajanus" (٩٨-١١٧ م)
٣٥٨	١٠- الإمبراطور هادريان "Hadrianus" (١١٧-١٣٨ م)
٣٦٠	١١-الإمبراطور أنطونيوس بيوس "Antoninus Pius" (١٣٩-١٦١ م)
٣٦٢	١٢- الإمبراطور ماركوس أوريليوس "Marcus Aurelius" (١٦١-١٨٠ م)
٣٦٤	١٣- الإمبراطور كومودوس "Commodus" (١٨٠-١٩٢ م)
٣٦٥	ثانياً-عصر الاضطراب والفوضى (١٩٢-٢٨٥ م)

٣٦٩	الفصل الرابع: سقوط الإمبراطورية الرومانية
٣٧١	تمهيد
٣٧٥	أولاً-الحياة السياسية والإدارية في الإمبراطورية الرومانية
٣٧٧	ثانياً- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية الرومانية
٣٨١	ثالثاً- الأدب والفكر الروماني
٣٨٦	رابعاً- أزمة القرن الثالث الميلادي
	• أهم المشكلات التي عانت منها الإمبراطورية الرومانية في القرن
٣٨٦	الثالث
٣٨٦	(a) المشاكل السياسية والإدارية
٣٨٨	(b) الأزمة الاقتصادية
٣٩١	(c) الحالة الاجتماعية
٣٩٤	(d) الأخطار الخارجية
٣٩٦	خامساً- عصر الإمبراطورين دقلديانوس وقسطنطين
٣٩٦	١- الإمبراطور دقلديانوس "Diocletian" (٢٨٤-٣٠٥م)
	٢- الإمبراطور قسطنطين الكبير "Constantin the Great"
٣٩٩	(٣٠٦-٣٣٧م)
٤٠٥	سادساً- سقوط الإمبراطورية الرومانية
٤٠٩	مراجع الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

ليس غريباً أن تجد من يعتبر تاريخ إيطاليا القديمة هو نفس تاريخ مدينة روما منذ نشأتها تحت الحكم الملكي مروراً بفترات الحكم الجمهوري، ثم العهد الإمبراطوري فيما بعد حينما قطعت روما بل إيطاليا كلها ثمار الجهود المضنية التي بذلها رجالا روما الأوائل، عسكريين كانوا أم سياسيين، على حدٍ سواء.

لقد كانت نجاحات روما، منذ نشأتها الأسطورية عام ٧٣٥ ق.م مصدر دهشة أعظم مؤرخي العصور القديمة، حين كتبوا عن هذه المدينة الصغيرة "التي استطاعت أن تضع أسس نظام جديد، وهو النظام الجمهوري عام ٣٠ ق.م، بعد أن نفضت عن كاهلها الوجود الأجنبي: وهم الملوك الأتروسكيون، عندما كسب أوغسطس آخر جولة من جولات الصراع على عرش الإمبراطورية، وقضى على أنطونيوس واطعاً بذلك نهاية لطموحات آخر ملكة بظلمية في مصر وهي كليوباترا السابعة، ومؤسساً لنظام دستوري جديد عرف باسم حكم المواطن الأول"^(١).

ويعود الفضل إلى رجالا روما العظام وساستها الأوائل الذين وضعوا أسس نظام الحكم الجمهوري الذي لم يكن يعني نفس هذا النظام اليوم، بل كان مقدمة وصورة أولية له في التاريخ القديم كما أنه لم يكن يعني مضمونه الكامل الذي نعرفه في تاريخنا الحديث والمعاصر، بل كان يعني حكم الأثرياء الأقوياء، الذين كانوا يصلون إلى تلك الوظائف الشرفية غير مدفوعة الأجر، عبر قنوات الاختيار الحر. وعلى أية حال لم نكن نتوقع، ولا يمكن لنا أن نتوقع نزاهة في اختيار الأشخاص للمناصب العليا أو

^(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان "منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي"

الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص ١١٩.

لأعضاء الجمعية الدستورية، كمجلس السناتوس القديم أو الجمعيات الأخرى مثل جمعية الأحياء التي يتم فيها تمثيل أقوى وأغنى رجالات الأحياء السكنية في روما، ولهذا فإن تلك الطبقة الثرية لا ينتظر منها أن تدافع عن مصالح عامة الشعب الروماني، كما نفهم من معنى مصطلح الجمهورية "Res Publica" أي الشيء العام. إذ إن الغاية الأساسية التي أرادت تلك الطبقة أن تحافظ عليها وتضمن العمل من أجلها على يدي كل مسؤول يصل إلى وظيفة في الدولة الرومانية الناهضة هي مراعاة مصالحها بالدرجة الأولى، أي مصلحة عامة الأغنياء، حتى لا يستأثر أحد المسؤولين دون الآخرين، بتكليف الوظيفة وسلطانها لتحقيق طموحاته وطموحات أهله، فيدافع عن مصالحه الخاصة فقط. هذه المرونة السياسية الكبيرة، في كل المواقف، وفي كل الأوقات قد كانت المرونة العملية الواقعية التي لا تغيب عنها أهدافها الإستراتيجية الدائمة.

ومع ازدياد أملاك روما الخارجية، أي خارج إقليم لاتيوم وإتمام سيادتها على إيطاليا ازدادت أيضاً قوتها العسكرية الضاربة، مما مكنها من الدخول في حرب طويلة، مع أكبر قوة في العالم القديم آنذاك، وهي قرطاجة (Carthago)، تلك المستعمرة الفينيقية القديمة في تونس التي تقع في الشمال الإفريقي. إنها المصالح التجارية للدولتين كلتيهما في حوض البحر المتوسط، ثم بدأت تتعارض وذلك بعد أن كثرت عمليات التدخل الروماني في السياسات الداخلية لدويلات المنطقة ومحاولة روما الدائمة تدمير الأنظمة القوية في العالم المتحضر آنذاك.

هنا تصدق ملاحظة رستوفتزف الدقيقة لسياسة روما حين قال: "إن تدخل روما في فترات متقطعة بشؤون العالم المتحضر أثناء الحروب البونية (أي مع قرطاجة) وما بعدها، لم ييسر الحال، وإنما أدى في أحوال كثيرة إلى تعقيد الأمور، إذ ساعد على نجاح القوى الهدامة. وكان الهدف الذي ترمي إليه الجمهورية الرومانية

الناهضة هو الحيلولة دون قيام أي نظام سياسي قوي في الشرق يُخشى أن يشكل خطراً على الدولة الرومانية"^(١).

انشغل الرومان قبل استيلاء أوكتافوس على الحكم بصراعات عسكرية مريرة بين القادة الرومان خلال القرن الأول قبل الميلاد، وكان من أهم هذه الصراعات ما حدث بين ماريوس وسوللا على القيادة العسكرية العليا، مما أسفر عن حصار روما نفسها بقوات سوللا في عام ٨٨ ق.م. إذ لعب القادة الرومان دوراً بارزاً في الحياة الرومانية سواء أكانت سياسية أم اجتماعية.

^(١) رستوفتوف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، الجزء الأول، القاهرة





القسم الأول:
العهدان الملكي والجمهوري
د. ميسون المرعشلي





الفصل الأول
التاريخ القديم وروما



أولاً- مصادر التاريخ الروماني:

١ - حقيقة مصادر التاريخ القديم:

التاريخ القديم اصطلاح واسع، تضم مواداً أحياناً كثيرة، مضى عليها الزمان وتوالت عليها قرون وعصور، فانطمست معالم المكان والأشياء، وأصبح من الصعب بل من المستحيل على غير المتخصص أن يستنتج أي شيء في غياب الدليل الأثري القاطع. ولا يمكن الاكتفاء بما كتبه البعض من انطباعات أو ما سجله من مواقف وأحداث لأن ذلك لن يخرج عن كونه وجهة نظر شخصية إلا فيما ندر، إذ لا بُدَّ أن يتجرد المؤرخ من عواطفه وميوله، وأن يعرض الموضوع من جوانبه المختلفة ملقياً الضوء على أبعاده الإيجابية والسلبية على حد سواء، لا أن يقتصر على جانب واحد فقط يعبر به عن رأيه الشخصي ليخدم بقلمه مصالحه الخاصة أو مصالح فئة معينة فقط. ويختلف تاريخ أي شعب من الشعوب في بدايته ونهايته من منطقة إلى أخرى، كنتيجة طبيعية لاختلاف مقومات الشعوب ومدى الإنجاز الحضاري الذي خلفته عصور نهضتها، ثم تبعاً لظروف المنطقة التي وقعت فيها أحداث ذلك التاريخ القديم وتعاقبت عليها مراحلها، ولهذا نجد أن التاريخ الروماني قد بدأ في فترة تختلف عن بداية التاريخ اليوناني القديم، وهذا شيء منطقي جداً، ويؤكد خصوصية كل حضارة وتميزها الواضح عن الأخرى، كما أن الشيء نفسه يمكن أن يقال عن عوامل تدهور أو انهيار أو نهاية كل حضارة من الحضارات السابقة وكيف أنها تختلف طويلاً وقصراً وتعليلًا عن غيرها من الحضارات.

فإذا نظرنا نظرةً فاحصةً إلى كل ما وصل إلى أيدينا من مصادر تاريخية قديمة في أي فرع من فروع التاريخ القديم، ولأي أمة من الأمم نجد أن تلك المصادر لا تخلو من معلومات وأخبار موجهة ومقصودة بغرض إعلام الآخرين حول أشياء معينة بغض النظر عن مدى حقيقة تلك الأمور ومصداقية وقوع تلك الأحداث. أي إن تلك

المصادر ما هي في حقيقة الأمر، إلا بوق دعاية مغرضة خرجت من القصور الملكية أو من بيوت الأمراء ورجال الدولة آنذاك لتوضيح بعض المواقف للعامة أو لتسجيل ما في صالح تلك الفئة الحاكمة، أو إخفاء كل دليل على إدانتها، ناهيك عن كتابات الشعراء المنافقين الذين يتكسبون ويحترفون عملية الخلق الفني ولا يهمهم إلا ما يغدقه عليهم الملك والأمراء من هدايا ومنح.

وإن القارئ ليذهل حقاً عندما يستمع إلى تفاصيل الطرق والأساليب التي لجأ إليها الحكام والأمراء والقادة العسكريون في الوصول إلى سدة الحكم. فقد كان أسلوب المؤامرات والدسائس هو الطريق الوحيد الموصل حتماً إلى العرش في التاريخ القديم، إلا إذا كان ذلك العرش وراثياً بين أبناء الأسرة الواحدة. بل حتى في هذه الحالة التي تستبعد العناصر الأخرى -غير الملكية- عن الدخول كأطراف في الصراع العائلي على العرش، نجد أن التاريخ يروي لنا أفظع الجرائم التي يرتكبها الأبناء ضد آبائهم، والإخوة ضد إخوتهم طمعاً في الانفراد بالحكم؟ عندئذ من ستخدم الحقيقة التاريخية إذا سُجِلَتْ؟ إنها ستخدم عدو السلطة. وكيف يسمح الحاكم بذلك؟ لذا يؤخذ أخطر قرار وهو ضرورة طمس معالم الحقيقة وتسجيل أي شيء آخر غيرها وإيهام الناس بصدق الروايات الجديدة عن تفاصيل الوقائع والأحداث، وبمرور الزمن يصبح ما يصل إلى الآخرين من أجيال لاحقة في صورة حوليات أو وثائق محفوظة أو مادة أثرية من نقوش أو شواهد قبور أو عملات ونقود هو المصدر الوحيد للحكم على عصور التاريخ القديم. نتساءل أين الحقيقة المجردة فيما هو مكتوب عن فترات التاريخ القديم، سواء بأيدي المعاصرين أم اللاحقين؟ للأسف الجواب: لا نعرف.

ولذلك نجد أن الدراسة التاريخية اليوم، وبعد تقدم علم الآثار وتحديث طرقه وأساليبه في الحفر والتسجيل والتأريخ، لا يمكن أن تكون كاملة بدون الاستعانة بنتائج الكشف الأثرية التي إما أن تؤكد صحة كتابات الأدباء والمؤرخين القدامى وتثبت

مصدقية ما نقلوه إلينا عن عصرهم أو عصور من سبقهم من الأمم، وإما أن تكشف النقاب عن عدم دقتهم ومبالغتهم حتى عن جهلهم بالموضوعات التي كتبوا عنها وعن اختلافهم فيما ينقلونه إلينا لأسباب وهمية لا يمكن لنا اليوم أن ننجز بحقيقتها التاريخية وواقع حدوثها في وقت ما، بل يجب علينا عندئذ أن نأخذ حذرنا، وألا نردها كما جاءت، وأن نتحفظ عند عرض تفاصيلها.

٢- مصادر التاريخ الروماني:

يخطئ من يعتبر التاريخ الروماني تاريخ حضارة منقرضة، إذ إنه في الواقع تاريخ حي، ونقصد بذلك أنه مازال في تطور مستمر، فمن الخطأ الاعتقاد أن مظاهره كلها معروفة بشكل يصبح معه البحث في هذا التاريخ عملاً غير ذي جدوى، فلا توجد رواية لتاريخ روما مثبتة بشكل قطعي، وفي العديد من الأحيان يجد المؤرخ نفسه مجبراً على الاعتراف بجهله لهذا العنصر أو ذاك، أو بعدم تمكنه من شرح هذه الظاهرة أو تلك. شأنها في ذلك شأن الحضارة الأتروسكية مثلاً التي تعد إحدى أهم الحضارات التي أثرت مباشرة في الحضارة الرومانية إن لم نقل إنها شكلت العامل الأساسي في نشوئها، لا يزال الكثير من مظاهرها غامضاً حتى اليوم. وذلك شأن بلاد الغال التي لا يزال تاريخها في الفترة التي سبقت دخول الرومان مجهولاً^(١).

وإنه لمن المعروف لدى دارسي التاريخ والحضارة الرومانية أن العنصر اللاتيني من سكان إيطاليا القديمة، الذي كان يحمل هذا الاسم (Nomen Latinum) كان قد وصل إلى إيطاليا نحو أوائل الألف الأولى ق.م، أي في عام ١٠٠٠ ق.م تقريباً، وبعد نحو قرنين من الزمان، كان اللاتين (Latini) قد استقروا في الإقليم واحترفوا مهنة

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، نشأة الجمهورية، إفريقيا الشرق ٢٠٠١، بيروت لبنان، ص

الزراعة والرعي، وأقاموا أماكن لآلهتهم وهياكل مقدسة لمعبوداتهم ولتأدية صلواتهم ولتقديم قربانينهم (طمعاً في استرضاء الآلهة ودرءاً لغضبها وشروورها).

لا دليل يثبت على ذلك القدر من المعلومات الأولية القليلة والبسيطة عن أولى مراحل العمران والتحضر في إيطاليا القديمة، سوى ما قدمته لنا الحفريات الأثرية في إقليم نوفا (Villa Nova) بالقرب من بولونيا حيث تم العثور على مخلفات أثرية من أنيات فخارية مستديرة، وأسقف مثلثة الشكل وألواح خشبية، وتوايت تحفظ رماد الموتى، فضلاً عن العديد من الأدوات المصنوعة من البرونز والحديد. وجدير بالذكر أن هذه الآثار تم الكشف عن آثار مماثلة لها في مواقع كثيرة من إقليم اللاتيوم، ولهذا فإننا نستطيع أن نستنتج باطمئنان كبير أن "اللاتين الأوائل" كانوا شعباً رعوية يربون المواشي والأغنام والماعز والخنازير، ويعيشون في قرى مبعثرة داخل أكواخ مستديرة مصنوعة من قوائم خشبية تحوطها الجوانب المصنوعة من القش المجدول بالطين، كما كانوا يتكلمون بلغة من أصل هندو-أوروبي.

أما عن نشأة مدينة روما نفسها التي اتفق المؤرخون على أنها تمت في عام ٧٥٣ ق.م فالذهل حقاً، أن يصل التحديد إلى القول: إن روما أنشأت -طبقاً للأسطورة- في يوم ٢١ نيسان عام ٧٥٣ ق.م، لكننا إذا عرفنا أن هذه التواريخ ليس لها أي سند بهذه الدقة والتحديد، فإنه ليس من المنطق أن نصدق ذلك تصديقاً تاماً ونهائياً.

وإذا علمنا أن للدليل الأثري على اختلاف أدواته ووسائله في التأريخ، مدة سماح للخطأ الزمني بين (٥٠-١٠٠) عام، وذلك في مرحلة ما قبل الميلاد، كان لنا الحق ألا نقبل بأي تاريخ محدد بشكل قطعي، ولا سيما في فترات ما قبل التاريخ لأي حضارة.

إن كل ما كشفت عنه الحفريات الأثرية فوق تلال روما القديمة هي بقايا لوجود مجتمعات رعوية بدائية وبصفة خاصة فوق تلال بلاتينوس (Palatinus) التي يمكن تأريخها بنحو ٧٥٠ ق.م، والحقيقة التاريخية تفرض علينا أن نقول إنه من الصعب أن نحدد متى اتحدت هذه التجمعات الرعوية في تجمعٍ واحدٍ أكبر تحت اسم روما (Roma)، وكانت جميعها تدفن موتاهما في مقبرة واحدة نحو عام ٦٠٠ ق.م.

إذن فإن الحديث عن روما قبل ذلك التاريخ هو ضرب من الخيال أو من الأساطير للشعب الروماني وتراثه الذي لا يمكن أن يخضع لضوابط علم التاريخ والآثار. ومن ثمَّ فإن ذكر أية تفاصيل عن أعياد التلال السبعة (Septimontium) أو عن ملوك روما قبل عام ٥٠٩ ق.م، أي ما جاء عند ليفيوس من ذكر لأسمائهم وكذلك أعمالهم بما فيهم الملك نوما (Noma)، لا يمكن أن نعتمد عليه كمادة تاريخية، طالما أن علم الآثار هو مصدرنا الوحيد في هذه الفترة المبكرة من تاريخ روما، الذي لم يستطع إلى الآن أن يضيف لنا شيئاً عن هوية أولئك جميعاً^(١).

وفي ضوء المعيار نفسه فإننا لا نستطيع أن نكون صورة عن شكل الحياة السياسية لروما اللاتينية ومؤسستها التي لا بُدَّ أنها كانت تشمل مجلس الشيوخ، كنموذج لما عرف فيما بعد باسم السناطوس (Senatus) ومن ثمَّ على وجود جمعية عمومية أو مجلس برلماني. كما أننا لا نعرف شيئاً عن علاقات روما في تلك الفترة بالتجمعات السكانية الأخرى في إقليم لاتيوم^(٢).

لقد عرفت إيطاليا القديمة في القرن الثامن قبل الميلاد ثلاثة عناصر بشرية هامة، كان لها دورها في تطوير الحضارة في شبه الجزيرة الإيطالية، إذ كانت لهم إسهامات واضحة في تاريخ تلك المنطقة. وهم الأتروسكيين في شمال إقليم لاتيوم (Latium)

(1) Dudley, Roman Society, (Pelican books), Great Britain 1970, p. 8.

(2) Ibid. p.9.

والذين تعلّم اللاتين منهم الأبجدية، وكانت حضارتهم شرقيةً في معظمها، ثم اليونان الذين احتلوا جنوب إيطاليا وشمال صقلية، حيث عاشوا حياتهم في مستعمراتهم الجديدة، خارج بلادهم، التي أسموها اليونان الكبرى، وبعد ذلك بنحو القرنين دخل على شبه الجزيرة الإيطالية من الشمال عند نهر الدانوب عنصر سكاني جديد في مرحلة غزو حملت معها مهاجرين كلتيين (Celts) إلى وادي نهر "بو" (Po).

وباختصار فإنه يمكن تقسيم الوضع العام في إيطاليا القديمة في الربع الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، اعتماداً على الدليل الأثري وحده كمصدر من مصادر التاريخ الروماني في تلك الفترة المذكورة بأنه: كانت هناك جماعات بشرية صغيرة، في مناطق متفرقة لا يجمع بينها أي نوع من أنواع الوحدة القومية، ومن ثمّ لم يكن يوجد على أرض إيطاليا القديمة في الفترة الآتفة الذكر، أي أثر لحضارة يمكن أن يقارن بها عرفته كريت أو موكتياني في اليونان ناهيك طبعاً عن الحضارات العظيمة في الشرق القديم، بل على النقيض تماماً، وهذا أمر طبيعي لأي حضارة من الحضارات القديمة، إذ لم نسمع عن أي تراث شفهي غني يصعب تصديقه تماماً أو نفيه كلياً.

فالتراث الأدبي للرومان يحكي عن ملوك أتروسكيين حكموا روما لمدة تتجاوز المئة عام بقليل، وذلك منذ احتلال تاركونيوس الأول عام ٦١٦ ق.م حتى طرد الأخير من ملوكهم وهو تاركونيوس المتغطرس عام ٥١٠ ق.م على يد بروقتوس، مما وضع نهاية للنظام الملكي وأرسى دعائم النظام الجمهوري، الذي كان بداية للتاريخ الروماني الحقيقي والإنجازات الرومانية العظيمة في ميادين الحرب والسلام، ولكن ما نعرفه عن روما تحت الاحتلال الأتروسكي من بناء المعابد وصناعة تماثيل للآلهة المعبودة واتخاذ روما كمركز تجاري هام للتجارة المارة بها من إقليم أتروريا شمالاً إلى إقليم كميانيا جنوباً، ليست سوى معلومات لا نجد دليلاً أثرياً يؤكدها. ولا بُدّ هنا من الإشارة إلى ملاحظتين أساسيتين:

• إن عملية كتابة تاريخ روما القديم قد دامت فترة طويلة. فقد استمرت طيلة ثلاثة قرون ولم تنته إلا في بداية العهد الإمبراطوري. وقد لعبت مدرسة الحوليات الجديدة في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد دوراً هاماً في إنجاز هذا المشروع. غير أنها لم تستطع تجاوز الأخطاء المنهجية التقليدية كنشر الأساطير، وعدم تحقيقها والتأثر بالتوجهات السياسية، وغياب النقد، بل اللجوء إلى التزوير.

• إن مفهوم التاريخ عند الرومان لا يمكن مقارنته بمفهومنا الذي يجعل منه علماً موضوعياً، فقد كان الرومان يرون فيه مشروعاً وطنياً، ومدرسة لتعليم الوطنية، وأداة للحكم. ولا أدل على ذلك من كون التاريخ الروماني بالشكل الذي كتب به في تلك الفترة يعكس الصراعات السياسية للجمهورية إذ إنه أضحى سلاحاً بيد الأحزاب^(١).

وإذا أردنا استعراض نوعيات مصادرنا عن التاريخ الروماني بتسلسل تاريخي فإنه بدايةً يجب أن يكون واضحاً للدارس المعاصر أن تاريخ الرومان القدماء كما وصل إلينا تحوطه بعض المحاذير التي تثير في النفس الحذر والشك إزاء تفاصيله في تلك المصادر المسماة عادة بالمصادر الأدبية، وذلك لعدة اعتبارات:

١. التاريخ الروماني لم يتم تدوينه إلا على يد أول مؤرخ روماني كتب باللغة اللاتينية، هو **فايوس بيكتور**^(٢)، نحو عام ٢٠٠ ق.م أو قبل ذلك بقليل، ومن ثمّ فقد جاء ذلك متأخراً جداً، بما لا يقل عن ٥٠٠ عام من بداية تاريخ

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١٧-١٨.

(٢) **فايوس بيكتور**: هو أول مؤرخ روماني وعضو مجلس الشيوخ، اشترك بالحرب البونية الثانية، كتب حولياته عن روما باللغة اليونانية. وقد حذا حذوه كل المؤرخين الذين جاؤوا بعده مباشرة. انظر: عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، القاهرة ١٩٧٠، ص ٦.

الأحداث التي يسردها مما يزيد من إحساسنا بالخطر والشك بسبب هذا الفاصل الزمني الكبير بين تاريخ وقوع الأحداث وبين تاريخ كتابتها وتسجيلها.

٢. جاء أول مؤلف لاتيني على يد كاتو (٢٣٤-١٤٩ ق.م) (M.P. Cato) الذي كتب عن تاريخ روما متناولاً أصل المدن الإيطالية وتاريخ روما القديمة حتى عام ١٤٩ ق.م، إلا أنه لم يصل إلينا منه إلا شذرات أورودها بيتر^(١) في كتابه مجموعة شذرات المؤرخين الرومان^(٢).
٣. تعد أقدم الكتابات التاريخية التي وصلت إلينا فعلاً على يد روماني يدعى تيتوس ليفيوس^(٣) (Titus Livius) عام (٥٩ ق.م-١٧م)، وسماه "منذ تأسيس المدينة"^(٤).

^(١) جمع الأستاذ بيتر كل الشذرات المتبقية من مؤلفات المؤرخين الرومان في مجلدين: الأول خاص بالمؤرخين حتى عصر سُلّا، والثاني خاص بالمؤرخين منذ عصر يوليوس قيصر حتى القرن الرابع الميلادي:

H. Peter: *Historicorum Romanorum Reliquiae*, I 2nd ed 1914; II 1st ed 1906.

- ^(٢) سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، ١٩٨٢، ص ٤٣.
- ^(٣) تيتوس ليفيوس (٥٩ ق.م-١٧م): يعتبر من أعظم الرواة في التاريخ الروماني. تحدث عن نمو الدولة الرومانية ذات الصبغة الغالية. تميز مؤلفه بأسلوب أدبي رفيع، كما حرص على إشباع نزعة الغرور الوطني عند الرومان. وقد كتب ليفيوس بصراحة ليرز عظمة روما، ويمجد كبرياء أهلها وغرورهم وليبعث في الشباب الروماني روح الحماسة وحب الوطن.
- ^(٤) المرجع نفسه: ص ٤٤.

٤. روح الفخر والمبالغة السائدة في تلك الكتابات مما يخرجها عن حياديتها ونزاهتها في محاولة الرومان لتأصيل البدايات الأولى لتاريخهم ولزرع روح الانتماء في قلوب الحفدة.

إذا فقد وصلتنا أعمال أقدم مؤرخ روماني إلا أنها تفتقر إلى الدقة في السرد، بعد نحو سبعة قرون فقط من التاريخ التقليدي لنشأة روما عام ٧٥٣ ق.م حسب اعترافه، فما بالنّا بالقرون الواحدة والعشرين التي تفصل بيننا وبينه هو، وكيف لنا أن نثق بالدقة الموضوعية للمعالجة التاريخية حول بداية وتطور تاريخ الرومان القدماء^(١).

إن مصادر التاريخ الروماني جد متنوعة. وكتابة هذا التاريخ تعتمد أساساً على مقارنة ومقابلة هذه المصادر، وهذه هي المهمة الأساسية لدارس الفترة القديمة، وبشكل عام نستطيع تقسيم مصادر التاريخ الروماني إلى نوعين أساسيين:

أ- مصادر أدبية "Literary Sources": ونقصد بالمصدر الأدبي أنه عبارة عن وثيقة مكتوبة خلال الفترة القديمة احتفظ بها الزمن لنا. وتشمل مؤلفات المؤرخين والخطباء والشعراء وفقهاء القانون وغيرهم من الكتاب الرومان أو اليونان التي وصلت إلينا، وتتضمن معلومات تفيد في كتابة تاريخ روما القديمة في عصر الملكية أو الجمهورية أو الإمبراطورية.

ويجب التنبيه على أن المصادر المكتوبة خلال الفترة القديمة لم تصل إلينا كلها، فلقد أسهمت نكبات الزمان في إضاعة كتب قيمة، ومن بين الأحداث الهامة التي أسهمت إسهاماً فعالاً في فقدان هذه الوثائق عمليات الهدم والتدمير والإتلاف التي تعرضت لها كبرى مكتبات العالم القديم كمكتبات أثينا وقرطاج والقسطنطينية

^(١) للاطلاع على مصادر التاريخ الروماني القديم بشيء من التفصيل انظر:

George WILLIS BOTSFORD, Lillie SHAW BOTSFORD: The Store of Rome As Greeks and Romans tell it an elementary source-book, The Macmillan Company, London 1903.

والإسكندرية وروما. فكل هذه المكتبات التي كان غناها شبه أسطوري تم تدميرها بسبب الآفات التي نتجت عن العمليات العسكرية: كالفتح الروماني، الهجمات البربرية، المد المغولي، الحروب الصليبية^(١).

ب- مصادر غير أدبية "Documentary sources": وتشمل مختلف الوثائق كالأثار والنقوش والمسكوكات وأوراق البردي وغير ذلك من المواد التي يمكن التدوين عليها.

ولا تقل أهمية هذا النوع من المصادر عن سابقتها، إذ إن كثرة الكتابات المنقوشة القديمة قد أدت إلى تطور علم يختص بدراستها ومحاولة تحليلها: إنه علم النقائش الذي أسهم ولا يزال في إغناء وتحديد معارفنا عن العديد من مظاهر الحياة عند الرومان^(٢).

ولما كان الأدب اللاتيني نفسه لم يبدأ عند الرومان إلا منذ منتصف القرن الثالث ق.م، لم يبدأ التاريخ المنهجي عندهم إلا في أواخر القرن الثالث ق.م، أي بعد أن أصبحت روما دولة قوية في حوض البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن المؤرخون اليونان قد وجهوا قبل ذلك الوقت إلا اهتماماً ضئيلاً للنظم الرومانية أوتاريخ روما بوجه عام، لذلك لم يسع المؤرخون الرومان الأوائل إلا للاسترشاد بمصدرين رئيسيين وهما: حوليات الكهنة العظام، ومبادئ التأريخ ومناهجه لدى كتاب العصر الهلنستي اليونانيين. وقد ترك هذان المصدران أثراً مستداماً في كتابة التاريخ الروماني^(٣).

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٢٠.

(٢) أحمد سراج: المرجع نفسه، ص ٢١.

(٣) عبد الطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص ٣.

ولما شرع المؤرخون الرومان في بناء قصة القرون الخمسة الأولى من تاريخ بلادهم اعتمدوا على طائفة كبيرة من الأساطير والروايات المتداولة، ذات الأصل الروماني أو اليوناني: كسجلات الأسر العريقة، والوثائق المدونة على الحجر للمعاهدات والقوانين، ومحاضر الجماعات الكهنوتية، ولاسيما الحوليات التي كان يجمعها الكهنة العظام. ولما تطورت كتابة التاريخ في الفترة التالية صُرف النظر عن حفظ السجلات الكهنوتية، فنجو عام ١٢٣ ق.م. جمع سيكفولا الكاهن الأعظم النص الكامل لما يعرف باسم الحوليات العظمى "Annales Maximi" ونشره في ثمانين كتاباً وفي سنة ١٨ ق.م أمر الإمبراطور أغسطس بإعداد السجلات المعروفة باسم السجلات الكابيتولينية "Fasti Capitolini" نسبة إلى مكان حفظها الحالي، وتدوينها على أحد أقواس النصر في روما، وهي تتضمن:

أولاً: قائمة سنوية بأسماء كبار الحكام مع إشارات موجزة إلى بعض الأحداث الهامة منذ بداية عصر الجمهورية حتى عصر أوغسطس، وقد استكملت حتى عام ١٣ ق.م.

ثانياً: قائمة بجميع مواكب النصر التي أقيمت احتفالاً بالقادة المنتصرين عند عودهم إلى روما منذ العهد الملكي حتى عام ١٩ ق.م. وهو العام الذي صار مواكب النصر من بعده امتيازاً مقصوراً على الإمبراطور^(١).

(١) المرجع نفسه: ص ٤-٥.

I - المصادر الوثائقية^(١) (الأثرية):

في عام ١٨٩٩م. تم العثور على عمود حجري مكسور عليه كتابة باللاتينية القديمة (في أقدم صورة لها)، والتي ربما كانت جزءاً من قانون جنائزي للطقوس الدينية، وبينما يعود تاريخ الأشياء التي اكتشفت معه، تحت الحجر الأسود في موقع السوق العامة الرومانية (Forum) إلى مطلع القرن السادس ق.م، فإن النقش نفسه يمكن تأريخه. بمرحلة لاحقة قليلاً نوعاً ما، إلى نحو الربع الأخير من القرن السادس ق.م. بصفة عامة، أو حتى النصف الأول من القرن الخامس ق.م، وكان النص اللاتيني يشتمل على كلمة "recei" التي تساوي "regi". بمعنى "إلى الملك". ويبدو أنه كان يشير إلى أحد ملوك فترة العصر الملكي من تاريخ روما القديمة. ولكنه يشير كذلك إلى وظيفة "ملك الطقوس الدينية: Rex Sacrorum" التي كانت موجودة مع مطلع النظام الجمهوري "منذ عام ٥١٠-٥٠٩ ق.م."^(٢)

كما تم الكشف عن نصوص لمعاهدات قديمة أو نسخٍ عن الأصول، التي كان الرومان يحفظونها عادةً داخل المعابد أو بعض المباني العامة. ومن أمثلة ذلك ما نعرفه عن أقدم معاهدة بين روما وقرطاجة في بداية علاقتهما المشتركة. وهي المعروفة باسم "معاهدة كاسيوس Foedus Cassianum" ويمكن تحديد هذه المصادر كالتالي:

^(١) وتعرف في مراجعنا العربية بالمصادر غير الأدبية. انظر : عبد الطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص ٢.

^(٢) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان "منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي" الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص ٢٧.

• الألواح الاثنا عشر:

وهي نصوص أقدم تشريع روماني فقد أصله، وانتهت إلينا نسخ منه ظلت محفوظة كتراث مقدس عبر القرون، وقد كان يطبق كذلك لفترة طويلة تجاوزت عدة مئات من السنين، إذ جمعت هذه النصوص أول مرة نحو ٤٥٠ ق.م. ثم أعيدت صياغتها وانتشرت منذ ذلك التاريخ، ونقل عنها كثير من المؤرخين اللاحقين مقتطفات عديدة في كتاباتهم، ولاسيما منذ عهد شيشرون، إذ اعتبرت مصادر رئيسية لعبت دوراً بارزاً في إعادة صياغة تاريخ روما المبكر في عصرها الجمهوري.

• القوانين الشخصية:

وهي مجموعة الإجراءات التي كانت المجالس الشعبية تصدرها باسم " Acta populi" ^(١) وكانت تُحفر — في العصور اللاحقة — على ألواح من البرونز وتوضع في معبد الإله ساتورنوس. ولهذا لم يعرف الشعب الروماني أي نوع من التشريع أو رعا عرف القليل منه فقط، قبل القرن الرابع ق.م. وفوق ذلك كانت رعاية تلك الوثائق في مكتب السجلات الروماني لم تكن كافية بحيث تمنع التلف الذي أصابها وتحفظها من الضياع في القرون اللاحقة. وتجدد الإشارة إلى أنه لم يتم العثور إلا على القليل من تلك القوانين (التي كانت تسمى بأسماء الذين أصدروها سواء أكانوا قناصل أم نقباء للعامة)، ولهذا وصفت بأنها شخصية، وذلك حتى نهاية العصر الجمهوري، كما أننا نبتأنا شك حول دقة المعلومات لدى الكتاب الرومان في أواخر العصر الجمهوري، ومدى معرفتهم بهذه القوانين الجمهورية المبكرة لأن النصوص الفعلية لهذه القوانين لم

^(١) يعتبر بعض المؤرخين أن هذه الوثائق تعني وثائق الشعب وبالتالي هي قوانين عامة وليست شخصية.

تكن واردة بحرفيتها إلا فيما ندر، وغالباً ما عبّر عنها بطريقة إجمالية أو يؤتى ببعض جزئياتها.

• قرارات مجلس السناتوس:

تؤرخ بعض النسخ الموجودة منها بعام ٤٤٩ ق.م. ولا توجد نسخ قبل ذلك وهي معروفة باسم: "Senatus Consulta" أي استشارات مجلس السناتوس، مما يؤكد حدود وظيفة ذلك المجلس، وبأنه كان استشارياً، وليس تنفيذياً، ووفقاً لما جاء عند ليفيوس فقد كانت صور تلك القرارات تسلم إلى الأيديليس "aediles"، لحفظها في معبد الربة كيريس "Ceres" إلهة الحصاد والزرع على تل الأفيوس، بينما كانت تحفظ تلك القرارات في القرنين الأخيرين من النظام الجمهوري في معبد الإله ساتورنوس.

ومع ذلك فإنه ليس لدينا دليل يؤكد ذلك علماً أن مصادرنا الأدبية كانت قد استفادت ونقلت عن تلك القرارات المبكرة لمجلس السناتوس.

• السجلات التنفيذية:

وهي عبارة عن أجندة الأعمال والمشروعات التي تمت بالفعل، والضوابط والقواعد التي صدرت خلال عملية التنفيذ "Commentarii"^(١) تلك والتي أصدرها القادة الرومان والكهنة، وأرادوا حفظها للرجوع إليها عند الحاجة. ولهذا قاموا بجمعها وتسجيلها على لفافات عرفت باسم (Libri magistratuum pontificum) وكان

(١) وهي عبارة عن مذكرات كتبها القادة الزعماء عن حروبهم وأعمالهم مثل مذكرات سوللا ومذكرات يوليوس قيصر عن حروبه في بلاد الغال.

بعضها قد حُفظ لدى أرشيفات بعض الأسر الكبيرة بينما حفظ بعضها الآخر في الخزانة العامة "Aerarium"، أو عند بعض المكاتب التي يحددها رجال الحكم في العصور المتأخرة على الأقل.

ويمكن اعتبار سجلات التعداد "Census" من أهم الأعمال الحكومية التي أسهمت في كتابة التاريخ الروماني "Census" إذ توجد إحصائيات حول أعداد المواطنين وثرواتهم منذ الفترة المبكرة من تاريخ الجمهورية الرومانية. التي كثيراً ما نقل عنها المؤرخون الرومان بعض معلوماتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الأرقام التي نقلوها عنها صحيحة ومؤكدة لا زيف فيها، مع أن المعلومات التي تعود إلى ما قبل عام ٣٠٠ ق.م. ظلت موضع نقاش واختلاف^(١).

وهناك نوع آخر من السجلات العامة والتي أُغفلت على الرغم من أهميتها البالغة وهي قوائم القناصل "Facti consulares" التي تمثل الهيكل الكرونولوجي الذي استخدمه مؤرخو الحوليات الحديثة.

II- المصادر الأدبية:

وإذا ما انتقلنا إلى النوع الثاني من المصادر الرومانية الرئيسية والأساسية كان لزاماً على الباحث التاريخي في هذا النوع من التاريخ القديم، أن يكون متسلحاً بأقدم لغتين أوروبيتين وهما اليونانية القديمة، وكذلك اللاتينية، وذلك لاعتبارين اثنين هامين: الأول: أن أقدم كتابة عن التاريخ الروماني المبكر - ونقصد القرون الأولى من عصر الجمهورية - جاءت على أيدي مؤرخ يوناني وهو بوليبيوس^(١)

^(١) المرجع نفسه: ص ٢٩ - ٣٠.

"Polybius" وباللغة اليونانية القديمة، فقد غطى الفترة من ٢٢٠ - ١٦٨ ق.م. بصفة خاصة، إذ كان هو شاهد العيان الوحيد الذي انتهت إلينا كتاباته أو بعضها، عن تاريخ روما القديمة في تلك الفترة.

الثاني: تمتلئ هذه الكتابات، نظراً للظرف التاريخي الذي ظهرت فيه، بالمغالطات الكثيرة والزيف والمجاملة للحاكم على حساب الحقيقة التاريخية، وربما يجب علينا أن نلتمس العذر لأولئك الكتاب والمؤرخين، أمثال فرجيليوس "Vergilius"، شاعر البلاط الإمبراطوري المأجور لكتابة أقدم ملحمة لاتينية تسبح بحمد الإمبراطور أوغسطس وعصر السلام، والإنجاز الروماني الكبير بهدف قومي محدد وهو غرس الانتماء الوطني لروما وزيادة روح الفخر القومي بالأسلاف العظام وأخلاقهم، ولمن جاء من بعده، أمثال تاكيوس وديوكاسيوس وكوينتوس روفوس، ولمن سبقهم أمثال شيشرون (١٠٦-٤٣ ق.م) الذي كان قد انغمس في السياسة الرومانية وقدم من خلال مقالاته العديدة فلسفة سياسية تجمع بين النظرية المثالية والتجربة العملية المستمدة من واقع النظم الرومانية^(١).

ولهذه الأسباب كان من الضرورة الملحة على الباحث التاريخي أن يركن أولاً إلى المصادر غير الأدبية، أو ما سميناه نحن بالمصادر الوثائقية نتاج الحفريات الأثرية: من نقوش، وعملة وأوراق بردي وأوستراكا وشواهد القبور "Stelae" وتمائيل وتماثيل

(1) POLYBIUS: The Histories, translated by W. R. Paton, 3 v, Harvard university press, London, 8 ed, 1998.

(٢) عبد اللطيف: مصادر التاريخ الروماني ، ص ١٦-٢١.

وغيرها حتى يستنطقها، بأمانة وموضوعية، ويحذر أيضاً ما تنقله لنا عن أوضاع وملابسات المجتمع الروماني القديم^(١). ويمكن تحديد هذه المصادر كالتالي:

• كتاب الحوليات:

كان من الطبيعي أن ينهج المؤرخون الرومان الأوائل نهج الكهنة العظام، فيكتبون التاريخ في شكل حوليات^٢، وقد ظهرت حتى في الملاحم الرومانية الأولى مثل حوليات الشاعر إنيسوس، والحرب البونية للشاعر نافيوس، واستمرت هذه الطريقة كظاهرة ملحوظة في الكتابة التاريخية عند الرومان. وبينما ضاعت كل المؤلفات التاريخية التي كتبت قبل منتصف القرن الأول ما عدا بعض الشذرات، فإن معظم ما لدينا الآن من روايات تاريخية عن العصرين الملكي والجمهوري^(٣) مستمد أصلاً من كتاب الحوليات القدماء.

كان هؤلاء الكتاب هم الرواد الذين دونوا قصة التاريخ الروماني وحددوا إطارها المؤلف حتى قيام الحرب البونية الثانية (٢١٨-٢٠١ ق.م.) التي بدأ عندها تجميع المعلومات عن الحوادث المعاصرة. إذ نسجوا تاريخ روما الماضي من خيوط الأساطير، وسجلات الأسر النبيلة المشوبة بالزهو والتفاخر، وحوليات الكهنة العظام الرسمية والزائفة. وكانت هذه المادة تحتوي على نواة من الواقع التاريخي، وكثير من

(١) محمود إبراهيم السعدني: حضارة الرومان، ص ٣١-٣٢.

(٢) الحوليات العظمى "Annale Maximi" وهي سجلات كهنوتية بأيام الأعياد الدينية، وأهم الأحداث التي جرت في كل عام، وهي التي تذكر تأسيس مدينة روما في ١٧ نيسان ٧٥٣ ق.م.

كما جاء عند الخطيب شيشرون. Oratore II, 12,52.

(٣) مثال ذلك روايات ليفيوس وديونيسيوس الهالكرناسي، وبلوتارخوس وإيانوس وكاسيوس ديون وفاليريوس ماكسيموس.

الزخرف، والخيال، ذلك أن كتاب الحوليات القدامى لم يتورعوا عن اختلاق الحوادث لسد النقص في معلوماتهم. وقد درجوا على بضعة أمور، منها أنهم كانوا يردون مختلف الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل الوقائع العسكرية الحديثة والمعاصرة، إلى فترات سابقة؛ ولما كان جميع كتاب الحوليات حتى منتصف القرن الأول ينتمون إلى طبقة مجلس الشيوخ، وهي الطبقة الحاكمة في العصر الجمهوري، صبغوا التاريخ الروماني صبغة تفوق والآراء الاجتماعية والسياسية السائدة بين طبقتهم؛ كما حاولوا إبراز موارد بلادهم وقوتها لكي يسوغوا في نظر الدوائر اليونانية ذات النفوذ، الوسائل التي اتبعتها روما في معالجة المشاكل الدولية، ومن أشهر مؤرخي الحوليات **بكتور**، و**كاتو**، و**همينا**، و**انتياس وماكر**^(١).

• مؤرخو التاريخ الروماني (المؤرخون القدامى):

ومن أشهرهم على الإطلاق **بوليبوس** الذي دوّن تاريخاً يتألف من أربعين كتاباً. وكان هدف هذا الكاتب اليوناني الذي عاش فترة رجولته في روما وعاصر أخطر أحداث تطور تاريخها، هو كتابة تاريخ روما في الفترة الواقعة بين ٢٢٠ - وعام ١٦٨ ق.م، أي من حروب الرومان مع هانيبال "Hannibal" أعظم قادة قرطاجة حتى معركة بدنا "Pydna" التي أصبحت على أثرها روما سيدة العالم القديم كله. وقد جاء في الفترة ما بين منتصف القرن الثاني ومنتهل القرن الأول كتاب لم يلتزموا طريقة الحوليات في تدوين التاريخ. وفي مقدمة هؤلاء **أسيلليو** الذي كان يشغل منصب تربيون عسكري في الجيش الروماني أثناء حصار نومانتييا بإسبانيا عام ١٣٣/١٣٤ ق.م. وقد كتب تاريخ عصره باللاتينية لا في شكل حوليات جامدة، بل

(١) عبد اللطيف: مصادر التاريخ الروماني ، ص ٧-٩.

في شكل تاريخ تحليلي منظم استخلص فيه النتائج من المسببات، ولعله تأثر في ذلك بالمؤرخ اليوناني بوليبيوس. ويتناول تاريخه أهم أحداث الفترة ما بين تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م، ومصرع ليفيوس دروسوس في سنة ٩١ ق.م. ويُعدّ المؤرخ أنتيباتر، أول من أفرد (بعد عام ١٢١ ق.م) للحرب البونية بحثاً طويلاً مطولاً يقع في سبعة كتب، وكان ذلك حدثاً هاماً ظفر ببناء شيشرون وغيره من كبار الكتاب على الرغم مما يشوب بحثه من اهتمام زائد بالناحية اللغوية والبلاغية والخطابية. إضافة إلى المؤرخ سيسنا، الذي شغل منصب البريتور في عام ٧٩ ق.م، ودافع عن فريس حاكم صقلية المرتشي في عام ٧٠ ق.م. وقد كتب تاريخاً يقع في ١٢ كتاباً استعرض فيه نشأة روما بإيجاز، ثم تناول الحرب الإيطالية والصراع بين سللا وماريوس (٩٠-٨٢ ق.م). ويعد تاريخه أوثق مصدر عن عصر سللا واستكمالاً لتاريخ أسيلليو. إلا أن تاريخه يصطبغ بصبغة أدبية واضحة كما أن الحوادث لا ترد فيه حسب ترتيبها الزمني.

وإلى جانب المؤلفات التاريخية بالمعنى الصحيح للكلمة ظهر عدد قليل من التراجم الذاتية والمذكرات السياسية. فقد كتب سكاوروس قنصل عام ١١٥ ق.م ترجمة ذاتية في ثلاثة كتب لتسويغ سياسته. كذلك فعل روتيليوس روفوس، تلميذ الفيلسوف الرواقي بنايتيوس، وقنصل عام ١٠٥ ق.م الذي رافق سيكفولا، الفقيه الكبير، كنائب له عندما عين الأخير حاكماً على ولاية آسيا في عام ٩٤/٩٣ ق.م، ثم أنابه عنه أثناء غيابه حين لفق له خصومه، مهمة الابتزاز من رعايا الولاية وحكم عليه بالنفي عام ٩٢ ق.م. فقد كتب في المنفى الذي اختاره، وهو ولاية آسيا نفسها، ترجمة ذاتية في خمسة كتب باللغة اللاتينية، فضلاً عن كتاب تاريخ باليونانية. وكتب لوتاتيوس كاتولوس مذكرات عن قنصليته، وهو الذي اشترك مع ماريوس في سحق قبائل الكيمبري في عام ١٠١ ق.م.

على أن أهم المذكرات من هذا النوع، هي مذكرات سُلا نفسه (١٣٨-٧٨ ق.م) الذي مات وهو يدون الكتاب الثاني والعشرين منها، وإن وكان البعض يرون فيها ترجمة ذاتية.

وبالإجمال، لم تحرز الكتابة التاريخية إلا تقدماً ضئيلاً حتى العصر الذهبي للأدب اللاتيني، عصر شيشرون وقيصر (القرن الأول قبل الميلاد). وذلك بسبب التزييف والتحريف وتشويه الحقائق والنعرات الوطنية والتعصب الطبقي أو الحزبي. وكان المثقفون من الرومان في ذلك العصر يدركون ما تحتويه الحوليات عن تاريخ روما الغابر من زيف، بحيث لا يمكن الوثوق بها كما يلمسون ما فيها من قصور في المنهج والأسلوب^(١).

(١) عبد اللطيف: مصادر التاريخ الروماني ، ص ٩-١٠.

ثانياً- مقومات الحضارة الرومانية (الإطار الطبيعي والبشري):

لابد أن تركز كل حضارة على مقومات ودعامات أساسية، من أجل أن تفرض نفسها على مجريات الأمور وتبسط سلطتها على الأمم المجاورة، وينجح أهلها في إقامة إمبراطورية لهم خارج حدودها الجغرافية عبر البحار. وإنه لمن البديهي أن تكون الحضارة الرومان مقومات أو دعامات أساسية، كانت السر وراء التفوق الحضاري، في فترة من الزمن الغابر، أطلق عليها المؤرخون اسم التاريخ الروماني أو بالأحرى تاريخ الرومان^(١) أو تاريخ روما القديمة. كما أنه، من الطبيعي، أيضاً أن يكون الإنسان والمكان هما العنصران الرئيسيان الفاعلان في تكوين التاريخ الروماني القديم على شاكلة معينة.

I- جغرافية إيطاليا القديمة:

لم ينحصر التاريخ الروماني في القديم بالكيان الجغرافي لشبه الجزيرة الإيطالية. وإنما تعداه إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، حتى غدا بحيرة رومانية. ويمكن القول إن الحضارة المتوسطية هي حضارة رومانية في أواخر الألف الأول قبل الميلاد، كما امتدت لتشمل ما وراء المتوسط وهي الحضارة اليونانية. فقد كانت شبه جزيرة إيطاليا هي الإطار الجغرافي لانطلاقة الحضارة الرومانية، وخاصة مدينة روما دون باقي المدن الإيطالية، وهذا يرجع إلى أن مواطني روما استطاعوا أن يجعلوا من مدينتهم الصغيرة

^(١) تمت ترجمة "Historia Romana" إلى اللغة العربية بصفة المضاف إليه أي : تاريخ الرومان كما لو كانت "Historia Romanonum" بدلاً من الترجمة الحرفية: "التاريخ الروماني، وذلك حتى لا يخلط البعض من القراء العاديين بين الرومانيين الحاليين، أهل دولة رومانيا وبين الرومان القدماء، أصحاب التاريخ المعروف لدراسي التاريخ القديم. انظر : محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، حاشية ص ٣٥.

دولة كبيرة ذات قوة عظمى، بسطت سيطرتها على كل أراضي إيطاليا تدريجياً، تحت زعامتها، بينما لم تنجح أي من المدن اليونانية، أثينا أو إسبرطة، أو طيبة في لعب الدور الذي لعبته روما.

١. الموقع والحدود:

تمتد شبه جزيرة إيطاليا في عرض البحر المتوسط. فتقسمه مع جزيرة صقلية إلى حوضين: شرقي وغربي. كما تتوسط سواحل أوروبا على المتوسط. يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ١١٥٠ كم، ولا يتجاوز أقصى عرض لها الـ ٥٨٠ كم في سهل البو "Poe"، في حين يتضاءل عرضها ليصل إلى ١٥٠ كم في الجنوب. يحيط بشبه الجزيرة الإيطالية من الشمال الشرقي جمهورية كرواتيا-يوغسلافية، ومن الشمال النمسا وسويسرا، ومن الشمال الغربي فرنسا، وغرباً البحر التيراني، وجنوباً البحر الأيوني، وشرقاً البحر الأدرياتيكي. ويتبع لها عدد من الجزر الصغيرة والكبيرة أهمها: جزيرة صقلية التي يفصلها عن شبه جزيرة إيطاليا مضيق مسينا، وجزيرة سردينيا الفاصل بينها وبين إيطاليا البحر التيراني، وجزيرة ألبا الواقعة بين جزيرة كورسيكا الفرنسية وبين ساحل إيطاليا الغربي.

٢. السطح:

ينقسم سطح إيطاليا إلى قسمين هما:

• السهل الكبير الشمالي أو وادي البو:

يحيط بهذا السهل بلاد الألب الجبلية من الشمال والغرب، فتطوقه سلسلة جبال الألب على هيئة هلال غير منتظم ممتد من البحر الأدرياتيكي قرب تريستا حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط قرب نيس على الريفيرا الفرنسية. وأرض السهل الكبير

الشمالي منخفضة ومستوية، إلا أنها تنحسر تدريجياً من الغرب إلى الشرق، ولا يزيد ارتفاعه على ١٠٠ متر بجوار جبال الألب في الشمال، أو جبال الأبنين في الجنوب الغربي.

وعلى العموم: فإن أرض هذا السهل رسوبية لحقية، ترتفع طبقاتها الترايية بسماكة ٢٠٠ متر، لذلك فهي خصبة جداً. وينتهي السهل الكبير الشمالي-البو- في الشرق بساحل منخفض جداً تكثر فيه المستنقعات والغدران التي تترسب فيها الأتربة المحمولة مع مياه روافده الجبلية. لهذا السبب تتسع مساحة اليابسة على حساب البحر. مرور الزمن. وأحياناً تترك الحواجز الترايية خلفها مستنقعات كبيرة كتلك المستنقعات التي بنيت عليها مدينة البندقية.

وتمتد السهول الضيقة في الشرق والغرب على السواحل عند منحدرات جبال الأبنين مثل سهول أتروريا واللاتيوم والقمبانيا المحيطة بمدينة نابولي وسهل أبوليا في الشرق. لهذا أتقن الإيطاليون القدماء الزراعة وتربية الماشية قبل أن يتقنوا التجارة.

• القسم الجنوبي أو جبال الأبنين:

يمتد القسم الجنوبي لشبه الجزيرة الإيطالية من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي لمسافة ألف كيلومتر. بينما لا يزيد عرضه في أي مكان على ٢٠٠ كم، تخترقه سلسلة جبال الأبنين من الشمال إلى الجنوب مروراً بجزيرة صقلية، وهي كالعمود الفقري لشبه الجزيرة الإيطالية ذات الحجارة الكلسية والغضارية المتلوية والمتهدمة. تنحدر هذه الجبال تدريجياً نحو الأدرياتيك القليل العمق، تاركةً شريطاً ضيقاً تقطعه عدة مجارٍ مائية قصيرة، باستثناء سهل أبوليا في أقصى الجنوب، الذي يشكل مراعي ممتازة للماشية. بينما تنحدر هذه الجبال بسرعة، نحو الحفر الانهدامية الكبرى التي تحيط بالبحر التيراني، والتي ظهرت فيها البراكين والينابيع المعدنية الكثيرة، بعض

هذه البراكين خامدة في أتوريا ولاتيوم وقمبانيا، وبعضها الآخر مازالت تقذف حممها حتى الآن، مثل بركان فيزوف قرب مدينة نابولي، وبركان أسترنبولي في إحدى جزر ليباري، وبركان أتنا على ارتفاع ٣٢٧٤ متراً في شرقي جزيرة صقلية. وعلى أن جبال الألبين ترتفع إلى ٢٩١٤ متراً في قمة غران ساسو من جبال أبروز يتخللها كثير من الأودية الخصبة والفسيحة، وتغطيها الغابات الكثيفة، وتكثر عند سفوحها أو منحدراتها المراعي الواسعة. وتؤلف جبال الألب الإيطالية في الشمال قوساً من الجبال التي تنحدر بسرعة نحو سهل البو. وهي قليلة العرض، يتخللها عدة ممرات - أودية - مثل: ممر التيرول في الأديج. وفي هذه الجبال توجد أعلى القمم الإيطالية مثل قمة مونت روزا ٤٦٣٥ متراً القرية من بحيرة ماجيور عند الحدود السويسرية .

٣. الأنهار:

تغذي الثلوج التي تكسو جبال الألب الإيطالية العالية، والعيون المتفجرة في التلال المحيطة بالسهل الكبير الشمالي، الأنهار والروافد الإيطالية بالمياه، ومع هذا تندر الأنهار الصالحة للملاحة بسبب قصر مجراها وشدة انحدارها، وأهمها: نهر البو "Poe": ينبع هذا النهر من المنحدرات الألبية الغربية على ارتفاع ٢٠٤٢ متراً، وترفده عدة روافد آتية من جبال الألب، تغزر مياهه في الربيع بسبب ذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال المتوسطة الارتفاع، كما تغزر صيفاً بسبب ذوبان الثلوج الألبية. وتغذي نهر البو روافد قليلة أخرى آتية من جبال الألبين، تغزر مياهها في فصلي الربيع والخريف. لهذا تكون مياه نهر البو ذات غزارة شبه دائمة، وهو من أعظم أنهار إيطاليا. ويصب بالبحر الأدرياتيكي بعد أن يغني السهل الكبير الشمالي بالرواسب المخصبة من الطمي والمياه الغزيرة.

وهناك عدة أنهار أخرى أهمها: الأرنوس والتير وليريس وفولترنيوس، إلا أن هذه الأنهار النابعة من سلسلة جبال الأبنين، سريعة الانحدار، شديدة التدفق، قصيرة المجرى، تصب في البحر بما تحمله مياهها من أتربة، وصخور رملية، وجذوع وأغصان الأشجار التي تتراكم هذه عند المصببات، حيث تقلل من عمق مياه البحر، لتتسع مساحة اليابسة على حساب المياه تدريجياً. بمرور الزمن، ولاسيما عند مصب نهر التير والأرنوس.

٤. السواحل:

تتصف سواحل إيطاليا التي يزيد طولها على ٣٠٠٠ كم، بأنها قليلة التعرجات، فقيرة بالخلجان العميقة، والموانئ الطبيعية العميقة المياه والحماية من العواصف. فيكاد الساحل الشرقي يخلو إلا من ميناء صالح لرسو السفن هو برنديزيوم "Brundisium" في أقصى الجنوب، بينما الساحل الغربي ذو الكثافة السكانية المرتفعة قياساً بالشرقي، والغني بالأرض الواسعة. فقد كان يفتقر إلى الموانئ الجيدة إلا في خليج نابولي، وهما ميناء جنوى ولوبي بورتوس في خليج جنوى وفي أقصى الشمال، فضلاً عن ميناء تارنتوم وهي من أكبر المدن اليونانية في أقصى الجنوب الإيطالي^(١).

٥. المناخ:

يختلف المناخ في إيطاليا باختلاف مناطقها. فمناخ الشمال قاري تقريباً مع شتاء قارس، وصيف حارق. أما بقية المناطق والجزر كجزيرة صقلية وسردينيا وألبا فمناخها متوسطي مع اختلاف بين شمال جبال الأبنين وجنوب شبه الجزيرة في

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، الشركة العالمية للكتاب، طبعة أولى، لبنان ١٩٩٦، ص ١٣-

الحرارة. وهذا الاختلاف يرجع إلى الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة، والرياح العكسية، ورياح البورا التي تسيطر على بحر الأدرياتيك، ورياح السيروكو القادمة من الصحراء الإفريقية.

ومناخ منطقة جبال الألب الإيطالية معتدلٌ غاية الاعتدال فوق مرتفعاتها المتوسطة، وخصوصاً قرب البحيرات، لأن رياح الشمال القاسية لا تصل إليها بسبب الحواجز الجبلية العالية. كما أن تأثير الرياح الرطبة الآتية من البحر الأبيض المتوسط التي تمر فوق جبال الأبنين تؤثر في منطقة البحيرات. بينما لا تؤثر أبداً على سهل المبارديا بسبب كثرة المستنقعات في السهول الجنوبية، وزيادة الرطوبة الجوية وتراكم الرواسب عند مصبات الأنهر^(١). وعموماً فإن مناخ شمال إيطاليا يشبه إلى حد كبير مناخ أوروبا الوسطى، بحارته الشديدة وأمطاره الغزيرة.

٦. جزيرتا صقلية وسردينيا:

تعدّ جزيرة صقلية أكبر الجزر التابعة لإيطاليا، وتقع إلى الغرب منها. ولا يفصلها عنها إلا مضيق مسّينا "Massina". كما أن هذه الجزيرة لا تبعد عن الشواطئ الأفريقية أكثر من ١٢٨ كم، لذلك كانت محط أنظار قرطاجة التي كان لها مستعمرات فيها، كما أن لروما مطامع في السيطرة عليها في بداية الحرب البونية الأولى، وتعتبر جبالها العالية التي يبلغ ارتفاعها ٣٢٧٤ متراً امتداداً لجبال الابنين الإيطالية، حيث بركان أتنا لايزال مشتعلًا.

أما جزيرة سردينيا فتغطي أرضها الحجارة القديمة، والألواح الحجرية التي ترتفع بعضها فوق بعض، فتشبه في تركيبها وحياتها النباتية أراضي شمال أفريقيا.

(١) حسين الشيخ: الرومان، دار المعرفة الإسكندرية ١٩٨٩، ص ٣٦.

II - سكان إيطاليا القدماء:

لم تكن شبه الجزيرة الإيطالية تسمى بهذا الاسم في الماضي البعيد، وأول من استخدم هذا الاسم هو هيرودوت، عندما أطلقه على مقاطعة كالابريا، وفي نحو القرن الأول ق.م. تم تعميم هذا الاسم على كامل شبه القارة^(١).

كانت إيطاليا في فجر تاريخها موطناً لشعوب مختلفة اللغات واللهجات، إذ أنشأت فيها مؤسسات حضارية مختلفة، وستعرف فيما يأتي بشكل موجز هذه الشعوب والحضارات التي أنتجتها إذ إنها تشكل الأرضية التي قامت عليها روما فيما بعد.

عاش سكان إيطاليا القدماء نفس العصور التاريخية المختلفة التي مر بها الإنسان القديم في كل مكان منذ العصور الحجرية، حتى العصور المعدنية فاستخدموا النحاس أولاً، إذ عرفوا منذ الألف الثاني ق.م. الفؤوس والمناجل، والسيوف وغيرها من الأدوات المعدنية التي وجدت بقاياها في سهول لمبارديا، وفي الألف الأول ق.م. دخلت عصر الحديد كما يظهر من الآثار المكتشفة بالقرب من مدينة بولونيا، التي تعود إلى القرن التاسع ق.م. والتي يعتقد أنها تطورت وانتشرت في شمال إيطاليا في حدود القرن السادس ق.م.

إن معرفتنا بالحضارات الإيطالية القديمة غامضة إلى حد كبير، ولكن على أية حال يمكن تأكيد سلوكين مارسهما السكان:

الأول: انتشار عادة تقديم الأضاحي والقرايين في الربيع المقدس التي تلي أيام الضيق والشدة الكائنة في فصل الشتاء، وقد اختلفت نوعية هذه القرايين فقد تكون بشرية من مواليد المواسم وقد يستعاض عنها بطرد الجليل المولود في أثناء الربيع المقدس

^(١) محمد حرب فرزات: موجز تاريخ روما في العصر الجمهوري، محاضرات ألقيت على طلاب قسم التاريخ جامعة دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٦٤، ص ١٥.

خارج الجماعة بعد أن يبلغ سن الرشد، وقد عمل بذلك السابينيون والسايون، وانتقل ذلك إلى الرومان والكلتيين في أوروبا الوسطى.

الثاني: أن سكان إيطاليا تأثروا باليونان كثيراً إذ تعلموا منهم الأبجدية، وأسلوب النحت^(١)، كما يظهر بصورة واضحة، تأثير الفينيقيين والقرطاجيين في سكان غربي إيطاليا وصقلية خاصة وبالتحديد على قبائل الأليم، وهم جماعة من سكان طروادة الذين غادروها بعد حرب طروادة المشهورة، واستقروا في غرب صقلية، وعرفوا باسم الليفورين. وينتمون إلى مجموعة الشعوب التي أطلق عليها اسم شعوب البحر الأبيض المتوسط، الذين استوطنوا الأجزاء الشمالية الغربية من شبه الجزيرة وأعطوها اسمهم، كما استوطنوا أيضاً جزر كورسيكا، وسردينيا، وغرب صقلية. ويعتقد البعض أنهم بسطوا نفوذهم على مجموع شبه الجزيرة الإيطالية، ثم تراجعوا عند مجيء شعوب الإيطاليك الهندو-أوروبية إلى المنطقة. ويضم هؤلاء الإيطاليون شعوباً كثيرة كالأومبرين والسيانيين واللاتين والسابينين، وقد دخلوا إلى شبه الجزيرة على دفعات وهجرات متتالية.

وفيما يلي عرض لأهم الشعوب التي سكنت واستوطنت في هذه البلاد:

أ- سكان إيطاليا حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد:

١- التيراماري Terramare:

إن كلمة "Terramare" تعني الشعوب المتصقة بالأرض. ويعود أصل هذا الشعب إلى شعوب البلدان الشمالية، ففي نحو السنة ٢٠٠٠ ق.م، انحدر سكان بحيرات سويسرا نحو الجنوب الدافئ، واستولوا على وادي البو. وعلى المنطقتين

^(١) المرجع نفسه: ص ١٦.

الوسطى والشرقية وذلك نحو عام ١٤٠٠ ق.م، وقد أقام هذا الشعب قراه فوق منطقة تكثر فيها المستنقعات عند حافة البحيرات، وبنى فيها منازل خشبية على عمد مغروزة في الماء والوحل عُرفت بما يسمى "مساكن الركائر"^(١). فقد اتخذت الأكواخ في البداية شكل الدائرة ثم ما لبثت أن أصبحت مستطيلة.

وكان الشعب التيراماري يعيش من زراعة الأرض ببعض أنواع الحبوب الغذائية وتربية الماشية واصطياد الحيوانات البرية. إضافة إلى أنهم قد أتقنوا الحياكة وصناعة الخزف واستعمال النحاس فضلاً عن الخشب والبرونز. حتى عُرف عصرهم بعصر البرونز.

٢- الفيلانوف^(٢) Villanova :

يعتقد أن هذا الشعب قد ظهر في بداية الألف الأول ق.م. وبالتحديد نحو ٨٠٠ ق.م. ولعلهم جاؤوا من منطقة الدانوب. وعاشوا في قرى ذات أكواخ مستديرة الشكل أيضاً، ولكنها أفضل من أكواخ الشعب التيراماري.

وتميز شعب الفيلانوف بأنهم، إضافة إلى تربية المواشي وزراعة الأرض وصيد الحيوانات، أتقنوا أيضاً صناعة بعض المنسوجات، والأدوات الفخارية، وقد استخدموا البرونز إلى جانب استعمالهم الحديد في أسلحتهم. فعرفت حضارتهم بحضارة عصر الحديد.

(١) أسد رستم: عصر أوغسطس قيصر وخلفائه، جزأين، المكتبة الشرقية، بيروت ١٩٥٣، ج ١، ص ١٥.

(٢) ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، الجزء الأول من المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، دار الجليل، بيروت ١٩٨٨، ج ٩، ص ١٠.

ب- سكان إيطاليا قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد:

كانت الجماعات السكانية التي تعيش في إيطاليا في القرن السادس قبل الميلاد تنقسم إلى قسمين: الجماعات الإيطالية، والجماعات غير الإيطالية.

١- الإيطاليون:

كان الإيطاليون موزعين كما يأتي:

- اللاتين: عاش اللاتين "Latin" على الضفة الجنوبية الشرقية من نهر التيبر، في منطقة سهلية بطول ٦٤ كم، وعرض ٤٨ كم، بين الشاطئ وجبال الأبنين. وهم الذين أطلقوا على هذه المنطقة اسم "لاتيوم" "Latium". وكان اللاتين كجيرانهم من القبائل الإيطالية، قبائل صغيرة متفرقة، يزرعون الحبوب ويرعون القطعان فوق الأنجاد والهضاب. وقد اتخذوا من بلدة أسموها البالونغا "Albalonga" أي الطويلة البيضاء مركزاً لهم ينضوون تحت لوائها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وكانوا يراقبون بعين الحذر نمو المدن الأتروسكية المزدهرة على الجانب الشمالي من نهر التيبر خوفاً من شرها.

أما بقية القبائل الإيطالية فهي:

- الكمبانيون "Companens" في الكمبانيا الرومانية.
- الأومبريون Ombriens والسابينيون Sabinuns في جبال الأبنين الوسطى.
- السامنيون Samnties والإيكويون Aequi واللوكانيون في جبال الأبروز. والغاليون Gaulois في أقصى الشمال^(١).

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٩-٢٠.

٢- غير الإيطاليين وهم:

- الليجوريون Ligures ، في المنطقة الشمالية الغربية أي المنطقة الواقعة ما بين جبال الألب من وادي سهل البو حتى نهر تقينيوس Ticinius شرقاً بما في ذلك المنطقة الساحلية حتى نهر الأرنوس جنوباً. بالإضافة إلى عدة قبائل أشهرها الأتروسكيون والإغريق

- الأتروسكيون^(١) Etrusci : هاجر الأتروسكيون من آسيا الصغرى، واستطاعوا بغارتهم البحرية صدّ قبائل إيطاليا ذات الأصول الهندو- أوروبية وأجبروها على التراجع إلى الوراء، واستولوا على ساحل إيطاليا الغربي من نابولي إلى جنوى شمالاً منذ بداية القرن الثامن قبل الميلاد، ثم أقاموا مدغم المحصنة وأعظمها فياي "Veii"، إضافة إلى تاركويني "Tarquinii" وفتولونيا "Vetulunia" وبروجيا "Perugia". وكانت المدن الأتروسكية تنشأ وفق تخطيط عام قوامه شارعان كبيران متقاطعان، ومرصوفان بالحجارة فضلاً عن إقامة مجارٍ لتصريف مياه الأمطار على الجانبين،

^(١) عادة ما نجدهم في مراجعنا العربية باسم الأتروريين، وهذا ما لا يتفق مع التسميات اللاتينية المختلفة لهم، فهم يطلقون عليهم اسم التوسكي "Tusci" أو "Tyrsenoi" كما سماهم اليونان القدماء ومازال الإقليم الذي يسكنونه يسمى اليوم توسكانيا. أصل الأتروسكيين مشكلة معقدة تثير الجدل بين المؤرخين الذين انقسموا شيعاً أمام احتمالات أصلهم الشرقي بين ليديا، بآسيا الصغرى، أو الأصل الإيطالي كما يقول البعض أو في الإقليم نفسه. وبين أنهم مزيج من عناصر حضارية إيطالية وعناصر أخرى غير إيطالية بدليل لغتهم التي وصفتها نقوش يصل عددها إلى عدة آلاف، بأنها لغة لم يتم فهمها بعد. للاطلاع على تاريخ الأتروسكيين ودورهم في بناء الحضارة الرومانية انظر:

Salvatore Settis, THE Land of the Etruscans, from Prehistory to the Middle Ages SCALA, Istituto Fotografico, 1985.

والملاحظ أن المنازل كانت تبنى من الطين والخشب، وهي ذات طابق واحد أو طابقين.

وأدى اتصال الأتروسكيين بالإغريق إلى تعلمهم كتابة اللغة الأتروسكية بحروف يونانية^(١)، كما أدى اختلاطهم بهم في الموانئ اليونانية إلى دخول الأواني الخزفية إلى بلادهم. وسرعان ما تعلم الأتروسكيون كيف يصنعون صوراً مزخرفة لتزيين جدران الضرائح الأتروسكية. وبرعوا في صناعة الأدوات البرونزية حتى تفوقوا على اليونانيين بدقة أشكلها الأمر الذي كان من نتائجه ازدهار التجارة الأتروسكية واستعمال العملة المسكوكة محلياً في بولونيا من الذهب ومن الفضة ومن النحاس، بدءاً من أوائل القرن الخامس قبل الميلاد.

بالإضافة إلى نجاح الأتروسكيين في الصناعة والتجارة، فقد استثمروا الأرض الزراعية أفضل استثمار، إذ زرعوها بمختلف أنواع الأشجار والخضراوات والحبوب، واعتنوا بمشروعات الري وتصريف المياه الزائدة وإقامة السدود وقنوات الري، واستصلاح الأراضي، والحفاظ عليها من التآكل، وقد أدى ذلك بالنتيجة إلى زيادة الإنتاج ومن ثمَّ الثروة في البلاد، ولم يقتصر استغلال الأتروسكيين على سطح الأرض فقط، بل تعداه إلى باطنها، باستغلال الثروات المعدنية المتوفرة في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم إلى أقصى حد ممكن. فساهم ذلك بازدهار صناعة المعادن، وبخاصة البرونزية منها.

على الرغم من أن الأتروسكيين استطاعوا بسط سيطرتهم على جزء كبير من إقليم لاتيوم من الشمال وعلى إقليم كمبانيا في الجنوب حيث اتخذوا مدينة كابوا "Capua" مركزاً رئيسياً لهم، وعلى الرغم من توافر الإمكانيات البشرية والمادية لهم كأقوى مجموعة سياسية في إيطاليا، عجزوا عن توحيد إيطاليا بكاملها في ظل نظام

(١) أسد رستم: مرجع سابق، ج ١، ص ١٩.

سياسي واحد، إذ سرعان ما انغمسوا في التناحر المستمر فيما بينهم. ولم يكد القرن السادس قبل الميلاد ينتهي حتى اضطروا نحو السنة ٥٠٠ ق.م. إلى الجلاء عن الأماكن التي احتلوها في اللاتيوم وكمانيا^(١).

-الإغريق: قدم اليونانيون إلى إيطاليا عن طريق البحر، في الفترة ما بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن السادس قبل الميلاد، واستقروا في مستعمرات عديدة، ونشروا معهم تقاليد الحضارة الهلنستية، وكانت أولى مستعمراتهم تسمى كوما على ساحل كامبانيا في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ثم أسسوا مجموعة من المستعمرات في الشواطئ الجنوبية من إيطاليا، وفي جزيرة صقلية، وكانت معظمها ذات طبيعة زراعية استقر فيها العديد من اليونانيين الذين لعبوا دوراً مهماً في نقل الحضارة اليونانية الهلنستية إلى المدن الإيطالية.

ويعود إليهم الفضل في انتشار زراعة أشجار الكرم والزيتون في إيطاليا، وصناعة الأواني الفخارية والبرونزية التي قلدهم فيها الإيطاليون^(٢).

-الفينيقيون: الذين جاؤوا من الشرق، واستطاعوا إقامة مستعمرات لهم في جنوب إيطاليا، وفي جزيرة صقلية وسردينيا وكورسيكا، ولكنهم لم يستمروا طويلاً بسبب ضعف المدن الفينيقية في الوطن الأم، وعجز مدينة صور عن الدفاع عن مستعمراتها، إضافة إلى الصراع الطويل مع الإغريق في صقلية وسردينيا، وكنتيحة للمواجهة العسكرية الحاسمة مع الرومان، والذين طردوا القرطاجيين من منطقة البحر المتوسط أخيراً.

(١) إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢١.

ثالثاً- الحضارات المؤثرة في التاريخ الروماني:

١- الحضارة الأتروسكية:

كتب تيتوس ليفوس يقول: "قبل ظهور القوة الرومانية كان الأتروسكيون قد تمكنوا من توسيع منطقة نفوذهم في البر والبحر حتى إن تسمية البحرين، البحر الأعلى والبحر الأسفل، اللذين يتاخمان إيطاليا ويحولانها إلى جزيرة تشهد على قوة هذا الشعب. فقد أطلقت شعوب إيطاليا على أحدهما اسم البحر الأتروسكي نسبة إلى الأمة الأتروسكية، وعلى الآخر اسم البحر الأدرياتيكي نسبة إلى أدريا وهو اسم مستعمرة أتروسكية".

يشهد هذا النص على مدى قوة الشعب الأتروسكي وإشعاع حضارته. ففي بداية القرن السابع قبل الميلاد تمكن الأتروسكيون عن طريق التوسع التدريجي من بسط سيطرتهم على أتورريا وقسم كبير من أمبريا، فوصلوا بدولتهم إلى حدودها الطبيعية في إيطاليا الوسطى، حيث أصبحت جبال الأبنين تحدها من الشمال والشرق والبحر التيريني من الغرب ونهر التبر من الجنوب، وسرعان ما تلا هذا التوسع حدوث اندماج بين الأتروسكيين والشعوب الواقعة تحت سيطرتهم بشكل جعلها تستفيد من التجربة الأتروسكية خاصة فيما يتعلق بالمؤسسات السياسية وبعض مظاهر الحياة المادية والروحية.

أ- حضارة مدن:

تتميز الحضارة الأتروسكية بكونها حضارة مدن قبل كل شيء، فقد اشتهر أصحابها ببراعتهم في تأسيس المدن التي شكلت الإطار الأساسي لتطوير ثقافتهم، وهم الذين لقنوا الرومان مبادئ تصميم المدن وبنائها. وإذا كان المؤرخون متفقين اليوم على القول بأن الأتروسكيين تأثروا بالإغريق في فن إنشاء المدن لاسيما فيما يتعلق بتبنيهم

للتصاميم الهندسية السائدة لديهم، فهم لا ينكرون حرصهم على تقنين وتنظيم عملية البناء وفق قوانين محددة. فالمدينة الأتروسكية هي قبل كل شيء منشأة دينية تحدد على بقعة أرضية ما كمرکز ديني وسياسي متميز عن البادية، وغالباً ما كانت أسوار المدينة تلعب دور الفاصل بين المجال الحضري والبدوي. أما من حيث الهندسة والتصميم الداخلي فهي تتميز بوجود شارعين رئيسيين يخرق أحدهما المدينة من الشمال إلى الجنوب ويدعى الكاردو "Cardo"، في حين يخرقها الثاني من الشرق إلى الغرب ويدعى الديكومانوس "Decumanus"، هما يشكلان المحورين الأساسيين للتصميم الحضري. وتمتلك المدينة عموماً ثلاثة أبواب يفتح أحدها على المقبرة، بينما كانت المدن الأتروسكية القديمة لا تحافظ دوماً على هذا التصميم المبدي، فإن المدن الحديثة ككابوا وسبين هي الأكثر تطابقاً معها^(١).

ب- الدولة والمجتمع:

لقد كانت المدن الأتروسكية مستقلة وتخضع لأنظمة ملكية. ورغم أننا لا نملك الوثائق اللازمة لإبراز معالم هذا النظام فإن تاريخ روما في نشأتها الأولى قد احتفظ لنا بذكریات نستشف من خلالها أهم ملامح النظام السياسي الذي عرفته المدن الأتروسكية. حيث كان الملك يتمتع بسلطة مطلقة. فهو صاحب الحل والعقد والقائد الأعلى للجيش ورئيس السلطة المدنية والقضائية، ومما كان يزيد في قوته هو أن سلطته منبثقة من طابع ديني لاعتقادهم أن الملك كان يملك أسرار الدين التي تمكنه من القيام بدور الوسيط بين الإنسان والآلهة. وهو بذلك يملك الحق في توريثها لمن يشاء. ويبدو أن أتورريا عرفت خلال القرن السادس قبل الميلاد تحولات أدت إلى تراجع الأنظمة الملكية لصالح الأرستقراطية وهو تطور لم يقتصر على المدن الأتروسكية

^(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٣٠-٣١.

فحسب بل عمّ جهات متعددة في شبه الجزيرة الإيطالية. برزت معالم هذا النظام الجديد في العديد من المدن الأتروسكية التي أصبحت تحتكر فيها السلطة السياسية عن طريق حكام "Zilath" ورثوا أو اقتسموا امتيازات الملكية البائدة.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد كانت المدن الأتروسكية ذات نظام أوليغارشي تتعارض فيه مصالح فئة قليلة من السادة مع جماهير العبيد التي تقوم بخدمتها. وهذا ينطبق أيضاً على البوادي التي يسود فيها نظام شبيه بالإقطاع. وتشهد على هذه البنية الاجتماعية جملة من الكتابات المنقوشة التي تعود إلى الفترة التوسكانية. ففي مختلف المناطق الأتروسكية ظهرت عائلات كبرى قليلة تحتكر الثروات والسلطات وتستغل باقي أفراد المجتمع لخدمتها إما بشكل مباشر عن طريق نظام العبودية وأما بأشكال ملطفة كنظام الزبونية أو التبعية.

ولقد كان العبيد يشكلون طبقة منسجمة وهامة في الشريحة الاجتماعية بالنظر لعدد أفرادها الذين ينتمون في غالبيتهم إلى الشعوب التي انخرمت أمام الأتروسكيين، والذين أسروا أثناء المعارك. وكانت توكل لهؤلاء العبيد كل أنواع الأشغال سواء كانت فلاحية أم عسكرية أم منزلية. وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وكنتيجة حتمية للتطور التجاري والصناعي، ظهرت في المدن الأتروسكية طبقة جديدة لعبت دوراً حاسماً في التطورات التي شهدتها هذه المدن خصوصاً على المستوى السياسي قد أدت إلى انهيار الملكية فيما بعد.

أما بالنسبة للمرأة فقد احتلت موقعاً هاماً في النظام الاجتماعي حتى إنّ الأتروسكيين كانوا يعترفون لها بحقوق مماثلة تقريباً لحقوق الرجل فيما يتعلق بشجرة النسب وتنظيم حياة الأسرة. وإذا كنا نمتلك أية مصادر أدبية لمعرفة وضعية المرأة في الوسط الأتروسكي لكن الكتابات المنقوشة تحمل جملة من المعلومات التي تؤكد أنّها كانت تتمتع ببعض الامتيازات عكس نظيراتها في شبه جزيرة إيطاليا بل في غيرها من

مناطق البحر الأبيض المتوسط. ولعل أكبر شاهد على ذلك كونها تمتعت بحق حمل اسم شخصي إضافة إلى كون العديد من الرجال كانوا ينسبون إلى أمهاتهم خصوصاً في الفترة المتأخرة. ولعل هذه المكانة المتميزة للمرأة هي التي دفعت ببعض علماء الأنثروبولوجيا إلى الاعتقاد بأن المجتمع الأتروسكي كان مجتمعاً أمومياً وهو اعتقاد خاطئ من وجهة النظر التاريخية^(١).

ج- النظام الفيدرالي:

لقد لمّح العديد من الكتاب القدامى إلى وجود عصبة أتروسكية مكونة من اثني عشرة (أو خمس عشرة) مدينة دون مزيد من التوضيح، وتكونت هذه العصبة التي كانت تجمع شعوب أتوروريا خلال القرن السابع قبل الميلاد حول مركز ديني هو معبد الإله فولتومنا "Fanum Voltumae" قرب مدينة فولزني. ولاشك أن هذا المعبد الذي كان يجتمع فيه مندوبو المدن الأتروسكية مرة في السنة وقيمون احتفالات دينية تحت إشراف حاكم منتخب يمثل الشكل الوحيد الذي تتجلى فيه الوحدة الأتروسكية، ويعتقد بعض المؤرخين أن نشأة هذا النظام الفيدرالي كان سببه تأثر الأتروسكيين بالإغريق السابقين إلى إرساء قواعد الكونفيدرالية الأيونية.

وعلى أي حال فإن هذا التضامن الأتروسكي كان شكلياً باعتبار أن هذا النوع من المؤسسات لم يدفع شعوب أتوروريا إلى اتحاد سياسي وعسكري دائم وفعال، وذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى تفكك الإمبراطورية الأتروسكية وسقوطها في نهاية المطاف.

^(١) المرجع نفسه: ص ٣٧-٣٨.

د- الديانة:

لعل أهم عنصر يشهد على أصالة الحضارة الأتروسكية هو الديانة التي أذهلت شعوب العالم القديم، فقد اشتهر الرجل الأتروسكي بتدينه الشديد الذي وصل به إلى عدم التفريق بين الأنشطة الدينية والدنيوية حتى إن طبعه الديني أثار اهتمام القدامى والمحدثين على السواء. ومن أهم ما ميز هذه الديانة عن غيرها من الديانات المتوسطة القديمة كونها كانت تعتبر في نظر الأتروسكي ديانة منزلة، وقد احتفظ لنا قيصر بنص الرواية الأتروسكية التي تحكي الطريقة التي لقنت بها شخصيات أسطورية تعاليم هذا الدين لسكان مدينة تاركنيا. في حين ينسب مؤرخون قدامى آخرون لحورية فيكوياس أو لأنبياء "Cacus Tages" اختراع هذه الديانة التي كانت تشبه في تركيبها شعوب أتروريا. على أي حال فكل المبادئ الدينية التي تم تدوينها في مجموعة الكتب المقدسة "Disiplina etrusca" كانت تحافظ عليها الفئات الأرستقراطية وتتوارثها سرّاً دون غيرها، وتعلمها لأبنائها طوال سنوات عديدة. ونمّيز في هذه الكتب ثلاث سلاسل تشمل كلها العقائد والعبادات والمعاملات. فمنها **كتب الطقوس** "libri rituales" التي تتعلق بالمبادئ والقوانين الخاصة بإنشاء المدن والمعابد، واحترام حرمة الأسوار وكل ما يتعلق بأمور الحرب والسلم، ومنها **كتب الصواعق** "libri fulgurales" والتي يعتمد عليها في تأويل إرادة الآلهة عن طريق ملاحظة البرق والرعد. ومنها **كتب فن فحص الكبد** "libri haruspicales" التي تلقن طرق الكشف عن الغيب من خلال فحص كبد الضحايا الذين قدموا كقرابين للآلهة. وأغلب هذه الطقوس كانت سائدة لدى بعض الشعوب الشرقية لاسيما الكلدانيين والبابليين وهي نفسها التي حافظ عليها الرومان فيما بعد. كل تلك الطقوس كانت ضرورية للحياة السياسية والحياة اليومية لدى الأتروسكيين. فلقد كان الاعتقاد سائداً لديهم بأن الآلهة تتدخل في كل وقت وحين في أمور حياة الأفراد والجماعة وهو الشيء الذي يفسر حرص الأتروسكي

واهتمامه بترجمة الرموز التي ترسلها الآلهة عبر أشكال ووسائل مختلفة. ولذلك كان وجود خبراء في تأويل الإرادة الإلهية ضرورياً.

أما عن الآلهة الأتروسكية فرغم أن أسماء العديد منها معروفة، فإننا نجهل خصوصيتها ووظائفها والروابط التي تجمع بينها ولاسيما وأنها اختلطت بآلهة الشعوب الإيطالية الأخرى وتأثرت بآلهة الإغريق بشكل جعلها تفقد طابعها الأتروسكي الأصيل، لكن أهم ما يميز الأتروسكي هو العناية الفائقة التي أولاهها للعالم الأخروي، وتشهد بذلك المقابر التي تم اكتشافها في العديد من المواقع الأتروسكية التي تتعاقب فيها الأضرحة التي يدفن بها الموتى وبجانبهم العديد من الأواني الثمينة، ويعد اهتمامهم ببناء القبور واختيار الأمتعة التي ترافق الميت دليلاً واضحاً على إيمانهم بوجود حياة أخروية، وهو اعتقاد سائد لدى العديد من شعوب الشرق القديم. وقد خلف الأتروسكيون مجموعة من الرسوم الجدارية التي تصف رحلة الميت في العالم الأخروي وتصور الحياة الرغيدة التي يعيشها والمخاطر التي تسببها له الشياطين. ومن أسرار الديانة الأتروسكية أن بإمكان الإنسان أن يضمن لنفسه حياة أطول تمكنه من الاستعداد للعالم الأخروي. وذلك بأن يسعى لشراء روحه عن طريق تقديم القرابين التي قد تكون بشرية في بعض الأحيان. كما أنهم يعتقدون أن الإنسان مراقب من طرف ملائكة أو شياطين طوال حياته الدنيوية وهو اعتقاد سنجد في بعض الديانات السماوية.

ويبدو أنه كان للأتروسكيين نظرية في خلق الكون تنسب للخالق قيامه بتحديد عمر الكون في اثني عشر ألف سنة. إذ قام بخلق السماء والأرض خلال الألف سنة الأولى، ثم خلق الفضاء خلال الألف الثانية، والماء والتراب خلال الألف الثالثة... ثم خلق الإنسان في الألف السادسة. أما الستة آلاف سنة الباقية فهي المدة التي حددها لحياة الجنس البشري. وقد رأى بعض العلماء أن هذه المعتقدات متأثرة باليهودية وأن

النص الذي نقلها إنما هو نص غير سليم من الناحية الكرونولوجية. وعلى كل حال فإن ثمة اعتقادات مشابهة توجد لدى الشعوب الكلدانية في الشرق^(١).

هـ- الكتابة واللغة الأتروسكية:

يسود الاعتقاد لدى المؤرخين بأن الكتابة الأتروسكية تنحدر من الكتابة الإغريقية. ومن خلال الكتابات المنقوشة التي عثر عليها يمكن التمييز بين كتابتين مختلفتين أقدمهما هي التي عثر عليها في أحد قبور مرسيليانا دالبغنا " Marsiliana d'Albegna " منقوشة على لوحة عاجية يعود تاريخها إلى ٧٠٠ ق.م. وهي مكونة من ٢٦ حرفاً فينيقياً إضافة إلى الحروف الأربعة التي أضافها الإغريق، وقد استنتج من ذلك أن الأتروسكيين استعاروا هذه الكتابة من الإغريق، ولاسيما وأنها تطابق إلى حد كبير الكتابات الإغريقية القديمة المنتشرة في الغرب. لكن كيف وصلت هذه الكتابة إلى توسكانا؟ هناك نظريتان مختلفتان حاولت كل منهما تفسير ذلك: إذ يعتبر بعض المؤرخين أصحاب (نظرية A. Minto) أن الأتروسكيين أخذوا هذه الحروف عن مستعمرة كوماي الإغريقية الواقعة على الساحل التيريني القريب من منطقة التأثير الأتروسكي، والتي كانت تربطها علاقات تجارية ببعض المدن الأتروسكية. ومما يساند هذه النظرية كون الكتابتين الأتروسكية وكتاب كوماي متشابهتين. وبالنسبة لأصحاب (نظرية A. Grenier) فإن الكتابة الأتروسكية أقدم من الكتابات الإغريقية الغربية لأنها تحتفظ بالحروف الفينيقية الثلاثة: السين والشين والصاد على عكس من هذه الأخيرة. وإذا علمنا أن الكتابات الإغريقية لم تحتفظ بهذه الحروف كلها فذلك يدل على أن الأتروسكيين قد أخذوا هذه الكتابة في وقت سابق للمد الاستعماري

(١) المرجع نفسه: ص ٣٩-٤٠.

الإغريقي في الجنوب الإيطالي. أي إنَّهم بصيغة أخرى، قد أخذوها مباشرة عن الفينيقيين الذين كانت تربطهم علاقات تجارية بآثروريا.

ورغم أن الكتابات المنقوشة المكتشفة في مواقع أثروسكية تزيد على العشرة آلاف، إنَّ فهم مضامينها يستعصي على العلماء حتى الآن لكون اللغة الأثروسكية ما زالت تشكل لغزاً لم تُحلّ رموزه كلها بعد. إلا أن بعض العلماء استطاعوا أن يدركوا معاني بعض الكلمات التي يتواتر ذكرها في النقوش.

تلك إذن هي الحضارة، التي لعبت دوراً فعالاً في نشوء روما والتي بقيت بعض مظاهرها سائدة لدى الرومان على مدى فترات طويلة من تاريخهم، واستطاعت أن تزدهر وتنضج في إيطاليا، وأن يصل إشعاعها إلى بعض مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق المبادلات التجارية، إلا أنها ليست الحضارة الوحيدة فقد كانت السواحل الإيطالية تتعرض في الوقت نفسه لتأثيرات حضارية أخرى قادمة من الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر وتفاعلت جميعها على الأرض الإيطالية^(١).

٢- التأثيرات الشرقية:

لقد شهدت بداية الألف الأولى قبل الميلاد حدثين هامين كان لهما أكبر الأثر على التطور الذي عرفته البلدان المطلة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. الأمر الأول يتعلق بالتوسع الفينيقي في المناطق الغربية بدافع البحث عن الثروات الاقتصادية من جهة، والثاني يخص حركة الاستيطان الإغريقي الذي عمَّ جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وجزيرة صقلية، بالإضافة إلى سواحل بلاد الغال وشبه جزيرة أيبيريا،

^(١) المرجع نفسه: ص ٤٠-٤١.

وذلك تحت تأثير الأزمة الاجتماعية التي عصفت بدويلات المدن اليونانية انطلاقاً من القرن الثامن قبل الميلاد.

أ- التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط:

تتفق الروايات التي تتناول موضوع أصل الفينيقيين على القول: إن هؤلاء الأقوام ليسوا من جنس السكان المحليين، بل ظهرُوا في شمال منطقة الهلال الخصيب منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، ثم نزحُوا بعد ذلك إلى السواحل السورية اللبنانية واختلطُوا بسكانها الذين ينتمون إلى السلالة المتوسطية، وتؤكد كل الكتابات التي بحثت في تاريخ هذا الشعب أنهم جزء من الكنعانيين، رغم أن تحديد موطنهم الأصلي وأسباب هجرتهم لا تزال موضوع خلاف بين المؤرخين. وقد كوّن الفينيقيون مجموعة دويلات تضم المدن البحرية المستقلة (صيدا، صور، طرابلس) التي كانت تفتقر إلى الوحدة السياسية، كما أنهم استطاعوا أن يقطعوا شوطاً كبيراً في مجال الصناعات المعدنية وصناعة السفن التي وجدت مادتها الأولية في الغابات المتوفرة في جبال لبنان. وكان انطلاق الفينيقيين نحو البحار نتيجة حتمية لنشاطهم الاقتصادي القائم على صناعة الصباغ الأرجواني، وأيضاً نتيجة لضيق مجالهم الجغرافي المنحصر بين البحر وجبال لبنان. إلا أنهم في بداية الأمر اقتصرُوا على الملاحة القريبة من سواحلهم بسبب عدم تطور بحريتهم بشكل يمكنهم من المغامرة بعيداً في البحار من جهة، ووجود القوة الميسينية في اليونان وجزيرة كريت التي كانت تحتكر طرق التجارة البحرية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه من جهة أخرى.

لكن سقوط الحضارة الميسينية على يد المهاجمين الدورين في ١٤٠٠ ق.م فتح المجال للنشاط البحري الفينيقي الذي كان قد حقق تقدماً هائلاً في تطوير صناعة السفن بحيث أصبحت قادرة على الإبحار لمسافات طويلة، وهو ما كان يتوق إليه

الفينيقيون رغبة منهم في البحث عن مصادر جديدة لصناعة أثوابهم الأرجوانية، وأيضاً للخروج من مجاهلهم الذي كان يزداد ضيقاً نتيجة النمو السكاني. وتؤكد الروايات أن دور الفينيقيين التجاري، أخذ يتزايد منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد وخصوصاً سكان مدينة صور، بشكل أصبحوا معه أهم موزع تجاري في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد سهل لهم ذلك الدور قيامهم بتأسيس العديد من الوكالات التجارية على السواحل المتوسطية، ولم يأت القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى استطاعوا اختراق مضيق جبل طارق وتأسيس أولى مراكزهم على السواحل المتوسطية: قادس في إسبانيا، وليكسوس في المغرب، وتلا ذلك تأسيس عدة مستوطنات على سواحل الشمال الإفريقي أهمها أوتيكا بتونس وهييو (عنابة بالجزائر أو بترت بتونس) وحضرموت (سوسة) بتونس وليبتس ماغنا (لبدة) بليبيا. وفي صقلية، وبجزيرة توسيديد أن استقرار الفينيقيين على سواحل هذه الجزيرة والجزر الأخرى القريبة منها قد سبق وصول المهاجرين الإغريق (أي قبل منتصف القرن الثامن قبل الميلاد). وقد تركز الفينيقيون في غرب وشمال الجزيرة خصوصاً في موتي وحمير، أما سردينيا فقد استوطنها الفينيقيون على ما يبدو في القرن الثامن قبل الميلاد أيضاً. ويؤكد علماء الآثار على فترة فينيقية تميزت باختلاط التجار والمهاجرين الشرقيين بالأهالي في عدة مواقع (نورا، كاراليس، سولكي، ...).

غير أن أهم مستوطنة فينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط كانت قرطاج التي تحدد الرواية تاريخ تأسيسها بعام ٨١٥ ق.م، على يد إحدى أميرات مدينة صور. بموافقة بعض رعاياها وبعض المعمرين القبارصة، ولا شك أن تأسيس هذه المستعمرة على الساحل الشرقي لتونس الحالية كان يهدف إلى خلق قاعدة تجارية وعسكرية فينيقية تناط بها مهمة الإشراف على العمليات التجارية في الحوض الغربي

للبحر المتوسط وحماية مصالح تجارة صور أمام خطر المنافسة الإغريقية الذي أخذ يتزايد بتزايد وتيرة الاستيطان.

وسرعان ما استقلت قرطاج عن المدينة الأم، وأخذت تؤسس مستعمراتها إلى درجة أصبح معها التمييز بين ما هو فينيقي وما هو قرطاجي في المستعمرات الجديدة أمراً مستحيلاً. وعلى أي حال فقد استمر المد الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط إما بشكل مباشر وإما من خلال طريق قرطاج التي أصبحت في مطلع القرن السادس، تحتل مكان الصدارة في النشاط التجاري المتوسطي إذ وصل تأثيرها إلى السواحل الإيطالية بل تغلغل إلى سهل اللاتيوم، وذلك بعد الاضطرابات التي عرفتتها صور بسبب المضايقات الآشورية ثم الفارسية التي كانت سبباً في انهيارها^(١).

• التأثيرات الفينيقية في شبه الجزيرة الإيطالية:

يبدأ العصر الأول من الحضارة الأتروسكية بمرحلة شرقية تدل عليها الأواني والحلي وغيرها من المصنوعات الفينيقية التي عثر عليها في قبور مدينتي كاييري وبرينست، التي يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد. وسواء أكانت هذه الأشياء قد وصلت إلى أتوريا عن طريق المبادلات التجارية أم صنعت محلياً من طرف صناع فينيين أو محليين قلدوا نماذج شرقية، فذلك يدل على مدى التأثير الفينيقي على الحضارة الأتروسكية وأهميته. وقد نبه بعض العلماء على وجود علاقات مباشرة بين أتوريا وسورية تؤرخ بـ ٦٠٠ ق.م. ولاشك أن تجار المدن الفينيقية قد سعوا منذ فترة مبكرة إلى تقوية علاقاتهم التجارية مع المدن الأتروسكية خصوصاً تلك التي تقع على الساحل. ولولا هذه العلاقات القديمة التي خلقت المصالح

(١) المرجع نفسه: ص ٤١-٤٣.

المشاركة بين الطرفين لما تحالفوا كلهم ضد الإغريق في معركة أليا في القرن السادس قبل الميلاد.

و لم يقتصر التأثير الفينيقي في إيطاليا فقط على الجانب التجاري والفني، ولكنه شمل أيضاً الجانب البشري، فقد أثبت علم الآثار الحديث أن بعض تجار صور استقروا في روما منذ القرن الثامن قبل الميلاد في سوق البقر، إذ أسسوا معبداً للإله هرقل عُثر على بقاياه التي تدعم أقوال بعض العلماء حول أن عبادة هذا الإله أصلها فينيقي، ذلك أن هرقليس اليوناني (هرقل عند الرومان) ما هو إلا نسخة أخرى للإله بعل ملقرط الذي يعتبر حامي مدينة صور الفينيقية، وأبرز دليل على ذلك من أن دخول المعبدین (معبد هرقل ومعبد بعل ملقرط) كان محرمًا على النساء والكلاب والذباب والخنازير، بالإضافة إلى أن هناك تشابهاً كبيراً في التقويم الخاص بأعياد هرقليس الأثيني وهرقل الرومي وهو ما يوحي بوجود أصل مشترك للإلهين، ناهيك عن بعض أوجه التشابه في الطقوس التي تقام تكريماً لهما، ويستنتج من هذه العناصر كلها أن المعمرين الفينيقيين الذين استقروا في روما هم الذين أنشؤوا معبد هرقل، واهتموا بإدارته حتى سنة ٣١٢ ق.م. وهي السنة التي أوكل فيها القنصور كلوديوس كايكوس مهمة الإشراف على المعبد إلى أجهزة الدولة الرسمية.

ومن أهم المجالات التي يتجلى فيها تأثير الفينيقيين ومساهماتهم الفعالة في تطوير حضارة غرب البحر الأبيض المتوسط هو مجال الكتابة. ومن المعلوم أن الكتابة الفينيقية كانت مستعملة في بيبيلوس منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، ثم تفرعت عنها الكتابة الإغريقية وبعدها الأتروسكية التي أعطت الوجود للكتابة اللاتينية، ولقد سبقت الإشارة إلى أن بعض المؤرخين يبحثون عن أصول الكتابة الأتروسكية في الشرق وليس في المستعمرات الإغريقية الموجودة في إيطاليا. ومن الدلائل الشاهدة على ذلك لوحة مارسيليانا التي اكتشفت في القبور الأتروسكية وهي ليست الوحيدة من نوعها. ذلك

أن ثمة لوحات مصنوعة بنفس الأسلوب وبنفس التاريخ عشر عليها في غرود، وهو أحد المواقع الآشورية الواقعة على نهر الفرات، وانطلاقاً من دراسة هذه اللوحات استقر رأي العلماء على القول بأن الفينيقيين هم الذين نقلوها إلى أتروريا محاولة منهم لدعوة التجار الأتروسكيين إلى تبني استعمال الكتابة من أجل تسهيل العمليات التجارية^(١).

ب- المد الإغريقي:

يشكل المد الإغريقي في البحر الأبيض المتوسط العامل الثالث الذي أثر في تطور حضارات المنطقة وخصوصاً منها حضارة روما، ولقد بدأ هذا المد الاستعماري خلال القرن الثامن ق.م^(٢) على سواحل البحر التيريني، وكان الكالكيدونيون والإرتيريون هم السباقون إلى هجرة وتأسيس المستعمرات. ويبدو أن كوماي كانت أقدم مستعمرة إغريقية أنشأت على الساحل التيريني، وهي في الوقت نفسه آخر هذه المستعمرات في الشمال الإيطالي (نحو ٧٧٠ قبل الميلاد)، تلوها إيسكيا عند مدخل خليج نابلس، أما في صقلية، فتعتبر ناكسوس أقدم هذه المستعمرات التي أنشئت في القرن الثامن ق.م. كما أسسوا ريجيون وزنكل خلال القرن السابع ق.م. ويبدو أن هدف المستعمرين الكالكيديين تأسيس طرق تجارية جديدة. وبذلك تمكنوا من إحكام سيطرتهم على مضيق ميسين ومراقبة الطريق التجارية التي تربط الساحل الغربي لشبه جزيرة إيطاليا بالساحل الجنوبي والشرقي.

(١) المرجع نفسه: ص ٤٣-٤٤.

(٢) ولكن هذا لا يعني أن العلاقات بين العالم الإغريقي وإيطاليا لم تبدأ إلا خلال هذه الفترة. فالعديد من البقايا الأثرية تشهد على أن الميسينيين كانوا قد وصلوا إلى السواحل الإيطالية منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد على الأقل، وربطوا علاقات تجارية مع شعوب المنطقة.

وسرعان ما أخذت الشعوب الإغريقية الأخرى تحذو حذو هؤلاء. إذ قام الدوريون والميغاريون والأكيون واللاكيديمونيون ثم الروديون والكريتيون ثم الأيونيون القادمون من كولفان بآسيا الصغرى بتأسيس مستعمرات أخرى، امتدت هذه الحركة الاستعمارية من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتصدر الإشارة إلى أن أقوى المستعمرات التي تم تأسيسها في صقلية هي سركوze التي أسسها الكورنتيون في ٧٣٣ ق.م. وجيلا وأجرجونت اللتان أقامهما الروديون والكريتيون في ٥٨٠ ق.م. وكالحال في صقلية، بدأ الاستيطان اليوناني في الجنوب الإيطالي منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وتمخض عنه تأسيس العديد من المراكز كبروتيوم ولوكريس وسيياريس التي ازدهرت بفضل نقل السلع براً من البحر الأيوني إلى البحر التيريني، وقد وصلت هذه المدن الإغريقية إلى أوج ازدهارها خلال القرن السادس قبل الميلاد، ولعل حماسة المستعمرين الإغريق الذين وجدوا في جنوب إيطاليا فضاءً واسعاً يمكنهم من تحقيق أطماعهم الاقتصادية (وهو ما كانوا يفتقدونه في وطنهم الأم حيث ضيق السهول وقلة الموارد وما ينتج عنهما من خلق أزمت دورية) هو الذي دفعهم إلى إعطاء تسمية جديدة للمنطقة التي أصبحت تعرف بإغريقيا الكبرى.

• العلاقات بين المستوطنات والمدن الأم:

وهكذا أسس المستعمرون مدنها، نقلوا إليها المؤسسات السياسية التي كانت سائدة في أوطانهم الأصلية إليها وتم تكييفها في بعض الأحيان مع الظروف المحلية، ومع ذلك فتاريخ العلاقات بين المستعمرات والمدن الأم يبقى معقداً وغامضاً أحياناً. وإذا كانت استمرارية العلاقات قد تجسدت على مستوى اللغة في حفاظ المستعمرين على لغتهم ولهجاتهم الأصلية فإن هذا الوفاء للغة الوطن الأم قد تلاشى أحياناً بفعل اختلاط المستعمرين خصوصاً في صقلية. ويمكن أن نضرب مثلاً لذلك نص توسيديد الذي

يخبرنا أن سكان حمير "Himère" الواقعة في شمال صقلية يتكلمون لهجة هي خليط من الكالكيدية والدورية بسبب اختلاط مستعمري زنكل بالأشخاص الذين صدرت في حقهم أحكام النفي في سر كوزة والذين استقروا في حمير.

وفي الوقت الذي استمرت فيه العلاقات على المستوى الديني، حافظ المستعمرون على طقوسهم وآلهتهم وحرصوا على نقل أصنامهم وكل الأشياء التي يقدسونها أثناء رحلتهم إلى الأراضي الجديدة، إلا أن هذه العلاقة الدينية قد تلاشت نهائياً على المستوى السياسي والاقتصادي. ورغم إسهام المستعمرات بشكل غير مباشر في التحولات التي عرفتها المدن الأصلية إلا أنها كانت مستقلة تمام الاستقلال عن هذه الأخيرة التي أصبحت مجرد ذكرى لدى أبناء المستعمرين وحفدائهم لا غير.

• آثار الاستعمار الإغريقي:

أما عن علاقة المستعمرين بالمجتمعات الجديدة التي استقروا فيها، فلا شك أن الاستيطان الإغريقي قد أثر بشكل عميق على المجتمع الإيطاليين، وتباينت أشكال العلاقات بين المستعمرين والأهالي، ففي بعض الأحيان قام المستعمرون بطرد جموع السكان المحليين من أراضيهم مستعملين في ذلك مختلف أساليب العنف، بينما في أحيان أخرى تقبلت القبائل المحلية في إيطالية القاديين الجدد، وتعايشت معهم، بل وصلت بهم العلاقة إلى حدود التفاهم والتعاون. وقد تلت هذه المرحلة الأولى التي اقتصر فيها الاستعمار الإغريقي على السواحل مرحلة أخرى قام خلالها المستعمرون بتوسيع دائرة المناطق التي يحتلوها إلى داخل البلاد، وذلك في سبيل تحقيق دوافع اقتصادية (توسيع الأراضي، استعباد مجموعات جديدة من السكان...). وكان لذلك أثره البالغ في نشر التأثيرات الهلنستية في صقلية وجنوب إيطاليا، ولم تقتصر تلك التأثيرات على المناطق القريبة من الساحل أو المتاخمة للمستعمرات بل تجاوزتها إلى المناطق النائية في شبه

جزيرة إيطالية، ووصلت إلى روما إما عن طريق البحر وأما عن طريق الهضاب الداخلية، وخصوصاً عبر سهل الكامبانيا وعن طريق الأتروسكيين. فمعلوم أن الإغريق هم الذين لقنوا الرومانيين وشعوب إيطاليا الوسطى طرق وأساليب زراعة الزيتون. وبإمكاننا أيضاً استحضار نص تيتوس ليفوس الذي يتساءل فيه كيف تمكن الملك روما الروماني من القيام برحلة مليئة بالمخاطر من بلده الأصلي في صابينا إلى جنوب إيطاليا ليلتحق بملقات فيثاغورث الدراسية ويكون تلميذاً له كما تروي الروايات. وعلى الرغم من الشك في صحة هذه الرواية نظراً للفارق الزمني الذي يفصل بين الشخصيتين إلا إنها ترمز دون شك إلى التأثيرات الفكرية للمدارس الإغريقية في وسط شبه الجزيرة الإيطالية. وعموماً فقد تم الكشف ضمن قوائم تلامذة فيثاغورث عن أسماء من أصل أتروسكي وهو دليل على صحة أقوالنا. ولا شك أن التفاعلات بين الرومان وغيرهم من شعوب إيطاليا الوسطى من جهة، وبين المستوطنين الإغريق من جهة ثانية قد سهلتها العلاقات التجارية التي كانت تربط بين الطرفين. وتثبت الدلائل الأثرية التي عثر عليها في موقع روما بما لا يدع مجالاً للشك أن بداية هذه العلاقات تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد أي منذ استقرار الإغريق في الجنوب الإيطالي، وسوف نرى فيما بعد التأثيرات الهلنستية العميقة والواضحة ليس فقط على القانون والمؤسسات الرومانية وحسب بل على كل أشكال التعبير الدينية والفلسفية والفنية والعمرانية والأدبية^(١).

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٤٤-٤٧.



The background of the page features a large, faint watermark of the Damascus University logo. The logo is circular, with the Arabic text 'جامعة دمشق' (University of Damascus) at the top and 'Damascus University' at the bottom. In the center is a stylized sunburst or starburst design.

الفصل الثاني
تاريخ روما من التأسيس حتى نهاية العهد الملكي
(٧٥٣-٥٠٩ ق.م.)



أولاً- نشأة روما بين الأسطورة والواقع:

يعتبر تاريخ إيطاليا القديم، هو نفس تاريخ روما وتاريخ الرومان الذين وُطدوا حكمهم في إقليم لاتيوم وراحوا يتطلعون إلى ما حولهم من أقاليم أخرى، ولهذا كان لا بُدَّ لنا أن نبحت تاريخ مدينة روما نفسها بشيء من التفصيل وأن نركز على مجموعة من الحقائق التالية:

- على الرغم من أن طبيعة تكوين إيطاليا التضاريسي لا تسمح بوحدة سياسية بسبب وجود سلاسل الجبال الشمالية من ناحية، وجبال الأبنين في وسطها من ناحية أخرى مما يعرقل عملية الاتصال والاختلاط بين سكان تلك المناطق. مكن موقع روما المتميز نفسه، في وسط إيطاليا وإشرافها على نهر التير من العمل بحرية في كل الاتجاهات وتحقيق أهدافها التوسعية وذلك بفضل إصرارها وطموحاتها الكبيرة وتنفيذها لسياسات ناجحة في علاقاتها مع خصومها، كانت تتيحها السيطرة الكاملة على شبه الجزيرة الإيطالية.
- "وإذا كان موقع روما في وسط شبه الجزيرة عاملاً بالغ الأهمية في بسط سيادتها عليها إلا أن كثرة عدد سكان الجزيرة وموقعها في وسط البحر المتوسط لم يكونا أقل أهمية في بسط سيادة روما على عالم هذا البحر، ذلك أن روما نجحت في السيطرة على شبه الجزيرة ساعدها على ذلك موقعها ووفرة المقاتلين الذين كانوا تحت إمرتها حيث عاجت أمر خصومها واحداً تلو الآخر في الأوقات المناسبة لها، وبنت إمبراطوريتها المترامية الأطراف"^(١).

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب ١٩٧١، ج ١، ص ٢١.

وهناك أجناس أخرى كثيرة كانت تسكن عدة مناطق في إيطاليا القديمة أهمها الأومبري والسابلي.

- كما استوطن اللاتين إقليم لاتيوم حتى أواخر القرن السابع ق.م. فقد عاشوا حياة بدائية زراعية رعوية ولم يكن لهم أي اتصال خارجي يذكر.
- وعندما وصل الأتروسكيون إلى إقليم لاتيوم شهدت المنطقة عصراً جديداً، بدليل وجود عناصر حضارية جديدة في هذا الإقليم منها المقابر المنحوتة في السدود والقنوات المائية للصرف، بالإضافة إلى ازدهار الإقليم صناعياً، واقتباس اللاتين منهم للحروف الأبجدية، فضلاً عن تحول قرى كثيرة في إقليم لاتيوم إلى مدن محصنة بنيت لها أسوار طينية، وإنشاء معابد أتروسكية. ويعتبر الأتروسكيون شعباً غامضاً في نقوشه ولغته التي لم يُحلّ رموزها بعد، وقد كان لهم حظ وافر في الحرب والتجارة بحيث استطاعوا إخضاع السكان الأصليين القاطنين حولهم دون أن يحاولوا إبادتهم^(١).
- لقد كان من الطبيعي أن يتم فرز عناصر السكان الأصليين من أهل البلاد (الأمبريين، والسابليين واللاتين) أي ما يسمى بالسكان الإيطاليين، لكي تميزهم من غيرهم من الغرباء الوافدين إلى شبه الجزيرة الإيطالية أمثال الإغريق أو الأتروسكيين، وأن يظفر الإيطاليون بالسيادة على أراضي وطنهم كاملة، مع أن السيادة كانت ثمرة مجهود كل هذه الجاليات مجتمعة.

هنا تجدر الإشارة إلى دور روما الطليعي والقيادي في تحقيق هذا الانتصار الشامل على بقية شعوب إيطاليا القديمة في كل الظروف، وذلك بمساعدة المدن الإيطالية

^(١) عبد اللطيف أحمد علي: روما، الجزء الأول/ تاريخ الجمهورية والإمبراطورية/، القاهرة ١٩٦٠،

الأخرى تحت زعامة روما، ولهذا يمكننا تجاوزاً أن نسميهم جميعاً بالرومان، وليس أهل روما وحدهم كاعتراف حضاري واجب لدور روما السياسي القديم. وإذا ما اقتفين أثر التطور الحضاري لروما وزعامتها للشعوب الإيطالية كلها استطعنا أن نتعرف على تلك المراحل الحضارية.

كان لموقع روما، كما أسلفنا، أهمية كبرى في قيامها بدور الزعامة، فهي تقع على جزيرة في نهر التير، الذي تحده من ضفته اليسرى الشرقية بالقرب من مصبه ثلاثة تلال منها، وأربعة تلال أخرى إلى الشرق منها تتأخم مجرى النهر، ولهذا سميت روما بالمدينة ذات التلال السبعة.

هناك شبه اتفاق على أن روما "Roma" أنشئت عام ٧٥٣ ق.م^(١) لتكون قلعة محصنة للدفاع عن اللاتين ضد عدوان الأتروسكيين الذين يعيشون شمال نهر التير غالباً كنقطة حراسة أمامية في ذلك التاريخ القديم، حيث نسجت حولها الأساطير الكثيرة.

١ - أسطورة نشوء روما سيدة اللاتيوم:

إن الدراسات التاريخية حول نشأة روما يكتنفها الغموض بسبب ندرة الوثائق والأوابد الأثرية المكتشفة في هذه المنطقة، نظراً لطبيعتها الجغرافية الصعبة، لذلك حيكت الأساطير المتعددة حول الميلاد الأسطوري لروما، ونستطيع القول: إنَّ وقائع التاريخ وأحداثه اجتمعت خلف الأسطورة أو أنها ولدت الواقع من الأسطورة، لاسيما

^(١) ذكر الأدباء والمؤرخون الرومان تواريخ أخرى منها على سبيل المثال أن الشاعر "Ennius" حدد عام ٩٠٠ ق.م. كتاريخ لروما، بينما المؤرخ "Fabius" ذكر عام ٧٤٨ ق.م.، والمؤرخ "Alimernius" حدد سنة ٧٢٨ ق.م. وأكد كاتو "Cato" وبوليبيوس تاريخ فابيوس. بينما ذكر "M: T/ Varro" سنة ٧٥٣ ق.م. وكذلك تبعه شيشرون وحدد نفس التاريخ بأنه في ١٧ نيسان عام ٧٥٣ ق.م. انظر: إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ص ٧٩-٨٠.

أن أحد مشاهير روما تيطوس ليويوس يقول: " إن تأسيس المدن في العالم القديم يمتاز بإشراك الآلهة، ليضفي عليها هالة من المجد والجلال".

* تقول الأسطورة^(١):

بعد السقوط المدوي لطرودة ارتحل عنها المحارب الطروادي Aineias ابن الإلهة فينوس، حيث استقر به المطاف، وبعد مغامرات عديدة في أرجاء المتوسط، على شواطئ اللاتيوم حيث التقى بالملك لاتينوس سليل الإله ساتورنس، الذي أبدى إعجابه بالبطل الطروادي وحسن خصاله مما دفعه لأن يزوجه ابنته لافينيا، وبعد وفاة الملك تولى البطل الطروادي الحكم خلفاً لوالد زوجته، وشيد مدينة جديدة أطلق عليها اسم لافينيوم إكراماً لزوجته، وأصبح شعبه يعرف باسم الشعب اللاتيني، وفيما بعد اختفى البطل الطروادي أثناء عاصفة هوجاء وتحول إلى إله عبدته الأجيال الآتية باسم الإله جوبيتير القومي.

(١) - هناك أساطير أخرى حول نشأة روما إضافة إلى الأسطورة التقليدية، ومنها: أن الإله الخامس لروما "الإله مارس" قد قام ببنائها، ولكن أشهر الأساطير تقول: إن أنيباس "Aeneas" أحد أبطال حرب طروادة التي اندلعت بين الإغريق وأهل المدينة، نحو بدايات القرن الثاني عشر ق.م. فرّ هارباً بعد سقوط مدينته وجال بالبحار، ثم استقر به المقام على الساحل الإفريقي الشمالي، عند نفس المكان الذي قامت عليه مستعمراته، قرطاجة الفينيقية فيما بعد، وهناك قابل الملكة ديدو "Dido" التي أحبته حباً لا حدود له، وقد وصفه فرجيل "Virgil" الشاعر اللاتيني في ملحمة الإلياذة، ولكنه هجرها فما كان منها إلا أن انتحرت. وواصل هو رحلته إلى ساحل إيطاليا ونزل في سهل لاتيوم، وأخضع القبائل الموجودة به، وأسس مدينة "Lavinium"، ثم أسس مدينة فينيقية "alba longa" وبعد عدة قرون أنشأ أحد أحفاده ويدعى "Romulus" مدينة روما قبل القرن الرابع ق.م. انظر: إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج ١، ص ٧٦-٧٩.

بعد اختفاء البطل الطروادي تسلم الحكم ابنه بولوس حيث حكم اللاتيوم هو ومن ثم أولاده وأحفاده ومنهم الملك نوميتور ، والذي رزق بولدين أحدهما ذكر والثاني فتاة اسمها ريا سيليفيا، ولكن بعد فترة قصيرة قام شقيق الملك الأصغر بالاستيلاء على العرش، وعزل أخاه الأكبر، واتقاءً للعاقبة، أمر بقتل ابن أخيه ونذر ريا سيليفيا للآلهة مما يجبرها على البقاء عذراء لمدة ثلاثين عام فلا تخلف نسلاً ينتقم منه على فعلته، ولكن إله الحرب مارس أغرم بالفتاة واتصل بها سرّاً، فحملت منه طفلين ذكرين هما رومولوس وريموس فاستشاط العم غضباً، وأمر بإلقاء الطفلين في نهر التير، وتحدث المعجزة عندما يطفو المهد على وجه الماء، ويرسو على ضفة هضبة اللاتيوم حيث عثرت عليهما ذئبة وأرضعتهما فترة من الزمن، وحلق صقر فوقهما لحمايتهما من أي شر، وأخيراً عثر عليهما راعي قطعان الملك، فالتقطهما وحملهما إلى زوجته التي تعهدت برعايتهما وتربيتهما إلى أن أصبحت في الثامنة عشرة من العمر، وعندما علما بما حدث قررا الانتقام من مغتصب العرش، وتمكنا من قتله وإعادة جدهما نوميتور إلى عرشه، ومكافأة لهما منحهما نوميتور أراضي التلال السبعة على ضفاف نهر التير حيث قرر الأخوان تأسيس مدينة جديدة على تلال اللاتيوم حيث مهدهما عندما كانا وليدين.

*وتمضي الأسطورة بالقول:

إن الآلهة اختارت رومولوس لوضع أسس المدينة الجديدة، فأخذ محراثاً برأس نحاسي وراح يشق أخدوداً حول اللاتيوم محتطاً بذلك سور المدينة، ولما بلغ الأماكن المخصصة لأبواب مدينته رفع المحراث بعناية دون أن يمسه، وبعد الانتهاء من الطقوس الدينية، أمر رومولوس أتباعه من اللاتين والالبيين بأن يشرعوا فوراً ببناء السور الذي سيحيط بمدينته ويحميها، وأصبح ذلك السور مقدساً ولم يعد بمقدور أي إنسان أن ينتقل من خارج المدينة إلى داخلها إلا من الأبواب.

أما ريموس فقد استشاط غضباً لأن الآلهة اختارت أخاه رومولوس، فقفز عبر الحائط صائحاً " هل مثل هذه الحواجز أن تصون مدينتك؟"، مما أزعج رومولوس فقتله صائحاً " هكذا سيهلك كل من يمتحن أسوار مدينتي"، وكان ذلك عام ٧٥٣ ق.م.^(١).

٢- تحليل الأسطورة:

طبعاً لا حاجة للقول، بعد سرد هذه الأسطورة، إنَّ ما ينسب إلى رومولوس عن تأسيس روما كان نتيجة جهود بذلت في فترات متأخرة عن تأريخ هذه الأحداث، واستهدف بالدرجة الأولى توضيح العادات الدينية والاجتماعية الرومانية، ومن ثمَّ لا تعدو كونها مجرد أسطورة، قد تعكس في طياتها صورة عن الحقيقة التاريخية التي يمكن استخلاصها ما بين السطور، وهي رغبة الإغريق الدفينة في نسب تأسيس روما إلى حفيد أحد أبطال الميثولوجيا الإغريقية، ونظراً لتفوق الإغريق الحضاري نرى أن الرومان يقبلون هذه الأسطورة ويتبنونها في أساطيرهم الشعبية.

أما المؤرخون الرومان في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد فيختلفون كثيراً حول التأريخ الذي بدأ فيه تأسيس روما، ولاسيما أن الكشف الأثري لم تدعم هذه الأسطورة لتحديد تاريخ نشوء روما.

وما يهمننا هنا أن روما هذه المدينة الصغيرة، التي بنيت على ضفاف نهر التير، تمكنت من بناء كيان سياسي قوي. بمنتهى العزم والتصميم، وأن تتوسع على حساب غيرها لبناء مجتمع روماني تأثر بلا شك بالحضارات الهلنستية السابقة.

(١) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الخامسة،

مطبعة دار الكتاب، دمشق، ١٩٩٣، ج ١، ص ٤-٨.

ولا ننسى أن العامل الجغرافي كان له دور بالغ الأهمية، ففوقع اللاتيوم وسط إيطاليا جعله عرضةً لتأثيرات حضارية، باعتباره جسراً طبيعياً يربط شمال إيطاليا بجنوبها، مما أحدث فيها تغيرات جذرية أدت إلى تحويل هذه الحضارة إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة الإبداع^(١).

ورغم أن الروايات التي أوردناها عن نشأة روما واستيطان سهل اللاتيوم تبقى مجرد أساطير، إذ يمكن اعتبار كل ما ورد فيها محتلق وخرافي، ولا يمت بصلة لماضي اللاتيوم وروما، قد تعكس بعض الحقيقة وخصوصاً إذا أمكن دراستها بطريقة علمية سليمة، ولهذا السبب يجدر بدارس التاريخ الروماني أن يجمع ما بين الأسطورة وما توصلت إليه دراسات وأبحاث اللغويين وعلماء الآثار.

لم تظهر الحفريات الأثرية حتى الآن، أي أثر لسكنى الإنسان في سهل اللاتيوم في العصر الحجري القديم والوسيط بينما ظهرت آثار إنسانية تعود إلى العصر الحجري الحديث، في حوضي نهر التير والأنيو. وكان هذا الإنسان يدفن موتاه ويدفن معهم أدوات فخارية بدائية الصنع، وبعض الأدوات المصنوعة من الصوان، ويبدو أن هذا الإنسان كان ينتسب إلى الليغوريين، كما أظهرت الحفريات أيضاً أنه في أواخر عصر البرونز وأوائل عصر الحديد، جاءت إلى المنطقة موجة بشرية جديدة كان أفرادها يحرقون موتاهم بدلاً من دفنهم، وتشبه حضارتهم إلى حد بعيد الحضارة التي كانت سائدة في شمال إيطاليا في حوض نهر البو. ولذا أطلق عليهم اسم الإيطاليين القدماء، وقد امتزج هؤلاء مع الليغوريين، وأدى امتزاجهم إلى نشوء ما سمي فيما بعد بالأقوام

^(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، طبعة أولى، إربد الأردن ١٩٩٠، ص ١٥٣-١٥٤. وللتوسع حول الأسطورة وتحليلها انظر:

Gary Forsythe, A Critical History of Early Rome, From Prehistory to the First Punic War, university of California press, 2005.

اللاتينية التي تشكل الأصل الذي انحدرت منه المجموعات البشرية الأولى، أي أجداد الشعب الروماني.

وقد أظهرت الحفريات أن الناس كانوا يعيشون في سهل اللاتيوم على شكل مجموعات متفرقة في قرى تأسست على المرتفعات، كانوا يقومون بالإغارة على بعضهم على بعض، ثم دعتهم الحاجة إلى التكتاف في مجموعات عسكرية دفاعية، فتكونت بينهم أحلاف بدائية مؤقتة تنحل وتنعقد حسب الحاجة، إلى أن تشكل الحلف اللاتيني الذي ضم أربعين قوماً لاتينياً حول مدينة ألبا على شكل اتحاد انصهرت فيه التحالفات القديمة، وقد جمع هذه الأقوام اللاتينية ديانة جوبيتر في جبل كافو.

أما بالنسبة لمدينة روما فتشير الدراسات إلى أنه نحو القرن العاشر ق.م. كان الليغوريون يسكنون فيها على تل الأفانتان، حيث كانت بقية المنطقة مغطاة بالمستنقعات والأشجار، ولهذا لجأ الناس إلى أعالي التلال تحاشياً للفيضانات، ثم استوطن بعض اللاتين القادمين من مدينة ألبا، تل البلاتين على الضفة اليسرى لنهر التير، وأقاموا بعض التحصينات لمنع عبور النهر من الضفة اليمنى إلى اليسرى، وقد بنى الألبينيون القادمون قرية على ظهر الجرمال في غرب البلاتين، وأحاطوها بسور من الطوب، ثم ظهرت قرية ثانية في موقع الأسكيلان، وتتالي ظهور قرى أخرى على قمم التلال، إلى أن شكلت فيما بعد اتحاداً عرف باسم الاتحاد السباعي، ويرى المؤرخون أن هذا الاتحاد تكون على مرحلتين، الأولى: اتحاد قريتي الجرمال والبلاتينول الواقعتين على البلاتينيوم، والمرحلة الثانية تحالف البلاتين مع بقية التلال الرومانية وقد احتفظت كل قرية من القرى المشاركة في هذا الاتحاد باستقلال واسع، وبتنظيماتها السياسية والاجتماعية البدائية الأولية، وقد كانت حضارة الرومان في زمن التحالف السباعي بسيطة جداً وتقدمها بطيئاً.

وقد أظهرت الحفريات التي وجدت في المنطقة أن سكان روما الأوائل بدؤوا منذ القرن السابع يتأثرون بالحضارة الإغريقية، ويستعملون مصنوعاتهم ويتعاملون مع ملاحيتها الذين أخذوا يرتادون السواحل الإيطالية وبخاصة سواحل جنوبي شبه الجزيرة^(١).

٣- الغرب الأوروبي وأسطورة بناء روما:

في العصر الأوروبي الوسيط اختلطت أسطورة بناء روما وعهدها الملكي بالروايات الدينية المستقاة من التوراة الأمر الذي جعل هذه الروايات تنتشر بشكل كبير وتلقى قبولاً واسعاً خصوصاً بعد أن أضيفت إليها الصبغة الدينية. وفي عصر النهضة، أي الفترة التي تميزت بعودة النخبة المثقفة الأوروبية لقراءة وتحليل التراث الإغريقي واللاتيني القديم، برز تياران اتخذ كل منهما موقفاً خاصاً إزاء هذه الأسطورة:

- **التيار المحافظ** الذي كان يعتقد أنه من الممكن أن نجد خلف الأحداث التي تقدمها الرواية آثاراً لوقائع تاريخية قديمة.
- **التيار المتشكك** الذي يعتبر أن ما تحكيه الروايات عن أصول روما لا علاقة له بالتاريخ، بل هو من نسيج الخيال لا أكثر.

وستطبع مواقف هذين التيارين بشكل متزايد الدراسات والبحوث المتعلقة بهذه الفترة. وبنهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، سيصبح الجدل القائم حول الروايات الرومانية واجهةً تخفي وراءها جدلاً آخر أكثر خطورة باعتباره ينصب بشكل غير مباشر على مدى مصداقية الروايات التوراتية، ومن ثم مدى مصداقية

(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضاء: اليونان والرومان، ص ١٥٣-١٥٤.

الكنيسة نفسها. ومن خلال التشكيك في تأريخية أنياس أو رومولوس ثم التشكيك في تأريخية نوح عليه السلام في الكتاب المقدس، وقد تميزت هذه الفترة على الخصوص بكتابات كل من صامويل بوشار^(١). وبيريزيونيس^(٢) اللذين مثلاً التيار المتشكك في نهاية القرن السابع عشر، وذلك بتبنيهما لمناهج جديدة في الدراسات التاريخية المتعلقة بروما.

وفي بداية القرن الثامن عشر، وبعد أن قام بعض القساوسة بتقديم بعض العروض أمام الأكاديمية نشر لويس بوفور كتاباً بعنوان "بحث حول الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الأولى من التاريخ الروماني"^(٣) بين فيه الحواجز المعرفية الكبرى التي تعترض سبيل البحث في أصول التاريخ الروماني. يتمثل أولها بوجود هوة زمنية تقدر بخمسة قرون على الأقل تفصل بين فترة تأسيس روما وبين الفترة التي كتب فيها أول المؤرخين اللاتينيين، وثانيها ذلك الحريق الذي شبّ في روما إبان الغزو الغالي الذي أدى باعتراف القدماء إلى إتلاف كل الوثائق التي تمت بصلة إلى الفترات القديمة من تاريخ روما.

لقد أسهم كتاب بوفور إسهاماً فعالاً وأصيلاً في تطوير الدراسات التاريخية الرومانية لكونه حدد بشكل علمي آفاق وحدود البحث، ولذلك اعتبر نقطة البداية التي انطلق منها كل الباحثين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع خلال هذا القرن. وفي بداية القرن التاسع عشر نشر الدانيماركي نيبوهر كتاباً حول تاريخ روما^(٤) شكّل هو الآخر إحدى المخطات الهامة في تطوير الدراسات الرومانية. ونرى أن

(1) Samuel BOCHART, Géographie sacra, Leyde, 1676, 2 vol.

(2) Perizonius, Animadversiones selectee, 1685.

(3) Louis BEAUFORT, Dissertation sur l'incertitude des cinq premiers siècles de l'histoire Romaine, Utrecht, 1738/

(4) Barthold Georg NEIBUHR, Histoire Romaine, 1811-1812.

هذا المؤرخ قد أسس منهجاً جديداً لا يكتفي بإخضاع الرواية التاريخية للنقد كما فعل السابقون فحسب، بل تجاوز هذه المرحلة إلى محاولة إعادة كتابة تاريخ الفترة اعتماداً على وسائل جديدة، أهمها: الدراسة النقدية للنصوص القديمة، ولا شك أن تخصصه في قراءة المخطوطات الذي جعل منه ببلوغرافياً ذائع الصيت قد أعطى لأعماله قيمة علمية كبيرة. ومع هذه الأعمال ستبدأ مرحلة ازدهار العلوم الخاصة بحضارات العالم القديم ولاسيما الحضارة الرومانية في ألمانيا التي شهدت ميلاد كتابات عديدة مازال مؤرخو اليوم يعتمدون عليها.

ومن بين العلماء الألمان الذين تركوا أثراً واضحاً خلال هذه الفترة ثيودور مومسن الذي يعتبر باعتراف الجميع موسوعة علمية متخصصة في الدراسات الرومانية، ولعل أشهر كتبه "التاريخ الروماني". غير أنه لم يعط أهمية لدراسة الفترة الأولى من تاريخ روما ولم يثر قضية الأصول، بل على العكس من ذلك فضل أن يفتح الجزء الأول من كتابه بمقولة للمؤرخ الإغريقي ثوسيديد يُذكر فيها هذا الأخير قراءه بالغموض الكبير الذي يلف الفترة الأسطورية في روما، ويعتبر مومسن أن قيمة رواية التأسيس لا تكمن فيما تقدمه للمؤرخ من معلومات لأنه لا يرى فيها سوى خليط من الخيال والدعاية، وإنما تكمن في كونها تحاول أن تجسد مختلف أشكال القانون الروماني، ولذلك نراه يعلن في كتابه عن القانون الروماني⁽¹⁾: "أن أساس كل الروايات المتعلقة بأصول روما يكمن في المؤسسات السياسية للقرن الخامس قبل الميلاد".

وقد شهدت العقود التالية غياب أي مؤلف ذي قيمة حول أصول روما. ذلك أن البحوث المرتبطة بالتاريخ الروماني اتجهت نحو تخصصات أخرى حديثة كالدراسة

⁽¹⁾Th. MOMMSEN, Droit public, trad. Franc. VI, 2, p. 193. n.2.

النقدية للنصوص وتحقيقاتها وجمع الكتابات المنقوشة وتحليلها خاصة ما كان يتعلق منها بالفترتين الجمهورية والإمبراطورية.

وسرعان ما سيتجدد الاهتمام بهذه الفترة القديمة في نهاية القرن بفضل المؤرخ الإيطالي إيتور بايس، الذي كان من تلامذة مومسن حيث تابع حلقاته الدراسية لمدة سنتين في ألمانيا، وقد تزامن هذا الاهتمام المفاجئ بالتاريخ القديم لروما مع نشأة الدولة الإيطالية الفتية التي كانت في حاجة للرجوع إلى تاريخها من أجل إرساء قواعد أيديولوجية وطنية تصبح مصدر اعتراف بالدور التاريخي للعاصمة الجديدة روما، وقد اعتبر كتابه "تاريخ روما"⁽¹⁾ تأسيساً لمنهج النقد اللاذع أو المبالغ به، فقد درس بايس كل الأساطير المتعلقة بنشأة روما الواحدة تلو الأخرى بما فيها تلك التي كانت تلقن لتلامذة المدارس الأوروبية بسبب شهرتها أو جماليتها وأخضعها للنقد الشديد، وقد أعلن ذلك في مقدمة كتابه: "منذ السطور الأولى لهذا الكتاب يمكن أن نؤكد بالفعل أن جزءاً كبيراً مما يزعم أنه التاريخ القديم لروما ما هو إلا ثمرة مضاربة أدبية متأخرة بل وتزوير مقصود"⁽²⁾. كان هذا الحكم بالطبع بمثابة انتهاك خطير لحرمة روما. وأثار العديد من ردود الفعل التي ذهبت إلى حد اتهام المؤلف بأنه أدخل إلى إيطاليا أفكاراً مستوردة من ألمانيا، حتى إن بعض المشبتهين بالأسطورة القديمة لم يتوانوا عن معاتبته لكونه لم يأخذ بعين الاعتبار نفسية رومولوس.

و لم يكن على بايس أن يواجه هذه الانتقادات وحدها، بل كان عليه أيضاً أن يواجه النتائج التي أخذ يطرحها علم جديد سيدخل حلبة النقاش وسيكون له أثره الحاسم في توجيهه: إنه علم الآثار الذي أدى إلى اكتشافات هامة في موقع روما القديمة استطاعت أن تضيفي على الأسطورة شيئاً من الواقعية. وهكذا، ومع الطباعات المتتالية

(1) Th. MOMMSEN, Storia di Roma, Turin, 1899.

(2) Ibid., I, 1898, p.2.

لكتاب بايس أخذ هذا الأخير يلين من مواقفه الأولى بشكل فقد معه الكتاب أصالته. وقد أطلق بايس على كتابه عنواناً جديداً هو "التاريخ النقدي لروما" في سنة ١٩١٣م^(١).

ومع ذلك فلا بد أن نشهد لهذا الكتاب بوجود ميزتين أساسيتين:

- أنه أجبر هؤلاء الذين كانوا يرفضون النقد ويلتصقون بالنصوص ويدافعون عن القيمة التاريخية للروايات المتعلقة بنشأة روما على اعتماد منهج يسمح لهم بالدفاع عن آرائهم وتسويغ مواقفهم.
 - جعل من الأساطير التي كانت تروي الفترة الأولى من تاريخ روما موضوعاً للتاريخ، أي إنه استطاع تجاوز المحرمات وإخضاعها لمناهج البحث التاريخي.
- ومع بداية القرن العشرين، سيكون لعلم الآثار نصيبٌ وافرٌ من هذه النقاشات بكونه أحد المصادر الأساسية التي يجب على المؤرخ اعتمادها لدراسة تاريخ روما، وقبل أن نتناول إسهام علم الآثار، لا بُدَّ من الحديث عن إسهام آخر اكتسب صبغة خاصة، لأنه حاول أن يجد تفسيراً للإطار الأسطوري الذي أحاط بقضية النشأة، إنها إسهام المدرسة الترميزية التي يعتبر روادها جملة الأساطير التي تنتشر لدى شعب ما مجرد رموز يجب تأويلها للكشف عن الأسس التي تقوم عليها حضارته.

ومن أبرز ممثلي هذا التيار المعاصر الفيلسوف والعالم الفرنسي جورج دوميزيل "Georges Dumézil" الذي قدم محاولة لامعة لتأويل الأسطورة، إلا أنها تعرضت للنقد الشديد، إذ إن تاريخ تأسيس روما وملوكها الأوائل هو بالنسبة لدوميزيل مجرد إطار مثيولوجي، فقد كان الرومان خلال القرن الثامن قبل الميلاد يحافظون على مجتمعهم في نفس الإطار الثلاثي الوظائف الذي عرفته الشعوب

(1) Th. MOMMSEN, Historia critica di Roma, 1913-1920, 4 vol.

الهندو أوروبية، الذي سبق للعالم أن وجده عند الشعوب الهندو إيرانية والكلتية والجرمانية.

وبحسب دوميزيل، فالحياة في أشكالها المختلفة، الدينية والبشرية، الاجتماعية والكونية، الطبيعية والنفسية، تحكمها لعبة منسجمة قائمة على وظائف ثلاث يمكن تلخيصها بالكلمات الثلاث "سلطة - قوة - خصوبة". فالوظيفة الأولى تضمن إدارة الأشياء، والثانية تدبر أمور الهجوم والدفاع، والأخيرة لها خصوصيات متعددة تتجسد في ضمان تناسل الأنواع والحفاظ على صحتهم وتوفير وسائل التغذية والثروة لهم، وهذه الوظائف الثلاث هي التي تحملها أسطورة النشأة التي تناقلها المؤرخون المهتمون بروما. فلا يجب، حسب دوميزيل، أن نبحث عن التاريخ من خلال أسطورة النشأة، لأن هذه الأسطورة التي تمت هيكلتها لا تقدم تاريخاً بقدر ما تقدم صورة لوضع كان سابقاً لتأسيس روما. وبما أنها ليست وليدة وقائع فلا يمكنها إذاً أن تكشف أو تحمل تاريخ وقائع.

وتبعاً لذلك يستنتج دوميزيل ثلاثة عناصر من التنظيم البدائي لروما كما تقدمه الأساطير، وهي العناصر التي تعبر عن الوظائف الثلاث: فقد كان هذا المجتمع الروماني مشكلاً من هؤلاء الذين يتمتعون بالسلطة السياسية والدينية (الملوك، الحكام، الكهنة، ...) وكان إلههم هو جوبيتر الذي يرمز في الفكر الديني الروماني إلى السيادة. ثم هؤلاء الذين يقومون بوظيفة عسكرية ويكرسون ولائهم للإله مارس وهو إله الحرب، ومن ثم فهو يرمز للقوة. وأخيراً هؤلاء الذين يسهرون على الإنتاج (الفلاحون، الرعاة، الصناع، ...)، وإلههم هو كيرينوس إله الخصوبة. ولهذا السبب نجد أن روما حافظت في الفترة التاريخية على مجمع للآلهة الثلاثة العظام: جوبيتر ومارس وكيرينوس. ولا يقتصر رأي دوميزيل على هذا فقط، بل يرى أيضاً أن الملوك الأربعة الأوائل الذين تتحدث عنهم الأسطورة إنما يرمزون إلى الوظائف الثلاث.

فروميلوس ونوما يرمزان إلى السلطة السياسية والدينية وتوليوس هوستيليوس يرمز للقوة العسكرية، بينما تتجسد الخصوبة في أنكوس ماركيوس الذي عرف عهده ازدهاراً اقتصادياً^(١).



^(١) للاطلاع بالتفصيل على آراء المؤرخ دوميزيل انظر بالتفصيل في كتابيه الشهيرين:

Georges Dumézil: De la société sur les origines de Roma, Paris 1941.
: Naissance de Roma, Paris, 1944.

ثانياً - ملوك روما خلال الحكم الملكي (٧١٥-٥٠٩ ق.م):

أ- فترة حكم رومولوس (٧٥٣-٧١٦ ق.م):

لما أتم رومولوس بناء المدينة جمع الشعب وخاطبه بما معناه: "لو كانت قوى المدائن منحصرة في علو أسوارها وعمق خنادقها لوجب علينا أن نخاف أشد الخوف على ما أتمننا بنائه الآن، إذ لا يعسر على المقاتل الجبار أن يتسور الأسوار ويهدمها منها علت، وماذا تنفع الحصون لدى الفتن والحروب الأهلية، نعم إنها تحمي الشعب من عدو غريب يدهمه بغتة، ولكنها لا تستطيع رده وقهره، فليكن اتكالكم على الشجاعة والفتنة والتدبير لتنالوا الظفر، والزموا الاتحاد والعدل لتمنعوا الشقاق أن يسري بينكم وتطفئوا نار الفتن الأهلية، لأنه كم من مدن محصنة قد سقطت في أيدي أعدائها لجن أهلها وانقسامهم، فاصرفوا همكم إذا لتنظيم الجنود ومراعاة القانون، تأمنوا كل غائلة، واعلموا أن نجاح الأمم متوقف أيضاً على أمر آخر مهم جداً: وهو إقامة حكومة ثابتة، فاعملوا ما ترونه حسناً لأنني خاضع لكل ما ترومون إجراؤه، وأنا وأعدت تسميتكم المدينة باسمي شرفاً عظيماً لا أحرمه إلى الأبد^(١).

وحينما فرغ رومولوس من كلامه ونظر الشعب إلى شجاعته وشهامته رضيه ملكاً على رومية، وألقى إليه مقاليد الأمور.

وأحصى رومولوس بعد ذلك قومه، فبلغ عددهم ثلاثة آلاف رجل، وثلاث مئة فارس، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام متساوية، وأقام على كل قسم رئيساً، وقسم أيضاً كل قسم إلى عشر فرق، وأقام لكل فرقة قائداً، وقسم أرض روما إلى ثلاثة أقسام غير

(١) نجيب إبراهيم طراد، محمد زينهم عزب: تاريخ الرومان، مكتبة ومطبعة الغد، الجزيرة مصر

متساوية، وخصص قسماً منها بخدمة الدين، وجعل قسماً آخر لنفقة الملك، والباقي وهو القسم الأكبر أعطاه للشعب.

وقسم الشعب إلى أشراف وعوام، وخصّ بالأولين المناصب العالية، وسمح لكل واحد من العوام أن يختار ولياً له من الأشراف، ووضع قانوناً لهذا الأمر، كما شكّل رومولوس مجلساً عالياً مؤلفاً من مئة عضو ليعينه على سياسته الخارجية وتسيير أمور الشعب، ونظم من الفرسان حرساً ملكياً^(١).

وبعد إتمام بناء المدينة أصبحت ملاذاً للمغامرين والمتمردين، مما أزعج أهالي القرى المجاورة فقاطعوا الرومانيين الأوائل رافضين التعامل معهم أو مصاهرتهم، فدعا رومولوس جيرانه السابينين إلى حفل، وخلال احتفاله اختطف الرومان نساء السابينين، فنشبت الحرب بين الطرفين، ثم عقد الصلح بينهما وأصبح بنتيجته رومولوس والملك السابيني تاتايوس ملكين على الشعبين.

وبعد فترة قتل الملك تاتايوس مما أفسح المجال أمام رومولوس ليحكم منفرداً، ولكنه اختفى خلال عاصفة هوجاء، وبعد اختفائه نشب الخلاف مرة أخرى بين الطرفين، وبعد عام من الصراع، عادت السلطة إلى السابينين، الذين حكموا ما بين ٧١٥ و ٦١٦ ق.م، وكان آخرهم الملك البناء، والذي حكم ما يقارب أربعة وعشرين عاماً من ٦٤٠ إلى ٦١٦ ، وبموته انتهى حكم الملوك السابينين وبدأت الفترة الأتروسكية-الرومانية^(٢).

(١) المرجع نفسه: ص ٢٥-٢٦.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٨.

ب- ملوك روما بعد رومولوس (الملوك السابينيين "٧١٥-٦١٦ ق.م."):

بعد اختفاء رومولوس في عاصفة هوجاء أثناء احتفال ديني^(١)، اختلف الرومان والسابينيون لمدة عام في تعيين خلف له، واتفقا أخيراً على أن يقوم الرومان بانتخاب ملك من السابينيين عليهم، فانتخب نوما بومبيليوس السابيني وزوج إحدى الربات ملكاً، وقد اشتهر بالتقى والورع، وأصلح التقويم، ونظم للرومان مؤسساتهم الدينية وشجعهم على الزراعة، ووزع عليهم الأراضي التي خلفها رومولوس، وبارتقائه العرش بدأ حكم ثلاثة ملوك سابينيين خلال تسعة وتسعين عاماً (من ٧١٥ - ٦١٦ ق.م.). وقد أنشأ نوما معبداً للإله جانوس، وكانت أبواب هذا المعبد تفتح في حالة الحرب وتغلق في أثناء السلم كما شيد معبداً للآلهة فيستا "Vesta".^(٢)

وخلفه توللوس هوستيليوس "Tulus Hostilius"، الذي ابتداءً بحكمه حكم الملوك البشر في روما، ونشبت في زمنه الحرب بين روما ومدينة ألبا المستطيلة، وقد تصارع خلالها ثلاثة أبطال من روما "الأخوة هوراتيوس" مع الأبطال الألبينيين الثلاثة "الأخوة كورياس" فتغلب الأبطال الرومان على خصومهم، وبذا ورثت روما من ألبا زعامتها على اللاتيوم وسيطرتها عليه، ولكن ألبا ما لبثت أن تمردت على روما، فقام الرومان باحتلالها وهدمها، وأصبح الكايتول بنتيجة ذلك المعبد الرئيسي لسكان اللاتيوم بدلاً من جبل كافو المكان المقدس عند سكان اللاتيوم القدماء، وعندما فسدت علاقات الملك المحارب توللوس مع الآلهة غضب عليه جوبيتر وقذف مقره بالصاعقة فخلفه أنكوس مارتوريوس "Ancus Martius" (٦٤٠-٦٢٦ ق.م.). ومن

(١) بعد اختفاء رومولوس رُفِع إلى السماء، واتخذ من بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحبيين، يعبدونه باسم كويرينوس . انظر: ديورانت: قصة الحضارة، ج ٩، ص ٢٩.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٩.

أهم أعماله بناء جسر سويليسوس، وميناء أوستي على نهر التير وحصن تل الجانيكول لحماية روما من الغرب.

وقد وفد في أيامه إلى روما من أتروريا شخص من منكورنشه في اليونان، فأوكل إليه الملك الوصاية على أولاده، وبعد موته تولى الوصي تاركونيوس الحكم، وانتهى بذلك حكم الملوك السابينيين، وبدأ عهد الملوك الأتروسكيين الرومان^(١).

ج- العهد الأتروسكي (٦١٦-٥٠٩ ق.م.):

لقد ارتبط وجود روما كمدينة وبروزها ككيان سياسي منظم بالتوسع الأتروسكي في إيطالية الوسطى وفي جزء هام من اللاتيوم، واستيلاء أسرة أتروسكية على مقاليد السلطة في روما. فمع بداية هذه الفترة اتضحت عناصر الحقيقة أكثر فأكثر وأخذ تاريخ روما يبدو أكثر صلابة مقارنة مع الفترة السابقة التي طغت فيها عناصر الأسطورة^(٢).

وجدير بالذكر، أن أخبار الملوك الأتروسكيين لا تستند إلى أسس تاريخية، وما ترويه الأساطير عنهم من حوادث وحروب تتشابه تشابهاً كلياً، وما حول تاريخ الاستيلاء على طروادة وبناء مدينة روما لا يمكن الوثوق به، كما لا يمكن الوثوق بسنة ٧٥٣ ق.م. التي تعينها كتاريخ تشييد هذه المدينة، لأن روما لم تكن توجد كمدينة موحدة قبل مجيء الأتروسكيين، ولم يكن يوجد مكانها إلا قرى متحالفة. كما أن الرومان لم يريدوا أن يعترفوا ببناء مدينتهم على أيدي الأجانب، ولهذا فقد تخيلوا وجود روما قبل مجيء الأتروسكيين، كما تخيلوا عدداً من الملوك اللاتينيين والسابينيين

^(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٩، ص ٣٠.

^(٢) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٦١.

الذين حكموا فيها، ونسبوا إليهم ذكريات مثيولوجية يرجع عهدها إلى زمن ماض بعيد^(١).

وعلى أي حال فإن هدف الأتروسكيين من امتلاك روما هو المحافظة على ممر التير. وهكذا انقلبت الآية فبعد أن كانت روما محطة لاتينية ضد أتروريا، أصبحت الآن قاعدة للاحتلال الأتروسكي في اللاتيوم ونقطة ارتكاز للأتروسكيون في جنوبي التير. حيث أعجبوا بموقعها الإستراتيجي الممتاز، وحولوا قراها الداخلية ضمن التحالف السباعي إلى مدينة كبيرة، ولا يستغرب أن تكون قد جرت حينئذ المراسم الدينية وغيرها التي تذكرها أسطورة رومولوس من أن كاهناً يلبس ثوباً أبيض، ويحمل بيده عصا ويرسم شارة في السماء، ثم يطلق طيراً ويعلن أن الآلهة راضية عن هذه المدينة، وثم يقوم بعد ذلك باني المدينة فيشق بمحرثه الخطوط التي تحددها من جهاتها الأربع. وهذا يعتبر بلا شك طقوس الأتروسكيين في بناء المدن. وهم الذين أطلقوا عليها اسم رومون الأتروسكي "Rumon" الذي يعني مدينة النهر. وقد جففت آنذ مستنقعاتها، وبني سورها الكبير الذي يحيط بتلالها المختلفة على النموذج الأتروسكي، وهو السور المعروف باسم سور سرفيوس تولليوس "Servius Tullis". واجتمعت كل أجزاء المدينة الموحدة داخل هذا السور، وأصبحت مهياً لتأمين سلامة الأمراء الأتروسكيين ضد الهجمات الخارجية، كما اكتسبت من ذلك شخصية معنوية ووحدة لم تكن لها قديماً، وأغلب الظن أن ذلك حدث في منتصف القرن السابع لا في منتصف القرن الثامن كما تقدم.

وفي الحقيقة لا يستند حكم الملوك الرومان الأتروسكيين إلى الروايات المتوارثة فقط، بل يعتمد على حقائق تاريخية ثابتة. فقد عُثر على اسمين هما: "تاركان تارخو"

(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٣٣-٣٤.

وسرفيوس توليوس ماستارنا" مكتوبين على لوح مصور وجد في فولسي، وقد عمل هؤلاء الملوك على إقامة علاقات تربط روما بمدن اللاتيوم المجاورة، إذ لا يخفى أن من عادة الأتروسكيين إنشاء اتحادات بين المدن المتجاورة، كما رأينا، وهكذا دخلت روما في اتحاد مع اللاتيوم بعد أن زال الحلف الألبيني، وصارت بفضل مركزها الممتاز ووجودها على طريق الملاحة النهرية، زعيمة المدن اللاتينية، وقد حاربت أقوام الفولسكيين والسابينيين اللاتينيين الذين يجاورونها، وبعض الشعوب الأتروسكية، كما فتحت المدن التي تبعد عنها مسافة ١٠-٢٠ كم ومنها كايرو وكابيس وتخاصمت مع مدينتي فبيس وفيدنيس بشكل خاص، وكان ذلك بداية حركة التوسع التي بدأتها والتي لن تنتهي، حتى تصبح حاكمة على رأس جميع مدن شبه الجزيرة الإيطالية، وعلى كل سواحل البحر المتوسط^(١).

وحكم من الأتروسكيين ثلاثة ملوك امتد حكمهم من ٦١٦ حتى ٥٠٩ ق.م. وأول هؤلاء ترفوينيوس القديم "Tarquinius Priseus" (٦١٦-٥٧٩ ق.م.) وكان لقبه قبل توليه الحكم لوكومون "Lucumon" وتعني شيخ قبيلة أو رئيس. ومن أهم إنجازاته في روما بناء الفوروم، والملعب الكبير "Circus Maxinus" وإصلاح مجرى روما الكبير، إضافة إلى تخفيف المستنقعات وبذا توسعت مساحة الأراضي القابلة للزراعة، أما في النطاق السياسي فقد أخضع اللاتين والسابينيين والأتروسكيين لحكمه، وزاد عدد أعضاء مجلس الشيوخ فعين مئة شيخ جديد. غلى أن انتهت حياته كضحية لأبناء الملك السابيني المقتول أنكوس مارتيس الذين أقصاهم عن الحكم بعد موت أبيهم^(٢)، ورغم ذلك لم يتمكن هؤلاء من استلام الحكم، لأن زوجة الملك القتل

(١) المرجع نفسه: ص ٣٤-٣٥.

(٢) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ص ١٥٢. وانظر أيضاً: نجيب إبراهيم طراد، محمد زينهم عزب: تاريخ الرومان، ص ٤٣-٤٥.

تمكنت من تنصيب صهرها، الذي تقول عنه إحدى الروايات بأنه مجهول المنشأ بينما تقول رواية أخرى بأنه ابن أمة عاشت في كنف أول ملك أتروسكي وأحبها إياه الإله الحارس للبيت الملكي^(١).

تولى الحكم سيرفيوس توليوس (٥٧٨-٥٣٤ ق.م.) وحكم خلال أربع وأربعين سنة. وهو الذي أقام أولى التنظيمات الإدارية بتقسيمه روما إلى عدة دوائر وأرض المملكة إلى عدة مناطق، كما أنه وزع السكان - حسب ثرواتهم - إلى خمس طبقات ليسهل تجنيد الجيش. واشتهر أيضاً بمعجزاته العمرانية، وإليه ينسب أيضاً السور الجديد بجدران الضخمة، التي يبلغ طولها ١١ كم تقريباً، وانتهى حكم هذا الملك أيضاً نتيجة لمؤامرة حبكت خيوطها ابنته وزوجها ترقوينيوس الجامح.

وهكذا تولى الملك الثالث الأتروسكي ترقوينيوس الجامح (٥٣٤-٥٠٩) "Tarquinius Superbus" حكم روما، واشتهر بحكمه الاستبدادي وبجرائمه، ولذلك أطلق عليه اللاتينيون اسم الملك الجامح. وهو ابن أول ملك أتروسكي، وقد ألغى تنظيمات سلفه وأوجد حرساً خاصاً لحمايته، ولكنه تابع بناء روما، وإليه ينسب تشييد المعبد المكرس للثالوث الإلهي.

لقد أمضى هذا الملك طوال فترة حكمه وهو يحارب الأقوام المجاورة، ولاسيما اللاتينيين والسابينيين، مما جعل الشعب يتذمر من وطأة حكمه. إلا أن تصرفاته أثرت تأثيراً سيئاً في نفوس رعاياه، ومما زاد من وقعها على الشعب كونه مغتصباً وأجنبي المنشأ.

وقد بلغ السيل الزبي عندما ألحق ابنه "Sextus" العار باغتصاب زوجة أحد أقربائه، التي انتحرت خجلاً، حينئذ ثارت ثائرة الزوج وأثار الشعب الذي شق عصا

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٧.

الطاعة على الملك المتكبر، وطُردت العائلة الملكية من روما وأعلنت الجمهورية، فهرب
ترقوينيوس الجامح وأفراد عائلته إلى أتروريا. وهكذا سقط النظام الملكي في روما عام
٥٠٩ ق.م.^(١)



^(١) المرجع نفسه: ص ١٧-١٨.

ثالثاً - النظام السياسي في روما خلال العهد الملكي:

١ - النظام السياسي قبل ظهور روما:

كان سكان إيطاليا يعيشون نحو العام ١٠٠٠ ق.م في هيئة وحدات قروية، تشكل كل مجموعة منها في هيئة دويلة تقوم على النظام القبلي وتدعى "pagus". وقد تتجمع هذه التنظيمات عند الضرورة في هيئة تنظيمات أكبر أو اتحادات قبائل مثل السامنيين أو اللوكانين أو الأومبريين.

وكانت تربط أبناء المجتمع الإيطالي الرابطة القائمة على العرف، وهي بمثابة دستور غير مكتوب، إذ تسعى التنظيمات بمقتضاه إلى حل الخصومات التي تنشأ بينها بالطرق السلمية. كما نظم العرف حقوق وواجبات القوات المتناحرة في حال نشوب الحرب. وقد كان هذا الدستور يسمى "Luspetiale". وبما أنه لم يكن في هذا العصر سلطة جماعية تلزم المناطق الإيطالية المختلفة احترام أو تنفيذ هذا الدستور، لذا لم يكن له جدوى حقيقية، ولم يمنع قيام الحروب والغارات، وقد ظلت هذه المناطق الإيطالية في عزلة عن المجتمعات الأكثر تحضراً، والتي كانت تقوم على سواحل القسم الشرقي للبحر الأبيض المتوسط^(١).

٢ - النظام السياسي في روما الملكية:

كانلا تختلف الملامح الرئيسية للتنظيم السياسي لمدينة روما في القرن الأول قبل إنشائها كثيراً عما كان شائعاً في أية مدينة من مدن الدولة التي عرفها العالم القديم. حيث كان العامة "Plebes" يجتمعون من حين لآخر في مجلس يدعى مجلس الأحياء "Comita Curiatess" بحسب الأحياء التي يسكنونها والتي تشكل روما، ولم تكن

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٤.

مهمة هذا المجلس، في الواقع، تتعدى الموافقة على القرارات التي يصدرها مجلس الشيوخ "Senatus" الذي كان يضم أرستقراطية روما من كبار أصحاب الأراضي، وهي الطبقة الأخيرة اقتصادياً وذلك لاعتماد صغار الملاك عليهم اجتماعياً واقتصادياً.

وتمثل الحكم في الفترة الملكية من حياة روما بثلاثة عناصر أساسية هي:

أ- الملك، ب- مجلس الشيوخ، ج- مجلس الجماعات (الجمعيات الشعبية).

وقد تأثرت التنظيمات الرومانية السياسية الأولى بالإغريق إذ أدخلوا نظام المدينة إلى المجتمع الروماني، وجعلوا روما مركز حكمهم في اللاتيوم، ومنحوها الرخاء الاقتصادي والازدهار المادي^(١).

أ- الملك:

يمثل الملك "Rex" أعلى الهرم في هذا التنظيم السياسي، وهو الذي يملك السلطات السياسية والقضائية والعسكرية، إلا أن الصفة الدينية كانت هي الغالبة. كما أنه يقدم الذبائح للآلهة. ويتولى وضع التقويم السنوي بمساعدة كبار رجال الدين من الأحرار "Pontifes". فتحدد فيه الأعياد، ويبدأ عد السنين بدءاً من عهد الملك، وزيادة في العظمة كان الملك يلبس على رأسه تاجاً ذهبياً، ويرتدي ثوباً مخملياً، ويحيط به الحراس حملة الفؤوس تمييزاً له عن بقية الآباء. ويقوم في بيت مقدس "Lexregin" قرب معبد "Vesta"، ويرأس الملك احتفالات النصر بالركوب في عربة مكشوفة مرتدياً اللباس الأحمر، ملوحاً بصولجانه العاجي الذي يعلوه نسر باسط الجناحين منطلق نحو أعالي السموات^(٢).

(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضاء: اليونان والرومان، ص ١٥٨.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٨.

وبالرغم من أن حكم الملك لم يكن وراثياً، بل كان موظفاً يُعَدُّ منتخِباً من قبل مجلس الشيوخ، الذين لم يزد عددهم في العهد الملكي على مئة شيخ، ثم يوافق على انتخابه مجلس الأحياء بصفة صورية، إنَّه بمجرد تولي الملك الحكم كان يجمع في قبضته سلطة مطلقة لا تحدها أية قيود حتى إنَّه يدخل في نظامها حق الحياة والموت على المواطنين، ولكن هذه السلطة المطلقة المستبدة كانت سبباً في انهيار النظام الملكي بعد تدمير الطبقة الأرستقراطية على عهد الملك **لو كيو س تار كونيوس سوبربوس** "T: Lucius Turqinius Superbus" آخر الملوك الذي أطلق عليه لقب المتعالي أو المتكبر "Superbus" نظراً لتصرفاته المتكبرة والمتجبرة المستبدة، والتي زاد من وقعها على الشعب أنه كان من أصل أجنبي. حيث كان ينتمي إلى العنصر الأتروسكي. أي إنَّه من غير العنصر اللاتيني. فلما اشتد ساعد الرومان أطاحوا الملك المستبد، وقضوا على النظام الملكي الفاسد عام ٥٠٩ ق.م، بعد حكم دام نحو القرنين والنصف تقريباً. وأقاموا النظام الجمهوري وذلك بعدما حكم روما ستة ملوك اتسم حكمهم بطابع التنظيم الاجتماعي والاقتصادي من الوجهتين القبلية والدينية.

وكان على الملك الذي كانت جمعية الأحياء تلتزم إطاعة أوامره. أن يأخذ موافقتها على إبرام حكم الإعدام عندما يصدر على أحد المواطنين وتأْييده في أخذ مواقف معينة من الدخول في حرب، أو اتخاذ سياسة معينة، كما كان من العسير على الملك تجاهل مكانة مجلس الشيوخ التي أخذت بالتزايد على مر السنين على الرغم من سلطته المطلقة.

كما تحد سلطة رب الأسرة على أفراد أسرته في نطاق اختصاصه القضائي من سلطة الملك. وعلى كل حال فقد يتنازل الملك عن بعض الجوانب من سلطته مثل: تفسير الشرائع الدينية والحفاظ على تقاليدها إلى هيئة كبار الكهنة "Pontifex"،

واستطلاع رغبات الآلهة في بعض الأمور إلى هيئة العرافين. فضلاً عن استعانة الملك
بهيئة من القضاة للفصل بين جرائم الخيانة والقتل دون مبرر^(١).

ب- مجلس الشيوخ:

يشكل مجلس الشيوخ "Senatus" إلى جانب الملك مؤسسة هامة ستزداد
أهميتها في العصر الجمهوري لتصبح الجهاز الأساسي للحكم في مدينة روما.
وكان عدد أعضاء هذا المجلس يختلف باختلاف عدد العائلات النبيلة الأولى،
وتقول الروايات إنه بدءاً من عهد الملك الأتروسكي تروفوبينيوس القديم، بدأ الملك
يعين أعضاء مجلس الشيوخ، وأصبح يطلق على أعضاء المجلس اسم "الآباء المسجلين
على اللائحة".

ومجلس الشيوخ هو الذي يشير على مجلس الجماعات بالشخص المختار من
الآلهة لمنصب الملك، كما أنه يمارس السلطات الملكية بعد موت الملك أو زواله لسبب
أو لآخر. وكان على الملك أن يستشير المجلس في القضايا المهمة، ومن واجب المجلس
أن يصدق النصيحة له، ويعتبر مجلس الشيوخ المحافظ الأكبر على "تقاليد الأجداد"
وبفضل هذا الامتياز امتلك سلاحاً رهيباً في يديه، وسيتمكن المجلس في الفترة
الجمهورية من إحباط مختلف المشاريع الإصلاحية بحجة الحفاظ على العرف والتقاليد
والعادات القديمة، إضافة إلى كونه وبمقتضى سلطة الآباء يشرف على قرارات مجلس
الجماعات^(٢).

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٥-٢٦.

^(٢) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٨-٢٩.

ج- مجلس الجماعات (الجمعيات الشعبية):

إذا كان الملك يمثل الظاهر الملكي ومجلس الشيوخ الظاهر الأرستقراطي فإن الظاهر الديمقراطي يتمثل في الجمعيات الشعبية أو مجلس الجماعات "Comitia Curiata".

كما مرّ معنا سابقاً، فقد وزع رومولوس سكان مدينة روما على ثلاث قبائل^(١) "Tities, Ramnes, Luceres"، وتنقسم كل قبيلة إلى عشر وحدات يطلق على كل واحدة منها اسم "Curia".

وهكذا، كان الشعب "Populus" يتألف من ثلاثين وحدة تنضوي تحت لواء ثلاث قبائل. وتضم هذه الوحدات أفراد الأسر النبيلة من الجماعات الكبيرة إضافة إلى أتباعهم، بينما حرم من ذلك أفراد طبقة العوام تلك الطبقة التي أطلق على أفرادها اسم "Plebs". بمعنى "جمهور غير منتظم". وكانت تلك الجمعيات توافق بالهتاف، أي بدون تصويت فعلي، للشخص الذي اختاره مجلس الشيوخ ليكون ملكاً وتمنحه باسم الشعب "النبلاء والأتباع" السلطان المطلق "Imperium". ويرى البعض في تلك الجمعيات أقدم مؤسسة في روما، أي إن وجودها سبق بروز مجلس الشيوخ والملك.

(١) يعتقد أن أسماء القبائل هي أسماء أتروسكية وعلى كل حال، ليس صحيحاً بأن تقسيم الشعب الروماني يعود إلى فترة الملك الخرافي رومولوس. ومن الملاحظ أن أقوام القبائل الثلاث تختلف عرقياً وسكنت كل قبيلة في منطقة خاصة بها: فوحدات قبيلة "Ramnes" كانت لاتينية الأصل وأقامت على تل البلاتين، بينما ضمت قبيلة "Tities" السابينيين الذين أقاموا على تل الأسكوالين، وشكل الأتروسكيين فيما بعد قبيلة "Luceres" واختاروا هضبة جانكوليرا لإقامتهم وتقع تلك الهضبة غربي نهر التيريس بعكس الهضاب السبع الأخرى الواقعة شرقي النهر الذي يشطر روما إلى قسمين. انظر: محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٣٠.

وكان يحق لتلك الجمعيات، قانونياً، أن تعلن حالة الحرب وتعقد السلم، كما أنها تصوت على بعض المشاريع التي تتعلق بشؤون الأحوال المدنية والقضائية وتصدرها بعد التصويت عليها بقوانين. ولا يمكننا في الواقع أن نحدد صلاحياتها بشكل واضح، بالنسبة لتلك الفترة الغامضة من تاريخ روما.

وتجتمع تلك الجمعيات بناء على دعوة موجهة من الملك، ويحق للكاهن الأعظم أن يرأس اجتماعاتها عندما يطرح أمامها مناقشة الأمور المتعلقة بالدين. ولم يكن دور تلك الجمعيات كبيراً، كما نلاحظ، وخاصة إذا ما قارناه بصلاحيات مجلس الشيوخ والملك وسيتضاءل دورها فيما بعد، بعد إحداث التصنيف الذي نسب إلى الملك الأترووسكي "Servius Tullius" وسنتطرق إلى هذا التصنيف الجديد للسكان، حسب ثرواتهم، أثناء دراستنا للعصر الجمهوري^(١).

٣- الحقوق والقوانين الرومانية والأعراف في العصر الملكي:

لم يكن لدى الرومان في العصر الملكي أية مجموعات قانونية مدونة يمكن الرجوع إليها باستثناء مجموعة "Jus Papirianum" المنسوبة إلى بابيريوس "Papirius" الذي عاش في أواخر العصر الملكي، ويرى المؤرخون أنها تنسب خطأ إلى العصر الملكي، إذ تشير الدلائل إلى أن الرومان في العصر الجمهوري قد قاموا بتدوينها في اثني عشر لوحاً نتيجة شعورهم بالحاجة إلى قوانين مكتوبة. ولا تعتبر المجموعة قوانين بالمعنى الحرفي للكلمة بل هي إرشادات حقوقية ذات مسحة دينية تتعلق ببعض القواعد الحقوقية المدنية والجزائية، وبعض أصول العبادة، ويركز القسم الأكبر منها على أحوال الولادة والزواج والتبني والموت والمواكب الجنائزية.

(١) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٣٠-٣١.

فالزواج مثلاً هو احتفال ديني وفق ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التراديو "Traditio"

الفصل الثاني: الديدوكسيو أن دوم "Diduxlo in Demum"

وفي هذين الفصلين يتم تتويج العروس، ويلقى الوشاح على رأسها، ثم تقاد إلى بيت زوجها في موكب احتفالي يتقدمه رجل يحمل مشعلاً وينشد نشيداً دينياً، ثم يقوم بعض الشبان بخطف العروس فيحملونها ويدخلونها عتبة بيت منزلها الجديد.

الفصل الثالث: الكونفرياسو: وينص على تقديم النار والماء والضحايا وحلوى خاصة إلى الإله جوبيتر، ثم قراءة أدعية معينة أمام عدة شهود، وبعد ذلك تصبح الزوجة تحت سلطة زوجها الذي يتصرف بها وبأموالها كيف يشاء.

وكما أن للزوج سلطة مطلقة على زوجته فإن للأب أيضاً سلطة مطلقة على أفراد أسرته، فله عليهم حق الحياة والموت، ويمكنه أن يبيعهم، ولكن عملية البيع هذه تتوقف عند حد معين، فإذا باع أب ابنه ثلاث مرات فإن للولد الحق في التحرر من سلطة والده، وإذا ولد للأب ولد جديد فعليه أن يعترف به ويقدمه لآلهة الأسرة في اليوم التاسع من مولده، حيث تجري عليه مراسيم التطهير. ويمنع التبني في قوانين وأعراف الرومان، كما أن سلطة الأب تنتقل إلى ابنه البكر مع الجزء الأكبر من الميراث^(١).

ومن العادات التي انتشرت عند الرومان الأوائل عادة الأخذ بالثأر، وقد عملت الدولة على الحد منها باتخاذ عقوبات قاسية ضد مرتكبي الجرائم. وكانت هذه العقوبات جسدية وقاسية، ومن الأمثلة عليها، مثلاً إن من قتل أباه يوضع في كيس مع ديك وأفعى ويلقى بالماء ليغرق، أما المدين الذي يعجز عن سداد دينه فيسلم إلى دائنه ليتصرف به بيعاً أو قتلاً، وقد تقطع أعضاؤه من قبل دائنيه إذا كانوا أكثر من واحد^(٢).

^(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٤٥.

^(٢) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ص ١٦٢.

رابعاً- المجتمع الروماني في العهد الملكي:

أ-طبقات المجتمع:

كان المجتمع الروماني في الفترة الملكية مكوناً من عدة طبقات، فقد انقسم المجتمع إلى طبقتين أساسيتين هما: أ- طبقة الأحرار ب- طبقة الأرقاء(العبيد).

وكانت طبقة الرجال الأحرار تنقسم إلى أربع طبقات : ١- طبقة النبلاء- ٢- طبقة الأتباع - ٣- طبقة العوام - ٤- طبقة العتقاء.

وكان سكان روما في هذه المرحلة ينقسمون إلى ثلاث قبائل هي: قبيلة اللوسيرسين، وقبيلة التيتس، وقبيلة الرامتس، ويعتقد بأنهم ينتمون إلى أصول عرقية مختلفة، وكانت كل قبيلة تقسم إلى عشيرة وجماعة (كوريا Curies)، وكل جماعة تنقسم إلى عدد من الأسر "Gentes". وبلغ عددها نحو ٣٠٠ أسرة، ولكل قبيلة مجلس أعيان يبحث في أمور الجماعة العسكرية والدينية وقضاياها العامة، ولكل منها عبادتها وألهتها الخاصة وكاهنها الخاص^(١).

كانت الأسرة هي أساس بناء المجتمع الروماني في العهد الملكي، حيث يمارس رب الأسرة سلطة مطلقة على جميع أفراد أسرته، بمن فيهم زوجته وبناته غير المتزوجات وأبنائه وأولادهم. إذ كان من حقه أن يضرب زوجته وأولاده، أو أن يقتلهم، أو يبيع أولاده في سوق النخاسة دون خوف من قانون أو محاسبة من المسؤولين في الدولة، باستثناء مجالس الأسرة "Consilium Familias" التي كانت تعقد جلساتها أحياناً لمنع رب الأسرة من استخدام حقه بصورة تعسفية إلا أن السلطة المطلقة استمرت عدة قرون تمارس من جانب رب الأسرة دون أن يحد منها أي قانون^(٢).

^(١) نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٨، ص ٨٠.

^(٢) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٩٠.

وعلى الرغم من أن العشيرة المؤلفة من مجموعة أسر ترجع إلى جد واحد، كان انتظامها الأسري في عشائر شائعاً فقط بين أسر الطبقة العليا وحدها لأن هذه العشائر لم تكن تنظيمات سياسية، وإنما اجتماعية رغم ما تتمتع به العشائر من تأثير كبير في حياة المجتمع الروماني السياسية.

ونتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي مرَّ بها المجتمع الروماني فقد انقسم إلى طبقتين اجتماعيتين وسياسيتين في آن معاً: طبقة العامة "Plèbe" وطبقة الأرستقراطية أو ما عرف باسم البطارقة.

فالتبقة العامة: كانت تتألف من متوسطي الحال ومن أصحاب الأراضي، ومن التجار أصحاب الحرف الصناعية والعاملين في الزراعة على أنهم جميعاً كانوا مواطنين أحرار. ومع هذا نشأت علاقة حماية بين أبناء العائلات الكبيرة من أصحاب الأراضي والعاملين في المجال الزراعي اضطرت العاملين بالزراعة إلى وضع أنفسهم تحت حماية أصحاب الأرض من الطبقة نفسها كي يطمئنوا على حياتهم ومستقبلهم من اعتداء الآخرين عليهم مقابل بقائهم آمنين في عاداتهم وعلاقاتهم وبعهدهم، بفلاحة أراضي من يتبعون، وتقديم المساعدة القتالية له عند الضرورة، فكان يطلق على التابعين "Clientes" أو المحاسيب، وعلى المتبوعين "Patronus" أو الحماة. و بقيت علاقة المحاسيب بحماقتهم علاقة الفقير بالغني أو علاقة القوي بالضعيف، كما ارتبطت بروابط المصالح المتبادلة بين الطرفين. وقد أدت هذه العلاقة التي استمرت عدة قرون، إلى بقاء الوظائف محتكرة في عائلات الحماة الأغنياء بفضل المحاسيب. وهذا ما لا ينص عليه قانون، لكن الواقع كرّسه وجعله شريعة خفية علماً أنه لم يوجد في ذلك المجتمع بادئ الأمر إلا من أصبحوا عبيداً وتبعاً نتيجة عدم وفائهم لدين مستحق. ولا يمكن أن يصبحوا أحراراً حتى يتمكنوا من وفائه.

أما طبقة البطارقة أو الأرستقراطيين، فتألف من كبار ملاك الأراضي، وكانت تحكم روما في البداية لأن بيدها السلطات التشريعية والتنفيذية، والدينية والقضائية، إلا أن نزاع الطبقات، ساعد مع الظروف الدولية على حل المشكلة الاقتصادية وخسارتها بعض المناصب والمقاعد في مجلس الشيوخ فيما بعد إبان الحكم الجمهوري.

كانت الطبقة الأرستقراطية بفضل ثروة أفرادها تتمتع بامتيازات كبيرة في الدولة الرومانية لأنها الأكثر تمسكاً بالقتال والأوفر عدة. وباستطاعة عشائرها حشد أعداد كبيرة من المقاتلين اعتماداً على أتباعهم في الحروب. كما تسمح لهم ثقافتهم وعراقة نسبهم بأن يكونوا مستشاري الملك في الشؤون الدينية والدينية على حد سواء. فبقيت الهيئات العليا السياسية والدينية الاستشارية مقتصرة في عضويتها على أفراد طبقة البطارقة حتى انقضاء العهد الملكي، لكن هذه الطبقة صارت بمرور الزمن في العهد الملكي طبقة ترفض التزاوج مع عناصر من غير عشائر البطارقة من أجل المحافظة على امتيازاتها، بعدما كثر انضمام العشائر الأقل عراقة وشأناً بفضل المؤهلات التي حصلت عليها والمماثلة لمؤهلات عشائر البطارقة من الناحية الاقتصادية: إذ أصبحت طبقة مغلقة تماماً، فبدل الانفتاح على أعضاء جدد، انكمشت على ذاتها ودورت ثروتها في داخلها^(١).

وهكذا قسم المجتمع الروماني في العصر الملكي على أساس الثروات التي يملكها الأفراد إلى خمس طبقات جديدة، واتخذ هذا التقسيم أساساً للتنظيم في زمن السلم والحرب. وقد تم تقسيم الطبقات تقسيماً مئوياً على النحو الآتي:

- **الطبقة الأولى:** مكونة من ثمانين قسماً مئوياً، وثمانية عشر قسماً للفرسان وعددهم ١٩٠٠ فارس، ويشترط في كل فرد من هذه الطبقة أن يكون مالكا

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٦-٢٧.

لمئة ألف درهم فأكثر، يُعطى لكل فارس منهم جوازٌ وراتبٌ سنوي يساعده في تجهيز نفسه، وقد ألحق بها قسمان مئويان من العمال للمساعدة في الأعمال الحربية الشاقة كجر العربات والتجهيزات الحربية.

- **الطبقة الثانية:** فقد ضمت المواطنين الرومان الذين تتراوح ثرواتهم بين ٧٥ ألف درهم و ١٠٠ ألف درهم، وقد قسموا إلى عشرين قسماً مئوياً، ضُمَّت شباناً وكهولاً مثلها مثل الطبقة الأولى.
- **الطبقة الثالثة:** وثروات أفرادها ما بين ٥٠ - ٧٥ ألفاً، وعدد أفرادها المئوي ٢٠ قسماً مئوياً.
- **الطبقة الرابعة:** وثروات أفرادها ما بين ٢٥ - ٥٠ ألفاً، وعدد أفرادها المئوي ٢٠ قسماً مئوياً.
- **الطبقة الخامسة:** وعدد أفرادها ٣٠ قسماً مئوياً، وثروتها من صفر إلى ١١ ألف درهم، وقسمت إلى قسمين: ثلاث أقسام مئوية عليها أفرادها يملكون ١١ ألف درهم، و٢٧ قسماً يملكون أقل من ذلك، وهم معفون من الخدمة العسكرية، ويسمى أفرادها بالمعتمدين، وهم من العمال الذين لا يملكون إلا أولادهم وأجسادهم^(١).

وقد اتخذت هذه التقسيمات المئوية أساساً لانتخاب مجالس الجماعات، ولتشكيل الجيش الروماني. ثم تغيرت بنية روما السكانية في زمن الأتروسكيين الذين جنحوا للتوسع، وازدادت حاجتهم إلى المقاتلين، فلجؤوا إلى استقدام أسر جديدة من المناطق الخاضعة لحكمهم، وإلى منح أفرادها صفة المواطنين وصنفوهم في طبقة الخواص. كما عملوا على تجنيد أغنياء طبقة العوام إلى جانب الخواص. وكان هذا

(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٢٨-٢٩.

الإجراء نتيجة طبيعية لرغبة الملوك في الاستعانة بهم ضد الخواص الذين أخذوا ينافسونهم في الحكم والسلطة بشكل خاص، وقد رحّب العوام بهذا التعاون مع الملوك لنيل حقوقهم المدنية^(١).

ب- الأسرة الرومانية "Familia"^(٢) في العصر الملكي

كانت الأسرة حجر الزاوية في الدولة الرومانية، وقد مارس رئيسها غالباً سلطة سيادية على كل أعضائها الآخرين تحت سمع وبصر القانون. وكان الأب المالك الوحيد المعترف به أمام المجتمع الروماني لكل ثروات الأسرة، وإذا سُمح لابن أو عبد أن يمتلك شيئاً فهذا تفضُّلٌ وتنازل كبير منه، ويعرف ذلك باسم "Peculium"، أي جزء صغير من الممتلكات العينية. كما كان يجوز له، في بعض الأحيان، أن يصدر أمراً بالموت على الزوجة أو الابن أو العبد، هذا بالرغم من تدخل القانون، تدريجياً. بمرور الوقت، لحماية أعضاء الأسرة ضد حالات التطرف الشديد والمطلقة لسلطة الأب. وكانت الأسرة تتكون من:

- الأب "Pater": وهو أكبر الأعضاء سناً، وله سلطة مطلقة في تصريف شؤون الأسرة، فهو بالنسبة للأسرة رب الأسرة "Pater Familias"، والمسؤول الأول عنها وعن كل أفرادها. لهذا كان يزاول سلطة الأب على زوجته وأولاده، وهذا ما يُعرف باصطلاح "Patria Potestas". أما على العبيد فكان

^(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ص ١٥٧.

^(٢) Familia: كلمة لاتينية تعني مجموعة أو تجمع الخدم، مما يعني كل ممتلكات الرجل المنزلية، وليس فقط الزوجة والأطفال. انظر:

Petrie, A., An Introduction to Roman history, Literature and antiquates, New Edition 1956, p. 87.

يزاول سلطة السيد "dominica potestas"، أما على الأتباع أو الموالي فيمارس سلطة الحماية أو الولاية "Patronatus".

أما سلطة الأب على الزوجة فتعني مانوس "Manus"، وهي سلطة وضع اليد بحق الزواج منها والارتباط بها. وعندما يتعلق الأمر باتخاذ قرارات نهائية بخصوص عضو من أفراد الأسرة، كان العرف الروماني، يقف حائلاً دون سلطة الأب المطلقة، فيرسخ إلى رأي مجلس الأهل والأقارب والتي كانت سنة السلف "mos maiorum"، بمثابة القانون الواجب النفاذ، بدافع الالتزام الأدبي واحتراماً للتقاليد الجماعية.

• الأم "Mater" أو الزوجة:

كان دورها مقتصرًا على أعمال المنزل، كالطهي وغزل الملابس. فلم تكن تساعد زوجها في الأعمال الزراعية والفلاحة في الأرض، ولهذا فإن مفردات اللغة اللاتينية لم تعرف مفرداتها لفظة فلاح، بل فلاح فقط "agricola". وكان للزوجة الرومانية تأثير غير مباشر على مجرى الأمور في حياة الأسرة، إذ كان لها حرية التصرف داخل المنزل، فهي صاحبة الكلمة العليا داخل جدرانها. كما كان لكل فرد في الأسرة عمل معين، يجب عليه أدائه. فضلاً عن الواجبات الدينية تجاه آلهة الجماعة، تلك الآلهة التي يعتقدون أنها توفر لهم الأمان والحماية وتحل بفضلها البركة والرخاء على الأسرة جميعها.

• الأبناء "Liberi":

وهم أبناء الأسرة كلها سواء أكانت الأسرة صغيرة، أم كبيرة يعيش في كنفها أبناء متزوجون معاً، وهكذا يملك الجد الأكبر كل السلطات. وكان عملهم يتمثل في مساعدة الأب في إنجاز الأعمال خارج المنزل ومساعدة الأم في داخله، أما البنات فهنّ دائماً داخل المنزل لا يخرجن منه أبداً، حتى ولو للزيارة أو للاستضافة، بدليل

أن اللغة اللاتينية لا يعرف قاموسها كلمة مؤنثة لكلمة ضيف "Conviva"، التي تستخدم للنوعين.

• العبيد "Servi":

وهم في الأصل، إما أسرى الحروب مع أبنائهم، وإما أشخاص أصبحوا عبيداً لأنهم لم يستطيعوا الوفاء بديونهم، فيظلون هكذا إلى أن يستطيعوا تأدية ما عليهم، أو أن يؤديها عنهم أحد ويعتقهم، وكان الأب كبير الأسرة التي يعملون في ظلها، يمارس عليهم سلطة السيد كما ذكرنا سابقاً.

• الأتباع أو الموالي "Clientes":

هم أحرار وليسوا عبيداً، ولكنهم يصاحبون أسيادهم دائماً، ويقومون على خدمتهم، ويكونون دائماً رهن إشارتهم في كل شيء، وذلك حرصاً على دوام ما يوجد به هؤلاء الأسياد عليهم من نعم وهبات. ويكونون باستمرار حيث يوجد سيدهم، ويترددون على بيت الأسرة ويلبسون طلباتها، آملين في حمايتها ورعايتها لهم. وكانت سلطة رب الأسرة سلطة الحامي أو الوالي^(١).

ج- الديانة الرومانية في العهد الملكي:

تعددت الآلهة عند الرومان في العصر الملكي، شأنها في ذلك شأن سائر الشعوب الريفية البدائية التي كانت تلجأ إلى السحر والأرواح أو القوى الطبيعية وغير الطبيعية.

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ٦١-٦٣.

وكان الرومان الأوائل يعبدون قوى الطبيعة، ويعتقدون بقوة تأثيرها على الإنسان إذ يمكنها أن تحسن أو تسيء إليه، وإذا أصابت إنساناً أو مدينةً فإنها تدنسهما، ويبرز تأثيرها في الحوادث غير الطبيعية كالخسوف والكسوف، والصواعق وظهور المذنبات، والهزات الأرضية، أو بولادة مخلوقات حيوانية عجيبة كأن تكون ذات رأسين أو ذات قدم متلاصقة الأصابع وغير ذلك. وإذا حدث مثل ذلك يتحتم القيام ببعض الطقوس والأعمال التي تهدف إلى تطهير الإنسان أو المكان المذنس بعزله، أما المخلوقات العجيبة فيتم قتلها أو حرقها، ويتم أيضاً الطواف حول المكان المذنس وتقديم الأضاحي والقربان للآلهة، كما اعتقد الرومان أن بإمكانهم التأثير في الظواهر الطبيعية وتبديلها بالقيام ببعض الأعمال، فالمرأة العقيم أو العاقر تُضرب بالسياط فتنجب، وهزيمة الجيش تستلزم تقديم أحد أفراده كقربان للآلهة. كما آمن الرومان بأن هناك أرواحاً تعيش في الغابات أسموها الجن، وترافق روح كل جنينة فرد من البشر تحسن إليه وتسهر على راحته وحمايته^(١).

وقد عبد الرومان بالإضافة إلى ذلك ثالوثاً إلهياً هو: جوبيتر كبير الآلهة وإله السماء والأمطار، ومرشد القضاة إلى الأحكام الصائبة، وله زوجة هي جونون، وابنه يدعى منيرفا وجانوس، وهو إله ذو وجهين، وهو إله الحرب، وقد أقيم له معبد في ساحة الفوروم في روما، تفتح أبوابه في حالة الحرب وتغلق في حالة السلم. والآلهة فيستا آلهة النار.

وهناك آلهة أخرى اقتبسها الرومان من الأمم والشعوب الأخرى مثل: الآلهة سيريس آلهة المزروعات والنبات، والآلهة ديانا وآلهة الحظ فورتونا، والإله هيراكليس اليوناني والإله مارس.

^(١) نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، ص ١١٠.

كما عبد الرومان الأموات، إذ آمنوا بأن الميت يخلف وراءه روحه بعد موته، وعلى الأحياء إرضاءها حتى تحميهم من الأرواح الشريرة، لذا كانوا يقيمون لها احتفالات خاصة تستمر عشرة أيام في نهاية شباط من كل عام، حيث تعطل الأعمال وتغلق المعابد وتطفأ النار في المعابد والهياكل ويمنع الزواج، وتكرر العملية في أيام التاسع والحادي عشر والثالث عشر من شهر أيار لتهدا الأرواح وتعمل على طرد الأرواح الشريرة^(١). كما كان من المعتاد أن يقوم رب الأسرة بأعمال معينة هدفها أيضاً إرضاء الأرواح، كان يقوم في منتصف الليل فيقرقع أصابعه ويتطهر ثم يسير في البيت ويرمي وراءه تسع حبات من الفول الأسود وهو يقول تسع مرات "إنني أرمي هذه الفولوات فأشتري بها نفسي وأقربائي"، ثم يتطهر مرة أخرى ويضرب قطعة نحاسية ويقول تسع مرات "أخرجي أيتها الروح الشريرة"، كما كانوا يعتقدون أن بإمكانهم الاتصال بأمواتهم، ويتم ذلك في حفرة على تل البلاتين اسمها موندوس "Mondus" يأتون إليها ثلاث مرات في السنة يتكلمون معها وفي المساء تعود أرواح الأموات إلى مقرها وتغلق أبواب الموندوس ثانية.

ومن الطقوس التي كانوا يمارسونها في عبادتهم استشارة وتفسير سلوك الحيوانات والظواهر الطبيعية، كالبرق والرعد وطيوان الطيور، وطريقة مشي الحيوانات وزحف الأفاعي^(٢).

وبحسب اعتقاد الرومان آنذاك كان لكل أسرة عبادة أرواح أو قوى عدة منها: جانوس أو بانوس "Janus" حارس الباب. ولارا فاميليلريس "Lar familiaris" حامي الأرض والبيت. وبناتس "Penates" حماة مخازن الحبوب، هذا فضلاً عن عدد كبير من الآلهة التي كانت، بحسب اعتقادهم، تساعد الرعاة أو المزارعين في أعمالهم أو

^(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٤٢.

^(٢) المرجع نفسه: ص ٤٣-٤٤.

توجههم في المراحل الصعبة من حياتهم اليومية، وبخاصة في مسائل الزواج والولادة أو الوفاة مثل الإلهة جانو "Jano" راعية النساء في مضاجعهن وفي مخاضهن.

إن استمرار الرومان في عبادة آلهتهم مدة طويلة دون إقامة معابد أو تماثيل لها، في المرحلة المبكرة، يفسر عدم مقدرتهم على تصور أشكال هذه الآلهة أو البت في جنسها. فهم لا يعرفون فيما إذا كانت من الذكور أو الإناث على الرغم من إيمانهم بوجود مكان معين يجب أن يعبد فيه كل إله على انفراد. ولا تخرج طقوس العبادة عن التقليد المتبع عند سائر الشعوب القديمة في التفرغ وسكب قدر من اللبن وأحياناً النبيذ لكسب رضا الآلهة، وفي حال الاستجابة للتفرغات كان لا بُدَّ من تقديم قربان على هيئة كعكة أو ضحية فيما بعد دائماً. أما في حالة عدم الاستجابة فكان لا بُدَّ من الاستمرار في إقامة تلك الشعائر بأداء أفضل مما سبق مرضاةً للآلهة ذات القدرة الخارقة بحسب مفهوم الديانة الرومانية^(١).

أما الكهنة ورجال الدين فهم كثيرون ومتعددو الوظائف والأعمال وينتظمون في ثماني فئات هي:

الأولى: كاهنات الربة فيستا "Vesta" ويقمن بحراسة النار المقدسة. وهن من بنات أسر النبلاء الخواص ويشترط فيهن أن يكون آبائهن وأمهاتهن أحياء، ويخدمن في المعبد لمدة ثلاثين عاماً، كما يشترط فيهن العفة، وإذا أحلن بهذا الشرط يحكم عليهن بالموت. يلبسن على رؤوسهن شالاً أبيض ويضفرن شعورهن في ست ضفائر متراكبة بعضها فوق بعض، وعملهن الأساسي هو إبقاء النار المقدسة مشتعلة، وصناعة الحلوى المملحة التي تقدم للآلهة.

الثانية: كهنة ذكور وظيفتهم مباركة حقول المواشي والمدن وإخصاب الأراضي.

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٩-٣٠.

الثالثة: كهنة عرّافون وظيفتهم التنبؤ بالمستقبل، بعد النظر في أحشاء الحيوانات وتفسير ما تريده الظواهر الطبيعية.

الرابعة: كهنة ذكور يقومون بإيقاد النار في مذابح الإله مارس.

الخامسة والسادسة: كهنة ذكور يقومون بالرقص واستدعاء الإله مارس عند نشوب الحرب.

السابعة: كهنة ذكور وظيفتهم السهر على حفظ القوانين ودوام المؤسسات الدينية.

الثامنة: كهنة ذكور وظيفتهم تأمين حسن سير العلاقات الدولية بين روما وجاراتها^(١).

(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٤٤.

خامساً - الحياة الاقتصادية في العهد الملكي:

عُرف عن المجتمع الروماني في العهد الملكي بأنه كان مجتمعاً بدائياً غلبت على أفراد الحياة الاقتصادية البسيطة: الزراعة، والصناعة، والتجارة. وكونه مجتمعاً بدائياً، فقد شغلت فلاحه الأرض وتربية الماشية والأغنام جانباً كبيراً من اهتماماته وأوقاته. ففي الوقت الذي كانت ملكية الأرض الزراعية ملكية فردية ضمن إقليم ضيق المساحة بحيث لم تزد عن خمسمئة كيلومتر مربع^(١) في العهد الملكي ثم اتسعت بعد ذلك تدريجياً، بينما نلاحظ غلبة طابع الملكية الجماعية على مراعيه، إضافة إلى ضيق المساحة.

وبالطبع كسائر المجتمعات الرعوية كانت موارد المجتمع الروماني في العهد الملكي، مستمدة من تربية الماشية والأغنام التي أخذت في التوسع عندما بدأت روما في توسعها إلى منطقة الأبنين الجبلية، فتأمنت المراعي الصيفية على نطاق أوسع نوعاً ما. وليس معنى ذلك، أن الرومان في العهد الملكي قد أهملوا زراعة الكروم وبساتين الزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة، بل يعني أن زراعة الكروم بقيت ضمن نطاق محدود، وظلت أشجار الزيتون برية جبلية فلم تنتشر زراعتها بشكل كثيف ويصبح غرس أشجارها شائعاً إلا بعد دخول الإغريق إلى جنوب إيطاليا كما أشرنا سابقاً، لذا غلب على المحاصيل الزراعية، بشكل عام، إنتاج نوع قاسٍ من الحبوب وكان كافياً لسد حاجات السكان.

كما عُرف عن الرومان في العهد الملكي بأنهم لم يهملوا الصناعة والتجارة، وبخاصة ما هو ضروري لحياتهم اليومية واستمراريتهم في علاقاتهم مع جيرانهم، فازدهرت صناعة الفخار والبرونز والحديد ازدهاراً كبيراً، وكذلك التماثيل والأعمدة التي أخذت عن الإغريق. وأنشأت نقابات للعمال الأحرار المشتغلين بصناعة الفخار

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٨٨.

والمعادن والجلود والأخشاب وصياغة الذهب، وقد عثر على آنية كورنثية معاصرة في روما مما يؤكد ازدهار التجارة مع الخارج في ظل إنشاء مستعمرة جديدة على تل أفينوس، وإقامة سوق عند معبد الآلهة ديانا على هذا التل بحيث يلتقي في هذه السوق تجار اللاتين المحليين مع تجار الأقاليم المحيطة والبعيدة. ويعزى تقدم الصناعة وازدهار التجارة الأتروسكية في روما إلى حكم سيطرة الأتروسكيين عليها في العهد الملكي^(١).

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٨-٢٩.

سادساً- الجيش والفتوحات:

كان الملك هو رأس السلطة في التنظيم السياسي، فهو الذي يعقد المعاهدات ويقرر السلم والحرب، وإن كان ذلك مشروطاً بموافقة مجلس الجماعات. كما أنه يمثل الدولة في علاقاتها الخارجية، ويقود جيشها بنفسه. ولم يكن هذا الجيش في أوائل العهد الملكي، يزيد على ثلاثة آلاف راجل "Pedites" و ٣٠٠ فارس "Celeres"، في غالب الأحيان، يجندون من القبائل الثلاث على قدم المساواة، أي إن كل قبيلة تسهم بألف راجل ومئة فارس. على أن هؤلاء لا يؤخذون إلا من طبقة البطارقة الأشراف ومن أتباعهم المزارعين الذين كان بإمكانهم تزويد أنفسهم بالسلاح اللازم كالخوذة والدرع والخربة والسيف القصير، بينما يفترض أن يكون سلاح الفرسان، وهم القوة الضاربة في الجيش الروماني، مدرّبين تدريباً جيداً على القتال وفي حالة استعداد دائم وتام له. وهذا لم يكن متيسراً إلا بين أفراد طبقة البطارقة أصحاب الثروة الكبرى والعدة المتوفرة، لذا تحمل مقاتلو الفرسان من هذه الطبقة وأتباعها العبء الأكبر في تأليف الجيش الملكي.

ينتقل الفرسان إلى ساحة المعركة عادة على خيولهم والخاصة بكلّ منهم أو باستخدام عربات تقلّهم إلى القتال، وفي مطلق الأحوال كانوا يقاتلون في أثناء المعركة، وهم على أقدامهم كسائر المشاة في الجيش إلا في أعمال المطاردة التي كانت تقتضي منهم ملاحقة أعدائهم والقبض عليهم وقتلهم، وعندئذ يستخدمون الجياد والعربات. ولكن المشاة في العهد الملكي لم يتلقوا التدريب والعناية الكافيين، وما كان ضباطه إلا نقيباء القوات التي أسهمت بها كل قبيلة من قبائل الرومان الثلاث.

لم يكن هذا الجيش الروماني في العهد الملكي مهيباً لتطلعات الملوك الرومان التوسعية، - إن وجدت - وفي سائر الأحوال كان بإمكانه فقط القضاء على أعمال العدوان أو القرصنة التي تقع على حدود دولة روما الملكية من وقت لآخر. وإذا علمنا

بأن أحكام العرف الفطري بين الشعوب الإيطالية كانت تقضي بعدم شن الحروب دون مسوِّغ وعلى الأقل أو دون سابق إنذار، عندئذ يمكننا أن نفهم السبب الذي دفع الملوك الرومان إلى إنشاء هيئة "Fetiales" التي تهدف إلى تفسير أحكام هذا العرف والحفاظ عليها.

ومع ذلك فقد شنَّ ملوك روما حروباً توسعية: فقد سيطر خلالها أنفوس ماركوس على أوستيا، وفرض لوقيوس تاركوينوس العتيق سيطرته الكاملة على أتروريا. في حين استولى الملك لوقيوس تاركوينوس المتكبر على شواطئ كثيرة حتى بومبتيناى، ويؤيد هذه الفكرة إنشاء العصبة اللاتينية نحو أواخر القرن السادس قبل الميلاد بزعامة أريقيا لمنع التوسع الروماني في اللاتيوم. والتخلص من السيادة الأتروسكية على هذا الإقليم. والحقيقة أن الرومان تمكنوا من ضم الجماعات اللاتينية الصغيرة من جيرانهم على دولتهم سواء في سهل لاتيوم، فيما بين روما وألبا لونجا، أم في وادي التير الأدنى ابتداءً من مصبه حيث أوستيا فيما بعد، حتى فيدناي^(١).

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٣٠-٣١.





الفصل الثالث
تأسيس الدولة الرومانية الجمهورية
(التوسع والفتوحات العسكرية)



أولاً- الجيش الروماني:

تكتسب دراسة المؤسسة العسكرية في روما أهمية خاصة باعتبارها شكلت الأداة الرئيسية التي سمحت لروما بتوسيع حدودها والانتقال من دويلة المدينة إلى عاصمة إمبراطورية متوسطة، وككل المدن القديمة شكلت الحرب أحد الهموم اليومية للدولة والمواطنين على السواء، ولذلك فقد كان الجهاز العسكري على علاقة وطيدة بمؤسسات الدولة من جهة، وبدور المواطن في مجتمع المدينة. ذلك أن المواطن هو قبل كل شيء جندي عليه أن يؤدي الخدمة العسكرية للدولة.

لقد لخص المؤرخ كلود نيكولي خصوصيات الجيش الروماني في الكلمات الثلاث: إنه وطني، سنطوري (أي قائم على أساس ضرائفي)، وغير دائم:

فهو جيش وطني لأن المواطن الروماني وحده كان له شرف الخدمة العسكرية التي كانت تعد واجباً وحقاً من حقوق المواطنة في آنٍ واحد، وقد رأينا أنه خلال الفترة الملكية لم يكن العوام يجندون في الجيش وأن دخولهم في هذه المؤسسة كان من أهم أهداف الإصلاحات الملكية التي منحت حق المواطنة الجزئي لهؤلاء مقابل أدائهم للخدمة العسكرية. وبعد التوسع الروماني في إيطاليا فرضت روما على المدن والشعوب الإيطالية، التي أصبحت خاضعة لها، تقديم وحدات عسكرية وذلك بمقتضى المعاهدات والاتفاقيات التي وقعتها معها. وقد ظلت هذه الفرق اللاتينية أو الإيطالية معزولة عن الجيش الروماني الرسمي رغم أنها تحملت العبء الأكبر من برنامج الفتوحات الرومانية في البحر الأبيض المتوسط، ورغم ذلك فهي تعتبر جيوشاً وطنية لأنها تخضع لنفس المبادئ التي يخضع لها المجند الروماني.

أما الخصوصية الثانية فهي السنطورية التي ذكرناها عندما تكلمنا عن إصلاحات الملك سيرفيوس توليوس التي قسمت المواطنين إلى خمس طبقات حسب مداخيلهم وفرضت على كل طبقة تقديم عدد معين من الوحدات المثوية للجيش،

وكان الانتماء إلى طبقة معينة يفرض واجبات معينة من حيث التجنيد وقيمة الضرائب، ويعطي حقوقاً سياسية في إطار مجلس السناتوس. وأخيراً فإن هذا الجيش لم يكن جيشاً نظامياً بل مؤقتاً يتم استدعاؤه كلما قرر القناصل القيام بحملة عسكرية ما، ومن ثمَّ فهو يعتبر جيشاً اكتتائياً^(١).

١ - التجنيد:

عندما يدعو القنصل أو الحاكم الذي يملك السلطة العسكرية لتجميع الجيش فإن على كل مواطن تلبية النداء للدفاع عن مدينته. فهو جندي تفرض عليه الخدمة العسكرية إذ يجند في سنتورات الشبان عندما تتراوح أعمارهم بين ١٧ و ٤٦ سنة، ثم يلتحق بعد ذلك بسنتورات الكبار، ولكن الخدمة العسكرية تقتصر في الأوقات العادية على الذين صنفوا ضمن الطبقات الخمس، أي دافعي الضرائب "Dilectus". أما حينما يكون أمن روما مهدداً من طرف خارجي (كالغزو الغالي مثلاً) فإن الخدمة العسكرية تكون عامة وتشمل حتى الفقراء. والمواطن الذي لا يستجيب لنداء القنصل يعتبر متهرباً من أداء واجب المواطنة المتمثل بالدفاع عن المدينة، ومن ثمَّ ينظر إليه كمن تخلى عن حقوق مواطنته، وهذا ما يؤدي إلى فقدانه لحقوق المواطنة هذه بل لحريته كاملة حيث يباع في سوق النخاسة، أما المدة التي يجب على المواطن أن يكون فيها مجنداً فتقتصر حسب ما يخبرنا به بوليبيوس على ١٠ سنوات بالنسبة للفرسان و ١٦ سنة بالنسبة للمشاة قبل أن يلتحق بالجيش الاحتياطي (أي بسنتورات الكبار).

وعندما يقرر الحكام القيام بحملة عسكرية ما فإنهم يعرضون الأمر على مجلس الشيوخ الذي يصدر مرسوماً يدعو المواطنين للتجنيد ويحدد عدد الوحدات وكذلك

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١٥٠-١٥١.

الضريبة الحربية التي سيتم جمعها. وقد جرت العادة على أن يتم استنهاض جيشين قنصليين كل سنة (جيش لكل قنصل) مكونين من أربعة فيالق.

يصدر القنصل أمراً بتجميع الرجال الخاضعين للخدمة العسكرية في ميدان الإله مارس إذ يتم انتخاب ٢٤ ضابطاً من بين المرشحين الذين ينتمون إلى فئة الفرسان (الطبقة الأولى)، وهم الذين سيقودون الفيالق بالتناوب (٦ ضباط لكل فيلق) تحت القيادة العليا للقنصل. ثم تتم عملية سحب القرعة للرجال الذين يسهمون في الفيالق الأربعة^(١) مع الأخذ بعين الاعتبار لعدد الحملات التي أسهموا فيها من قبل. وفي نفس الوقت يتم توزيع الجندين على الفيالق الأربعة سواء تعلق الأمر بالفرسان أم المشاة. ويطلق الرومان على هذه العملية اسم "Delictus" التي تعني اختيار الجنود المسهمين في الفيالق القنصلية عكس "Tumulus" الذي يعني الاستنهاض الجماعي للجيش الذي لم يكن اختيارياً. وبعد أن تكون الفيالق يؤدي الجميع ولكن بشكل فردي قسم الإخلاص والطاعة للقنصل، ثم تقدم القرابين فيكون الجيش جاهزاً للمعركة.

٢- التنظيم والتأطير:

يعتبر الفيلق الوحدة الاستراتيجية للجيش الروماني. وقد رأينا أن الجيش القنصلي كان يتكون في الأوقات العادية من أربعة فيالق، وكان الفيلق مكوناً من ٤٥٠٠ رجل موزعين كالتالي: ٣٠٠ فارس، ٣٠٠٠ جندي من المشاة ذوي الأسلحة

^(١) كان ذوو العاهات يستبعدون من التجنيد، كما يستثنى كل الذين أسهموا في عدد كاف من الحملات السابقة، وأيضاً الأشخاص الذين لهم بعض الالتزامات الدينية التي تحتم عليهم البقاء في روما. كما أن مجلس الشيوخ كان في بعض الأحيان يصدر استشارة تقضي بإعفاء أحدهم من الخدمة العسكرية إذا كان قد قدم خدمة عليا للمدينة. وعلى أي حال فإن القانون كان يعطي للقناصل الوسائل الزجرية اللازمة لفرض الجندية على المواطنين.

الثقيلة، ١٢٠٠ من فرق المشاة الخفيفة المتشكلة من المواطنين الفقراء، أما الفرسان فقد كانوا يقسمون إلى عشر سرايا تضم كل سرية منها ٣٠ فارساً كانوا يتقدمون بمجموعات مشكلة من ١٠ فرسان ويقودها قائد يدعى "Decurion". حيث توكل مهمة قيادة السرية كلها إلى قائد المجموعة الأولى.

أما تنظيم المشاة فقد كان يعتمد على المانبولة "Manipuli" التي تعتبر الوحدة التكتيكية القاعدية في الفيلق. ويضم كل فيلق ٦٠ سنتورة تشكل ٣٠ مانبولة. والمانبولة تتشكل من اجتماع سنتورتين. ولا يشترط فيها أن تضم نفس العدد من الجنود. حيث تتكون مانبولات الصفوف الأولى ومانبولات الصفوف الثانية من ١٢٠ رجلاً (٦٠ رجلاً في كل سنتورة) في حين لم يكن عدد رجال مانبولات الصف الثالث والتي كانت مخصصةً لقدماء الجنود يزيد على ٦٠ رجلاً، أي ٣٠ رجلاً في كل سنتورة، أما الفيليت فكانوا مقسمين إلى وحدات صغرى تضم كل منها ٢٠ رجلاً وتوزع بين السنتورات ملء الفراغ.

وطبعاً كان لهذه الوحدات مؤطروها، ففي قاعدة التأطير نجد أن القنصل عادةً يختار قادة السنتورات من بين قدماء الجنود الذين أنهوا خدمتهم العسكرية نظراً لخبرتهم في أمور الحرب، وكان كل واحد منهم يقود سنتورة. ومادامت المانبولة تتكون من سنتورتين فإن أحدهما كانت توكل إليه مهمة قيادة المانبولة كلها بالإضافة إلى سنتورته، وكان مجموع هؤلاء القادة يصل إلى ٦٠ قائداً في الفيلق الواحد. وكان لهم نفوذ كبير على وحداتهم. أما الحكام العسكريون فقد رأينا أنهم كانوا ينتخبون من قبل المجالس الشعبية وكان يشترط فيهم أن يكونوا من الذين صنفوا ضمن فئة الفرسان، وكان مفروضاً عليهم أداء خدمة عسكرية تتراوح بين ٥ و ١٠ سنوات.

بالإضافة إلى هذه الفيالق المكونة من المواطنين الرومانيين التي تعد النواة الأساسية للجيش الروماني نجد أيضاً جيوشاً مجندةً من اللاتينيين والحلفاء الإيطاليين،

وكان الجيش اللاتيني يتشكل من فيالق تشبه بتنظيمها الفيالق الرومانية. أما الحلفاء فيشكلون كتائب تحارب كأجنحة في الفيالق الروماني، وكانت كتيبة المشاة مكونة من ثلاث مانبولات ويقودها ضابط إيطالي "Praefectus cohortis". ويضم كل جناح جنوداً تقارب أعدادهم عدد الجنود في الفيالق الروماني الواحد، وكان على رأس الجناح ٣ ضباط حلفاء يشترط فيهم أن يكونوا من أصل روماني وأن يعينوا من طرف القنصل، أما جناح الفرسان فيتشكل من ٣٠٠ فارس يقسمون على خمس سرايا على رأس كل منها قائد "Décurion" من الحلفاء. ولا بُدَّ أن يكون قائد الجناح من أصل روماني يعينه القنصل ويدعى "Peaefectus equitum".

ورغم أن الجيش الروماني كان يشكل أساساً من المواطنين الذين يدفعون الضرائب فإنه انطلاقاً من القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل أصبح الجنود يتقاضون أجراً من خزانة الدولة. فكل جندي يحصل على حصة من المواد الغذائية الأساسية وكذلك كان الأمر بالنسبة لجنود الحلفاء الإيطاليين، أما الربح الحقيقي للجنود فكان مصدره الغنائم التي يوزع جزء منها عليهم.

وحينما تنتهي الحملة العسكرية يُحلّ الجيش ويعود الجنود إلى حياتهم العادية. ولكن ذلك كان من الناحية المبدئية فقط. فعندما دخلت روما مرحلة التوسع وأخذت تجهز الجيوش إلى أماكن نائية أصبحت تحتفظ بنفس الجيش لمدة طويلة وذلك للقيام بحملات متعددة^(١).

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١٥١-١٥٣.

ثانياً- حروب روما حتى بداية القرن الثالث من الحكم الجمهوري:

١- الحروب في القرن الأول من الحكم الجمهوري:

أثار خلع الملك الأتروسكي تاركونيوس المتكبر وطرده من روما عام ٥٠٩ ق.م. نائرة الأتروسكيين ضد روما، فحاولوا إعادته إلى الحكم فيها، ولما فشلوا في ذلك، حاولوا الانتقام منها بغزوها. وعلى الرغم من أن الملك بورسنا "Porsenna" ملك كلوسيوم تمكن من هزيمة روما وإخضاعها لنفوذه مدة قصيرة. إلا أن العصبة اللاتينية هزمت الأتروسكيين عند أريكيا "Aricia" عام ٥٠٥ ق.م. وأرغمتهم على الانسحاب من اللاتيوم تماماً باستثناء فيداناى "Fidenae".

• روما والحلف الثلاثي:

إثر هزيمة روما أمام بورسنا الأتروسكي تم استبعاد روما من العصبة اللاتينية. وتطور خلافها مع العصبة ليس لفقدانها عضويتها فقط بل لنشوب المعارك بين روما من جهة وبقية أعضاء العصبة من جهة أخرى، وذلك بالقرب من توسكو لوم عند بحيرة رجيلوس في عام ٤٩٩ أو ٤٩٦ ق.م. واستمرت عمليات الكر والفر بين المتحاربين دون تسجيل نصرٍ حاسمٍ. مما أغرى القبائل الجبلية الفقيرة المجاورة على غزو إقليم لاتيوم الغني بموارده الزراعية والرعية. فاضطرت روما والعصبة اللاتينية اتجاء ذلك إلى تسوية خلافتهما نحو عام ٤٩٣ ق.م، وعقد معاهدة تحالف بين الطرفين، وبموجبها أصبح من حق مواطني كل مدينة من المدن الأعضاء في الحلف أن يتمتع بحقي التجارة والتزواج في روما وفي باقي مدن الحلف^(١)، وفي عام ٤٨٦ ق.م. أصبح الحلف

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١١٤.

يشمل بالإضافة إلى روما والعصبة اللاتينية، وقبائل الهرنيكي "Hernici"^(١) أيضاً، وأطلق عليه اسم "الحلف الثلاثي".

• حروب الحلف الثلاثي:

أ- روما والسابينيين: تمكنت روما من إضعاف قوة السابينيين وذلك عقب كسب ود زعيم سابيني يدعى أيتوس كلاوسوس "Attius Clausus" مقابل إعطائه قطعة أرض فيما بين نهري التير والأرنوي، ليستقر فيها مع عشيرته وأتباعه، فضلاً عن منحه حقوق المواطنة الرومانية، ودمجه مع عشيرته في عداد طبقة البطارقة، فكانت نتيجة هذه الدبلوماسية الرومانية إضعاف القوة السابينية ولاسيما بعد عام ٤٦٠ ق.م. وصارت غاراتهم مجرد هجمات على الحدود.

ب- روما والأيكوي والفلولسكي: تعتبر غارات قبائل الأيكوي والفلولسكي، التي واجهتها روما من أكثر الغارات خطورة وأطولها زمناً، تمكن الأيكوي خلالها من احتلال الجزء الجنوبي الساحلي من سهل لاتيوم، إلا أن الرومان وبعد أن أعادوا تنظيم قواتهم العسكرية وزاد عددها في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، تمكنوا أخيراً مع حلفائهم من طرد الأيكوي من قلعة الجيدوس نحو عام ٤٣٠ ق.م. ثم طرد القبائل الفلولسكية من السهل الساحلي اللاتيني.

(١) كان موطن هذه القبائل في وسط الحدود الشرقية لإقليم لاتيوم وتؤلف عصبة بزعامة مدينة أناغنيا.

ت- روما ومدينة فياي الأتروسكية: تقع مدينة فياي "Veii" على بعد عشرين كيلومتراً شمالي روما، وتسيطر على إقليم أكثر غنى واتساعاً من إقليم روما، وتحتفظ بحامية لها في مدينة فيدناي. ولهذا السبب حاولت روما تحرير هذه المدينة الأخيرة من سيطرة فياي الأتروسكية عام ٤٨٠ ق.م. لكنها فشلت في ذلك، ثم ما لبثت أن زادت أعداد الجيش وأعدت تنظيمه، وأنهت حروبها على الأيكوي والفولسكي نحو عام ٤٣٠ ق.م. أحرزت انتصاراً كبيراً على فياي الأتروسكية، واجبرت حاميتها على الجلاء عن فيدناي، ثم لم تكتف روما بطرد فياي الأتروسكية وإجلائها عن فيدناي، بل تحالفت مع أعوانها في الحلف الثلاثي وحاصرت المدينة مدةً طويلةً ما بين ٤٠٥ و ٣٩٦ ق.م. حتى انتهى الأمر أخيراً إلى هزيمتها والاستيلاء عليها كانت النتيجة أنهما ضمت فيدناي إليها، فتضاعفت مساحة الإقليم الروماني، لكن روما في أثناء القتال مع فياي اضطرت إلى الاستعانة بعدد كبير من الجنود والفرسان المتطوعين للخدمة في الجيش على صهوات جيادهم الخاصة. كما أدخلت روما لأول مرة نظام دفع مرتبات للمقاتلين في أثناء الحملات^(١).

٢- الحروب في القرن الثاني من الحكم الجمهوري

عملت روما على توسيع رقعة دولتها بعد أن تخلصت من أعدائها الذين كانوا يحيطون بها من كل جانب وكادوا يقضون عليها، حيث كان على روما أن تستولي على سهل اللاتيوم وتوطد نفوذها فيه نهائياً، وأن تحسم نزاعها مع اللاتينيين فيه، وقد تأثر توسعها في القرن الرابع قبل الميلاد بثلاثة أحداث كان لها الأثر الكبير في تاريخ

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١١٧.

إيطاليا بشكل عام وتاريخ روما بشكل خاص، وهذه الأحداث هي: انخراط أتروريا وتدهورها، انهيار النفوذ الروماني وضعفه وغزوات الغال، ومما لا شك فيه أن انهيار القوى الأتروسكية، وضعف النفوذ اليوناني كان ذا أهمية بالغة في تاريخ روما. إذ إنه أزاح من أمامها قوتين كبيرتين عظيمتي الشأن، كانتا تقفان حجر عثرة في وجه التوسع الروماني وتشاركها الزعامة، كما أن انهيارهما أحدث فراغاً ينبغي ملؤه. وقد أثبتت الغارات الغالية صحة هذا الأمر، وهذا بالضبط ما فعلته روما، وبذلك احتلت المركز الأول بين جميع القوى التي كانت في إيطاليا آنذاك.

ومما لا شك فيه أن الخطر الأكيد الذي هدد روما بالزوال كان الخطر الغالي، إذ يمكن القول إنه السبب الذي أجبرها على مراجعة حساباتها وإعادة تنظيم أمورها، ومراجعة خططها الحربية وإعادة بناء جيشها على أسس جديدة، وإعادة بناء سورها الذي هددته بروسيا^(١).

مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد أخذت قبائل الغال الفرنسية تعبر جبال الألب لتستقر في الشمال الغربي والجنوب الشرقي من وادي البو في شمال إيطاليا. ومن الواضح أن استقرار ثماني قبائل غالية في إقليم إيطاليا الشمالي قد أدى إلى النتائج التالية:

- القضاء تدريجاً على نفوذ الأتروسكيين وسيطرتهم على وادي البو.
- أطلق على الإقليم الشمالي منذ ذلك الوقت اسم غاليا قيس ألبينا "Gallia Cis Alpiina".

• أصبح هذا الإقليم الشمالي مصدر كل خطر على إقليم إيطاليا الجنوبي وأمنه. كان هؤلاء الغال يعيشون على تربية الماشية ويمارسون نوعاً بدائياً من الزراعة ولا يعرفون من الصناعة إلا صناعة المعادن. ويتميزون بالانغماس في الشراب والخصام

^(١) إدوارد جيون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ترجمة محمد علي أبو درة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩، ح ١، ص ٤٨٩-٤٩٠.

والغزوات غير المنتظمة من أجل السلب والمغانم. ونحو عام ٣٩٠ ق.م عبرت جماعة من الغال بقيادة أحد زعمائهم جبال الأبين وحاصرت مدينة كلوسيوم "Clusium" الأتروسكية التي استغاثت بالرومان لمساعدتها، فبعث مجلس الشيوخ الروماني رسلاً إلى الغال يدعوهم إلى الانسحاب. فما كان من هؤلاء إلا أن اعتبروا تدخل الرومان في شؤونهم تحدياً لهم، واستدعوا إمدادات جديدة لدعمهم هاجموا بها روما عام ٣٨٧ ق.م. حيث واجهوا الرومان وحلفاءهم اللاتين على ضفاف نهر ألبا أحد روافد نهر التير. فجرت معركة كبيرة انهزم فيها الرومان واللاتين بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة.

ولو تابعت القبائل الغالية طريقها نحو روما لاحتلالها لأنها كانت خالية وبدون أسوار، لنجحت في ذلك إلا أن انشغال الغال في أرض المعركة لجمع الغنائم أتاح لفريق من الإيطاليين الفرصة للجوء إلى تل فاييتو لينوسس "Fabitolinas" المنيع، وعندما تابع الغال زحفهم إلى روما دخلوها دون مقاومة فنهبوا وخرّبوا ما وصلت إليه أيديهم. وحاصروا تل فاييتو لينوسس سبعة أشهر حتى أرغموا المحاصرين على الاستسلام، ولما لم يقو الغال على فتح حصن الكايبيتول رضوا بالفدية التي بلغت سبعة آلاف رطل من الذهب وانسحبوا من روما^(١)، وذلك لأن هدفهم كان السلب والنهب فقط ولم يكن الفتح والاستقرار.

أحاط الرومان مدينتهم بعد انسحاب الغال بسورٍ من الحجارة خوفاً عليها من تكرار غارات الغالين، وأعادوا تنظيم جيشهم بزيادة عدد الفرسان والمشاة حتى انتظموا في فرقتين، وأعادوا تسليحه بما يتلاءم مع الظروف والأحياء المحيطة بهم، ولما تجددت غارات الغال على إقليم اللاتيوم عام ٣٦٠ ق.م، فضّل الرومان عدم الاشتباك معهم. لكن تكرار الإغارات دفع الرومان وحلفاءهم إلى التصدي للغال وأجبروهم

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٢٠.

على التراجع من حيث أتوا. عقدت روما مع إحدى القبائل الغالية التي كانت تتزعم الإغارات معاهدة صلح لتبدأ بين الطرفين فترة سلم دامت حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد^(١).

٣- روما تسيطر على أواسط شبه الجزيرة الإيطالية:

أ- روما والأتروسكيون:

كان انتصار الغال على روما في أليا "Allia" تشجيعاً قوياً للأتروسكيين والأيكوي والفولسكي وحتى بعض اللاتين على تحدي روما، لكن الرومان فاجؤوا أعداءهم واحداً تلو آخر بضربات شديدة. فما إن حاولت المدينتان الأتروسكيتان فاليري وتاركوني الاستيلاء على إقليم حليفتهما السابقة فياي حتى هزماه الرومان وأحكموا سيطرتهم جيداً على المنطقة الجنوبية من أتروريا، حيث وزعوا جزءاً من أراضي المنطقة على مواطنيهم الفقراء الذين كانوا ينتمون إلى أربع قبائل ريفية. أنشؤوا في الجزء الباقي من هاتين المنطقتين مستعمرتين لاتينيتين، هما: سوتريوم "Sutrium" في عام ٣٨٣ ق.م. ومستعمرة نبيتي "Nepete" عام ٣٧٣ ق.م. وعلى الرغم من هذا فقد ظل الأتروسكيون يقاتلون الرومان حتى عام ٣٥١ ق.م، وذلك عندما هزموا هزيمة كبيرة اضطرهم لقبول الصلح الذي دام مدة أربعين عاماً.

ب- روما والأيكوي والفولسكي:

وفيما يتصل بالأيكوي والهرنيكي التي سولت لهما نفسيهما مناصبة العداء لروما. فقد جاء الرد عنيفاً وقاسياً وما كان من روما إلا أن لقتنهما درساً قاسياً في عام

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٣٥-٣٦.

٣٨٠ هجم مبالغ عليهما. ردت روما على محاولات الفولسكي لاستعادة جنوب لاتيوم والرغبة في الاستقلال، بضربة حاسمة وأنزلت بهم أقصى الهزائم واستطاعت في عام ٣٥٨ ق.م. أن تضم جزءاً كبيراً من إقليمهم إلى الدولة الرومانية، وأن تنشئ مستعمرتين رومانيتين كونتا قبيلتين ريفيتين آخرين، ولكن الفولسكي لم يهدؤوا ويجنحوا للسلم مع الرومان إلا بعد سقوط مدينتهم الرئيسية أنتيوم "Antium" في عام ٣٣٨ ق.م.

ج- روما ومدن لاتيوم وكمبانيا:

ومع ذلك حاولت بعض المدن اللاتينية أيضاً وبتشجيع من الفولسكي والهرنيكي أن تنقض تحالفاتها مع روما وتناصبها العداء، فتصدت روما لهذه المحاولة بشجاعة كبيرة، وأجبرت هذه المدن اللاتينية مع باقي مدن الإقليم على تجديد معاهدة فاسيوس معها في عام ٣٥١ ق.م. إلا أن هذه المدن اللاتينية جميعاً عادت ووقفت ضد روما وقفةً موحدةً، وذلك لأسباب عديدة ويأتي في مقدمة هذه الأسباب:

- أن روما لم تعتمد المناوبة في القيادة، عند تجديد معاهدة فاسيوس بينهم وبين الرومان عام ٣٥٨ ق.م.
- عندما انتصرت روما على الفولسكي في العام نفسه وضمت جزءاً من إقليمهم لم يحصل الحلفاء على أي جزء.
- عندما عقدت روما عام ٣٥٤ ق.م. معاهدة مع السمينيين في الجنوب الشرقي أحسوا أنهم محاصرون.
- عندما عقدت روما معاهدة مع قرطاجة عام ٣٤٨ ق.م. تعهدت روما بعدم الاعتداء على منطقة نفوذ قرطاجة، كما تعهدت قرطاجة بعدم الاعتداء على شواطئ لاتيوم. وهذا معناه أن روما صاحبة السيادة في لاتيوم.

وإزاء هذه الأسباب تحالفت المدن اللاتينية مع مدن كمبانيا الشمالية، وطلبت من الرومان إعادة العمل بمعاهدة قاسيوس الأولى التي تجعل كلاً من اللاتين والرومان على قدم المساواة. ولما رفض الرومان ذلك، اشتبك الفريقان فيما يسمى "بحرب اللاتين الكبرى" التي دامت ثلاث سنوات ٣٤٠-٣٣٨ ق.م. هزم فيها الرومان المدن اللاتينية، وأجبروا كل مدينة على حدة على أن توقع معهم معاهدة بالشروط التي تراها روما مناسبة لها. وبموجب هذه الشروط فقدت خمس مدن لاتينية استقلالها، إذ تم دمجها بالدولة الرومانية. في حين احتفظت المدن الباقية، وكذلك المستعمرات اللاتينية باستقلالها في مقابل تقديم قوات عسكرية إلى روما كلما دعت الحاجة إلى ذلك. كما سلبتها حقي التجارة والتزاوج بين المدن اللاتينية بعضها مع بعض بينما احتفظت بهذين الحقين بين المدن اللاتينية وبين روما فقط، فضلاً على أنه لا يحق لأي مدينة من المدن اللاتينية عقد أي تحالف من أي نوع فيما بينها.

وإمعاناً في عزل المدن اللاتينية بعضها عن بعض وعن العالم الخارجي لجأت روما إلى إقامة مستعمرات على شواطئ إقليم لاتيوم. ومنعت أي مواطن لاتيني من الإقامة فيها^(١).

في ذات الوقت الذي سيطرت فيه روما على إقليم لاتيوم، وقامت بإغراء المدن اللاتينية على نقض تحالفها مع مدن كمبانيا التي تخشى من هجوم السمينيين عليها، وبذلك لم تجد روما صعوبة في ربط مدن كمبانيا بها مقابل:

- أن تحتفظ المدن الكمبانية باستقلالها المحلي ودساتيرها وقوانينها إلا إذا رأت استبدالها بالنظم والقوانين الرومانية.
- وأن تكتسب هذه المدن حق المواطنة الخاصة دون العامة.

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٢٣.

- وأن تلتزم المدن الكمبانية موافقة مواطنيها على أداء الخدمة العسكرية في الجيوش الرومانية كالرومان، وتحقيقاً لهذه المكاسب ولأجل التواصل مع كمبانيا أنشأت روما مستعمرتي كالس "Cales" وفرجلاي "Fergellues"^(١)، في موقعين إستراتيجيين أولهما في عام ٣٣٤، وثانيهما في عام ٣٢٨ ق.م.^(٢)

د- روما والسمنيون:

بينما كان السمنيون منهمكين في حربهم ضد مدينة تارنتم، كبرى المدن الإغريقية، ما بين ٣٣٤ و ٣٣١ ق.م. عقدت روما معاهدة معها في العام ٣٣٤ ق.م. والتزمت بمقتضاها فقط عدم تقديم أية مساعدة لحلفائهم السمنيين. بينما قام الملك بيروس "Pirus" ملك شبه جزيرة أيبروس "Epirus" الإغريقية على الأدرياتيك بتقديم المساعدة لتارنتم التي تمكنت من الانتصار على السمنيين. لكن السمنيين الذين عقدوا صلحاً مع تارنتم بعد الحرب وجهوا اهتمامهم نحو كمبانيا، واستأنفوا الحرب ضد الرومان للأسباب التالية:

- أولاً- أن الرومان دمجوا مدن كمبانيا الشمالية في دولتهم عام ٣٣٨ ق.م.
- ثانياً- أن الرومان تحاربوا مع تارنتم في عام ٣٣٤ ق.م. حين كانت تحارب السمنيين.
- أن المستعمرتين اللتين أقامتهما روما: الأولى في عام ٣٣٤ ق.م. عند فالس على حدود كمبانيا، والثانية في عام ٣٣٨ ق.م. عند فرجلاي في وادي نهر ليريس، تعتبران سداً مانعاً لزحف السمنيين على كمبانيا.

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٢٣.

^(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٣٨-٣٩.

وفي عام ٣٢٧ ق.م. تدخل السمنيون مع أحد الحزبين المتصارعين في مدينة نيابوليس "Neapolis" الإغريقية، ووضعوا حامية لهم في المدينة. وقد أفرغ هذا التدخل مدينة كابوا "Capua" التي ناشدت الرومان من أجل المساعدة. فافتحم الرومان مدينة نيابوليس وطرّدوا السمنيين منها وجعلوا المدينة حليفة لهم. ثم استولوا على روفريوم "Rufrium" واليافي "Allifae" الواقعتين على حدود سامنيوم "Samnium" أي إقليم السامنيوم، وهكذا لم يعد ثمة مفر من وقوع صدام طويل الأمد بين الرومان والسمنيين، أقوى قوتين عسكريتين في شبه الجزيرة الإيطالية آنذاك. وقد مرت تلك الحرب بمرحلتين:

أ- المرحلة الأولى من عام ٣٢٦ إلى ٣٠٤ ق.م.:

وفي بداية هذه المرحلة أحرز الرومان بعض الانتصارات إلا أنهم خسروا المعركة عندما حاولوا تطويق السمنيين من الخلف عن طريق أبوليا في عام ٣٢١ ق.م، إذ إنَّ السمنيين كانوا لهم بالمرصاد حيث أوقعوا الجيش الروماني في كمين ضيق يعرف باسم شعاب كاوديوم "Furculae Caudium" بين مدينتي كابوا وبنفنتوم^(١) "Beneventum" وانتهت المعركة بإرغام الجيش على التسليم ولم يفك أسره إلا بعد أن عقدت روما صلحاً مع السمنيين تعهدت فيه لهم بالتنازل عن فرجلاي، وبعد قتلهم ثانية.

لجأ الرومان إلى إعادة تنظيم الجيش الروماني، كعادتهم بعد كل خسارة كبيرة تلحق بهم. فزادوا عدد مشاة جيشهم حتى صار يتألف من أربع فرق، عدد كل منها ٤٢٠٠ مقاتل. وفرضوا على المدن الحليفة الإسهام بعدد مماثل من المقاتلين. هذا يعني أنه صار بمقدور الرومان تجنيد جيش منهم ومن حلفائهم يتراوح ما بين ٣٥ ألف و ٤٠

^(١) ماري ماغريغور: التاريخ الروماني، ص ٢٨.

ألف مقاتل يستطيعون من خلاله نقض صلح كلوديوم "Caudium Foedus" في عام ٣١٥ ق.م. واستئناف الهجوم على السمينيين من الخلف عن طريق أبوليا. لكن السمينيين ردوا على الرومان بأن قطعوا الطريق الساحلي للإمدادات، ولما حاول الرومان إرسال قوة لاستعادة السيطرة على الطريق الساحلي أصيبت قوتهم بهزيمة هزت ولاء حلفائهم في كمبانيا. وقبل أن تتسع الفتنة تمكن الرومان في العام التالي ٣١٤ ق.م من طرد السمينيين من تاراكيينا على الساحل، الأمر الذي جعل كابلو تسارع بالاستسلام إلى الرومان. ثم أنشأ الرومان بعد ذلك أشهر طرقهم العامة المرصوفة، وهو طريق أبيوس الذي كان يسهل لهم كل اتصال.

ولما ضيق الرومان الخناق على السمينيين عمل هؤلاء على تفريق حلفاء الرومان عنهم. فبادروا إلى تحريض فاليري وتارموني عام ٣١١ ق.م. على مهاجمة إقليم أتروريا بعد انتهاء عقد الصلح معها. وفي العام التالي حرضوا قبائل الهرنيقي والأيكوي والبالحني على رفض تحالفهم مع الرومان. فما كان من الرومان إلا أن عاجلوا الأتروسكيين خلال سنوات ٣١٠ و ٣٠٨ ق.م. وذلك بإجبارهم على عقد الصلح مع الرومان^(١)، وأرغموا عصبة المدن الأتروسكية على عقد هدنة تجدد سنوياً لمدة عشرين عاماً. كما أرغموا الهرنيقي والأيكوي والبالحني أيضاً على التسليم لروما.

ولم يأت العام ٣٠٤ ق.م حتى اضطر السمينيون للاحتفاظ باستقلالهم الداخلي، وبما يملكون فقط فيما عدا بعض أقاليم الحدود. والسبب أن السمينيين كانوا لا يزالون قوة يتطلب القضاء عليها بذل مجهود كبير.

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٨٣.

٤- حروب روما في القرن الثالث من الحكم الجمهوري:

أ- المرحلة الثانية من الحرب ضد السمينيين (٢٩٨-٢٩٠ ق.م.):

بدأت المرحلة الثانية، من الحرب بين السمينيين والرومان، عندما انقسم اللوقانيون إلى فريقين، ناصر الرومان فريقاً، وناصر السمينيون فريقاً آخر، ولما أرسلت روما قوة من جيشها طردت السمينيين من لوكانيا في عام ٢٩٨ ق.م اعتبر السمينيون ذلك إيذاناً ببداية الحرب بينهما.

ووجد السمينيون أنفسهم محاصرين من قبل الرومان، فردوا على روما بعقد تحالف مع السابينيين من قبيلة السنونس الغالية مع بعض المدن الأتروسكية، لكن الرومان تمكنوا من الانتصار على هذه الجبهة عند سنتيوم "Sentinum" في عام ٢٩٥ ق.م، وبقيت المدن الأتروسكية لقمة سائغة للرومان إلى هزمت روما المدن الأتروسكية وأرغمتها على عقد الصلح معها، الأمر الذي فرغها لحرب استتراف مع السمينيين، أدت هذه الحرب المتكررة على عدة جبهات إلى طلب السمينيين للصلح مع الرومان الذين استجابوا له لقاء تنازلهم عن جزء من إقليمهم وبشرط أن يصبحوا حلفاء لروما عام ٢٩٥ ق.م. وعندها استفردت روما بالسابينيين، وصفت حسابها معهم وضمت إقليمهم ومنحت مواطنيهم حقوق المواطنة الرومانية الخاصة.

لكن قبيلة السنونس الغالية بقيت تشكل خطراً على روما وخاصة عندما أغارت على أتروريا وحاصرت مدينة أرتيوم "Artetium" في عام ٢٨٤ ق.م. فما كان من الرومان إلا أن أرسلوا قوة منهم لنجدة المدينة المحاصرة، وغزو إقليم السنونس الغالي واحتلوه وخربوه وحولوه إلى صحراء غير صالحة للزراعة لمدة خمسين عاماً. وفي العام ٢٨٣ ق.م. قضى الرومان على قبيلة بوبي الغالية، وأجبروها على طلب الصلح هي الأخرى، ثم أرغموا بعض المدن الأتروسكية على التسليم لروما، واستغلت الفرصة

عندما انشغلت روما بجروها الجانبية ، وهكذا وافق الرومان عام ٢٨٠ ق.م. على الصلح أيضاً، وصاروا أسياد أواسط شبه الجزيرة الإيطالية وشمالها أيضاً^(١).

ب- روما تسيطر على جنوب شبه الجزيرة الإيطالية:

دأبت بعض القبائل من أبوليا ولوكانيا بعد انهيار إمبراطورية سراقوسة في عام ٣٦٧ ق.م. على الاعتداء على المدن الإغريقية في شبه جزيرة إيطاليا. فتزعمت تارنتم المدن الإغريقية وأخذت على نفسها مهمة الدفاع عنها مستعينة بملك إسبرطة الذي قتل في مواجهة اللوقانيين في عام ٣٣٨ ق.م. ثم استعانت تارنتم بملك أبيروس في عام ٣٣٤ ق.م، وأخيراً بملك إسبرطة في عام ٣٠٣ ق.م. وأجبرت اللوقانيين على عقد الصلح نحو عام ٢٩٨ ق.م. وقد آزر طاغية سراقوسة إغريق إيطاليا، لكنه عندما مات في عام ٢٩٨ ق.م. لم يبق لدى الإغريق من يحميهم، لذلك طلبت مدينة توري "Thuri" مساعدة الرومان ضد اللوقانيين عندما هاجموا، فأرسل الرومان حامية إلى توري في عام ٢٨٢ ق.م. من البر والبحر حيث هزمت اللوقانيين وحلفاءهم.

والحقيقة أن مدينة تارنتم، وهي كبرى المدن الإغريقية، اعتبرت هذا التدخل من جانب الرومان تحدياً للمدينة، ولاسيما عندما دخلت عشر سفن رومانية خليج تارنتم في عام ٢٨٢ ق.م. ورأت أن هذا العمل يعتبر أيضاً خرقاً لمعاهدة التحالف المعقودة بينهما في عام ٣٣٤ ق.م. وكانت تنص على عدم دخول القوات الرومانية إلى هذا الخليج، وعلى الفور قامت تارنتم بإغراق بعض السفن الرومانية واستولت على بعضها الآخر، وطردت الحامية الرومانية من مدينة توري واحتلتها بمساعدة

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٤٠-٤١.

بيروس "Pyrrhus" ملك إبيروس وجيشه^(١). فاحتجت روما لدى تارنتم مطالبة بتعويضات لكن الأخيرة، رفضت طلب روما، وأهانت سفراءها إهانة بالغة.

ومن البديهي أن الرومان لن يقفوا مكتوفي الأيدي ويسكتوا عما حدث ، ولهذا قرروا مواجهة تارنتم وبيروس الذي اصطحب جيشاً مؤلفاً من ٢٠ ألف مقاتل من المشاة وثلاثة آلاف فارس وألفين من رماة السهام، وكانوا مدرّبين أفضل تدريب ومجهزين بأحدث الأسلحة المعروفة آنذاك، فضلاً عن عشرين فيلاً تدخل المعركة لأول مرة في إيطاليا. وهكذا دارت المعركة الأولى في عام ٢٨٠ ق.م عند هركليا على شاطئ خليج تارنتوم حيث انهزمت فيها روما أمام بيروس وتارنتم، ورفضت الصلح الذي عرضه عليها مقابل أن تتخلى عن جنوب إيطاليا بالكامل. ثم ألحق بيروس بروما هزيمة ثانية في عام ٢٧٩ ق.م عند أوسكولوم "Ausculum" في أبوليا. وقد سارت المفاوضات بنجاح وفي أثناء الاتفاق على بعض بنود الصلح بينهما أسرع قرطاجة بإرسال سفرائها إلى روما ليعرضوا عليها المساعدة بالأموال والسفن حتى لا تسمح لبيروس بالتدخل في صقلية، فرفضت روما في عام ٢٧٩ ق.م. مصلحة بيروس وعقدت مع قرطاجة معاهدة عسكرية اتفق فيها الطرفان على:

- أولاً: أن يتعاون الأسطول القرطاجي فوراً مع الرومان.
 - ثانياً: أنه لا يحق للقرطاجيين اتخاذ قواعد دائمة في إيطاليا.
 - ثالثاً: أنه في حال إبرام أحد الطرفين معاهدة مع العدو المشترك يجب أن يحتفظ لنفسه في هذه المعاهدة بحق مساعدة الطرف الآخر إذا تعرضت أراضيها للغزو.
- وقرر بيروس نجدة إغريق صقلية الذين وقعوا بعد وفاة أجاثوفلس طاغية سراقوسة في عام ٢٨٩ ق.م. بين خطرين:

(1) P. Lévêque, Pyrrhos, Paris 1957, p 138.

الأول: خطر القرطاجيين الذين انتهزوا فرصة وفاته، وجددوا هجماتهم على المدن الإغريقية.

ثانياً: خطر الكمبانيين المأجورين الذين تركوا خدمة سراقوسة بعد وفاة مولاهم، واستولوا على مسينا، وجعلوها قاعدة لإغارتهم على المدن الإغريقية في صقلية. لذلك جاء إلى صقلية في عام ٢٧٨ ق.م. ووجه جل اهتماماته لمحاربة القرطاجيين على مدى ثلاث سنوات، حتى أرغمهم على التخلي عن كل ممتلكاتهم فيما عدا ليلييوم "Lilyhaeum". وكاد الصراع ينتقل إلى إفريقية لولا تخلي حلفائه عنه وعقدهم الصلح مع القرطاجيين، الأمر الذي جعله يغادر صقلية في عام ٢٧٥ ق.م. عائداً إلى حلفائه في جنوب إيطاليا. وفي إيطاليا أعاد تنظيم قواته لينقض على جيش روماني كان قد زحف إلى سامنيوم ووصل حتى بنفنتوم "Beneventum" لكن خطته فشلت. فانسحب إلى تارنتم، ثم إلى بلاده الأصلية ليحقق ما عجز عن تحقيقه في إيطاليا، باحتلال مقدونيا وتأسيس إمبراطورية كبيرة، وخاصة أن الظروف السائدة في بلاد الإغريق آنذاك كانت مناسبة له للاستيلاء على مقدونيا^(١)، لكنه قتل في ميدان المعركة ببلاد الإغريق عام ٢٧٢ ق.م. وصادف أن أرسل قبيل وفاته في طلب حامية تارنتم، فسلمت هذه الحامية المدينة للرومان لتضمن خروجها بسلام، فوضع الرومان في تارنتم حامية رومانية دائمة، وتفرغوا للقضاء على اللوكانيين والسمينيين وحلفائهم من القبائل السابلية، واستولوا على قسم كبير من أقاليمهم حيث أقاموا فيها عدداً من المستعمرات في جنوبي إيطاليا. ولم يبدأ عام ٢٦٥ ق.م. حتى كانت شبه جزيرة إيطاليا بأجمعها تعترف بسيادة روما.

وأمام هذا النصر الكبير ورث الرومان التراث التجاري لتارنتم بعد سقوطها، وأصبحوا يشرفون على التجارة في البحر الأدرياتيكي. غير أن إخضاعهم للجنوب

(١) ماري ماغريغور: التاريخ الروماني، ص ٣١.

كان يعني أيضاً أنهم أصبحوا في مواجهة صريحة مع القوى البحرية التي كانت لها الغلبة في البحر الأبيض المتوسط منذ فترة طويلة، ونقصد بالتحديد قرطاج التي أخذت تتخوف من الزحف الروماني الذي اكتسح إيطاليا، ونجح في توحيدها محولاً إياها إلى قوة سياسية قد تعرض مصالح قرطاج الاقتصادية والإستراتيجية للخطر. وإذا كان سقوط تارنتم يعني نهاية الصراع على الزعامة في إيطاليا فهو يعتبر مؤشراً على بداية عهد جديد تميز بالصراع حول السلطة على البحر الأبيض المتوسط^(١).

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١١٥.

ثالثاً- تنظيم إيطاليا بعد توحيدها من قبل الرومان:

وجدت روما نفسها أمام مشكلة تنظيم سياسي يتلاءم مع التوحيد العسكري داخل شبه جزيرة إيطاليا وخارجها حيث بلغت مساحتها ٨٣ ألف كيلو متر مربع، منها ١٦ ألف مساحة الإقليم الروماني الذي توسع نتيجة ضم الأراضي المصادرة إليه، وكان عدد سكان الإقليم الروماني في القرن الثالث قبل الميلاد نحو المليون نسمة. في حين بلغ عدد سكان الأقاليم ومساحتها ٦٧ ألف كيلو متر مربع نحو المليونين وجميعهم يخضعون للسيادة الرومانية^(١).

ومنذ أن وقعت روما معاهدة عام ٢٧٢ ق.م مع تارنتم لم يعد ثمة شعب أو مدينة في إيطالية جنوب نهر الأرنو يتمتع باستقلال حقيقي، فقد أصبحت جميع شعوب المنطقة خاضعةً لروما بشكل أو بآخر باعتبار أن روما كانت تحتل مركز القوة، ونظراً لتعدد أشكال الارتباط والتبعية بين المدن الإيطالية وروما فإنه لا يوجد مصطلح يمكن أن يطلق على هذه الكتلة السياسية التي اكتملت وحدة أشلائها في القرن الثالث قبل الميلاد. إذ يطلق عليها بعض المؤرخين اسم الفدرالية الإيطالية وهو اسم لا يمكنه أن يجسد إلا جزءاً من الروابط التي كانت تجمع روما ببعض المدن. أما الرومان أنفسهم والمؤرخون اللاتينيون فقد اعتادوا أن اسم هذه الشعوب الموحدة "الرومان واللاتينيون وحلفاؤهم الإيطاليون" فهذه التسميات تعبر بشكل دقيق نسبياً عن مختلف أشكال الروابط القانونية التي تربط روما بالمدن والشعوب التي أصبحت تحت سيطرتها.

والواقع أنه إذا كان التوسع الروماني قد تم عبر مراحل واستمر مدة طويلة من الزمن وتمخضت هذه المراحل عن إفراز إيطاليا الموحدة في القرن الثالث قبل الميلاد فإن تنظيم هذا الخليط الإيطالي لم يكن وليد خطة مهيأة، ولم يولد بين عشية وضحاها، بل

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٤٥.

جاء نتيجة قرارات اتخذها روما حسب الظروف المحلية التي فرضتها تطورات الفتح. ثم إن التوسع التدريجي في إيطاليا كان يعني توسيع دائرة التراب الروماني، وهذا يفرض على روما ضرورة أن تعيد تنظيم نفسها. ففي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد أصبحت روما قوة متوسطة في حين بقي تنظيمها السياسي هو نفس تنظيم دولة المدينة. التي امتدت لتشمل بقعة تمثل عشر مساحة إيطاليا كما تسيطر على الأجزاء التسعة الباقية. وقد كان هذا التوسع الكبير يحمل تناقضاً مع مبادئ التنظيم السياسي التقليدي في دولة المدينة، فمعلوم أن دويلة المدينة تتكون من المدينة التي تشكل مركز التجمع والبادية التي تحيط بها، ويشارك كل مواطنيها في تسيير الشؤون السياسية عبر مؤسساتها، وهذا لم يعد يتطابق مع الواقع الجديد في روما لاسيما مع اتساع رقعتها، لذا بات من الضروري بمكان إيجاد حلول من شأنها أن تسمو بالتنظيم السياسي إلى مستوى الدولة الجديدة.

وعلى أية حال كانت علاقة روما بكل قطعة أرضية مفتوحة تتحدد بحسب وضعية ساكنيها القانونية، ولقد طبقت روما نظامين متوازيين حسب الظروف القائمة في المناطق المفتوحة وهما: نظام الإلحاق ونظام الفدرالية.

أ- نظام الإلحاق "Annexion":

لقد تبنت روما هذا النظام في عهدها الأول وطبقته أول الأمر في اللاتيوم، إلا أنه خضع لبعض التطورات فيما بعد سواء من حيث الشكل أو من حيث طرق التطبيق، أما فيما يتعلق بالعلاقة التي تربط روما بالمدن التي انهزمت أمامها فيحدها ذلك التقليد الذي تستسلم بموجبه المدينة المهزومة للمنتصر والذي يصطلح عليه بـ

"Deditio in fidem"^(١). ومعنى ذلك أن يصبح المهزوم من ممتلكات المنتصر يحق له أن يتصرف به وبأمواله كيفما يشاء. وغالباً ما كانت روما تستجيب للمستسلم، ويقوم مجلس الشيوخ أو القائد العسكري الذي يشرف على العمليات الحربية باتخاذ القرار المناسب في التعامل مع المدينة المهزومة، والتي وفي كل الأحوال تخضع لسلطة روما مقابل أن تتمتع بحمايتها لها، فهي خاضعة لسلطتها لأن الفضل في استمراريتها يرجع لروما التي منحتها حق الحياة، ولذلك تجب عليها الطاعة، وتمتعة بحمايتها لأن روما التزمت حماية المدينة عندما أعلنت استسلامها. إذاً نستطيع القول: إن علاقة روما بالمدينة المهزومة قائمة على حسن النية والثقة المتبادلة، كما هو الشأن تماماً بين البطرقي وتابعه، وذلك هو المضمون الروحي للمعاهدة التي تعقد بين الطرفين.

وقد طبقت روما في تعاملها مع المدينة المستسلمة في البداية طريقتين مختلفتين: يقوم الرومان بضم أراضي المدينة إلى تراهم الوطني، أما السكان فإما أن يبيدوهم عن طريق القتل الجماعي وإما أن يباعوا في سوق النخاسة وإما أن يتم ترحيلهم إلى روما، وهذه الصيغة الأخيرة هي الصيغة الراجحة باعتبار أنها تحمل ثلاث نتائج إيجابية:

١. توسيع الأراضي الرومانية.

٢. زيادة عدد سكان روما.

٣. الحصول على الأمن المطلق في المنطقة.

هذه هي الطريقة التي اتبعتها روما في معاملة المدن المحيطة بها خلال الفترة الملكية كبوليتوريوم وتلين، وخصوصاً مدينة ألبا. أما الطبقة الأرستقراطية فكانت إذا ما أعلنت خضوعها في الوقت المناسب تمنح حق المواطنة الرومانية.

^(١) في بعض الأحيان كانت بعض المدن تلجأ إلى هذه الصيغة دون أن تكون قد تحاربت مع روما في موقعة ما، بل لمجرد أن تصبح في حمايتها، وذلك شأن كابوا مثلاً.

وتتمثل الطريقة الأخرى التي يستخدمونها الرومان في إلحاق أراضي المدينة المهزومة بهم دون أن يرحلوا سكانها. وفي هذه الحالة تقوم الدولة بمصادرة جزء من أراضيها يتراوح بين النصف والثلثين وتحوله إلى أراضٍ عمومية، أي إنها تصبح ملكاً للدولة الرومانية التي تتصرف فيها بالشكل الذي يحلو لها، ومع حلول القرن الرابع قبل الميلاد، وهو قرن الفتوحات الرومانية في إيطاليا الوسطى خصوصاً، تطورت هذه الصيغة ليظهر نظام المستلحقة "Municipium". فالمدينة المهزومة تفقد استقلالها الخارجي بحيث لا يمكنها أن ترتبط بعلاقات مع الشعوب الأخرى، ولكنها تحافظ على نوع من الاستقلال الذاتي بالشكل الذي يمكنها من الاحتفاظ بجزء كبير من مؤسساتها المحلية. أما سكانها فإنهم يحصلون على حق المواطنة الجزئي، ويتمتعون بالحقوق المدنية الأساسية كحق الزواج من الرومانيات وحق الملكية، ولكنهم يحرمون من الحقوق السياسية كحق الانتخاب وحق الترشح لمزاولة مهام الدولة، ومقابل حق المواطنة الجزئي هذا يلزم سكان المستعمرة بدفع الضرائب والخدمة العسكرية على غرار باقي المواطنين الرومانيين. ولذلك اصطلح على تسميتهم بالمستلحقين "Municipies" وهي كلمة لاتينية تعني تلك الجماعة من الناس التي تسهم في المصاريف العامة. وكانت هذه الصيغة تسمح لحكام روما بزيادة قوة مدينتهم من حيث عدد سكانها ومن حيث رقعة أراضيها ومن حيث أعداد جيشها ومداخيل خزيرتها، وفي الوقت نفسه تمنع المدن المستلحقة من التأثير في اتخاذ القرار السياسي مادامت محرومة مبدئياً من الحقوق السياسية^(١).

أما الأراضي المصادرة فهي لا تبقى بالطبع مهجورة، بل غالباً ما تقوم الدولة بمنحها لأفراد من أصل روماني خالص يستقرون فوق أراضي المدينة المهزومة. وهكذا ظهرت بعض الجماعات السكانية التي تمتع بحقوق المواطنة الكاملة في مختلف المناطق

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١١٥-١١٨.

الإيطالية. وفي بعض الأحيان تقوم الدولة بخلق قرى صغيرة "Fora" خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بتكليف جماعة ما أعمال صيانة الطرق الرئيسية إذ تمنحهم حق استغلال جزء من أراضي الدولة مقابل تلك الأعمال. وطبعاً، ففي هذه القرى كما هو الشأن في المستلحقات اختلط المواطنون الرومانيون بعناصر أخرى غير رومانية. إلا أن هذه الازدواجية الأثنية والقانونية لن تستمر طويلاً. إذ سرعان ما نتج عن التفاعل بين هذه العناصر الإيطالية والرومانية أن شملت الرومنة بمعناها الثقافي والسياسي جميع سكان المستلحقات، فعن طريق منح حق الانتخاب للأفراد والجماعات حصل سكان المستلحقات على حقوق المواطنة الكاملة مع حفاظهم على خصوصياتهم الدينية والمؤسسية، وأسهموا في الحياة السياسية الرومانية كباقي المواطنين. وتعتبر مدينة كابوا خير مثال لهذا التطور، ففي عام ٣٤٣ ق.م. استسلمت. بمحض إرادتها لروما كنتيجة لصراع ما. وفي غضون سنوات قليلة أصبحت مستلحقة بعد أن حصل أفرادها على حق المواطنة الجزئية، أي إنهم حصلوا على الحقوق المدنية دون السياسية. وتم تجنيد سكانها في الجيش الروماني باعتبارهم مواطنين، وأخذ أن الاندماج بين ساكنيها والرومان يتم تدريجياً إلى أن أصبح هؤلاء يتمتعون بالحقوق السياسية التي حولتهم الحق في حمل صفة المواطنة الكاملة، وعلى كل حال فإن تطبيق سياسة الإدماج هذه قد نجح في فترة التوسع الروماني مقتصرًا على المناطق القريبة من روما التي يمكن حصرها في إيطاليا الوسطى وخصوصاً سهل اللاتيوم والكامبانيا. أما حينما أخذت دائرة النفوذ الروماني تتسع بوتيرة سريعة فنجد أن روما قد تخلت عن هذه السياسة، واعتمدت على إقامة المستعمرات لتحافظ على مركزية العنصر الروماني.

والمستعمرة عبارة عن مدينة تؤسسها روما في منطقة ما لأسباب اقتصادية أو إستراتيجية أو سياسية، وتتم عملية التأسيس حسب تقاليد وعادات دأبت سلطات روما على احترامها، إذ كانت ترسل مجموعة من المعمرين تحت قيادة لجنة مشكلة من

ثلاثة حكام يقومون باختيار جزء من الأرض العمومية وتوزع على المعمرين بالتساوي ثم يخططون بقعة لإنشاء المستعمرة التي تحتل مركز الأرض المخصصة للمشروع. ويمكن التمييز بين نوعين من المستعمرات:

- **المستعمرة الرومانية:** وهي التي يتمتع سكانها بحق المواطنة الكاملة ويشكلون بذلك تجمعاً بشرياً رومانياً خارج حدود روما. وقد ظل الهدف من إنشاء هذا النوع من المستعمرات استراتيجياً وعسكرياً حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، حيث أقيم أغلبها على السواحل لحماية أمن الأراضي الرومانية، وكانت هذه المستعمرات التي لا تضم عادة أعداداً كبيرة من السكان عبارة عن صورة مصغرة لروما، إذ أنها تكون مشكّلة من المواطنين الرومانيين فقط وتكون مؤسساتها المحلية مماثلة لمؤسسات المدينة الأم، فلها مجلس الشعب ويقوم حكامها بدور القناصل، إضافة إلى مجلس الشيوخ والكهان وتتمتع بحرية تامة في مجال التسيير الإداري.

- **المستعمرة اللاتينية:** وهي أكثر عدداً من سابقتها، وتتميز عن الأولى بكون معمرها لا يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة بل بالحقوق المدنية فقط، بإمكانهم أن يستقروا في روما، وأن يحصلوا آنذاك على الحقوق السياسية. فوضعيتهم القانونية شبيهة بوضعية المدن اللاتينية في الفترة التي كانت موحدة مع روما في عصبة واحدة، وهذا يفسر لنا أصل تسميتها بالمستعمرات اللاتينية، وغالباً ما كانت هذه المستعمرات تضم أعداداً كبيرة من المعمرين بالمقارنة مع سابقتها، وهي تتمتع باستقلال ذاتي، وتضم مؤسسات خاصة بها، وهي تسهم مالياً وعسكرياً في جهود روما الحربية، وعلى العكس من المستعمرات الرومانية

فقد تم إنشاء أغلب هذه المستعمرات في المناطق الداخلية، وكان دورها اقتصادياً أكثر منه عسكرياً أو إستراتيجياً، ونقصد بذلك (استغلال الأراضي).

ب- النظام الفدرالي:

ويسود هذا النظام في الأراضي التي تم فتحها ولم تلحق بالأراضي الرومانية، ولكنها أصبحت خاضعة لسلطة روما السياسية، وتتميز بخاصيتين أساسيتين: أن سكانها لا يتمتعون بحق المواطنة الرومانية، فمن وجهة النظر القانونية يعتبرون أجناب بالنسبة لروما، ثم إن هذه المناطق تضم كل المدن أو الشعوب التي تحالفت مع روما فضلاً عن المستعمرات اللاتينية التي تصنف ضمن هذا الصنف.

وطالما أنها ليست شعوباً رومانية وليست عدوة لروما فهي تعتبر بالضرورة حليفة لها. وكانت علاقة هذه الأخيرة بها تتحدد بمقتضى معاهدات تعقد بشكل ثنائي وتنص على الوضعية القانونية والسياسية التي تتمتع بها المدينة، ولذلك كانت الامتيازات التي تحظى بها تلك المدن تختلف حسب الظروف والمواقف التي عبرت عنها أثناء التفاوض، إلا أن المبدأ الغالب هو احتفاظها بحريتها وبشخصيتها وبحريتها في الوقت الذي تصبح فيه مجبرةً على الإسهام في تحمل نفقات الدولة. وذلك هو الفرق الأساسي بينها وبين نظام المستلحقات التي تضع حداً لوجود تلك المدن ما دام نظامها يعمل على إدماجها في روما.

لقد تفاوضت بعض المدن الحليفة مع روما على قدم المساواة، ووقعت معها عقداً مبنياً على قاعدة المساواة بين الطرفين، ويتعلق هذا الأمر بعدد قليل من المدن التي ظلت حليفة لروما مثل كامرينوم "Camerinum" وهرقلة "Heraclée" ونابلس "Naples" وبرينست "Préneste" ... وبموجبه احتفظت هذه المدن بحقوق السيادة وخصوصاً امتياز سك النقود النحاسية، كما احتفظت وبمؤسساتها المحلية وحكامها

ومحاكمها القضائية. أما غالبية شعوب ومدن إيطاليا فقد وقعت معاهدة مع روما بعد انهزامها ووقفت أثناء التفاوض في مرتبة غير متساوية معها، أي إنها وقعت معاهدة المهزوم. وفي هذه الحالة تختلف شروط المعاهدة حسب اختلاف المدن واختلاف مواقف روما منها، ولكن القاعدة العامة كانت تتضمن مبدئين أساسيين: الحد من سيادة المدينة بحيث تصبح كمحمية رومانية، ومقابل ذلك تتمتع باستقلالها الذاتي ومؤسساتها الخاصة.

وسواء تعلق الأمر بالنوع الأول أو الثاني، فهذا التمييز يبقى في نهاية المطاف رمزياً، باعتبار أن روما لا تسمح لأي منهما بالقيام بأي نشاط أو مبادرة تعبر عن استقلال وطني، فقد كان على كل تلك المدن أن تسهم في جهود روما الحربية عن طريق إعداد قوة بحرية بالنسبة للمدن الساحلية (وجلبها مستعمرات إغريقية)، أو بتقديم قدر من المال وعدد من الرجال. وكانت الواجبات المفروضة على كل مدينة تدرج في لائحة تدعى "Formula tagatorum" وهي التي تعين الالتزامات التي يتوجب على كل مدينة دفعها لروما بناء على مبدأ التناوب الدوري كل أربع سنوات.

وهكذا تم تنظيم السيطرة الرومانية على إيطاليا بطريقتين مختلفتين نتج عنهما في نهاية المطاف كتلتان مختلفتان من حيث وضعيتهما القانونية والسياسية إزاء روما، ففي مقابل المركز وتمثله الأراضي الرومانية المقسمة إلى ٣٥ قبيلة ضمت الشعوب والمدن التي منح أفرادها حق المواطنة الجزئية في انتظار إدماجها التدريجي، نجد الهامش المكون من المدن المتحالفة ومن المستعمرات اللاتينية التي كانت مضطرة رغم استقلالها الإداري إلى دفع الضرائب وتجنيد الجيش دون أن تتمتع بحقوق المواطنة الكاملة. ومن هذين العنصرين تشكلت القوة العسكرية الرومانية خلال القرن الثالث قبل الميلاد بشكل باتت معه قادرة على مواصلة التوسع خارج حدود شبه جزيرة إيطاليا^(١).

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١١٨ - ١٢١.

رابعاً- التوسع الروماني في البحر الأبيض المتوسط:

واجهت روما بعد إتمام توسعها في سهل اللاتيوم وجنوب إيطاليا ثلاث مشكلات كان لا بُدَّ من حلها لإتمام توسعها في شبه جزيرة إيطاليا، وفي المناطق البحرية المحاذية لإيطاليا في البحرين التيراني والأدرياتيكي، وفي مناطق شمال إيطاليا وراء جبال الأبنين.

وقد قادتها محاولاتها لحل هذه المشكلات إلى حروب مع القوى المسيطرة على هذه المناطق، كان من أبرز نتائجها توسع روما في البحر الأبيض المتوسط وفي البر اليوناني وفي شمال إيطاليا، ثم فيما وراء الألب بعد ذلك وبشكل خاص في غاليا. وتعتبر قضية البحر التيراني من أكثر المشكلات إلحاحاً بالنسبة للرومان، وكانت تتطلب حلاً عاجلاً، إذ يقع البحر التيراني بين الساحل الإيطالي الغربي وجزر أرخبيل توسكانا شمالاً وجزيرتي كورسيكا وسردينيا غرباً ومجموعة جزر ليباري وصقلية جنوباً. ولذلك كانت مضائق هذا البحر موضع نزاع بين القوى التي نشأت على أطرافه كالأتروسكيين، واليونان، والقرطاجيين، ثم روما فيما بعد، حيث اعتبرت أن مصيرها كدولة كبرى في إيطاليا مرتبط بمصيره وبما يجري فيه من أحداث، ومن أجل ذلك يتوجب العمل على التخلص من الوضع القائم فيه، مما اضطرها إلى الصدام مع قرطاجة التي كانت تسيطر على صقلية وجزر ليباري، ومع الأتروسكيين المسيطرين على كورسيكا وسردينيا^(١).

(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضاء: اليونان والرومان، ص ١٦٧.

١- الحروب البونية القرطاجية الرومانية (٢٦٤-١٤٦ ق.م):

قرطاجة مدينة فينيقية أنشأها الملاحون الفينيقيون التجاري على ساحل تونس في القرن التاسع قبل الميلاد، إذ تنسب عملية بنائها إلى الملكة إيليسا أو ديدون زوجة ملك صور سيكارياس على إثر مقتله، وتولي أخيه بيجماليون عرش صور. وقد ظلت قرطاجة مدينة صغيرة ضعيفة قليلة السكان، إلى أن بدأت صراعاً مع المدن اليونانية التي كانت قد بدأت عملية توسعها التجاري في الغرب، ومع القبائل الإيطالية، التي حاولت منع الفينيقيين من التجارة مع صقلية وشواطئ إيطاليا الجنوبية في كامبانيا واللاتيوم، الأمر الذي دفع قرطاجة إلى التحالف مع الأتروسكيين ضدهم.

وقد أسست قرطاجة في مجال توسعها التجاري كثيراً من المستعمرات على السواحل الإفريقية في تونس والجزائر وعلى المحيط الأطلسي في المغرب، وعلى سواحل إسبانيا الشرقية والغربية، وفي سردينيا، وصقلية. وكونت من أجل حماية هذه المستعمرات والدفاع عنها أساطيل بحرية قوية تتميز بسفن متينة البنيان والتجهيز، وسرعة الحركة، وبرز من بين أبنائها قادة بحريون متميزون بحسن القيادة والشجاعة والحنكة والدهاء. كما عملت على بناء جيش قوي ساعدها على بسط سيطرتها على هذا المدى الواسع من المستعمرات التجارية وعلى الأمم التي كانت تستوطن في الأقطار التي أقيمت فيها هذه المستعمرات، وعلى مقاومة الأمم التي أخذت تنازعها السيطرة على مناطق تجارتها كالأغريق والرومان. وقد تألف الجيش القرطاجي من عناصر فينيقية قرطاجية ومن مرتزقة من الليبيين والأيبيريين والليغوريين والنوميديين والسردينيين والكورسيكيين وغيرهم من الشعوب التي تعامل معها القرطاجيون^(١).

^(١) هناك عدة كتب تناولت بشيء من التفصيل تاريخ قرطاجة ومستعمراتها وحضارتها ومدنيتها ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ- أسباب الحروب البونية:

سادت علاقات الود والتحالف بين روما الفتية القوية الناشئة وقرطاجة الكبرى القوية في القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد حيث فرضت الظروف التاريخية على الجانبين التقارب بعضهما من بعض لمواجهة أعدائهما. ولكن زوال الأخطار التي كانت تهدد الطرفين أدى إلى تفرغهما للمشاريع التوسعية، مما دفعهما إلى الاصطدام في حروب ضارية، كان لا بُدَّ من أن تنتهي بانتصار أحدهما وإزالة الأخرى كلياً عن الوجود، ولم تكن إحداهما في مأمن من احتمال الموت والفناء. بل تعرضت كلتاهما إلى هذا المصير أكثر من مرة. ومرت هذه الحروب بثلاث مراحل وكان لها أسباب عامة من أهمها:

- تنافس القوتين على السيطرة على صقلية وسردينيا وكورسيكا.
- قضية مسينا أو السيطرة على المضيق البحري الذي يفصل صقلية عن البر الإيطالي، والذي دفع روما إلى السيطرة على مدينة ريجيون في جزيرة إليوي، وإلى احتلال قرطاجة لمدينة مسينا التي كان يتنافس عليها الرومان ومدينة سيراكوزة والقرطاجيون.

١- فرانسوا ديكريه: قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، طبعة أولى، الأهالي للنشر، دمشق ١٩٩٦.

٢- إبراهيم رزق الله أيوب: محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية، كلية الآداب- الجامعة اللبنانية، ١٩٩١.

٣- شوقي خير الله: قرطاجة العروبة الأولى في المغرب، مركز الدراسات العلمية، طبعة أولى ١٩٩٢.

- ضغط الطبقات الشعبية الرومانية على مجلس الشيوخ لدفعه إلى التدخل في صقلية طمعاً في ما يمكن أن يعود به هذا التدخل عليهم من غنائم كثيرة كانت قرطاجة تحرمهم منها.
- استنجد المارميين من سكان مدينة مسينا بروما للتخلص من سيطرة القرطاجيين على مدينتهم^(١).

ب- مراحل الحروب البونية:

• المرحلة الأولى ٢٦٤-٢٤١ ق.م.:

بعد أن احتل القرطاجيون مسينا قاموا بعقد معاهدة للصلح مع هيرون ملك سيراكوزة لكي يدعموا جانبهم، ولكي يقطعوا الطريق على التدخل الروماني، ولكن روما كانت تميل إلى التدخل لفك طوق العزلة التي فرضها عليها احتلال قرطاجة لمسينا وسيطرتها على مضيق مسينا، إذ سارع أبيوس كلوديوس إلى قيادة جيش توجه به إلى مدينة ريجيون، فاستعادها من جنود القائد "آغا توكل" المارميين، ثم حاصر مدينة مسينا ولم يستطع النفاذ إليها بسبب إغلاق الأساطيل القرطاجية طرفي المضيق في وجهه، ولكنه استطاع استدراج قائد الحامية القرطاجية إلى خارج قلعة مسينا وأسره، فقام جنوده بتسليم قلعة مسينا كفدية له. وهكذا احتل الرومان مدينة مسينا، ورداً على ذلك قام القرطاجيون وحليفهم هيرون بحصار مسينا، ولكن أبيوس كلوديوس استطاع الإفلات من الحصار، واتجه نحو سيراكوزة فحاصرها ولكنه لم يستطع فتحها، فانسحب من جوارها سنة ٢٦٤ ق.م.^(٢). بعد أن وقع معاهدة صلح تضمنت مجموعة من الشروط من أهمها:

^(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ص ١٦٨-١٦٩.

^(٢) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ١٣٦-١٣٧.

- عقد معاهدة تحالف على قدم المساواة مع روما لمدة خمسة عشر عاماً.
- الاحتفاظ بإقليم من الأراضي الضيقة حول سراقوسة.
- دفع غرامة مالية، كأعباء حرب، قدرها مئة نالت (وتعادل ٢٥ ألف جنيه إسترليني).

ولقد أغضب تحالف هيرون مع روما قرطاجة التي لم تقف مكتوفة الأيدي. فقامت بإرسال جيش كبير ٥٠ ألف مقاتل لدعم مركزها في الجزيرة ورد اعتبارها، وطردها من سراقوسة وما حولها، وتأديب ملكها هيرون. واتخذ الجيش القرطاجي من مدينة أغرغنتوم الجزيرة مركزاً له، وهي المدينة التي كانت تربطها بقرطاجة علاقات تجارية وثيقة جعلتها تنحاز إليها علماً أنها مدينة إغريقية. فما كان من الرومان إلا أن زحفوا إلى أغرغنتوم عام ٢٦٢ ق.م. وحاصروها حتى سقطت بأيديهم فدمروها، وباعوا أهلها في سوق النخاسة.

وقد شجع هذا الانتصار في أغرغنتوم الرومان على مواصلة أطماعهم العسكرية، بالسيطرة العسكرية على كامل صقلية، من أجل حماية شواطئ إيطاليا من الغارات القرطاجية ولاسيما أن قرطاجة كانت تمتلك أسطولاً يزيد على ١٢٠ سفينة حربية، في الوقت الذي لم يكن لدى الرومان إلا عدد قليل من السفن الحربية، ولذلك قرر الرومان إنشاء أسطول بحري يزيد عدده على عدد سفن القرطاجيين بقليل^(١) بهدف تحطيم السيادة البحرية القرطاجية.

ولما اكتمل بناء الأسطول الروماني في عام ٢٦٠ ق.م. بمساعدة أهل سراقوسة المشهورين بمهارتهم الفائقة في بناء السفن. اشتبك القنصل غايوس دويليوس "Gaius

^(١) لمعرفة عدد سفن الفريقين انظر:

W.W. Tarm, Hellenistic Military and Naval Developments, Marrou 1907, p 48 ff.

"Duilius" مع الأسطول القرطاجي في معركة حربية تجاه ميلاي "Mylae" على الشاطئ الشمالي الشرقي لصقلية. وعلى الرغم من مهارة البحارة القرطاجيين، وكفاءتهم في سرعة المناورة فإن نتائج المعركة كانت في صالح الرومان^(١). وقد شجع هذا الانتصار الرومان بسلسلة من الهجمات على مستعمرات قرطاجة في سردينيا عام ٢٥٩ ق.م.، وفي كورسيكا عام ٢٥٨ ق.م. لكنهم لم يحرزوا أي انتصار حاسم على الجزيرتين، في حين تتابعت الهجمات حتى عام ٢٥٦ ق.م. على المدن الصقلية في وسط الجزيرة وغربها دون أن تتمكن من طرد القرطاجيين الذين تمكنوا من الاحتفاظ بـ"Terpana" وبعض المدن الأخرى.

أدرك الرومان حينذاك أن صراعهم مع القرطاجيين لن يحسم إلا إذا هاجمهم بقوة كبيرة وضربة قاضية، وأخذوا يستعدون لمهاجمة قرطاجة نفسها على الساحل الإغريقي انطلاقاً من صقلية حيث ثبتوا أقدامهم فيها. فتمكنوا من إعداد أسطول كبير تألف من ٢٥٠ سفينة حربية، فضلاً عن ثماني سفن نقل، ولما علمت قرطاجة باستعدادات الرومان جهزت أسطولها الذي أصبح أقل من الأسطول الروماني عدداً.

وفي عام ٢٥٦ ق.م. أبحر الأسطول الروماني في طريقه إلى إفريقيا. فالتقى الأسطول القرطاجي عند رأس أكنوموس "Ecnomus" على الشاطئ الجنوبي لصقلية حيث اشتبك في معركة انتهت بهزيمة الأسطول القرطاجي، تابع الأسطول الروماني بعدها إبحاره بقيادة القنصل مرقص أتيليوس رجولوس "M Atilius Regulus" ونزل على الشاطئ الإفريقي حيث أنزل بالقرطاجيين عدة هزائم متتابة مكنته من التوغل في إفريقيا بعيداً عن الساحل لقضاء فصل الشتاء في مكان قريب من قرطاجة مما جعل الأخيرة تطلب الصلح منه. فعرض القنصل الروماني شروطاً قاسية رفضتها قرطاجة، ثم أخذت تستعد للقتال في نهاية الشتاء باستقدام فرقة من المرتزقة المشهود لهم بالشراسة

(1) Ibid., p. 146.

في القتال والتدريب، وعلى رأسهم قائد إسبرطي محترف يدعى زانتييوس "Xanthippus". عمل مع رجاله على الفور في تدريب الجيش القرطاجي وفقاً لأفضل الأساليب القتالية الإغريقية.

ومع بداية ربيع عام ٢٥٥ ق.م. أنهى الجيش القرطاجي تدريبه، واشتبك مع الجيش الروماني وأدى ذلك إلى هزيمة الرومان ووقوع قائده القنصل رجولوس أسيراً، لكن الأسطول القرطاجي الذي تصدى للأسطول الروماني تكبد خسائر كبيرة رغم فوزه أدت إلى شلل القدرة البحرية القرطاجية البحرية على مدى الأعوام الخمسة التالية. في حين أن الأسطول الروماني لم يصل إلا بعد انتهاء المعركة البرية، فأنقذ فلور جيشه تجاه شاطئ صقلية الجنوبي، وتحطمت أكثر من ٢٥٠ سفينة ولم يتبق من الأسطول الروماني الناجي سوى ١٠٠ سفينة فقط.

أعاد الرومان بسرعة كبيرة بناء أسطولهم الذي تحطمت أكثر سفنه بالأنواء ووجهوه هذه المرة إلى مهاجمة القواعد القرطاجية غربي صقلية، فسقطت مدينة بانورموس "Panormus" في قبضة الرومان عام ٢٥٤ ق.م. لتتوقف الحرب بين الطرفين حتى عام ٢٥٠ ق.م. عندما حاولت قرطاجة استعادة بانورموس، لكنها منيت بالفشل.

وأخيراً تغلبت روما على مشكلة الخسائر ومواجهة نفقات الحرب وبناء السفن باللجوء إلى طلب التبرع من الأغنياء لإغناء الخزانة. فتمكنت من بناء مئتي سفينة حربية أنزلتها في صيف عام ٢٤٢ ق.م إلى البحر بقيادة القنصل لوتاتايوس كاتولوس "Lutatius Catulus" ليضيق الحصار على ليلوبايوم ودريانا من جهة البحر بينما عجزت قرطاجة عن إعداد أسطول يستطيع إنقاذ هاتين القلعتين. ولم يكن في وسعها أن تفعل أكثر من إرسال نجدة بحرية قاتلتها الأسطول الروماني خارج دريانا

وهزمها في ربيع عام ٢٤١ ق.م. فاضطر القرطاجيون إلى قبول الصلح من القنصل الروماني الذي سمي "صلح كاتولوس" والذي نصّ على:

- تتخلى قرطاجة عن صقلية والجزر المجاورة لها.
 - تتعهد قرطاجة بدفع غرامة مالية قدرها ٣٢ وزنة تسدها سنوياً على أقساط لمدة عشرين عاماً^(١).
 - تسلم قرطاجة، إلى روما جميع الأسرى الرومان دون فدية.
- وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الصراع بين روما وقرطاجة، وكان من أهم نتائجها، فضلاً عن المعاهدة شروطها التي كانت لصالح روما، أن حققت روما المكاسب التالية:

- آلت السيادة البحرية في غرب المتوسط إلى روما.
- تطلعت روما لبناء إمبراطوريتها بالرغم من خسائرها الكبيرة.
- لم تقتصر نكبة قرطاجة على خسائرها في الرجال والسفن، ولا على السيادة البحرية، بل كانت خسائرها في اعتماد سياسة خرقاء أساسها الربح والخسارة بنتيجة كل معركة قام بها جنودها المرتزقة الذين ما إن عادوا من صقلية حتى طالبوا حكومة قرطاجة بدفع المرتبات العالية التي وعدتهم بها، وعندما رفضت الحكومة مطالبهم أشعلوا لهيب الثورة بين الليبيين، ولكن القرطاجيين تمكنوا من القضاء على الثورة عام ٢٣٨ ق.م^(٢).

(١) أسد رستم: عصر أوغسطس قيصر وخلفائه، جزأين، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت

١٩٦١، ج ١، ص ٣٧.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٢١-١٢٣.

• المرحلة الثانية ٢١٨-٢٠٨ ق.م.:

أ- المقدمات:

سادت حالة من السلم استمرت من سنة ٢٤١ - ٢١٩ ق.م. بين الفريقين المتحاربين، انصرف الطرفان خلالها إلى مداواة جراحهما وإعادة بناء اقتصادهما من جديد، فقد انصرفت روما إلى التوسع في شمال إيطاليا وحل قضية الغالين نهائياً، كما لجأت إلى حل قضية الأديراتيكي حلاً جذرياً ونهائياً. بينما توجهت قرطاجة، التي خسرت نتيجة الحرب البونية الأولى كل أملاكها الأوروبية المتوسطية، إلى التوسع في ميدان جديد بعيداً عن مسرح الحروب السابقة. في إسبانيا، حيث قادت أسرة باركا هذا التوسع القرطاجي، وقد أدت عمليات التوسع القرطاجي وما رافقها من إشارات تكشف عن نية الانتقام لديها بسبب هزيمتها السابقة إلى نشوب الحروب البونية الثانية. أما بالنسبة للتوسع الروماني، فقد انصرفت روما إلى الاهتمام بقضية الأقوام الغالية التي بدأت تتحرك من جديد بفعل أكثر من عامل:

- الأول: تعرضها للضغط من بعض العناصر الكلتية الشمالية التي أخذت تغزو شمال إيطاليا.

- الثاني: تزايد عدد القبائل الغالية بشكل كبير، الأمر الذي يضطرها إلى الحركة من جديد.

- الثالث: استياء الغالين من روما التي وضعت في معاهدة عام ٢٤٠ ق.م. شرطاً ينص على منع قرطاجة من تجنيد مرتزقة شمال إيطاليا، الأمر الذي من شأنه أن يحرم شباب الغالين من مورد مهم من موارد رزقهم.

ابتدأ الصراع بين الطرفين عند قيام روما بمهاجمة إحدى القبائل الكلتية، وهي قبائل الأبوانيين "Apuans" التي استطاعت التغلب على الجيش الروماني بقيادة القنصل فاريوس فالتا، وقد شجع هذا الانتصار الأقوام الغالية الأخرى على الانضمام إلى

الأيونيين والتحرك جنوباً نحو روما، على أن الخلافات لم تلبث أن دبّت بينهم فنفرقوا وعادوا إلى مواطنهم في الشمال، ولكنهم عادوا إلى الحركة مرة أخرى عندما أغار الرومان على الأجزاء الجنوبية من إيطاليا الشمالية عند أطراف الجبال الليغورية، وعندئذ تحالفوا مجدداً بزعماء الملّكين **كونكو ليتان** و**أنبروست**، فاستنجد الرومان بالأقوام الإيطالية في إيطاليا الوسطى والشمالية للوقوف بجانبها ضد الغاليين، وجرت المعركة الرئيسية بين الطرفين قرب مدينة **شيزوي** حيث هزم الرومان في بدايتها ولكنهم ما لبثوا أن انتصروا بفعل النجدة التي جاءتهم من الجنوب بقيادة القنصل **أميلوس**، ومن **سردينيا** بقيادة القنصل **ريغولوس**، وقتلوا ما لا يقل عن أربعة آلاف جندي، وأسروا عشرة آلاف بينهم الملّكان الغاليان.

وقد استثمر الرومان هذا الانتصار فطوروا هجماتهم شمالاً، واحتلوا عاصمة الغاليين **ميدبولاتوم**، في **لبارديا** سنة ٢١٩ ق.م، ولتأكيد سيطرتهم على المنطقة أقاموا مستعمرتين رومانيّتين ونقلوا إليهما مستوطنين رومان للإقامة الدائمة فيها.

وبعد أن انتهت روما من حل مشكلة شمال إيطاليا وجهت اهتمامها إلى الشرق لحل مشكلة بحر الأدرياتيك وبلاد اليونان، واستغلت انتشار ظاهرة القرصنة البحرية التي يمارسها الأيليرية ضد المدن الإغريقية للتدخل في هذه المنطقة، فطلبت إلى ملكة القرصنة "**توتا**" إيقاف القرصنة في هذا البحر، لكنها رفضت فأرسلت روما حملة بحرية استطاعت القضاء على مراكز القرصنة الأيليرية، واضطرت الملكة **توتا** للتخلي عن عرشها، فعين عليه الرومان أحد رجالهم سنة ٢٢٩ ق.م، ولم يفكروا آنئذ في التدخل بشؤون بلاد اليونان، واكتفوا بمراقبة ما يجري فيها، إلى أن تحالف ملك مقدونيا **أنتيغون دوزون** و**ديميتريوس** الذي نصبه الرومان ملكاً على إيليريا، واتجه الحليفان نحو مع قرطاجة عدوة روما للتحالف معها. فسارعت روما إلى العمل وجندت حملة قادها

القنصلان أميليوس بولوس وليفيوس سالنتور، حيث تمكننا من القضاء على حكم ديميتريوس عام ٢١٩ ق.م.

وهكذا أكملت روما توسعها في الأراضي الإيطالية وفي صقلية وكورسيكا وسردينيا. وقد وجدت نفسها في نهاية هذه المرحلة مضطرة إلى الاصطدام ثانية بقرطاجة التي كانت تتوسع وتعد نفسها للانتقام من روما.

أما بالنسبة لقرطاجة: فقد اتجه التوسع القرطاجي إلى الغرب لتعويض الخسائر التي منيت بها قرطاجة في الحرب البونية الأولى، وعملت على بسط سيطرتها على إسبانيا، وقاد حملة التوسع هذه القائد أميلكار وأنصاره للانتقام من روما، مستغلاً استنجد أهل مستعمرات قانس الفينيقية بقرطاجة لدفع غارات الإيبيرين عليها، فقام على رأس حملة عسكرية بالتوجه إلى قانس، وأخضع القبائل الإيبيرية التي كانت تهاجم قانس، ثم أخذ يتوسع في المناطق المجاورة لها في بستيانيا الغنية بمناجم الفضة ثم قتل في إحدى المعارك ضد الإيبيرين فخلفه في قيادة الجيش صهره أسد روبال الذي استمر في سياسة سلفه التوسعية، وبنى مدينة قرطاجة الجديدة (قرطاجنة) على الساحل الشرقي لإسبانيا في منطقة غنية بمناجم الفضة.

وقد أدى التوسع القرطاجي إلى الإضرار بمصالح مرسيليا وهي الحليف القديم لروما، مما دعاها إلى الاستنجد بروما ضد توسع أسرة باركا في إسبانيا (أسرة أميلكار القرطاجية) التي أدت إلى تضاؤل نفوذهم التجاري فيها. ولما طلب الرومان إيضاحاً من قرطاجة لهذه الأعمال وكان جواب قرطاجة أن ذلك كان نتيجة حاجتها إلى الأموال لدفع ما رتبته عليه اتفاقية الصلح مع روما سنة ٢٤٠ ق.م، ولكنهم لم يرضوا بهذا الجواب، وأجبروا أسد روبال على معاهدة جديدة معهم سنة ٢٢٦ ق.م، تنص

على عدم اجتياز جيوش القرطاجيين لنهر الأيبر نحو الشمال، وبعد موت أسد روبال خلفه هانيبال^(١) بن أميلكار، واستمر في سياسة والده وزوج أخته التوسعية^(٢).

ب- الحرب:

يكمن السبب الرئيسي في قيام الحروب البونية الثانية إلى سياسة هانيبال التوسعية التي سلكها في إسبانيا وتجاوز فيها نهر الأيبر، وهاجم مدينة ساغونت حليفة روما واستباحها، الأمر الذي أغضب روما، فأرسلت وفداً إلى قرطاجة يطلب معاقبة هانيبال، فرفض مجلس الشيوخ القرطاجي هذا الطلب، وردوا الوفد الروماني بغلظة، فأعلنت روما الحرب على قرطاجة.

وهكذا بدأت الحرب البونية الثانية، وكان القائد القرطاجي هانيبال في أثناء المفاوضات يستعد لقيادة حملة برية على روما، وقد اختار البر نظراً لاعتقاده باستحالة الغزو البحري بسبب سيطرة الأساطيل الرومانية على البحر. وفي سبيل التمهيد لهذه الحملة أعد جيشين إضافيين لحماية إسبانيا، والبر الإفريقي نفسه، واتصل بالغالين الناقمين على روما وتحالف معهم. وقامت روما من جهتها بإعداد أسطولين ضخمين لغزو إفريقيا بقيادة القنصل لونغوس الثاني ومهاجمة إسبانية بقيادة سيبيون.

(١) للاطلاع على سيرة هنيبل وحروبه انظر:

لطفي جورج مصروعة: هنيبل، جزأين، بيروت ١٩٥٩. وانظر أيضاً:

Dexter Hoyos, Hannibal's Dynasty, Power and politics in the western Mediterranean, 247-183 bc, routledge 2003.

(٢) ج، هـ، برستد: العصور القديمة، ترجمة قربان داود، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر،

١٩٨٣، ص ٤٢٩-٤٣٤. وانظر أيضاً: سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص

١٤٨-١٥٦.

سار هانيبال إلى روما عبر جنوب فرنسا، وعندما وصل إلى جبال الألب تجنب الممرات المعروفة التي كان الرومان يراقبونها، ومر في ممرات وعرة صعبة الاجتياز لا أحد يتوقع أن يسلكها^(١)، ووصل سهل البو مع ما تبقى من جيشه البالغ عشرين ألفاً من مجموع جنوده الأصليين الذي كان يتجاوز ٤٤ ألفاً، فتركهم يستريحون ويتأهبون لملاقاة الرومان.

فوجئت روما بمحوم هانيبال البري فسارعت إلى تغيير خططها، وطلبت من سيبون ترك مرسليليا وإسبانيا والتوجه إلى لمبارديا لملاقاة هانيبال، ولكنه هزم هزيمة شنيعة على نهر تيسيبي "Tessin"، ثم استدعت القنصل الثاني سامبرونيوس وكان يتهياً للإبحار إلى قرطاج، وأرسلته لمساعدة سيبون في الشمال. ولكن هانيبال هزمها ثانية على نهر تريبييا وأسر منهم ثلاثين ألفاً، ونتيجة لهذه الهزائم تحالف اللومبارديون مع هانيبال وتراجع الرومان إلى ما وراء جبال الأبنين^(٢)، وقد ساعد هانيبال على هذا الانتصار عوامل عديدة من أهمها:

- اطلاعه الواسع على أرقى الخطط الحربية، وعلى الأعمال الباهرة التي قام بها الإسكندر الأكبر وخلفاؤه من بعده.
- لم يكن للقادة الرومان، المنتخبين لإدارة الأحكام، خبرة في الأمور الحربية.
- سرعة المباغتة والانتصار الذي ألهم حماسة الغاليين، فوقفوا إلى جانبه، وتطوعوا في جيشه^(٣).

(١) للاطلاع على خط سير هانيبال انظر: إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٧٢.

وانظر أيضاً: جورج مصروعة: هنيبل، ج ١، ص ٢٥٨-٢٦٠.

(٢) ج، هـ، برستد: العصور القديمة، ٤٣٥-٤٣٨.

وانظر أيضاً: سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ١٥٩-١٦١.

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٢٧.

اجتاز هانيبال جبال الألبين، فأرسلت إليه روما جيشين بقيادة القنصلين الجديدين فلامينوس، وسرفيليوس، ورغم التعب الذي أصاب جيشه وموت الفيلة التي كانت معه بسبب البرد والشتاء القارس استطاع أن يهزم فلامينوس في معركة ترازيمين على بعد ٤٠ كيلومتراً من روما، وأمام هذه الهزيمة، انتخب الشيوخ الرومان فايوس مكسينوس دكتاتوراً لمقابلة هانيبال، فأعد هذا جيشه وأثر انتظار هجوم هانيبال، والذي بدلاً من مهاجمة روما مباشرة أثر التوجه نحو الجنوب والاتصال مع قرطاجة لتأمين الإمدادات والتموين.

وفي سنة ٢١٧ ق.م. أعدت روما جيشاً كبيراً لمهاجمة هانيبال، والتقى الطرفان على نهر الأوفيد حيث استطاع هانيبال أن يلحق بالرومان هزيمة كبرى وقتل ثلاثة من قادتهم المشهورين وثمانين شيخاً من شيوخهم في ٢ آب ٢١٦ ق.م، ولم يستثمر هانيبال انتصاره الحاسم، وحالة الانهيار التام التي وقعت فيها روما وثورة كل الشعوب المحكومة عليها (كالسامنتيين، والبروثيين واللوكانيين) وبقية مدن كامبانيا، الأمر الذي أعطى للرومان الفرصة الكافية للاستعداد للدفاع عن روما، بدلاً من مهاجمتها شرع هانيبال يعمل على توسيع قاعدة سيطرته على جنوب إيطاليا والقضاء على معقل الرومان فيها، وراح يستعدي أهلها على الرومان، فانضم قسم كبير منهم إليه، كما أرسل يطلب إمدادات جديدة من قرطاجة، فأرسلت إليه قوة صغيرة من ٤ آلاف جندي و ٤٠ فيلاً، وعقد تحالفاً مع فيليب ملك مقدونيا. وظل القتال سجالاً بين الطرفين طيلة الأعوام ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤ ق.م. ولكن روما أخذت تحقق بعض

الانتصارات في جنوب إيطاليا، وقد حاصر هانيبال روما، وقام برفع الحصار عنها دون أن يتمكن من فتحها^(١).

أخذ زخم الاندفاع القرطاجي بقيادة هانيبال بالتراجع منذ سنة ٢١١ ق.م. حيث تمكن الرومان من استرجاع مدينة كابوا، وعاملوا أهلها معاملة وحشية قاسية، كانت بمثابة النذير لجميع الشعوب والمدن التي انحازت إلى صفه، فأخذ الجنود المرتزقة ينفضون من حوله، الأمر الذي اضطره لسحب حامياته وجنوده من معظم المدن التي احتلها، وإلى الانتقام من المدن التي أخذت تتخلى عنه بإحراقها والتفكيك بأهلها، الأمر الذي أشاع روح الحقد ضده بين سكان إيطاليا. ودفعهم إلى محاولة التخلص منه والثورة ضده. وعلى الرغم من أنه حقق بعض الانتصارات في سنوات ٢٠٩-٢٠٨ ق.م. إلا أن رقعة الأرض التي يسيطر عليها أخذت تضيق عليه تدريجياً^(٢).

وفي هذه الفترة تحرك أخوه أسد روبال بجيش ضخم من إسبانيا إلى إيطاليا لنجدة أخيه بلغ عدده ٦٠ ألف محارب، فقابله جيش روماني ضخم بقيادة كلوديوس ونيرون وأوقع به هزيمة شديدة على ضفاف نهر ميتور، وقتله ومعه نحو ٥٦ ألفاً من جنوده، وأسر ٤ آلاف، وأرسل رأسه إلى معسكر أخيه هانيبال. ويقال: إن هانيبال قال: عندما رأى رأس أخيه "إني أرى فيه مصير قرطاجة"^(٣)، ففت ذلك في عضدهن وأقام في جنوب إيطاليا بضع سنوات قبل أن يرحل عائداً إلى إفريقيا.

وبعودة هانيبال إلى إفريقيا انتقل الصراع إلى البر الإفريقي، وكان القائد الروماني سيبون قد انتقل بجيشه إلى إفريقيا بعد انتصاراته في إسبانية نتيجة مغادرة

(١) ج، هـ، برستد: العصور القديمة، ٤٣٥-٤٣٨. وانظر أيضاً: سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ١٦٠-١٦٢.

(٢) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ١٨١.

أسد روبال لها. ونزل هانيبال بالقرب من أوتيكا، وحاصرها وهزم جيشاً قرطاجياً قوياً، فخاف زعماء قرطاجة على مدينتهم، وأرسلوا يستدعون هانيبال للعودة إلى قرطاجة للدفاع عنها ضد الجيش الروماني، وكسباً للوقت دخلوا في مفاوضات مع سيبون من أجل الصلح فوافق على الصلح وفق الشروط التالية:

١. أن تسحب قرطاجة من إيطاليا كل الجنود القرطاجيين الموجودين فيها.
٢. أن تعترف بسلطان روما على إسبانيا وصقلية وسردينيا.
٣. أن تسلم إلى روما كميات كبيرة من الحبوب.
٤. أن تعيد إلى روما جميع الأسرى الرومان والفارين من الخدمة العسكرية.
٥. أن تختصر عدد وحدات الأسطول القرطاجي، وأن تحدده بعشرين سفينة فقط.
٦. أن تعترف بحليف الرومان مزنيسيا وهو ملك الجزائرين الشرقيين، ملكاً شريعياً على بلاده.

٧. أن تدفع غرامة نقدية مقدارها ٥٠٠٠ تالان ذهبي.

وافقت قرطاجة على الشروط، وأرسلت وفداً إلى روما لتوقيع الاتفاقية، ولكن روما ردت الوفد إلى سيبون، وفوضته بإبرام الاتفاقية.^(١)

على الرغم من أن قرطاجة قبلت شروط الصلح التي فرضتها روما، فإن عودة هانيبال ومعه ١٥ ألفاً من جنوده أعاد الثقة وشجعها على حرق الهدنة قبل العمل بشروط الصلح.^(٢)

وفي صيف عام ٢٠٢ ق.م. التقى الطرفان عند زاما "Zama" في معركة فاصلة، قابل هانيبال خصمه بجيشه الذي يفتقر إلى الأعداد الكافية من الفرسان. فلما

(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضاء: اليونان والرومان، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٩، ٢٢٠-٢٢٨.

تقدم جنوده في حركة التفاف على العدو وجدوا أمامهم سوراً رومانياً من الفولاذ، وعندئذ عاد الرومان من مطاردة القرطاجيين، وهجموا على جناحي هانيبال، فأخذت صفوف جيشه تتساقط أو تهزم أمام الجيش الروماني فما كان منه إلا أن لاذ بالفرار ناجياً بنفسه^(١) على أمل العودة تاركاً قرطاجة ترضخ للشروط الرومانية^(٢).

وأخيراً وافق الطرفان على توقيع صلح ينهي الحروب البونية الثانية عام ٢٠١ ق.م. وينص على ما يأتي:

- I- ضمان روما لاستقلال قرطاجة.
- II- احتفاظ قرطاجة بقوانينها وأراضيها الإفريقية التي كانت لها قبل الحروب البونية الأولى.
- III- امتناع قرطاجة عن شن أية حرب لا ترضى عنها روما، وعدم تعبئة أي جنود من أوروبا.
- IV- الاعتراف بماسينيسا ملك نوميديا ملكاً على بلاد أجداده، وبعض الأراضي التي انتزعها من مملكة سيفاكس.
- V- تخلي قرطاجة عن كل فيلتها والتعهد بعدم تربيتها ثانية.
- VI- تجريد قرطاجة من سفنها والسماح لها بالاحتفاظ بعشر سفن فقط.
- VII- إعادة جميع الأسرى والهاربين الرومان.

(١) انتهت حياة هانيبال نهايةً حزينة كبطل عظيم ومحارب لا يشق له غبار، فقد أصبح قاضياً في مدينته، وعمل على إصلاح أحوالها، وإضعاف سلطة مجلس الشيوخ القرطاجي وتنظيم موازنتها، ولكن أعداءه كانوا يكيدون له عند الرومان، ولهذا فرّ من قرطاجة فهدم أعداؤه بيته واعتبروه خائناً. وأخيراً تجرع السم قائلاً: "إنني أنقذ روما من مخاوفها مني بموتي". انظر: علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بوضون: اليونان والرومان، ص ١٨٠.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٣٢-١٣٣.

- VIII- إعادة ما غنمته قرطاجة في حروبها من غنائم رومانية.
- IX- على قرطاجة الإنفاق على الجيش الروماني وحلفائه إلى أن يعود
المفاوضون من روما ويتم توقيع الصلح.
- X- دفع غرامة حربية قيمتها عشرة آلاف تالان ذهبي لمدة خمسين سنة.
- XI- تقوم قرطاجة بتسليم مئة من أفراد الأسر الكبيرة كرهائن عند روما
لضمان تنفيذ الشروط^(١).

• المرحلة الثالثة ٢٠١ - ١٤٦ ق.م:

كانت روما تعمل على خلق فرصة لتتهم فيها قرطاجة بخرق التزاماتها وتشبك معها في حرب طاحنة. لكن الجماعة التي تسلمت الحكم في قرطاجة بعد الحرب البونية في مرحلتها الثانية كان همها الحفاظ على السلام والاتفاق مع روما، والاهتمام بإنعاش تجارة قرطاجة وزراعتها، ولم يمض وقت طويل حتى احتلت قرطاجة المركز الثاني كأكبر مركز تجاري في غرب البحر المتوسط، كما حققت أرضها الزراعية حاصلات وفيرة. مما جعلها في عام ١٩١ ق.م. تعرض على روما أن تدفع لها الأقساط الباقية جميعها دفعة واحدة، وأن تتبرع لروما في العام نفسه وفي عدة مناسبات بكميات كبيرة من القمح دون مقابل.

نظرت روما إلى نجاح قرطاجة ونهوضها من كبوتها بعدم الرضى والقلق الشديد الذي مرده الحسد والغيرة من جهة، والخوف من أن تعيد قرطاجة بناء قوتها من جهة أخرى. مما حدا بالسناطوس الروماني إلى انتظار الفرصة المناسبة لتدمير قرطاجة نهائياً.

^(١) علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ص ١٧٩.

أتاح ملك نوميديا ماسينياسا الفرصة لروما من أجل تحقيق هدفها، وذلك عندما أخذ يعمل منذ عام ٢٠١ ق.م على تنشيط تجارة مملكته وتطوير زراعتها ونشر الحضارة الفينيقية في أرجائها على أمل إنشاء إمبراطورية له تشمل الأقاليم المعروفة اليوم بالجزائر وتونس وطرابلس، وتكون قرطاجة عاصمة هذه الإمبراطورية. ولهذا ازدادت الشكوك والمخاوف عند الرومان إزاء قرطاجة، ويضاف إلى ذلك غزوه للأقاليم التي تركتها معاهدة الصلح في حوزة قرطاجة، وكلما شكت قرطاجة ماسينياسا إلى روما بعد كل اعتداء، كان مجلس السناتوس إما يغض الطرف، وإما يصدر قراراً في صالح ماسينياسا.

وحدث أن ماسينياسا طلب من قرطاجة السماح له بدخول طرابلس بحجة مطاردة ثائر فرّ إلى برقة، وعندما رفضت طلبه هاجم إقليم طرابلس، واحتل سهل الجفارة، ولكنه عجز عن الاستيلاء على مدن طرابلس الثلاث. وبناء على شكوى من قرطاجة إلى روما، أرسل السناتوس نحو عام ١٥٥ ق.م. بعثة للتحقيق بهذا الأمر برئاسة كاتو الكبير^(١)، عادت البعثة من قرطاجة بحقائق مغايرة لما ادعته قرطاجة، عندئذ طالب كاتو بضرورة إعلان الحرب عليها فوراً بسبب تكديسها للأخشاب في الميناء لغرض إعادة بناء الأسطول، ولأنّ القوات التي خاض بها ماسينياسا الحرب كانت نواة جيش تعدّه قرطاجة لحرب انتقامية، إلا أن روما عادت وأرسلت بعثة جديدة لمراقبة أحوال قرطاجة من جديد. فلم يكن من هذه البعثة إلا أن أوصت قرطاجة بتسليم المدن الثلاث لماسينياسا ودفع تعويض له، مما أثار غضب القرطاجيين لدرجة أن أعضاء البعثة فرّوا هاربين من قرطاجة خوفاً على حياتهم.

(١) قال كاتو : "يجب أن تمحي قرطاجة من الوجود". انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٩،

وأدى تعاطف روما مع ماسينياسا إلى تدخل الأخير في شؤون قرطاجة الداخلية عندما نشب الخلاف بين القرطاجيين عام ١٥١-١٥٠ ق.م، مما أدى إلى طرد زعماء الحزب الذي يرغب بالاتفاق مع ماسينياسا. فطالب بإعادة المبعدين الأمر الذي رفضته قرطاجة، وأعلنت الحرب عليه، ولكنها منيت بالفشل لأن جيشها لم يكن إعداداً كاملاً.

وعلى الرغم من لجوء قرطاجة إلى إعدام قادتها العسكريين وإرسال بعثة سياسية إلى روما، تشكو فيها من تصرفات ماسينياسا، وتلقي تبعات الحرب على قادتها الذين أعدمتهم، لم تحصل البعثة من السناتوس الروماني على جوابٍ شافٍ، وفي أثناء قيام قرطاجة بمراجعة حساباتها والتداول فيما يجب عمله، كان الرومان يكملون استعداداتهم، وبعد أن تمكنوا من استلام أوتيقيا في أوائل عام ١٤٩ ق.م. دون قيد أو شرط، أعلنوا الحرب على قرطاجة وأرسلوا جيشاً وأسطولاً إلى أوتيقيا، وفي هذا الوقت بالذات وصلت إلى روما بعثة سياسية قرطاجية أخرى تعلن الاستسلام دون قيد أو شرط. فأبلغها السناتوس بأنه سيسمح للقرطاجيين بالاحتفاظ بحريتهم وقوانينهم وإقليمهم وممتلكاتهم العامة والخاصة بشرط أن يسلموا ٣٠٠ من أبرز رجالهم رهينة وأن "يطيعوا الأوامر التي يصدرها لهم القنصلان" اللذان عبرا البحر إلى أوتيقيا على رأس الجيش والأسطول، إذ طلبا تسليم الأسلحة ومعدات الحرب جميعها. ورغبة في تفادي القتال وإرضاء الرومان بادرت قرطاجة إلى تنفيذ هذا الطلب.

لم يلبث القنصلان أن كشفوا هدف السناتوس، بأن طلبا إلى القرطاجيين إخلاء مدينتهم والاستقرار حيثما شاؤوا بشرط الابتعاد ١٦ كيلومتراً عن البحر. فرفضت قرطاجة هذا الطلب المجحف وصممت على أن تتحدى الرومان، وأعطتهم حجة ثانية لمحاربتها بحجة عدم احترامها للوعد الذي قطعه على نفسها بالتسليم دون قيد أو شرط، بعد أن أعطتهم أولى حجة عندما لم تحتترم معاهدة الصلح، وبدأ العمل في

قرطاجة بجد ونشاط زائدين من أجل دعم أسوار المدينة واستحضار الأسلحة وإعداد الجيش اللازم الذي اعتمدت في إعداده على الليبيين المجاورين.

وأخيراً أثمرت جهود القرطاجيين في العمل المتواصل ليلاً ونهاراً، وتحويل جميع المحلات والمصانع والمعابد إلى مصانع لإنتاج الأسلحة ولوازم الحرب^(١)، مما أثار إعجاب الرومان أنفسهم بفضل الجهد الكبير الذي بذلته قرطاجة في آخر لحظة، فقد آثروا أن يموتوا محاربين على أن يستسلموا، لذلك لم تكن المرحلة الثالثة من الحرب البونية سهلة، بل كانت سلسلة من الحملات العنيفة والتي استغرقت أربعة أعوام. طيلة العامين الأولين ١٤٩ و ١٤٨ ق.م. لم يتمكن الرومان من محاصرة المدينة دون أن يخرقوا حصونها المنيعة. ولم يكن حصارها فاعلاً قبل عام ١٤٧ ق.م. وعندما انتخب الضابط الشاب بوبليوس كورنيليوس سكيو أيميليانوس " Puapilius Cirmekios Emilianos Seipio " قنصلاً وأعطى القيادة العامة بمقتضى قانون خاص، كونه غير مؤهل لتولي منصب القنصلية، لم يدخر جهداً في إعادة تنظيم القوات الرومانية ورفع معنوياتها بحيث استطاع أن يهزم القرطاجيين في الميدان، ويضيق الخناق على المدينة المحاصرة إلى أن تمكن أخيراً من اقتحامها في ربيع عام ١٤٦ ق.م. والاستيلاء عليها بعد قتال مرير في الشوارع والمنازل، على الرغم مما حل بالمواطنين من تعب شديد بسبب شراسة القتال والجوع وتناقص قواتهم يوماً بعد يوم، وسط النيران المشتعلة في الأبنية. وبعد أن هلك كل المدافعين عن المدينة، هدمها الرومان وجعلوا أرضها سهلاً مزروعاً بالملح. ووزعت أراضيها على الفلاحين الرومان لقاء ضريبة، أو بيعت للملاكين الكبار، أو ضمت لقاء رسم معين. ثم بيع الذين بقوا على قيد الحياة من سكان

^(١) إبراهيم رزق الله أيوب: محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية، ص ٣٨.

قرطاجة وقدر عددهم بخمسين ألفاً، وحُول إقليمها إلى ولاية جديدة دُعيت بولاية إفريقيا "Provincia Africa" وجعلت أوتيقيا مقر حاكم هذه الولاية^(١).

• النتائج العامة للحروب البونية:

ومما هو جدير بالذكر أن نتائج الحروب البونية مع روما، والذي أسفر عن تدمير قرطاجة تماماً عام ١٤٦ ق.م، كان غاية في الخطورة ليس فقط على الشرق، بل حتى على روما وإيطاليا نفسها. ويمكننا إيجاز أهم تلك النتائج فيما يأتي:

أ- زيادة قوة روما العسكرية، وزيادة الاعتماد عليها في تأمين حدودها في الشرق والغرب وفي الولايات التابعة لها، ومن ثمَّ زيادة أعداد الجيشين واحتراف القتال.

ب- زيادة اموال الخزانة الرومانية وتدفقها باستمرار على روما.

ت- زيادة أملاك روما الخارجية في الولايات وتنوع تلك الأملاك ما بين أراضٍ زراعية، ومراعٍ وغابات ومصايد سمك، ومناجم للتعدين، ومحاجر في إيطاليا وأملاك في قرطاجة^(٢).

ث- لم تكن نتيجة الحروب البونية القضاء على قوة قرطاجة وإقامة ولاية إفريقية فحسب. بل أدت بطريق مباشر أو غير مباشر إلى السيطرة على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط. إذ استطاع الرومان بعد المرحلة الأولى من الحرب السيطرة على أولى الولايات الرومانية في صقلية. ووسعوا النفوذ الروماني إلى مناطق أخرى في صقلية إثر المرحلة الثانية من حروبهم.

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٢٣-١٢٤.

- ج- كان من نتائج المرحلة الثانية من تلك الحرب استيلاء روما على الممتلكات القرطاجية في إسبانيا، وذلك لكي تستطيع بذلك أن تحمي نفسها من أي هجوم آخر محتمل على إيطاليا من القواعد القرطاجية في إسبانيا كما حدث في بداية المرحلة الثانية التي انتهت بمعركة زاما.
- ح- لم يكتف الرومان بالاستيلاء على القواعد القرطاجية في إسبانيا، بل أرادوا تأمينها من الجانيين البحريين: الشرقي والغربي لإسبانيا. فحاصروا حبرين طوليتين امتدت إحداهما من سنة ١٩٧ إلى ١٧٩ ق.م. والثانية من ١٥٤ إلى ١٣٣ ق.م. عانوا فيها شراسة العدو في تلك المناطق، إلا أنهم انتصروا في النهاية على هؤلاء الذين افتقروا إلى العمل الموحد، إلى جانب شدة المراس في القتال، فسيطر الرومان على كل شبه الجزيرة الإيبيرية.
- خ- استطاع الرومان في هذه الحرب أن يضعوا أقدامهم في غالة عن طريق التحالف الذي تم بينهم وبين مدينة مرسيليا، وهي المستعمرة اليونانية، عندما طلبت المساعدة من روما سنة ١٢٥ ق.م. محققين بذلك عدة انتصارات رومانية سريعة على القسم الشرقي للمنطقة التي تعرف الآن بفرنسا، وأصبحت هذه المنطقة ولاية من الولايات الرومانية. وهكذا لم يأت عام ١٢٠ ق.م. حتى أصبح القسم الغربي للبحر المتوسط يدين بالتبعية والولاء لروما^(١).

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٧-١٣٨.

خامساً- الثورات الاجتماعية ونتائجها:

درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية بعصر الثورات، ومرد هذه التسمية إلى أن هذا القرن بدأ في عام ١٣٣ ق.م. بحركة إصلاح سرعان ما تحولت إلى ثورة عارمة ضد طبقة الأقلية الحاكمة أي طبقة السناتو، ولم تلبث هذه الثورة على الأوضاع القائمة أن تحولت إلى حروب أهلية حامية الوطيس، وإذا كانت المرحلة الأولى من الصراع قد انتهت باحتفاظ طبقة السناتو بامتيازاتها القديمة جميعها بل ودعم سيطرتها، فإنه أيضاً دما استؤنف الصراع ثانية لم تنته مرحلته الثانية إلا بالقضاء على النظام الجمهوري الروماني وإقامة **أغسطس** نظام حكم المواطن الأول "Princeps"^(١).

مرت روما والرومان في معظم أنحاء الإمبراطورية الرومانية على اتساعها الكبير، باضطرابات وثورات عنيفة أخذت طابعاً اجتماعياً، قبل أن تتحول في نهاية المطاف إلى مواجهات وصراعات عسكرية، ولم تكن حالة الهدوء التي سادت خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، إبان الحرب البونية الثالثة والتي انتهت بالقضاء على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م، إلا بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة الاجتماعية بكل شيء ليس فقط في روما نفسها، بل في أقرب الولايات الرومانية أيضاً. فقامت ثورة للعبيد في جزيرة صقلية، في الفترة ما بين ١٣٦-١٣١ ق.م. أي لمدة خمس سنوات متصلة بقيادة عبد سوري يدعى **يونس "Eunus"**. ولقد كانت تلك الثورة من القوة والشمولية حتى إنَّ الثائرين استطاعوا أن يسكوا عملة خاصة بهم، رُسم عليها صورة زعيمهم **يونس**، تشبهاً بالملك السوري **أنطيوخوس**^(٢). وقد مرت هذه الثورات الاجتماعية بثلاث مراحل رئيسية هي:

(١) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص ٧.

(٢) سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٠٨ وما بعدها.

أ- ظهور المصلحين، ب- الاستيلاء على السلطة بالقوة، ج- مرحلة التكتلات.

أ- المرحلة الأولى: ظهور المصلحين:

كانت هذه الثورة عاصفة قوية سبقتها مقدمات استفزازية، تسببت فيها، ونذكر منها بشكل رئيسي، الحروب الإسبانية، وتجاوزات الرومان هناك، لإحكام قبضتهم على ذلك الإقليم من الولايات الرومانية الخارجية. وكان أهمها وأخطرها هو انعكاسات ذلك كله على المجتمع الروماني نفسه داخل روما، إذ تطور الصراع الداخلي إلى درجة عدم إطاعة السلطات الرومانية الشرعية، كما تؤكد الوقائع التاريخية الثابتة الآتية:

- ففي عام ١٥٥ ق.م. سحنت جماعة من عامة الشعب القناصلة، وذلك بمساعدة نقباء العامة، ويعود السبب إلى محاولة هؤلاء القناصلة فرض ضرائب جديدة على الجميع.
- وفي عام ١٣٩ ق.م. حاول أحد نقباء العامة، ويدعى جابينيوس "Gabinus"، أن يضمن درجة أكبر من استقلال القرار داخل الجمعية الشعبية عن طريق تقديم مذكرة مشروع قانون بالاقتراف المفتوح بدلاً من نظام الاقتراع. ومن هنا انطلقت شرارة الجراءة الشعبية التي أقدمت على تغيير القوانين الرومانية القديمة لصالحها.
- في عام ١٣٧ ق.م. قام نقيب آخر للعامة، ويدعى كاسيوس لونجينيوس "Cassius Longinus" مستغلاً القانون السابق الذكر "قانون جابينيوس" واستفاد منه، وذلك بتوسيع سريان مفعوله ليشمل الجمعيات الشعبية التشريعية أيضاً. وهذا يعني سرعة اتخاذ القرارات الشعبية دونما إبطاء أو تدخل

من مجلس السناتو، ممثل الأرستقراطية الرومانية، والعدو الأول لكل إنجاز شعبي لصالح الطبقات الدنيا.

ولكن للأسف الشديد، لم يكن لكل تلك المقدمات (التي عبأت الروح الشعبية، وعكست عدم رضاها وقناعتها بأحوالها) أي تأثير قويٍّ أو نتائج إيجابية ملموسة لتحسين الأوضاع المتردية لعامة الشعب، ولا سيما العبيد من الناحية العملية. وذلك لقوة قبضة الطبقة الأرستقراطية وإمساكها بمقدرات الشعب الروماني في كل اتجاه، سواء داخل المدن الرومانية، في إيطاليا نفسها أو في الولايات الخارجية.

ولهذا كان من الطبيعي أن يأتي الانفجار الاجتماعي من العبيد الذين لا يخافون على شيء خلفهم لا من عامة الشعب الروماني، حيث قاموا بشورتهم العنيفة إلا أن القوات الرومانية أجهزت عليها تماماً.

ومن هنا جاء مشروع النبيل الأرستقراطي **تيبيريوس جراكوس** "Tiberius Gracchus" للإصلاح الاجتماعي، عن طريق تحديد الملكية الزراعية للرومان، وكان بمثابة الترجمة العملية لإصلاح بعض جوانب الخلل في التركيبة الاجتماعية للمجتمع الروماني.

ومن أهم نقاط مشروع القانون الذي اقترحه **تيبيريوس** ما يلي:

- ألا يحتفظ أحد بالأرض العامة التي استولى عليها عن طريق الحيازة بأكثر من ٥٠٠ يوجرا مع السماح لكل ابن من أبنائه الثلاثة بحيازة نصف هذه المساحة. وتعويضاً لأصحاب أرض الحيازة عما تسترده الدولة منهم اقترح المشرع ألا يطرد الحائز مستقبلاً من أرضه وألا يدفع عنها إيجاراً للدولة.
- أن تسترد الدولة أرض الحيازة التي تزيد على الحد الوارد في البند الأول وتقسّمها إلى أنصبّة صغيرة تقوم بتوزيعها على فقراء المواطنين الرومان دون غيرهم، بشرط ألا يبيعوها.

- أن تُنتخب لجنة ثلاثية لتحديد الأراضي الواجب استردادها وتتولى توزيعها على المستحقين^(١).

وللحقيقة فإن تييريوس لم يكن مبدعاً في دعوته الإصلاحية هذه، من خلال تحديد الملكية الزراعية لكبار الملاك، وتوزيع الزائد على صغار الفلاحين المحرومين، بل إن محاولته لم تكن سوى عملية إحياء لمشروع قديم، هو مشروع جايوس لأيليوس "Gaeus Laelius"، عام ١٤٠ ق.م. والذي كان قد حدد الإقطاعات الكبيرة بحد أقصى ٣٢٠٠ فداناً رومانياً، وضرورة توزيع الفائض عن هذا على الفلاحين الرومان الفقراء غير المالكين للأرض، وما كان من السناتو إلا أن عارض بشدة ذاك المشروع وكل مشروع شبيه له أتى بعده.

ومن الجدير ذكره أن مشروع تييريوس كان يحمل روح العدالة، ويراعي التوازن بين الأغنياء والفقراء تحقيقاً للصالح العام لكل المواطنين الرومان. فالأغنياء سيضمنون إقطاعات كبيرة، عن طريق إضافة المساحة الأخرى التي كفلها القانون للأبناء، والفقراء سيحصلون على حصص صغيرة يعيشون على ريعها، بدلاً من التسول أو العمل كأجراء.

وبذلك يتم تحجيم خطر البطالة بين الرومان الأحرار الفقراء، ولكن المشروع في شكله النهائي، لم يكن كافياً لحل مشكلة الجنود المسرحين وآثارهم الاجتماعية الخطيرة على المجتمع الروماني آنذاك، كما لم يعالج أو يُشر، من قريب أو بعيد، إلى مشكلة العبيد وأحوالهم السيئة.

ومن المرجح أن القانون كان، في أساسه، يعالج كل تلك المشاكل ويضع مقترحات لحلها، ولكنه قوبل بالمعارضة والرفض في مجلس الشعب "الجمعية الشعبية"

(١) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص ٢٢-٢٣.

على أيدي زميل تيبيريوس المدعو أوكتافيوس، حيث اضطر تيبيريوس أن يؤجل التصويت النهائي عليه لمدة أسبوعين أو ثلاثة ليعيد دراسته أو صياغته بشكل يضمن إقراره من الجمعية الشعبية، استعداداً لمواجهة مؤامرات أعضاء مجلس السناتو، الذين كان لهم تأثير قوي غير مباشر، على أعضاء تلك الجمعية.

ولذلك كله كان من المتوقع من بنود المشروع الإصلاحية التي قدمها تيبيريوس في المرة الثانية أن تخف حدتها، وأن تقوم باسترضاء الإنبياء والأقوياء، ومن ثم فقد قدم تيبيريوس مكرهاً عدة تنازلات ليضمن نجاح مشروعه بأي صورة كانت.

ورغم كل التنازلات فقد عارض أوكتافيوس المشروع للمرة الثانية مما اضطر تيبيريوس لاستخدام القوة والعنف لإخراج أوكتافيوس مرغماً من قاعة الجمعية حتى تتم الموافقة عليه. ولولا ذلك ما كان الاقتراع عليه بالموافقة ممكناً. ولم يكن ما فعله تيبيريوس لتمرير مشروعه جديداً بالنسبة للخروج عن الشرعية الرومانية، ولا يمكن أن يقاس بجرم السناتو عندما حرض أحد أعوانه وهو ناسيكا "Nasica" فقتل تيبيريوس وكانت هذه أول سابقة دموية للاغتيال السياسي في كل التاريخ الروماني القديم^(١).

وأخيراً لا بُدَّ أن ننوه إلى أن تيبيريوس أغفل من حسابه في هذا المشروع حقيقتين هامتين: إحداهما هي غريزة التملك، والأخرى هي عدم قدرة الكثيرين من الذين منحوا إقطاعيات على تحمل حياة الريف الرتيبة بعد ما اعتادوا الحياة البهيجة الصاخبة التي عاشوها في روما، فما إن أبيح لهم بيع إقطاعاتهم حتى تخلصوا منها وبعموا وجوههم صوب العاصمة، ووجد الأثرياء فرصة لاقتناء الضياع من جديد، وهكذا عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه تقريباً، باستثناء بقاء الحد الأقصى لما تجوز حيازته

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ١٠٠-١٠٥. وللتوسع بهذا الموضوع انظر:

إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج ٢، ص ٢٢-٣٨.

من الأرض العامة، وذهبت كل التضحيات التي بذلت من أجل قانون الأراضي هباءً منثوراً^(١).

ب- المرحلة الثانية: الاستيلاء على السلطة العليا بالقوة "مرحلة العنف"

• عهد سوللا (٨٢-٨١ ق.م.)

كانت البداية الدرامية المأساوية لمثل تلك التصرفات والسلوكيات الدموية التي كلفت الشعب الكثير هي قتل تيبيريوس جراكوس ومطاردة أخيه من بعده لدى محاولته تحقيق مشروع أخيه، ومرت السنون وبدأ الصراع بين السناتو ممثل الأرستقراطية القديمة وبين طبقة النبلاء الجدد، أصحاب المناصب الإدارية العليا، الذين كانوا قد بدؤوا يتغلغلون في الصفوف الأولى من المجتمع الروماني، وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، مما أدى إلى فشل محاولات الإصلاح الاجتماعي عن طريق تحديد الملكية الزراعية على أيدي الأخوين جراكوس^(٢).

وعند منتصف الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد، ظهر على الساحة العسكرية منافسات وتحالفات بين القادة العسكريين.

وقد وقعت أحداث أبرز تلك المنافسات التي وصلت إلى حد الصدامات الدموية بين الرومان أنفسهم، لأول في تاريخهم القديم (منذ انتصارهم المدوي على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م. وتدميرها وتسويتها بالأرض عام ١٣٣ ق.م.) بين عامي ٨٨ و٨٦ ق.م. والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل تعتبر هذه الصدامات تصفية حسابات قديمة بين القادة العسكريين، الذين لم يقدرُوا عليها أثناء حروبهم الخارجية مع عدو

(١) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص ٤٠.

(2) Cary, M. Scullard, H., A., History of Rome, 3ed edition 1975, Great Britain, p 206.

خارجي، ولكنهم بعد زوال الخطر وسيادة روما بلا منازع، سنحت الفرصة لفتح الملفات القديمة للأحزاب السياسية الرومانية، وقررت إزاحة خصومها من طريقها إمعاناً في السيطرة والهيمنة وقيادة الإمبراطورية الرومانية؟ أم إنَّ ما حدث من مواجهات بين الرومان أنفسهم، مع مطلع القرن الأول قبل الميلاد، كانت نتيجة طبيعية للآثار السلبية للحروب الطويلة، وتضخم الأنا العسكرية لدى قادة الجيوش، وطمعهم في مزيد من الثروة والجاه كحق مكتسب لانتصاراتهم وفتوحاتهم الخارجية؟.

من الأرجح أن يكون السبب الرئيسي وراء تلك المواجهات الدموية بين الرومان مزيجاً من التفسير الأول والثاني على السواء.

فقد احتدمت المنافسة بين **سوللا "Sulla"** القائد الشاب الطموح، والذي يسانده السناتو ورجالات روما العظام الأرستقراطيون، وبين القائد العجوز **ماريوس "Marius"** الذي يسانده ثوار الشعب في كل مكان.

وكانت إصلاحات نقيب العامة **روفوس "Rufus"** عام ٨٨ ق.م وبنودها هي المفجر الرئيسي لتلك المصادمات. فقد أثارت تلك البنود حفيظة السناتو والطبقة الأرستقراطية ضد العامة ومطالبها، وعندئذ بدأت المؤامرات السياسية تشد لإجهاض مطالب **روفوس**، ومنها:

١. استدعاء كافة المنفيين السياسيين وعودتهم إلى بلدانهم.
 ٢. طرد أعضاء مجلس السناتو الأثرياء، الذين تزيد ثروتهم النقدية على ٢٠٠ ألف دينار روماني.
 ٣. إحلال **ماريوس** محل **سوللا** في قيادة الحملة الرومانية المزمع قيامها ضد **مشراداتيس** اليوناني في مملكة بنطوس جنوب البحر الأسود.
- ولما كان السناتو قد أعد العدة وقرر إرسال **سوللا** على رأس الحملة نفسها لإخضاع القنصلية في عام ٨٨ ق.م. فإن البند الثالث لدنيا من قانون **روفوس** أمام

الجمعية الشعبية كان بمثابة معارضة صريحة لاختيار الطبقة الأرستقراطية الرومانية. هكذا كانت البداية في صراع إثبات الوجود وإظهار العضلات لكل من السناتو الأرستقراطي، وممثلي الشعب الروماني في مطلع القرن الأول قبل الميلاد.

عندئذ، كان من الطبيعي أن يلجأ كل من الفريقين إلى اتخاذ كافة التدابير الشرعية، وغير الشرعية لتحقيق مآربه وغاياته، فلجأ سوللا أولاً إلى الأساليب الدبلوماسية بما فيها من خداع سياسي كما أنه سخر الدين لخدمة أغراضه، فادعى يوم الاقتراع على قانون روفوس بأنه يوم حرام "Nefes". كما فعل أوكتافيوس من قبل لإفشال مشروع تيبيريوس الإصلاحي عام ١٣١ ق.م، وكان سوللا ومؤيدوه يتصرفون شرعياً وفق قانوني آيليا وفوفيا "Lex Aelia- Lex Fufia" الصادرين عام ١٥٠ ق.م. واللذين كانا يعطيان أي حاكم روماني من أصحاب الكراسي العاجية أو نقباء العامة الحق في أن يحل أية جمعية شعبية أو أن يعترض على أي مشروع قرار أو قانون إذا ادّعى بأنه رأى فائلاً سيئاً^(١).

ولما تكررت معارضة سوللا للقانون عدة مرات استناداً للحجة نفسها، نفذ صبر روفوس وممثلي الشعب، واضطروا إلى مهاجمة سوللا للقضاء عليه. فاضطر سوللا للهرب من أمامهم مستنجداً ومحتمياً بمثل عدوه ماريوس، الذي آواه وأحسن استقباله ولم يسء إليه، بل ساعده على الهرب، وتؤكد الروايات أن سوللا عاد إلى روما بجيشه منتقماً من الجميع، فأحرق المدينة وذبح الكثيرين من الأبرياء، ومنهم روفوس عدوه الأول نفسه. وقام بتعليق رأسه المفصولة عن جسده، إرهاباً وعبرة للآخرين من الثوار الشعبين. وهكذا لجأ سوللا إلى أسلوب آخر هو القمع الوحشي والتنكيل بأعدائه، بعد فشل أساليبه السياسية الأولى. وعندئذ خاف ماريوس على نفسه وترك روما فاراً

(1) Ibid., p 179.

بجلده. غير أنه تم القبض عليه، وأودع السجن وحكم عليه بالإعدام. ثم أطلق سراحه تقديراً لمبادئه وأخلاقه وخدماته لروما.

إن ما قام به سوللا لا يعتبر إصلاحات بالمعنى المتعارف عليه لتلك اللفظة، لأنها لم تكن كذلك، بل كانت عبارة عن إجراءات إدارية وقائية لإحكام القبضة على السلطة العسكرية وللإجهاد على أي دور محتمل لأعدائه، ممثلي الشعب ومؤيديهم. وكان من تلك الإجراءات:

- إلغاء قوانين روفوس السابقة.
- تهدئة الجماهير الشعبية الغاضبة، بتحديد نسبة الفائدة على الديون بـ ١٠ بالمئة فقط، وكان ذلك التخفيض في الفائدة بمثابة ترضية بسيطة للغالبية العظمى من الشعب الروماني الفقير.
- أما ترصيته لمجلس السناتو ومكافأته على مساندته له في صراعه وصدامه ما ماريوس وأعوانه فجاءت بقدر مكانة الطبقة العليا في الدولة ومنها:
 ١. حرمان الجمعية القبلية من حق التشريع وإصدار القرارات الواجبة النفاذ.
 ٢. ضرورة استشارة مجلس السناتو قبل سن أي قانون، أي منحه حق الاعتراض على أي قانون أو مشروع.
 ٣. زيادة أعضاء مجلس السناتو بمقدار ٣٠٠ عضو جديد ليصبح العدد الإجمالي ٥٠٠ عضواً^(١).
 ٤. إعطاؤه حق حكام الولايات بدرجة نائب قنصل "Pro-consule".
 ٥. إلغاء منصب الرقيب "Censor" الذي كان سيفاً مسلطاً على رقاب القناصل ورجالات السناتو معاً.

^(١) وفي مراجع أخرى ذكر أن عدد أعضاء السناتو وصل إلى ٦٠٠ عضو بعد إضافة ٣٠٠ عضو من طبقة الفرسان. انظر: هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٤٨.

وكانت كل تلك الإجراءات التي أقدم عليها سوللا وغيرها الكثير لتنظيم الجهاز الإداري والقضائي والولايات الخارجية، وذلك بعد أن خرج من الحرب الأهلية، التي دارت رحاها بينه وبين ماريوس والجهة الشعبية عقب عودته من حملته على مشراداتيس (٨٧-٨٣ ق.م.)^(١) منتصراً واستغرقت عاماً كاملاً تقريباً وهو عام ٨٢ ق.م وانتهت بهزيمة منكرة للشعبين وانتحاراً لمشروع ماريوس، وعندئذ بدأت دكتاتورية سوللا الدموية^(٢)، وفرضت مظاهر الإرهاب الجماعي نفسها على الساحة الرومانية متمثلة في :

- حمامات الدم والإعدام لأعدائه ومعارضيه بالآلاف.
- الإمعان في التعذيب النفسي، حتى لأعضاء مجلس السناتو إذ كانت أصوات المعذنين تصل عبر الجدران إلى مسامع أعضاء مجلس الشيوخ أثناء انعقاد جلساتهم.
- الإعلان عن قوائم بأسماء الأملاك المصادرة وأسماء أصحابها في السوق العامة، ورصد المكافآت المجزية للذين يقومون بالقضاء على أصحابها وقتلهم. وكانت هذه القوائم تشمل أكثر من ٩٠ عضواً من السناتو من معارضي سوللا، و ١٢ ألف قنصل سابق من معارضيه، و ٢٦٠٠ من رجال فرسان الطبقة المتوسطة.
- حرمان أبناء الضحايا من تولي المناصب العامة والوظائف الإدارية.

(١) للاطلاع على الحرب بين سوللا وميثرداتس انظر : هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص

٢٤٣-٢٤٥.

(٢) سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، ص ٢٨٠-٢٨١.

وبعد كل هذا، وبعد تلك المقدمات الدموية، والتي لا تبشر بأي تحول في سلوكيات ذاك القائد الدكتاتور، الذي فاجأ الجميع بتخليه عن سلطته تلك عام ٨١ ق.م ثم قراره الاعتزال التام عن سلطاته السابقة، في سابقة تاريخية ليس لها مثيل في كل التاريخ الروماني القديم. وموته عام ٧٨ ق.م. وإلى الآن يحار مؤرخو التاريخ الروماني لإيجاد سبب جوهري واحد لمثل هذا التحول الكبير من النقيض إلى النقيض لتلك الشخصية الغامضة^(١).

وجدير بالذكر، أن مثل **سوللا** الأعلى في الحكم كان النظام الملكي، والسلطة المطلقة التي تستعين بإسهام الطبقة الأرستقراطية وبإخلاص الجيش. ويمكن اعتبار **سوللا** من خلال طريقة حكمه ومفهومه للدولة مقدمة **لقيصر** و**أغسطس** وأول مؤسسين للكيان الإمبراطوري الروماني.

وبطبيعة الحال وبعد تخليه عن السلطة ترك الدولة الرومانية لمصيرها الذي سيرسمه القادة العسكريون والجيش المحترفة صورته القائمة. وكما هو متوقع لن يتمكن القادة المتنافسون من حل خلافاتهم إلا باستخدام الجيش واللجوء للعنف. وهذا ما تم في عهد خليفته المقبل القائد **يومي**^(٢).

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) مات **سولا** عام ٧٨ ق.م. في داره التي أشادها قرب مستوطنات جنوده في منطقة كامبانيا، وكان له من العمر ٦٠ عاماً. فجري حرق جثته باحتفالات رسمية اشترك فيها الشعب والدولة وأسبغ على جثمانه من التكريم والإجلال ما لم يعرفه حاكم روماني من قبل. انظر: هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٥٢.

ج- المرحلة الثالثة -مرحلة التكتلات (عهد بومي ٧٧-٦٠ ق.م.):

٢- بزوغ نجم بومي (٧٧- ٦٠ ق.م.):

انسحب الديكتاتور سوللا من الحكم، كما رأينا، بعد انتخاب القنصلين لبيدوس وكاتولوس، دون أن يترك برنامجاً للعمل السياسي تلتزمه الحكومة الرومانية من بعده. وعاد الصراع من جديد بعد زوال الدكتاتور سواء على الصعيد الحكومي أم على المستوى الشعبي. فالقنصل كاتولوس الذي كان ينتمي إلى أبناء الطبقة الأرستقراطية كان يتعلق بطبقته ويخلص لها، بينما كان زميله لبيدوس انتهازياً يسعى للتقرب من الشعبين والعوام، ويأمل في الوصول إلى الديكتاتورية وفقاً للنموذج الذي ضربه سوللا من قبل.

أما الشيوخ فقد أملوا بالخلاص من آثار إصلاحات سوللا الدستورية التي كبلت أيديهم، والعودة إلى ممارسة نفوذهم السابق، ولم يكن موقف المحامين ورجال طبقة الفرسان ليطمح بأقل من ذلك. إلا أن الدور الحقيقي في مسرح السياسة الرومانية انتقل منذ مغامرة سوللا العميقة الأثر إلى يد حفنة من الرجال العسكريين الذين دفعت بهم الأحداث إلى الصفوف الأولى، فأصبح طموحهم ومنافساتهم شغل المجتمع الشاغل ومركز الثقل في التطور السياسي. إذ إنَّ ضعف مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية وعجزها عن إخضاع القادة العسكريين من جهة، ونشوء الجيش المحترف من جهة أخرى قد فتح الطريق أمام المغامرين الباحثين عن السلطة والثروة لطلب المزيد من المهمات العسكرية الاستثنائية التي تعتبر القاعدة الأساسية للنجاح في الحقل السياسي. ولقد اضطرت الحروب الأهلية والاجتماعية مجلس الشيوخ إلى الاستعانة بمؤلاء القادة المتفوقين والالتجاء إليهم في المهمات لإنقاذ روما والإمبراطورية من الضياع. وفي الحقيقة أبصر سوللا مقدماً ما ينتظره من مجد وراء مهمته في بلاد اليونان وآسيا

الصغرى، حتى إن ماريوس كان ينافسه ويحسده عليها، ولسوف يدرك بومبي من بعده قيمة المهمات العسكرية الاستثنائية كمعبر أكيد إلى السلطة والحكم^(١).

• ثورة القنصل لبيدوس:

كان شبه إجماع بين الأطراف التي أصابتها قوانين سوللا بالضرر على ضرورة العمل من أجل إزالة آثار الدكتاتور السابق وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه بالنسبة لهم. ومن ثم رأى القنصل لبيدوس في هذا الإجماع وسيلة لاكتساب أكبر عدد ممكن من الأنصار، ولم يكن أمامه إلا توزيع القمح الذي أوقفه سوللا حيث قام بتوزيعه على الفقراء مجاناً على نفقة الدولة، ثم أخذ يستميل محامي الشعب إليه على أنه سيعيد إليهم ما فقدوه من صلاحيات في عهد سوللا، أما مشكلة الأراضي الزراعية فقد أيقظ لبيدوس الفتنة من مهدها بأن حرّض الملاكين القدماء في أتروريا على الملاكين الجدد الذين وطنهم سوللا. وبذلك عادت الاضطرابات في تلك المنطقة من جديد، وعندما عهد إليه مجلس الشيوخ مع زميله كاتولوس قيادة جيش لإخماد الفتنة انتهز لبيدوس الفرصة لتحقيق مطامعه التي فشل في الوصول إليها عن طريق العمل السياسي. إذ امتنع لبيدوس عن العودة عندما رجع زميله كاتولوس إلى روما بعد إنهاء المهمة، واحتفظ بالجيش الذي كان يقوده، وثار على روما كي يؤمن انتخابه من جديد للقنصلية عام ٧٧ ق.م، ثم سار لبيدوس باتجاه العاصمة وقد ضم إليه كافة المستائين من أبناء أتروريا ومن بقايا حزب ماريوس، وكان يلبس أعماله رداء الشرعية بتبني مطالب العوام ورفع شعاراتها (حق المواطنة، إعادة سلطات المحامين، إعادة

(١) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٥٤-٢٥٥.

المنفيين، ...). إلا أن نجاح كاتولوس وبومبي بتكليف من مجلس الشيوخ^(١) في هزيمة لبيدوس قرب روما، قد أجبر القائد الثائر على الهروب إلى ساردينيا فوقف حاكمها في وجهه وصده بقوة، وعندما مات لبيدوس انسحب أعوانه بقيادة مساعده بربونا إلى إسبانيا. وانضمّوا جميعاً إلى القائد الشعبي سرتوريوس زعيم الثورة الناشبة في إسبانيا ضد مجلس الشيوخ.

وقد كلفت ثورة لبيدوس مجلس الشيوخ غالباً، فعلى الرغم من قدرة هذا المجلس من القضاء على هذه الثورة اضطر إلى إعادة السلطة العسكرية للقناصل ضمن إيطاليا، ومنح سلطة الإمبريوم الاستثنائية إلى القائد الشاب بومبي^(٢).

ولقد كشفت هذه الأزمة عن افتقار السناتو للقادة الأكفاء، وكذلك عن سوء تقديره لعواقب الأمور بإسناده قيادة عسكرية عليا إلى شاب لم يسبق له تولي أية وظيفة عامة، وهو ما كان سوللا يرغب في تفاديه من خلال دستوره الهادف إلى أن يجعل تولي القيادة أمراً متعذراً. ومعنى ذلك أن السناتو في لهفته على إنقاذ الموقف حفاظاً على النظام الذي يدعم مركزه خرج على إحدى القواعد الأساسية التي أريد بها دعم هذا النظام. وقد كان هذا الخروج خطيراً على نحو ما سنرى، وكانت تلك في الواقع أول خطوة نحو دك هذا النظام وتقويض دعائم مركز السناتو^(٣).

(١) أصدر مجلس الشيوخ قراراً باعتبار لبيدوس عدواً للدولة، وعلى إثرها كلف كاتولوس وبومبي القضاء على هذه الثورة، ومنح بومبي سلطة بروبريتورية، على الرغم من أنّه لم يكن قد تولى بعد أية وظيفة عامة، بل أنه لم يكن بعد عضواً في مجلس السناتو. انظر: إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص٣٨٦.

(٢) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص٣٨٧.

• ثورة سرتوريوس:

تميز سرتوريوس من بين الزعماء الشعبيين بكونه سياسياً ناجحاً وقائداً عسكرياً قديراً اشترك في الحروب الاجتماعية. فانتخب عام ٨٨ ق.م. ليشغل منصب المحاماة واصطدم آنذاك بسوللا. وكان من المتوقع أن يكون خليفة للزعيم ماريوس. ثم عين في عام ٨٣ ق.م. حاكماً على مقاطعة إسبانية الساحلية.

إلا أن هزيمة الشعبيين بعد عامين دفعت سوللا لتعيين حاكمٍ جديدٍ لإسبانيا وطرده سرتوريوس منها، فالتجأ إلى شمال إفريقيا، واتصل أثناء ذلك بالقراصنة الكيليكين الذين سيطروا على البحر المتوسط، وامتد نشاطهم حتى إسبانيا. وفي عام ٨٠ ق.م عاد سرتوريوس إلى إسبانيا ليرأس ثورة الإسبان. ولم تجد جهود ميتلوس الذي أرسله سوللا حاكماً على إسبانيا الداخلية للقضاء على ثورة سرتوريوس، لأن الأخير كان يتبع في ثورته أساليب حرب العصابات، وتمكن سرتوريوس في عام ٧٩ ق.م من القضاء على ميتلوس، ولقي خليفته عام ٧٨ ق.م. نفس المصير. وعندما انضم إليه القائد بربونا وبقايا أعوان لبيدوس عام ٧٧ ق.م. سرتوريوس قد سيطر على كافة المنطقة الساحلية، وأصبح يتمتع بالنفوذ في المنطقة الداخلية، يؤازره في ذلك أعضاء حزب الشعبيين الذين شكل منهم مجلساً للشيوخ واعتبر نفسه الحاكم الشرعي لإسبانيا والمسؤول عن متابعة الصراع ضد أتباع سوللا في روما^(١).

وعندما أصبحت الأوضاع في إسبانيا تنذر بأخطار شديدة وتتطلب مبادرة سريعة من السناتو، وبناء على اقتراح فيليبوس قرر السناتو منح بومي سلطة برو قنصلية ليتولى بمقتضاها حكم ولاية إسبانيا وقيادة الجيش فيها، وهكذا نرى أن خروج السناتو على دستور سوللا بمنح بومي قيادة عسكرية عليا لقمع بروتوس مما أدى إلى إرغامه

(١) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٥٦-٢٥٧.

على الخضوع لمطالب بومبي ومنحه قيادة عسكرية أعلى، والذي يعتبر خروجاً على الدستور مرة ثانية وخطوة خطيرة أخرى نحو دكه، وإذا كان بومبي وهو يتولى سلطة بروبرائتورية وبعد انتصاره في حملتين صغيرتين استطاع أن يملئ رغبته على السناتو، فإن هذا يجعلنا نتوقع ما سوف يفعله بومبي بعد توليه منصب برو قنصلية وبعد انتصاره في حرب كبيرة^(١).

دخل بومبي في صراع ضد سرتوريوس، إلا أنه لم يتمكن خلال السنتين الأوليتين من تحقيق انتصارات، بل على العكس تعرض لهزائم متعددة اضطرتته لطلب المساندة من روما. وبدأ من عام ٧٥ ق.م. بدأت الكفة ترجح إلى جانب بومبي بعد الإمدادات التي وصلته. وتمكن بومبي بمزيج من الحرب والسياسة من إقناع وبربرنا بالتخلص من سرتوريوس، فعمد هذا إلى اغتياله عام ٧٢ ق.م، ولكن بومبي عاد فغدر به وقبض عليه وقام بإعدامه، ولكن ثورة الإسبان لم تنته بموت سرتوريوس وبربرنا، فقد اضطّر بومبي لمتابعة الحرب ضدهم وغزوهم في معاقلهم الجبلية، ولكنه لم يقس عليهم وعمل على اتباع سياسة التقرب ومنح حقوق الحلفاء لاكتسابهم إلى جانب روما. ثم عاد بومبي عام ٧١ إلى روما ليحتفل بظفره ويطالب بمكافأة لجنوده، فصدق مجلس السناتو على إعطاء حق المدينة إلى جنود بومبي^(٢).

(١) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص ٣٨٧-٣٨٨.

(٢) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٥٨.

• ثورة العبيد (ثورة سبارتاكوس) ٧٣-٧١ ق.م.:

اجتاحت إيطاليا أثناء انشغالها بثورة سرتوريوس في إسبانيا ثورة جديدة بدأت عام ٧٣ بتمرد عصبة من المصارعين^(١) في مدينة كابوا. قرروا الفرار من مدرسة التدريب برئاسة مصارع من تراقية من بينهم اسمه سبارتاكوس وزميلين له. عمد الثائرون للتحصن في منحدرات جبل فيزوف، وانضم إليهم خلال مدة قصيرة الآلاف من الأرقاء حتى تجاوز عددهم ٧٠ ألف نائر عام ٧٣ ق.م. واستطاعوا التصدي لجيشين رومانيين وهزيمة قوادهما، وما لبثت ثورتهم أن انتشرت في مناطق كامبانيا ولوكانيا وإيطاليا الجنوبية. ولم تتمكن روما من القضاء على هذه الثورة قبل استفحالها بالنظر لعدم وجود قوات عسكرية مرابطة في إيطاليا، وعندما أدركت روما الخطر الكامن وراء هذه الثورة قام السناتو بمنح السلطة المطلقة للقنصل كراكوس، أحد أثرياء الطبقة النبيلة، وكلفوه متابعة القتال ضدهم. ورغم الهزائم التي لحقت به في البداية استطاع هزيمة أحد جيوش سبارتاكوس وإجباره على الانسحاب إلى شبه جزيرة بروتيوم، ثم استطاع محاصرته في هذه الجزيرة، ولكن استبسال سبارتاكوس في المقاومة جعل كراكوس يطلب المساعدة من بومبي الذي كان قد وصل إلى مشارف الألب عائداً بقواته الظافرة.

^(١) من المعروف أن المصارعين كانوا من الرقيق الذين اكتظت بهم المدن الإيطالية عقب الحرب البونية والاجتماعية. وكان الرقيق يستخدمون للعمل بشروط بائسة في مزارع أثرياء روما، أو يديرون على المصارعة لتقديم المشاهد الدموية في الحفلات والألعاب التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل المصارع لخصمه. إذ إن مشاهد المصارعة أصبحت تشكل عنصراً أساسياً من عناصر التسلية في المجتمع الروماني، ولاسيما في عهود القادة العسكريين الذين عملوا على التقرب من الجماهير وتملقها. انظر: المرجع نفسه، ص ٢٥٩.

وتمكن كراكوس من اختراق صفوف الثوار بمساعدة جيوش بومبي، وسقط سبارتاكوس صريعاً في أرض المعركة بعد قتال مرير، وبعد الهزيمة المنكرة تفرق الثوار وانسحب قسم كبير منهم إلى أتروريا، وعلى الرغم من أن كراكوس كان يدعي لنفسه الانتصار على ثورة الرقيق وتنكيله بأفرادها، إلا أن مهمة القضاء على فلولهم كانت من نصيب بومبي^(١).

وقد تمخضت هذه الثورة على قلة أهميتها الذاتية عن نتائج هامة، فهي من ناحية خربت جنوب إيطاليا تخريباً كان له تأثيره على الحياة الاقتصادية في إيطاليا، ومن ناحية أخرى دقت ناقوس الخطر من جديد مما حفز الكثيرين من ملاك الأراضي على أن يبدؤوا صفحة جديدة من حيث تحسين معاملة العبيد والاتجاه نحو استبدال الأجراء بالعبيد، فلم تنشب ثورة أخرى بين العبيد. تمثل خطورة هذه الثورة.

ولعل النتائج السياسية كانت من أهم نتائج هذه الثورة. ذلك أن انتصار كراكوس أدخل في روعه أنه قائد عسكري يتمتع بمواهب عظيمة الشأن، إضافة إلى أن مشاركة بومبي له في النصر النهائي حرمة كل الفضل في شرف إنهاء الحرب مما بث فيه كراهية شديدة نحو بومبي لم تلبث أن أصبحت متبادلة، وقد كانت لهذه الكراهية نتائج بالغة الأهمية ستبرز في مجرى الأحداث المقبلة ولاسيما ما وقع منها بعد بضع سنين. وكانت أخطر نتيجة سياسية مباشرة لهذه الثورة هي أن السناتو وجد نفسه أمام قائدين منتصرين على رأس قوات كبيرة عند أبواب روما^(٢).

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج ٢، ص ٣٩٧-٣٩٨.

٢- انتخاب بومي وكراكوس قنصلين لعام ٧٠ ق.م.:

كان من أهم نتائج ثورة الرقيق اعتماد مجلس الشيوخ المتزايد على القادة العسكريين واضطراره للإذعان لرغباتهم، فقد وُحِد الانتصار بين كراكوس وبومي مستقبليهما السياسيين معاً. فعادا إلى روما ليطلباً بقبولهما في مناصب القنصلية عام ٧٠ ق.م.

والجدير بالذكر أن كلا القائدين شعرا بقيود قوانين سوللا التي مازال الشيوخ يتمسكون بها حرصاً على المكاسب التي تؤمنها لهم، فاتفق القائدان على توحيد خطواتهما في تأييد الفرسان والشعبيين ضد مجلس الشيوخ، لإسقاط قوانين سوللا وإبطال مفعولها، وبالفعل نجح الرجال في انتخابات القنصلية رغم عدم توفر شروط الترشيح لدى بومي الشاب ومقاومة الشيوخ للقائد كراكوس.

ابتدأ كل من كراكوس وبومي عملهما في القنصلية بإصدار قانون مشترك يحمل اسميهما عرف باسم قانون بومبيا ليسنسنا "Lex Pompeia Licinia" أعاداً فيه إلى محامي الشعب حقوقهم القديمة التي نالت منها قوانين سوللا، وأرجعاً للفرسان مركزهم المتفوق في محاكم المحلفين التي كان من مهامها النظر في المخالفات الإدارية المرتكبة في المقاطعات الرومانية، كما أعيد العمل بنظام المراقبين "Censur" الذي أوقف سوللا أعمالهم لخدمة الشيوخ. وكان من نتائج الدعم الذي كسبه القنصلان لمشاريعهما من جهة، وللتعاون الكامل الذي تحقق بينهما أن ضمنا إعادة انتخابهما لقنصلية العام التالي. من جهة أخرى القضاء على مفعولية قوانين سوللا، أما الضربة القوية التي تلقاها الشيوخ فقد تمثلت في محاكمة فيريس "Verres" حاكم جزيرة صقلية بناء على طلب من الخطيب والسياسي شيشرون الذي كان يشغل منصب وظيفة حازن في صقلية. كان شيشرون مستاءً من المحاكم التي يسيطر عليها الشيوخ. وناقماً على القضاة الأوليغارشيين أنفسهم الذين كانوا يتواطون مع أبناء طبقتهم على تبرئة

حكام المقاطعات المتهمين بالاختلاس والانحراف واستغلال المنصب. وكان فيريس نموذجاً لهؤلاء جميعاً. لذلك اعتبر الشعبون قضية محاكمة وإدانة للطبقة التي ينتسب إليها. فقام شيشرون بتسديد اتهاماته للحاكم فيريس في خمس خطب لخص فيها مظاهر استغلال الحكام لمناصبهم في المقاطعات في عهد سوللا. واستطاع شيشرون من خلال هذه الخطب إقناع المحلفين، فحكموا على فيريس بإعادة الأموال التي نهبها من أهل صقلية، ولم ينتظر فيريس صدور الحكم عليه، بل أسرع من تلقاء نفسه بالاتجاه إلى المنفى كي يتمتع ببقية الأموال التي ابتزها.

وكانت قضية فيريس نصراً للشعبين وللقيادة العسكرية كبومبي وكراكوس، إذ كشفت للشعب في روما فضائح الطبقة الأرستقراطية وتلاعبها بمصالح الدولة ودعمت بالمقابل موقف طبقة الفرسان التي كان شيشرون ينتسب إليها^(١).

٣- حملة بومبي إلى الشرق:

• الحملة:

كان الهدف الأساسي من هذه الحملة القضاء نهائياً على قراصنة البحر المتوسط ولاسيما في كيليكية، وبالرغم من أن روما كانت قد سلّطت عليهم حملات وجيوشاً في الأعوام ١٠٢، ٧٧، ٧٤ ق.م. لم تقض على أولئك قضاءً مبرماً، وكان القراصنة قد خربوا ميناء ديلوس اليوناني، في منتصف البحر الإيحي، في عام ٦٩ ق.م. وأغاروا على الموانئ الإيطالية مثل برنديزي، كما قطعوا الطرق التجارية البحرية التي تنقل السفن خلالها القمح والغلال إلى روما. ولهذا كان ضرورة حتمية القضاء التام على هؤلاء في قاعدتهم الجديدة في جزيرة كريت، ولهذا وخرجت إليهم حملة رومانية في

(١) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٦١-٢٦٣.

عام ٦٨ ق.م، ولكنها للمرة الرابعة لم تقضِ على أوكارهم. فكان من المستحيل تجاهل خطرهم المتزايد يوماً بعد يوم.

وهنا فقط تقرر إيفاد بومبي عام ٦٧ ق.م. قائداً عاماً على رأس جيش كبير، يتألف من ٥٠٠ سفينة ونحو عشرة آلاف مقاتل، وكان متمتعاً بسلطة مطلقة "Imperium Infinitum" لمدة تستمر ثلاث سنوات، ويحق لصاحبها، لأول مرة، ترشيح ما بين ١٥-٢٤ ضابطاً مساعداً. وكل هذه السلطة والصلاحيات توضح بجلاء أهمية المهمة الموكلة إلى القائد العام بومبي. كما ساعد الحظ بومبي كذلك عندما صدر قانون مانيليوس "Manilius"، أحد نقباء العامة في عام ٦٦ ق.م. بإسناد حكم ولايتي بيشينيا وكيليكيا وقيادة الحرب في آسيا الصغرى كذلك ضد مشراداتيس وحليفه تجرانيس إلى بومبي^(١). هكذا أصبح في يد بومبي سلطة عسكرية ليس لها مثيل في التاريخ الروماني كله، كما أن تلك القيادة في الشرق قد تركت أثراً كبيراً، تعتبر بحق تحولاً من الدستور الجمهوري إلى الدستور الإمبراطوري.

نجح بومبي، أخيراً، في القضاء على مشراداتيس عام ٦٦ ق.م. وعلى تراجانيس في أرمينيا، إذ قضى هذا العام في إخضاع الألبانيين حول بحر قزوين، كما استولى على دمشق في سوريا، وعاد إلى آسيا الصغرى عام ٦٤ ق.م. فأعاد تنظيم شؤونها واتجه مرة أخرى إلى سورية عام ٦٣ ق.م. لإعادة الأمن إليها، وواصل سيره حتى فلسطين، واستولى على القدس مع نهاية عام ٦٤ ق.م. ثم عاد بومبي في عام ٦٢ ق.م. إلى آسيا الصغرى فنظم شؤونها شرقاً وشمالاً. وكانت له أساليبه في إدارة الممالك الجديدة التي فتحها ومنها أنه:

(١) وكان هذا هو الاقتراح الذي أيده شيشرون في خطبته المعروفة باسم "Manilia"، وقد ألقى شيشرون، الفيلسوف الروماني الكبير، تلك الخطبة على المواطنين الرومان في اجتماع شعبي عام، وذلك تعريضاً لبومبي ولصداقته له. انظر: محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ١١٠.

١. أدمج بعض الولايات الجديدة مثل سورية وكريت إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية، وذلك لاعتبارات أمنية عسكرية.
٢. انتهج السياسة الرومانية التقليدية، فترك الإدارة في أيدي أمراء، وقواد البلاد الأصليين التابعة لروما.
٣. وضع للولايات الجديدة والقديمة على السواء دساتير خاصة بها، وظلت هذه الدساتير تحمل أسمه في بيثينيا مثلاً، حتى أوائل القرن الثامن الميلادي.
٤. شجع الحياة المدنية وفق الحضارة الهيلينية في منطقة الشرق القديم، فأنشأ نحو ٣٩ مدينة في آسيا الصغرى وسورية، وجمع السكان من القرى للحياة في تلك المدن.
٥. فرض على معظم المدن الضريبة بما يعادل عُشر محصول الأرض التي في زمامها، وكانت نفس القيمة الموجودة قديماً، أما الملوك والأمراء وكبار الكهنة في البلاد الواقعة على الجانب الغربي من الفرات، ففرض عليهم جزية سنوية معينة.

• آثار ونتائج حملة بومبي الشرقية على روما:

١. زيادة كبيرة في ثروات روما، فقد وزع بعد إنهاء حربه على جنوده ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه ونصف، ثم أودع ٤ ملايين أخرى في الخزانة العامة لروما.
٢. تضاعف دخل روما السنوي من الجزية.
٣. تمتعت شعوب المنطقة بسلام لم تشهده منذ سقوط الإمبراطورية الفارسية.
٤. تطهرت البحار من القراصنة وتخلصت سورية من الفوضى.
٥. زيادة هيبة روما في الشرق.

٦. يَسَّر انتشار الحضارة الهيلينية بإنشاء مدن حرة وإعطائها الحكم الذاتي في الشرق^(١).

• عودة بومبي من الشرق وموقف النبلاء من عودته:

بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزها بومبي أصبح طامعاً في المجد والسلطة، وكان يتصور أمرين أحدهما هو أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذ الدولة من أزماتها الخطيرة، والأمر الآخر هو أنه في كنف الظروف العسيرة التي كانت روما تحتازها فإنه كان لا بُدَّ من أن تؤول إليه مقاليد الأمور طواعية، فيستتب له الأمر بطريقة مشروعة إذا أحسن التصرف. وعندما وصل إلى روما أظهر استعداداه للتفاهم مع النبلاء، إذ ألقى في السناتو خطاباً معتدلاً ينم على احترام عميق للنبلاء ورغبة قوية في استرضائهم، ورغم ذلك فقد تزايدت تدابير كراكوس ضده، وكان كل ما يبتغيه بومبي عندئذ من السناتو هو أن يصادق على قراراته التي نظم بها شؤون الشرق، وأن يمنح إقطاعات زراعية لنحو ٤٠ ألف من جنوده المسرحين.

وبدلاً من أن يقدر السناتو مسلك بومبي وانتصاراته ويسارع إلى احتضانه واتخاذهِ سنداً قوياً يدرأ عنه وعن النظام الجمهوري الأطماع الداخلية والخارجية، ركب السناتو رأسه فقد اتخذ موقفاً صلباً متعنّياً إزاء بومبي، وكان الباعث على ذلك من ناحية معارضة نزيهة مردها إلى عدم الثقة في نوايا بومبي، ذلك أن النبلاء لم ينسوا أن بومبي أرغم السناتو على السماح له بتولي قنصلية عام ٧٠ ق.م. ثم استخدم صلاحيته القنصلية في تقويض دعائم دستور سوللا. ومن ناحية أخرى كانت الأحقاد الشخصية هي الباعث على تحدي بومبي، ذلك أن بعض النبلاء لم ينسوا كيف أن بومبي ادعى لنفسه الفضل في إخماد ثورة لبيدوس.

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ١١٠-١١٢.

وإزاء هذا المزيج من البواعث أصر السناتو على مناقشة النظم التي وضعها بومي في الشرق مناقشة تفصيلية تناولت كل صغيرة وكبيرة، وأما عن مطلب بومي الخاص بمنح إقطاعات زراعية لجنوده المسرحين. فقد رأى السناتو أن يوافق على هذا الطلب، إلا أنه أخذ يماطل في تنفيذه، وضاق بومي ذرعاً بهذا التأجيل بعد أن استغرقت مناقشة هذه المسألة في السناتو طيلة عام ٦١ ق.م، فلجأ بومي إلى تربيون العامة لوكيوس فلافيوس وتقدم إلى جمعية القبائل عام ٦٠ ق.م. بمشروع قانون يقضي بتوزيع أراضٍ على جنود بومي المسرحين. ولكن خصوم بومي كانوا له بالمرصاد، فقد عارضوا المشروع معارضة عنيفة أدت إلى سحبه.

وتصور النبلاء في حماقتهم أنهم بشلّ حركة بومي وإظهاره بمظهر القائد العاجز عن مكافأة جنوده قد لقنوه درساً قاسياً، وأصبحوا سادة الموقف، ولعل ذلك هو الذي شجعهم أيضاً على ارتكاب حماقة أخرى عندما عاد يوليوس قيصر من ولاية إسبانيا أواخر عام ٦٠ ق.م.^(١)

(١) إبراهيم نصحي: التاريخ الروماني، ج٢، ص ٤٩٤-٤٩٧.

The background of the page features a large, faint watermark of the Damascus University logo. The logo is circular, with the Arabic text "وقل رب زدني علما" (O Lord, increase my knowledge) at the top and "جامعة دمشق" (Damascus University) at the bottom. The center of the logo contains a stylized sunburst or starburst design.

الفصل الرابع
تاريخ روما الجمهوري
(الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية)



أولاً - الصراع الاجتماعي بين الخواص والعوام:

١ - بدايات الصراع:

إن التنظيم الاجتماعي في روما خلال القرن الخامس قبل الميلاد يشبه تماماً تنظيم المدن اليونانية خلال القرن السابع، إذاً فالمنظمات الاجتماعية الرومانية متأخرة بنحو قرنين عن المنظمات اليونانية الاجتماعية. وقد ظهرت سلطة أسر الخواص بأجلى مظاهرها بعد زوال الملكية وقيام الجمهورية، وكانت هذه الأسر مالكة لمعظم أراضي المدينة.

على أن الحروب المتعاقبة والتغيرات المختلفة التي حدثت في إيطاليا الوسطى على مدى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد قد أحدثت تأثيراً بالغاً في المجتمع الروماني، إذ الخواص ابتعدوا عن الحقول ونقص عدد أفرادهم بسبب الحملات العسكرية، وأقاموا في المدينة واحتكوا بالعوام، وعرفوا أطباعهم، واضطروا إلى أن يتفاهموا معهم، حتى أمكن خلق مثل أعلى وطني واحد أرضى جميع السكان، ووضع المنافع العامة قبل المنافع الخاصة، وتحول إلى لبنة أساسية صالحة لكي تبنى عليه أسس دولة قوية لها مطامع بعيدة وواسعة^(١).

وقد نتج عن إقامة الخواص في المدينة تزايد الاحتكاك بين الطبقتين مما خلق حالة من التذمر العنيف لدى العوام، لأنهم كانوا محرومين من الاشتراك بالأعمال السياسية والدينية والإدارية، ويبيعون كالبهائم في حالة تخلفهم عن إيفاء ما عليهم من ديون. وحتى خبزهم اليومي كانوا لا يحصلون عليه بسهولة لأن تجارة القمح كانت بيد الخواص. وما لبث العوام أن عبروا عن تذرهم بقيامهم بثورة سلمية عام ٤٩٤

(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٥٨.

ق.م، وهددوا بالهجرة من روما والارتحال عنها للاستيطان في منطقة الجبل المقدس المجاورة^(١).

وبدأ العوام يشعرون بأهميتهم الاجتماعية، لأنهم صاروا يجندون مع الخواص ويحاربون معهم جنباً إلى جنب، فكان على الخواص أن يستعدوا لقبول مطالبهم وكانت هذه المطالب متواضعة في بادئ الأمر، ولكنها اكتسبت مع مرور الزمن، صفة منهاج ذي عناصر متعددة يتلخص فيما يأتي:

١. إصلاحات في الناحية الاجتماعية كتسهيل نظام الديون على العوام، وحلّ القضية الزراعية لصالحهم على السواء.

٢. إصلاحات في الناحية التشريعية، وتحرير قانون عام مسجل يطبق على الخواص والعوام على السواء، وإقامة المساواة المدنية بينهم.

٣. إصلاحات سياسية، تسمح بوصول العوام إلى القنصلية ووظائف الدولة العالية والدخول إلى مجلس الشيوخ، واللجوء إلى الاستفتاءات الشعبية بينهم.

٤. إصلاحات دينية ومشاركة العوام للخواص بوظائف الكهنة.

وقد نقلت الروايات التاريخية بصورة ناقصة أسماء زعماء العوام الذين وجهوا حركاتهم بذلكاء وجزؤوا هذه الطلبات، واستعانوا بالظروف الملائمة لتحقيقها حتى تمكنوا أخيراً بعد حوادث كثيرة وطويلة من إقامة المساواة في الحقوق بين الطبقتين. ومما يجدر ملاحظته أن صراع هاتين الطبقتين لم يكن صراعاً دائماً. إذ إنَّ الحس السياسي لدى الرومان منعهم من اللجوء إلى الحلول المتطرفة، ووقاهم من الانزلاق في هاويتهما، وقد ساعدتهم في ذلك حالتان:

• حالة داخلية ناشئة عن كون العوام طبقة غير متجانسة تماماً، ففيهم الأغنياء الذين يطالبون بالمساواة المدنية والسياسية مع الخواص،

(١) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧، ص ٨٧.

والفقراء الذين يطالبون بإصلاحات اجتماعية واقتصادية هدفها فقط تحسين مستواهم المادي، ولا شك أن اختلاف وجهتي النظر المتقدمين قد اسهم في تأخير انتصار العوام من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع.

• **وحالة خارجية** ناتجة عن أن الخواص والعوام بدؤوا يشعرون جميعاً بحب وطنهم المشترك، وفهموا وجوب القيام بتضحيات متبادلة، لتأمين سلامة دولتهم. وهذا ما سهل وصول الطرفين إلى اتفاق على نقاط معينة بين فترة وأخرى^(١).

وهكذا وبعد أن حقق العوام وحدة صفوفهم أمام الخواص، وأصبحوا كتلة مترابطة ووسعوا نطاق وحدتهم لتشمل القبائل التي تسكن حول المدينة وجعلوها تنظيمات خاصة، وقاموا بثورة سلمية عام ٤٩٤ ق.م. وهددوا الخواص بالارتحال عن روما إلى الجبل المقدس وبناء مدينة جديدة تنافس روما وتتحد مع أعدائها، فخاف الخواص من ذلك، وشعروا بضرورة التساهل مع العوام فمنحوهم بعض الحقوق.

وقد عقدت بين الطرفين معاهدة رسمية عرفت باسم "اتفاق الجبل المقدس عام ٤٩٤ ق.م." وتحتوي شرطين أساسيين، وهما إنشاء نظام الحماية الذي يمنح العوام شيئاً من السلطة التنفيذية، وتأسيس مجلس القبائل الذي يمنحهم جزءاً من السلطة التشريعية. وبنتيجة هذه المعاهدة أصبح للعوام الحق في انتخاب أربعة محامين عنهم ينتقون من أقسام روما الأربعة ليمثلوهم أمام الدولة، وجعل هؤلاء المحامين مقدسين، ولا يجوز المساس بهم بأي أذى، وإذا تجرأ أحد عليهم يصبح خارج القانون ويحكم عليه بالإعدام، ولم يكن لهم الحق في دخول مجلسي الشعب والشيوخ، بل فقط الجلوس على

(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٥٩

أبوابها للإحاطة بالمناقشات التي تهم العوام. ومع تقدم العصر الجمهوري حصل العوام على ممثلين آخرين إلى جانب المحامين وهم الحكام الإداريون الذين كانوا في البداية يأترون بأمر المحامين، ثم اختصوا بعد ذلك بوظائف الشرطة الإدارية. أما مجلس القبائل فكان يتألف فقط من ممثلي العوام، وقد أضيف إلى المجالس الرومانية القديمة، وصارت له صلاحيات انتخابية، وتشريعية، وقضائية. وكانت مهمته أن ينتخب المحامين، ويصوت على القرارات والاستفتاءات، وينظر في الدعاوى القضائية، إلا أن مقرراته لم تكن نافذة إلا على العوام، ولا تنقيد بها الدولة الرومانية. ومهما يكن من أمر فقد حصل العوام على أولى نتائج جهادهم، إذ أنهم نظموا تنظيمًا اعترفت به السلطات العامة، وحتمت القوانين وأصبحوا دولة ضمن دولة^(١).

٢- مراحل الصراع:

أ- الاعتراف ومحاولة الإجهاض:

كان من أهم نتائج الثورة السلمية للعوام هي اعتراف الخواص مضطرين بالمؤسسات الجديدة، وخصوصاً بالمهام التي تم توكيل النقباء بها، إذ لم يكن بإمكانهم أن يستمروا في تعنتهم الذي سيؤدي إلى انفجار الوضع في روما وانشطارها السياسي في وقت كان الأعداء الخارجيون يتحينون الفرص للانقضاض عليها، غير أن هذا الاعتراف اعتبر نصراً سياسياً للعوام ما دام يضيف طابع الشرعية على نضالهم، وتتجلى خطورة الوضع الجديد بالنسبة للأرستقراطية الرومانية (طبقة الخواص) في أن العوام أصبحوا يمتلكون الوسائل القانونية التي سيستخدمونها في صراعهم ضد البطارقة بهدف

(١) المرجع نفسه: ص ٦٠-٦١.

تحقيق مكاسب أخرى. لذلك اتجه الخواص نحو استعمال الحيل لإجهاض حركة العوام مستغلين الثغرات التي تحملها تنظيمات العوام المؤسساتية.

كان أول ما سعى إليه البطارقة هو الحد من تأثير النقباء، وكانت الطريقة التي اعتمدها تتلخص في كسب بعضهم واحتوائهم وتأليبهم بعد ذلك ضد زملائهم. فما داموا يشكلون مجعاً من عدة نقباء، وما دام كل نقيب يملك حق النقض الذي يمكن استعماله لشل قرارات الآخرين، فبإمكان البطارقة تقريب أحدهم أو استمالته لشل حركة المجمع من الداخل، وهاهو أبيوس كلوديوس "Appius Claudius" يتحدث أمام مجلس الشيوخ عن الطريقة التي يجب اتباعها لمنع النقباء من إعاقة عملية تجنيد العوام في الجيش: "لا توجد وسيلة تمكن من وضع حد لسلطة نقيب العوام سوى مواجهته بأشخاص لهم نفس المرتبة ويتمتعون بنفس السلطة وأمرهم بإقرار ما يحاول هو منعه". وأوصى أبيوس كلوديوس الأشخاص الذين سيصبحون قناصل في المستقبل باتباع تلك السياسة والعمل دوماً على كسب بعض النقباء الذين يعبرون عن استعدادهم للتعاون... ذلك "أن الوسيلة الوحيدة لتكسر شوكتهم هي بث التفرقة في صفوفهم". واستقبل البطارقة بالطبع قرار رفع أعداد المجمع بارتياح كبير، فكلما زاد العدد عسر الاتفاق، وقد نجح الخواص نسبياً في هذا التكتيك.

وكان على البطارقة أن يشلوا حركة المطالب التي يستمر بها العوام، وذلك باللجوء إلى وسيلة أخرى: هي توجيه الأنظار إلى الخارج كلما اشتدت الأزمة الداخلية، لقد نقل لنا ديونيسيوس الهاليكارناسي "Dionysius of Halicarnassus" وصفاً للحالة العامة في روما وللسياسة التي اتبعها البطارقة حينما كتب: "لقد أصبح أمراً اعتيادياً أن تعرف المدينة السلم في أوقات الحرب، وأن تستسلم للصراعات في أوقات السلم، وكان القناصل مدركين لذلك. وحينما تعلن حرب خارجية كانوا يعتبرونها بمثابة نتيجة إيجابية لصلواتهم، وحينما يركن العدو للهدوء، كان القناصل

أنفسهم يخلقون الأسباب لإذكاء نار الحرب". وكانت تلك إحدى الوسائل التي نجح البطارقة في استعمالها ولاسيما وأنها كانت تحقق لهم مكسبين: التماطل إزاء مطالب العوام خاصة تلك التي تتعلق بإعادة تقسيم الأراضي، وتوسيع الرقعة الترابية لروما^(١).

ب- قانون اللوحات الاثني عشرة "Leges duodecuim tabularum":
لم تكن القوانين الرومانية سوى عادات وتقاليد تتصل اتصالاً وثيقاً بالديانة، وترجع إلى تاريخ قديم جداً، ولما كان البطارقة لا يبتكرون الوظائف العامة وحسب بل أيضاً عضوية الجماعات الدينية، وإطلاق القوانين الرومانية وتفسيرها وتطبيقها، في حين كان يتعذر على العامة معرفة القوانين وتفهمها والتحقق من صحة تفسيرها وتطبيقها، بينما كان حكام البطارقة يستخدمون سلطتهم القضائية على هواهم، فيحللون ما هو محرم، ويحرمون ما هو محلل مادام هذا الحكم يتفق ومصالح أفراد طبقتهم^(٢).

وقد تبناه العوام إلى أن الحد من سلطات البطارقة وتجاوزاتهم يجب أن يبدأ بكسر احتكارهم لمعرفة القانون ومشاركتهم في تأويله، ولذلك قام أحد النقباء وهو ترونطيوس هورسا "Terentilius Horsa" انطلاقاً من عام ٤٦٢ ق.م، بحملة للمطالبة بسنّ قوانين مكتوبة تحدد أنواع ومفاهيم السلطة، وتحدد علناً حقوق الفرد وواجباته، ورغم أن طبقة الخواص حاولت جاهدة الصمود في وجه هذا المشروع، وجدت نفسها مجبرةً على الرضوخ، فكان أن شهد منتصف القرن ثورة تشريعية كبرى في العالم الروماني أدت إلى إنهاء احتكار البطارقة للقانون.

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٩٤-٩٥.

(٢) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٨٦.

لقد تم تشكيل مجمّع من عشرة أشخاص أوكلت إليه مهمة تدوين القوانين سنة ٤٥١ ق.م. في ظرف سنة واحدة. فوضع هؤلاء عشرة ألواح برونزية كتبوا عليها جملة من القوانين، ثم عُيّن مجلس آخر سنة ٤٥٠ ق.م. عمل على إتمام عمل المجمّع الأول بوضع لوحين جديتين، فاشتهر ذلك القانون باسم اللوحات الاثنتي عشرة التي عرضت على مجلس الشعب "السناتوس" بقصد التصويت عليها ثم علقت في السوق الروماني حتى يتسنى لكل الاطلاع عليها ومعرفة حقوقه وواجباته، فكان بذلك أول قانون مكتوب خضع للتصويت في تاريخ روما. وقد شكل ذلك حدثاً هاماً في حياة روما إلى درجة أن بعض المؤرخين القدماء كانوا يعتبرون أن هذه القوانين هي التي حولت روما إلى ديمقراطية^(١).

لقد ضاعت اللوحات الاثنتا عشرة، غير أن المصادر احتفظت لنا بشذرات منها وبقطع من المضامين القانونية التي تضمنتها هذه التشريعات، ومن خلال هذه القطع حاول بعض المؤرخين إعادة تركيبها، ويبدو أنها ركزت بالخصوص على القانون الخاص: قانون الملكية، تحديد الجرائم (السرقه، الاعتداء على المحاصيل، شهادة الزور،...)، تحديد سلطة الأب على أفراد أسرته... ثم إنها تطرقت للجانب القضائي وبينت الطريقة التي يجب اتباعها لرفع القضايا والوقوف أمام المحاكم (مثلاً أقرت أن حكم الإعدام لا يمكن أن يصدر إلا عن مجلس الشعب)، كما حددت مفهوم المواطنة. ولكنها أبقت على التفرقة بين الأغنياء والفقراء ومنع الاختلاط بينهم عن طريق الزواج.

^(١) بالنسبة لليتوس ليفيوس كان الهدف من هذا القانون "جعل الجميع كباراً وصغاراً متساوين في الحريات وأمام القانون" والعمل على وضع مبادئ تهدف إلى ضمان الحرية والمساواة للبطارقة والعوام على السواء. انظر: أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٩٦.

ومن الواضح أن هذا القانون لم يكن جديداً من حيث مضمونه إذ إنه اكتفى بتدوين الأعراف السائدة، وقد ظلت نصوص هذا القانون تخدم مصالح الأرستقراطية الرومانية، بل تحافظ على الطابع القديم للقانون الروماني، فقد زكى هذا القانون سلطة الأب الذي ظل بإمكانه أن يبيع أبنائه كعبيد، ووحّد القوانين الخاصة باستعباد الأحرار الذين لا يستطيعون إعادة الأموال المستدانة. أما التفريق الصارم بين البطارقة والعوام فقد تم تدعيمه وتأكيدّه بمنع التزاوج بين أفراد الفئتين، ومع ذلك فإن إصدار قانون مكتوب ومنشور كان يمثل في حد ذاته إصلاحاً سياسياً هاماً، فانطلاقاً من ذلك الحين لم يعد المواطن العادي مجبراً على اللجوء إلى قضاء عرقي ذي قواعد سرية لطلب الحماية من تجاوزات الأقوياء، بل باستطاعته أن يعرف القواعد القانونية بما فيها الجرائم والحدود. ومعنى ذلك أن نضال العوام قد أدى إلى إقرار المساواة القضائية^(١).

ج- حق الزواج المختلط:

مباشرة بعد إعلان هذا القانون قام أحد النقباء ويدعى "كانوليوس Caneleius" بإعداد مشروع قانون يهدف إلى نبذ تحريم الزواج بين الفئتين، ولقد واجه البطارقة كعادتهم هذا المطلب بعنف كما يبدو من خلال بعض النصوص التي نقلها بعض المؤرخين تبين مدى دفاعهم المستميت من أجل الحفاظ على صفاء عرقهم وازدراءهم الشديد للعوام:

"لقد اعتبر البطارقة أن مشروع القانون يدنس سمعتهم، ويقلب وضع أسرهم، وكانوا يتساءلون إلى أي شيء تهدف هذه الزيجات المختلطة؟ ويعتقدون أن تعميم بعض أنواع الزيجات بين النبلاء والعوام كما لدى الحيوانات بشكل يصبح

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٩٦-٩٧. وانظر أيضاً: إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان،

معه المولود جاهلاً للعرق الذي ينتمي إليه: فنصفه نبيل ونصفه الثاني عامي بحيث أنه لن يتفق حتى مع نفسه على الطبقة التي ينتمي إليها".

وقد كان للعوام حججهم التي يدافعون بها عن مطلبهم المهادف للحصول على المساواة الاجتماعية، فهذا النقيب كانوليوس يجيب عن ادعاءات الأرستقراطية في إحدى خطبه:

"أليس من أكبر وأفضح الإهانات أن يعتبر قسم من المواطنين وكأنه أعور لا يجب التزاوج معه؟... ومحرم علينا أن ندخل في حلفكم وقرابتكم، أو أن تختلط دماؤنا بدمائكم. فإذا كنا بالفعل ندنس شرف نبلكم الحقير... لماذا لا تحاولون الحفاظ عليه باتخاذ إجراءات في حياتكم الخاصة. لا تتزوجوا العاميات... ولا تزوجوا بناتكم وإخوانكم إلا للبطارقة... ما من عامي تزوج بطركية بالقوة. إنما نزوات بطركية... فما من أحد أجبركم على عقد زواج بالرغم عن أنفسكم... أما أن تصدروا قانوناً لتحريم وإلغاء الزواج بين البطارقة والعوام فهذه في نهاية المطاف إهانة للعوام. لماذا لا توسعوا هذا المنع ليشمل الزواج بين الأغنياء والفقراء؟... ولماذا لا تمنعوا العامي من أن يكون جاراً للبطركي أو تحرموا عليه أن يسلك نفس الطريق الذي يسلكه هذا الأخير أو أن يحضر نفس المأدبة أو أن يكون معه في نفس السوق؟... إن هدفنا من هذه الزيجات بيننا وبينكم هو أن نحس بأننا رجال، بأننا مواطنون، أما أنتم فلا حق لكم في الاعتراض عليها اللهم إذا كنتم تسعون إلى إهانتنا وتدنيس كرامتنا..."

وهكذا فقد كان الصراع على أشده بين الطرفين وهو صراع يبين مدى كراهية الأرستقراطية لهذه الفئة الصاعدة التي كانت تطالب بحقها في حياة كريمة مبنية على المساواة الاجتماعية. ولقد انتهت هذه المحنة بتنازل البطارقة وتخليهم عن المعارضة

سنة ٤٤٥ ق.م. تحت ضغط الظروف الخارجية، إذ صدر قانون يسمح بالزيجات المختلطة.

إلى هذا الحد كان العوام قد حصلوا على جزء هام من الحقوق الاجتماعية وخصوصاً المساواة بينهم وبين البطارقة في المجتمع المدني، وكانت تلك إحدى حلقات مسلسل الصراع الذي سيظل مفتوحاً لبضع عقود. ولا شك أن المرحلة التالية ستكون أقوى وأعنف من الأولى باعتبار أن العوام سيطالبون بالحقوق السياسية. أي إنهم أخذوا يسعون لاقتسام السلطة السياسية التي ظلت منذ نهاية العهد الملكي حكراً على البطارقة. فلكي يتمكن العوام من الإسهام في تسيير شؤون روما كان عليهم أن يندمجوا في الطبقة السائدة، وهو اندماج كان سيتم ولاشك على المدى المتوسط كنتيجة لإلغاء منع قانون الزيجات المختلطة، وذلك عن طريق المشاركة في المجالس وخاصة مجلس الشيوخ، والتمكن من الترشح لمناصب الدولة، بالإضافة إلى الإسهام في تسيير الأمور الكهنوتية^(١).

د- النضال من أجل الحقوق السياسية:

كان لا يحق لأبناء الطبقة العامة في خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد سوى تولي وظائف من الدرجة الثانية، وهذه الوظائف لا تخول أصحابها اكتساب السلطة التنفيذية العليا، ولكن في أواخر هذا القرن، وبسبب الحروب الرومانية المتواصلة تمكن أبناء الطبقة العامة من انتزاع حق تولي التروييونية ذات السلطة القنصلية، وهكذا شكلوا غالبية من شاغلي وظيفة التروييونية العسكرية في الأعوام ٣٩٩ و ٣٩٦ و ٤٠٠ ق.م. حين كانت هيئة الترانة العسكريين تتألف من ستة عسكريين^(٢).

^(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ٩٨-٩٩.

^(٢) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٩٠.

وعندما تقرر في عام ٣٦٧ ق.م الاستغناء نهائياً عن وظيفة التربيونية العسكرية والعودة إلى نظام القنصلية، وكان أحد القنصلين عام ٣٦٦ ق.م. من العامة ويدعى لوكيوس سكستتيوس "Lucius Sextius" وقد كان هذا القنصل تربيونياً عسكرياً يتمتع بالسلطة القنصلية العليا في عام ٣٦٧ ق.م. وهو الذي أصدر مع زميله التربيون جايوس ليفينيوس "Gaius Licinius"، في أثناء شغلها وظيفة التربيونية العسكرية، مجموعة من القوانين باسميهما عرفت بالقوانين الليقونية السكستية "Lieiniaesextiae"^(١). وبمقتضى هذه القوانين تقرر أن يكون أحد القنصلين في كل سنة من العامة، وكان عدم تطبيق القوانين واضحاً عندما جاء: القنصلان من البطارقة بين عامي ٣٥٤ و ٣٤٢ ق.م، وأخيراً حدث أن تولاهما اثنان من العامة سنة ١٧٢ ق.م.

وبعد أن تمكن العامة من تولي وظيفة القنصلية أصبح من الجائز لهم تولي باقي الوظائف العامة الأخرى. فقد اكتسبوا حق تولي الدكتاتورية في عام ٣٦٥ ق.م. حين أسندت هذه الوظيفة إلى محارب قدير من الطبقة العامة يدعى ماركيوس روتيلوس "Gaius Mareius Rutlusum". وفي عام ٣٥١ ق.م. اكتسبوا حق الكنسورية عندما انتخب هذا الرجل نفسه كنسوراً، وفي عام ٣٣٧ ق.م. اكتسبوا حق البرايتورية حينما انتخبوا كوينتوس بوبيليوس فيلو "Quintus Pubilius Philo" وهو الذي كان قد تولى الدكتاتورية في عام ٣٣٩ ق.م. واستصدر في جمعية المئينات إبان توليه هذه الوظيفة عدداً من القوانين الهامة المعروفة باسمه "Leges Publiliae". وكان العامة قبل ذلك قد اكتسبوا في عام ٣٦٦ ق.م. حق تولي الأيديلية الكورولية على أن يتناوبوا مع البطارقة في شغل هذه الوظيفة عاماً بعد عام.

(١) المرجع نفسه: ص ١٩٢.

- وكان لاكتساب حق العامة في تولي الوظائف الكبرى العامة ملاحظتان:
- **الملاحظة الأولى:** لم يؤد هذا الحق إلى توليها من قبل رجال من العامة في أغلب الأحيان، لأن الناخبين كانوا يفضلون أبناء الطبقة العليا ذوي الماضي العريق في الحياة العامة من خبرة ومعرفة مما لا يتوافر للمواطن العادي، فضلاً عن أنه لم يكن من مرتبات العامة مع الإشارة إلى أن الدعاية الانتخابية للفوز بها كانت مكلفة كثيراً، لا يستطيع التفكير أو التطلع إليها إلا من كان من الأثرياء.
 - **والملاحظة الأخرى:** أنه على الرغم من إزالة الحواجز لم يتمكن من تولي الوظائف العامة أشخاص بارزون من عامة الرومان، بل أشخاص ينتمون إلى الأسر الحاكمة في المدن اللاتينية والإيطالية، التي تم ضمها إلى الدولة الرومانية، ومنح مواطنيها حقوق المواطنة الرومانية الكاملة^(١).
- كما استطاع العامة الدخول إلى مجلس الشيوخ (السناتوس) وعضوية الجماعات الدينية نحو عام ٣٦٨ ق.م، عندما تقرر زيادة أعضاء الجماعة المختصة بجمع النبوءات المقدسة والحفاظ عليها وتفسيرها من اثنين إلى عشرة على أن يكون نصفهم من العامة. وفي عام ٣٠٠ ق.م. وصل العامة إلى أهم جماعتين دينيتين عندما قضى قانون أوجولينوس "Lex Ogulnia" بأن يزداد عدد أعضاء جماعة كبار الكهنة من أربعة إلى ثمانية وعدد أعضاء جماعة العراف من خمسة إلى عشرة على أن يكون نصف الأعضاء من العامة في كل من هاتين الجماعتين.
- وأخيراً أيدت اللوحات الاثنتا عشرة حق المواطنين الرومان في استئناف ما يصدر عليهم من أحكام، وجعلت الرأي النهائي في الأحكام المتعلقة بالإعدام أو النفي

(١) المرجع نفسه: ص ١٩٠-١٩١.

من حق الجمعية الشعبية العليا "جمعية الكور" ثم انتقل هذا الحق إلى جمعية المثينات قبل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، لكن الطبقة الخاصة عطلت نشاط جمعية المثينات فترة من الزمن في أوقات الأزمات عندما كانت تقنع القنصلين بتعيين دكتاتور مكافهما فتؤول سلطتهما طبيعياً إليه^(١).

هـ- انتهاء الصراع بين العامة والبطارقة (الخاصة):

أدت مشكلة الديون التي كان المزارعون الرومان يرزحون تحت عبئها بسبب تجنيدهم وطول غيابهم عن مزارعهم إلى خلق مشكلة صعبة ومزمنة تقضي بإيجاد حلول جذرية لهذه المسألة، وبلغت هذه المسألة ذروتها عندما تقرر في سنة ٢٨٩ ق.م. ضرورة استخدام العملة في جميع أنواع التعامل بدلاً من المقايضة التي كانت شائعة آنذاك.

وقد أدى تيسير عقد القروض واحتساب فوائد مرتفعة عليها إلى تعقيد الأمور، ورافق ذلك ارتفاع أصوات العامة للمطالبة بتصحيح أوضاع المدنيين منهم. ولما لم يستجب مجلس السناتوس لمطالب العامة بإيجاد الحلول أو الموافقة على التشريعات التي أقرتها جمعية القبائل لتحسين حال المدنيين كونه يعتبر ممثلاً وراعياً لمصالح الدائنين، أقدم العامة على خطوة جريئة في عام ٢٨٧ ق.م. بأن هاجروا إلى تل بانيكولوس عبر نهر التيبر، وهددوا بالانفصال عن دولة الرومان.

وإزاء ذلك وافق السناتوس على تعيين دكتاتور من العامة يدعى كوينتوس هورتنسيوس "Quint Hortensius" لفض الخلاف. فنجح في إيجاد حل له، واستصدر القانون المعروف باسمه الذي قضى بأن تصبح كل قرارات جمعية القبائل قوانين سارية

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٨٣-٨٤.

المفعول دون أن يسبقها موافقة السناطوس عليها منذ ذلك الوقت. وبذلك أصبحت جمعية القبائل الجمعية التشريعية الرئيسية، في حين أن جمعية المئينات أصبحت الجمعية الانتخابية العليا التي تنتخب أعلى الحكام مرتبة.

وحدير بالذكر أنه على الرغم من حدة الصراع بين العامة والبطارقة، فإن الفريقين لم يترددا مرة بعد أخرى في دفن خلافتهما وتوحيد كلمتهما والوقوف صفاً واحداً في وجه الأخطار المحدقة بالوطن. فليس من قبيل الصدف قبول البطارقة أكثر مطالب العامة تدريجياً إلا بدافع الميل إلى الروية والتطور خطوة فخطوة.

وهكذا يبدو أنه قبل نهاية عام ٢٨٧ ق.م. كانت الخلافات التي نشأت بين طبقتي العامة والخاصة قد انتهت مع سلسلة من التشريعات التي أدت إلى إيجاد ازدواجية في نظم الحكم الروماني، فثريونية العامة وجمعية القبائل اللتان أنشأتا للدفاع عن مصالح العامة ثم منحتا سلطات عالية، أصبحتا جزءاً من التنظيم الحكومي الروماني إلى جانب الوظائف العامة وجمعية الكور وجمعية المئينات، وجميعها كان إنشاؤها لخدمة شؤون المواطنين جميعاً وتسيير عجلة الحكم، لكن هذه الازدواجية في نظام الحكم أدت إلى أن تعمل كل طبقة منفردة على تمرير المشاريع والقوانين أو القرارات التي تخدم مصالح كل طبقة على حدة. ولكن كان من شأن ما منح للعامة من حقوق ولتراث العامة من سلطات وجمعيات القبائل من اختصاصات أن اتسم الدستور الروماني بطابع الديمقراطية^(١).

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٩٧-٢٠١.

٣- النتائج:

لقد تمخض عن الصراع ذي الأمد الطويل بين الطبقتين العامة والخاصة ثلاث نتائج أساسية من أهم النتائج العامة وهي:

أولاً- ضعف قوة البطارقة أو الخاصة: ولا نقصد هنا فقط انهيارهم السياسي، بل تراجعهم العددي أيضاً، وتعود أسباب ذلك إلى تفكك بعض العشائر التي لم يعد باستطاعتها تحمّل الوضع الاقتصادي الجديد الذي عرفته روما، كما أن بعضها الآخر قد تلاشى بشكل نهائي بسبب انقراض النسل أو بسبب الدخول في حماية عشيرة أخرى أقوى، وسيستمر هذا الانهيار طوال القرنين اللاحقين حتى إنّه في نهاية العهد الجمهوري لم تعد روما تضم أكثر من ٣٠ أسرة تنتمي إلى ١٣ عشيرة بطركية. أما على المستوى الأخلاقي، فقد أدت عقود الصراع بين البطارقة والعوام إلى خلق صورة مشوهة للبطركي. فقد أصبح هذا الأخير رمزاً لعهد قد ولى، أي إنّه أصبح مرادفاً للرجعية بلغة عصرنا.

ثانياً- ومقابل هذا التراجع البطركي حقق العوام تزايداً هائلاً بفضل ارتفاع أعدادهم الناتج عن ارتفاع نسبة الخصوبة لديهم، وخصوصاً نتيجة تزايد عدد المهاجرين الذين استقروا في روما، أو أنه كان من النتائج البشرية للتوسع الروماني في إيطاليا، ثم بفضل تزايد ثروتهم نتيجة الانطلاقة الاقتصادية التي عرفتها روما.

ثالثاً- غير أن أهم نتيجة تمخضت عن هذا الصراع تمثلت في تكوين طبقة اجتماعية جديدة هي التي ستحل محل الأرستقراطية التقليدية المنهارة. ولقد تكونت الطبقة الجديدة من أثرياء البطارقة والعوام على حد سواء، وستصبح الطبقة السائدة نتيجة ما يمكن أن نسميه بالدستور البطركي العامي الجديد الذي أقرته روما، فقد رأينا من قبل أن قوانين عام ٤٥٠ ق.م. لم تؤد في نهاية المطاف إلى إقامة نظام ديمقراطي

على غرار ما وقع في أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد، ذلك أنها أفرزت طبقةً جديدةً اصطلاح الرومان على تسميتها بطبقة النبلاء "Nobilitas".

بالإضافة إلى البطارقة تكونت هذه الطبقة من أغنياء العوام الذين فضلوا اقتسام الامتيازات مع البطارقة على حساب مشروع المجتمع الديمقراطي الذي كان يناضل العوام من أجله. غير أن هناك عنصراً آخر كان له إسهام فعالة فيما يمكن أن نسميه تجاوزاً بالبورجوازية الناشئة، ذلك أن نهاية الأزمة الاقتصادية وارتفاع نسبة النمو الاقتصادي خلال القرن الثالث قبل الميلاد قد خلقت ظروفاً مؤاتيةً لظهور فئات اجتماعية جديدة من رجال أعمال وتجار ووكلاء بحريين، حققوا ثروات مالية هائلة أصبحت تنافس، بل تتعدى في بعض الأحيان الثروات البطرقية القائمة على الملكية العقارية والرعي، وطبعاً، فإن طموح هذه الفئات لم يقتصر على الجانب الاقتصادي بل تعداه إلى الجانب السياسي بمعنى: أنهم كانوا يسعون إلى المشاركة في توجيه سياسة الدولة، وهكذا فرضت المصالح المشتركة بين الفئتين ضرورة اتحادهما في طبقة موحدة. وكان ذلك التحالف بالطبع موجهاً بالأساس ضد طبقة العوام الفقيرة التي تعيق مطالبها المتعلقة بديمقراطية المجتمع ومؤسسات الدولة نمو مصالح البطارقة وأثرياء العوام، أي النبلاء الجدد. وهكذا ستعرف روما تقسيماً طبقياً جديداً قائماً على الثروة سيعوض النسب، وستصبح معه مفاهيم الديمقراطية ومبادئ المساواة التي نادى بها العوام منذ ما يزيد على قرن من الزمن مجرد سراب.

إن الانتماء إلى طبقة النبلاء يعني الحصول على مركز اجتماعي متميز، ولبلوغ هذا المنصب لا بدّ من توفر جملة من الشروط، منها مثلاً أن يولد الشخص في عائلات بارزة، يتوفر لها عدد من الأتباع، وأن يكون أحد أفرادها على الأقل قد تمكن من تولي منصب من مناصب الدولة الرسمية.

وإذاً: ظل التمييز بين النبلاء والعوام قائماً طوال العهد الجمهوري، إلا أن مفهوم هذا الاسم قد تغير. فلم يعد يعني كما كان الحال عليه في السابق فئة اجتماعية واسعة يوحد وضعها بينها كفة مستبعدة من قبل المجتمع المدني باعتبار أنها لا تنتمي إلى المجتمع العشائري، بل إنه أصبح يطلق في روما على طبقة الفقراء الذين تم إقصاؤهم من الحياة السياسية بعد تحالف الأرستقراطية التقليدية وأغنياء العوام.

وسيطغى النبلاء على الساحة السياسية خلال القرون اللاحقة، فهم الذين سيتولون المهام السياسية والدينية، وهم الذين سيحتكرون التجارة والأموال العقارية، وهم الذين سيصبحون العقل المدبر لأمر الفتح الروماني في إيطاليا وفي البحر الأبيض المتوسط. وباختصار: هم الذين سيحكمون ويوجهون الجمهورية الرومانية^(١).

(١) أحمد سراج: في التاريخ الروماني، ص ١٠٢-١٠٣.

ثانياً- المؤسسات السياسية وأجهزة الحكم في العهد الجمهوري:

مجرد انتهاء النظام الملكي في عام ٥١٠ ق.م. وطرد آخر الملوك، وقيام نظام جمهوري في عام ٥٠٩ ق.م. غدت كلمة ملك "Rex" كلمة ممقوتة من الشعب الروماني بسبب ما ارتبط في أذهانهم عن ذلك العصر السابق من تسلط وسيادة مطلقة، لم يكن لهم فيها أي نصيب من المشاركة الفعالة.

لقد سُمي النظام الجديد باسم "Res Publica"^(١) وتعني حرفياً "الشيء العام" بمعنى النظام الذي يعني بالأمور العامة والشعب، أو الغالبية العظمى من الناس، وليس ذلك النظام الأرستقراطي الملكي السابق، الذي كان يعني بمصالح الأغنياء والنبلاء والأشراف.

ومن أهم التغييرات التي طرأت على النظام السابق: إحلال بعض الوظائف الجديدة، تبعاً لضرورات تأدية مصالح الشعب على أحسن وجه وضمان القيام بالمهام الموكلة إلى شاغلي تلك المناصب خير قيام، دون تهاون أو شطط، وهي ما نوجزه فيما يلي:

(١) إنها هي تلك الكلمة الخالدة التي عرفتها أوروبا باسم النظام الجمهوري، واستخدمت له اشتقاقاً من الأصل اللاتيني هذا، بعد حذف النهايات اللاتينية لكل من الكلمتين السابقتين، فغدتا مصطلحاً واحداً "Republic" ومن الأخطاء الشائعة ترجمة كلمة "Politecia" عند أفلاطون بأنها جمهورية أفلاطون. لأن هذه الكلمة آنذاك كانت تعني المجتمع أو أي تجمع بشري بغض النظر عن شكل نظامه السياسي أي أية دولة، لو لم تكن تعني نظاماً جمهورياً، كما يحاول البعض مقابلة هذا باصطلاح "Res publica" أو "Civitas" اللاتيني، لأن أفلاطون لو كان يعني ذلك النظام لاستخدام كلمة ديمقراطية "Democratia" التي كانت معروفة لدى اليونان في العصر الذهبي، وهي المقابل اليوناني لكلمة "Res publica" اللاتيني. انظر:

محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ٧٥.

أولاً- الإبقاء على سلطة الإمبريوم "Imperium" ولكن تم إعطاؤها لحاكمين اثنين، عرفا باسم القنصلين ولمدة سنة واحدة بعد أن كان في العهد الملكي، مدى الحياة. وهكذا فإنه بعد انتهاء العام يترك القنصلان منصبيهما ويتخليان عن شارات وظيفتيهما ويصبحان مرة ثانية مواطنين عاديين.

ولما كانت تلك السلطة، أي سلطة الإمبريوم، هي أعلى سلطة في البلاد، كان الشعب كله يشارك في انتخاب القنصلين الجديدين في روما القديمة مرة كل عام، داخل الجمعية المثوية وهي التي حلت كما رأينا محل مجلس الجماعات^(١).
وجدير بالذكر أن واقعية الرومان الخالصة والمرنة في نفس الوقت، والتي تنبع عن ثقة مطلقة بالأفراد والمسؤولين جعلت سلطة الإمبريوم تبادلية بين القنصلين داخل وخارج مدينة روما.

ثانياً- ظل السناتوس "Senatus"، المجلس المبجل للشيوخ وكبار شخصيات المجتمع الروماني القديم قائماً يباشر أعماله، ولكن كهيئة استشارية لا تنفيذية ولا تشريعية. كما أننا لا نعرف بطريقة قاطعة مؤكدة كيف كان أسلوب الرومان لاختيار أعضاء هذا المجلس في تلك الفترة، وإن كنا نرجح أن كل من يتولى سلطة الإمبريوم يوماً ما، كان يحق له أن يرشح نفسه لعضوية مجلس الشيوخ. وهذا شيء طبيعي يمكن تخمينه بسهولة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار احترام الرومان المتأصل في أعماقهم لكبار رجالاتهم وقادتهم بفضل خبرتهم وحنكتهم في الحياة ووطنيتهم الراسخة.

وتصل واقعية ساسة الرومان وحكماء روما القديمة إلى أبعد من هذا وذاك، فقد اتصف نظام حكمهم السياسي في العهد الجمهوري بمرونة كبيرة، وبعدم تقديس النظم القديمة، إذ راحوا يغيرون فيها لتصبح صالحة تحت كل الظروف وتحت ظل كل الملابس، وذلك إذا كان في هذا التغيير أو التطور تحقيق لمصالح الشعب الروماني أو

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ٧٥.

حماية لسلامة البلاد من أخطار محققة، فمثلاً كانت الظروف تفرض نفسها على النظم المعمول بها، كما حدث في تعيين رجل واحد مزود بسلطة الإمبريوم من قبل القنصلين، ومعرفتهما، كي يتمكن من اتخاذ القرارات السريعة في الوقت المناسب ودونما إضاعة للوقت بمناقشات واعتراضات في ساعات الخطر، كان ذلك يتم بإيعاز من السناتوس، ولا يجب أن تزيد مدة سريان هذا الإجراء المؤقت عن ستة أشهر، ودونما الحاجة إلى استدعاء الجمعية المثوية للانعقاد، مما يؤكد الثقة الكاملة التي يوليها رجالات السياسة في روما القديمة إلى قادتها وزعمائها.

ثالثاً- إدخال وظائف جديدة تماماً في تلك الوظائف العامة، وذلك لضمان سير العمل على الوجه الصحيح وتأدية كل مواطن لواجباته تجاه الدولة ابتداءً من المشاركة في تأدية الخدمة العسكرية مروراً بدفع الضرائب، كل حسب ثرواته، فضلاً عن الاطمئنان على مناصبه وقيام المسؤولين في الدولة بواجباتهم تجاه المواطنين في كافة الأمور^(١).

١- السلطة التنفيذية:

أ- القنصلية:

عندما ألغي الحكم الملكي وطرد الملك تاركونيوس تم استبدال الملك بشخصين كان مجلس الشيوخ ينتخبهما^(٢)، على أن يمارس كل منهما السلطة لمدة سنة كاملة حيث يراقب الثاني أعمال الأول، ويستطيع إيقاف كل ما لا يروق له من تصرفات بحق الاعتراض "Intercessio". وسمي هذان الحاكمان في أول الأمر باسم

^(١) المرجع نفسه: ص ٧٥-٧٧.

^(٢) كان المقصود من ثنائية الحكم القنصلي الحيلولة دون استئثار شخص واحد بالحكم. انظر: محمد

محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٦٢.

برايتورس "Praetures" أي الرئيسين؛ وبعد مدة وبدءاً من عام ٣٦٧ ق.م. تغير الاسم إلى القنصلين "Consules" أي الزميلين. وتعتبر وظيفة القنصل من أعلى الوظائف في الجمهورية الرومانية، لأن سلطة الملك لم تُغْنِ عنها وبقي بالسلطة المطلقة، وإنما أدخل عليها بعض الضوابط التي اعتقدوا أنها كفيلة بالحيولة دون الاستبداد في استخدامها. على أنه يجب التفريق بين المنصب وشاغلي المنصب الذي أنشئ فيما بعد وكان أدنى شأنًا من المنصب الأول. وكان شاغلوه يدعون أيضاً برايتورس على نحو ما سنرى فيما بعد.

وبانتقال صلاحيات الملك، والشارات الدالة عليه، والكرسي الصاجي الخاص به إلى القناصل، أصبح هؤلاء هم الذين يرعون استتباب الأمن والنظام في الدولة، ويسمحون للمواطنين داخل روما باستئناف الأحكام الشديدة الصادرة عليهم أمام جمعية الأحياء أو الكور "Cornita Curiata"، وينيبون عنهم حكماً "Arbitri" للفصل في المنازعات، ويعينون عادة حكماً في المقاطعات ويسمّون برو قناصل "Pro-Consules"، كما يعينون هئتين قضائيتين إحداهما في قضايا الخيانة والأخرى في قضايا القتل دون مسوِّغ، ويدعون مجلس الشيوخ للاجتماع ويرأسون اجتماعاته، كما يدعون الكوميسيا المثوية للاجتماع ويرأسونها^(١)، ويحق للقنصلين أثناء رئاستهما للمجالس المثوية والقبلية أن يقترحا مشاريع قوانين على الأعضاء وبعد التصويت عليها بالموافقة، تصبح تلك القوانين ملزمة لجميع المواطنين^(٢).

ومن مهام القنصلين أيضاً أنهما ينظمان الجيوش ويقودانها في الحرب، وإذا صادف خروج القنصلين معاً إلى ميدان الحرب، كانا يتوليان القيادة العليا بالتناوب يوماً فيوم. ويعطي القنصل اسمه للسنة التي كان يحكم فيها، فيقال: حدث ذلك في

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٠-٥١.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٦١.

عهد قنصلية ماريوس مثلاً. وبعد انتهاء مدة حكم القناصل يعينون عادة حكاماً في المقاطعات ويدعون برو قناصل^(١).

ويتمتع القنصلان بصلاحيات إنزال مختلف العقوبات بدون أية محاكمة بحق أي مخالف من الضباط أو الجنود الخاضعين لسلطانهما بعد مغادرة الجيش لمدينة روما، بل يحق لهما إصدار حكم بإعدام أي جندي مخالف مهما علت رتبته، إذ إن الروماني خارج أسوار روما يفقد بعض الضمانات الدستورية التي تحميه كمواطن، ولا ينظر إليه إلا كجندي كتب عليه تنفيذ أوامر رؤسائه بدون أي أخذ ورد، وأي مخالفة قد تعرضه لشتى العقوبات.

وعلى الرغم من أن مجلس الشيوخ هو الذي ينظم ويدير شؤون الخزينة العامة، فإن وكلاء الشؤون المالية لا يتصرفون بمفردهم، بل عليهم مشاورة القنصلين وتلقي التعليمات منهما.

وعلاوة على ذلك، فقد عهد إلى القنصلين بمراقبة الأجانب وبإخماد جذوة القلاقل وقمع الاضطرابات الداخلية^(٢).

ب- الديكتاتورية^(٣):

وضع الرومان كما رأينا بعض القواعد في بداية عهد الجمهورية لمنصب القنصلية كي لا ينفرد شخص واحد بالسلطة، فاتسم قناصل الرومان بسمات ميزت منصبهم بالمبادئ التالية:

- مبدأ الزمالة في ممارسة السلطة على قدم المساواة.

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٠-٥١.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٦١.

(٣) اشتقت كلمة ديكتاتور من الفعل "dicto" وتعني أُملى على ورسم لـ....

• مبدأ قصر مدة تولي المنصب على عام واحد.

• مبدأ حق الاعتراض.

وبمرور الزمن، ونتيجة الحروب الكثيرة التي خاضتها روما فيما بعد، اضطر الرومان إلى التفكير في جعل السلطة بكاملها في يد شخص واحد وإنما لمدة محددة، وبناء على ذلك تشاور القنصلان مع مجلس الشيوخ، واتفقا على أن يتنازلا عن سلطتهما لشخص يمارس سلطة مطلقة بمفرده لمدة ستة أشهر في أوقات الطوارئ. وكان هذا الحاكم يعرف في أول الأمر "بحاكم الشعب" *Magister Populi* ولم يلبث أن تغير هذا اللقب بـ "الدكتاتور" *Dictator*^(١).

والديكتاتور هو حاكم استثنائي يختاره ويعينه أحد القناصل الحاكمين، بناء على دعوة مجلس الشيوخ الذي أعلن حالة الطوارئ لمواجهة الأخطار القصوى لتهديد خارجي مدهم أو فتنة داخلية خطيرة. ولا يتم استلامه للسلطة عن طريق الانتخاب، وبناء عليه فلا سلطة تطبق عليه لأية جمعية انتخابية، وقد تم البدء باختياره اعتباراً من عام ٣٢٠ ق.م. من بين القناصل القدماء.

وعلى الرغم من أن القنصل هو الذي يختار الدكتاتور ويعينه لا يستمد سلطانه من القنصل الذي عينه، بل من الإله، وبذلك كان يتمتع بسلطان لا حدود له، وفي الحقيقة عندما تم إعلان حالة الدكتاتورية، يتوقف جميع الحكام عن ممارسة صلاحياتهم ولا يستثنى من ذلك سوى نقباء العوام الذين يتابعون ممارستهم لسلطاتهم. ورغم ذلك يعتقد البعض إنهم يفقدون حق الاعتراض النهائي على أي إجراء يقوم به الدكتاتور. وكان يعهد إلى الدكتاتور بمختلف السلطات العسكرية والمدنية والقضائية لمدة أقصاها ستة أشهر، ويمكنه عندئذ أن يتصرف بحياة المواطنين (حق الحياة والموت)

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٣-٥٤.

ويعبئ كل قوى الدولة. وقد يعتزل الدكتاتور من منصبه قبل انتهاء الأشهر الستة، إذا ما قدر أن الخطر الذي استدعى تعيينه قد زال.

وقد تم إعلان حالة الدكتاتورية من قبل مجلس الشيوخ عدة مرات خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وقد بلغ عدد الديكتاتوريين ثلاثة عشر دكتاتوراً في القرن الخامس، وخمسين دكتاتوراً في القرن الرابع، ولا يجب الاستنتاج من ذلك أن الأخطار الخارجية التي تحدد بروما كانت أكثر خلال القرن الرابع، بل إن مفهوم الدكتاتورية تغير عما كان عليه في القرن الذي سبقه، وأصبح اللجوء إلى تنصيب الدكتاتور تدبيراً مؤقتاً ليس له أية أهمية عسكرية أو سياسية، ويوكل إليه فقط القيام بعمل ما كرئاسة لجان الانتخابات مثلاً^(١).

وكان الصراع الطبقي بين العوام والخواص على أشده، ومع بداية القرن الثالث قبل الميلاد لم تعلن حالة الدكتاتورية إلا نادراً كما حدث عندما اجتاحت القوات القرطاجية إيطاليا وهددت روما في عقر دارها^(٢).

واستعاض مجلس الشيوخ بعد سنة ٢١٦ ق.م عن الدكتاتور بتوسيع صلاحيات القناصل، فكان أول دكتاتور بعد هذا التاريخ هو سوللا "Sulla". مع الانتباه إلى أن الدكتاتور حرم من حق ركوب الخيل خوفاً من إعادة الملكية^(٣).

ج- المحامون عن الشعب (نقباء العوام):

استطاع العوام نتيجة اتفاق الجبل المقدس، كما مر معنا سابقاً، أن يحصلوا على حق إنشاء مؤسسة تضم عدة أشخاص، يتولون حماية العوام والدفاع عنهم، وقد

(١) سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٥٧.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٥٢-٥٣.

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٤.

أطلق عليهم اسم المحامين عن الشعب أو نقباء العوام، وحيث يشترط في المرشح لهذا المنصب أن يكون من طبقة العوام.

وكان العوام ينتخبون نقباءهم في جميعاتهم الخاصة بهم، وكان عدد هؤلاء في البدء أربعة قبل أن يرتفع العدد إلى عشرة اعتباراً من عام ٤٧١ ق.م، بعد أن تكاثر عدد القبائل وازدادت أهمية العوام في حياة المجتمع.

جعل هؤلاء النقباء مقدسين بأشخاصهم، ولا يجوز لأي إنسان أن يمسهم بأذى، ومن يتجرأ عليهم يصبح خارج القانون ويحكم عليه بالإعدام. كما امتد التقديس إلى بيوتهم، حيث لا يجوز لأي فرد من العوام إذا اعتبر نفسه مضطهداً أو مطارداً أن يعتصم بها. وهذا ما يطلق عليه اسم حق المساعدة "Gus auxilii"، فيتدخل المحامي عندئذ بما يتمتع من حق النقض ويوقف أي قرار من قرارات مجلس الشيوخ أو يمنع تنفيذ أي إجراء إداري صادر عن أي حاكم أو موظف مهما علت مكانته، ومثلما كان الدكتاتور يتمتع بسلطة تنفيذية لا حدود لها، كان المحامي يتمتع بسلطة مطلقة في معارضة ورفض أي إجراء يمس مصالح طبقة العوام، أي إنَّ صلاحيات المحامين لم تكن إيجابية بل سلبية.

ولقد لعب هؤلاء النقباء دوراً كبيراً في تنظيم الحركة الشعبية، ولقد حاول النبلاء تقييد صلاحياتهم كما مر معنا، باستمالة بعضهم.

ومن الجدير بالذكر أن المحامي لا يحق له ممارسة صلاحياته خارج أسوار روما، وتعبير آخر، لا يحق للنقيب أن يشمل بحمايته أي فرد من العوام عندما يكون خارج أسوار روما بقيادة أحد الحكام، كالقنصل مثلاً عندما يقودون الجيش الروماني في الميدان، وكان العوام يجددون انتخاب نقبائهم سنوياً^(١).

(١) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٥٧-٥٨. وانظر أيضاً: سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، ص ٥٩.

د- مراقبة الإحصاء والأخلاق العامة:

أنشأت تلك الوظيفة نحو ٤٤٣ ق.م. وذلك بهدف إحكام عملية الإحصاء "Census"، التي كانت تجرى لأفراد الشعب الروماني كل خمس سنوات، لمعرفة ممتلكاتهم وقيمة الضرائب الواجبة عليهم تجاه الدولة، وعندما كان يحين وقت إتمام الإحصاء تنتخب الجمعية المثوية اثنين من الرقباء "Censores" ليتوليا عملها لمدة ١٨ شهراً فقط، ولا يتمتعان بسلطة الإمبريوم العليا، ونظراً لخطورة تلك الوظيفة، وضرورة توافق الخلق السليم والسمعة الطيبة لدى شاغلها فقد كانت وفقاً على من يتولى منصب القنصلية من قبل، وكان شرط حسن السلوك العام نابعاً من جسامه المسؤولية التي تقع على عاتق الرقيب، فكان:

- يسجل مع زميله الآخر كل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعاً لقبائلهم وأحيائهم.
- يفحص تلك القوائم ويتأكد من مدى سلامة البيانات ويعاقب المخادعين وذلك بفرض غرامات عليهم.
- يعاقب سبب السلوك الذي يضر بالصالح العام ويحكم عليه بسوء السمعة.
- له صلاحية إقرار أو استبعاد عضوية بعض شخصيات مجلس الشيوخ، ولا سيما منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وذلك بكتابة تقرير عنهم.
- يقدر ضريبة الملكية على أساس الثروة، وهي الضريبة المعروفة باسم "Tributum" وكانت تجمع في وقت الحرب، وساعة الأخطار الداخلية والخارجية، وقد تم إقرار حق العامة في انتخاب أحد المراقبين كل مرة إرضاء لهم، وذلك منذ عام ٣٩٠ ق.م، أصبح الرقيبان الاثنان من تلك الطبقة بمرور الوقت، ومنذ عام ١٣١ ق.م، وما بعدها، وليس قبل تلك السنة المذكورة^(١).

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان، ص ٧٩.

هـ- القضاة العدليون "Quaestores":

لم تنشأ هذه الوظيفة إلا في بداية عهد الجمهورية عندما كان القنصلان يعينان سنوياً قاضيين لينوبا عنهما بالفصل في قضايا القتل بدون مسوِّغ، ولم يصبح القاضيان من الحكام في روما إلا في عام ٤٤٩ ق.م عندما تقرر أن تنتخب جمعية القبائل في كل عام قاضيين من البطارقة، في حين ارتفع عدد القضاة إلى أربعة عندما أعطي الحق للعامة بتولي هذه الوظيفة عام ٤٢١ ق.م، فأصبح اثنان منهما أمينين على الخزانة العامة، أما الاثنان الآخران فيساعدان القنصلين ويصطحبانهما إلى ميدان القتال ليتوليا مهمة توفير مؤونة الجيش وصرف رواتب الجنود، وزيد عدد القضاة عام ٢٦٧ ق.م. إلى ثمانية وعهد إلى الأربعة الجدد الاهتمام بتوفير حاجة روما إلى المال والرجال من الأقاليم الإيطالية التي ضمتها، وكانوا يسمون كوايستورس الإيطاليين "Quaestores Italiae". واعتباراً من إنشاء وظيفة البرايتورية عام ٣٦٦ ق.م. أصبح اختصاص هؤلاء القضاة في روما مقصوراً على الشؤون المالية دون القضائية. وأصبح أميناً الخزانة العامة هم القضاة جميعاً. فيما صحب الباقون القادة العسكريين في ميادين القتال، ثم فيما بعد أصبحوا حكام الولايات ومارسوا أعمالاً لا تمت إلى الشؤون المالية بصلة. وتعتبر وظيفة القضاة من أدنى الوظائف في سلك الوظائف العامة الرومانية، لكن من يتولاها كان يعتبرها خطوة ناجحة وصولاً إلى تولي الوظائف التي تليها^(١).

و- نظار الشؤون البلدية:

كانت مهمة هؤلاء تنظيم حراسة الأبنية العامة وصيانة الشوارع ومراقبة سير الأعمال في الأسواق والإشراف على الحمامات العامة والينابيع والقنوات ومجاري

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٧٠.

المياه. وقد أوكل إليهم أيضاً مهام أخرى كمرقبة المواد الاستهلاكية وتأمين المؤن الضرورية من الحبوب وغيرها من المواد الغذائية لسكان العاصمة.

وإضافة إلى ذلك كان هؤلاء النظار يراقبون نظافة المدينة من الناحية المادية والأخلاقية. وكانوا ينهضون بمهامهم بمساعدة شرطة المدينة الذين كانوا يأمرون بأمرهم.

وتأتي مرتبة هؤلاء بعد القضاة المدنيين والمتنقلين، ولم يكونوا يتمتعون بالسلطان (الإمريوم) وكان عددهم في البدء اثنين، يتم انتخابهما من قبل جمعيات العوام لذلك عرفوا باسم نظار العوام، ثم أضيف إليهما اعتباراً من عام ٣٦٦ ق.م. ناظران آخران، تنتخبهما المجالس القبلية وكانا عادة من الخواص. وما كانت مهام أولئك النظار الأربعة لتكتسب أية أهمية تذكر، لو لم يضاف إليها مهمة تنظيم الألعاب في مواسم الأعياد الدينية، بذلك استطاع النظار اكتساب شعبية تؤمن انتخابهم لمناصب القضاء العليا^(١).

ي- الخزّان:

وهم وكلاء الشؤون المالية، ويتولون الإدارة المالية لصناديق العامة، ويأتي هؤلاء في أدنى مرتبة من هرم الإدارة والحكم. كان عددهم في البدء اثنين من الخواص، ولكن اعتباراً من عام ٤٢١ ق.م. أخذ العوام يشغلون بالتساوي منصب حراسة الخزينة، فشرعوا ينتخبون خازنين من العوام واثنين من الخواص.

(١) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٦٣-٦٤.

وكانت وظيفتهم في البدء تأمين حراسة خزانة الدولة التي تم إيداعها معبد الإله ساتورنوس. ولقد ارتفع عددهم فيما بعد فوصل إلى ٢٠ خازناً أيام سوللا و٤٠ خازناً في عهد يوليوس قيصر^(١).

٢- السلطة التشريعية والمجالس الانتخابية:

أ- مجالس الجماعات "Comitia Curiata":

تعود التسمية إلى كوريا، وهي قسم من أقسام الشعب الروماني في العهد الملكي، وكان عددها عشرة، ثم أصبحت ثلاثين، ثم أطلق اسم كوريا على المكان الذي يسكنه الملك، أو حتى على مكان اجتماع مجلس الشيوخ، وفي بداية العهد الجمهوري كانت هذه الجمعية هي التي تنتخب القنصلين سنوياً وتمنحهما سلطتهما التنفيذية العليا. بمقتضى قانون خاص تصدره في كل حالة، وتوافق على المقترحات التي يعرضها عليها القناصل أو ترفض الموافقة دون أن يحق لها مناقشة ما يعرض عليها أو تعديله أو اقتراح بديل عنه، أي إنَّ حقها كان مقصوراً على إبداء الرأي فيما يعرض عليها، وخاصةً عندما أصبح من حق مجلس الشيوخ إبرام أو نقض قراراتها.

وبقيت الجمعية الشعبية مدة طويلة تقوم بدور المحكمة التي كان المواطنون الرومان يستأنفون أمامها ما صدر ضدهم من أحكام بالإعدام أو النفي أو الجلد أو دفع غرامة كبيرة. واحتفظت أيضاً حتى نهاية عهد الجمهورية بحق الشهادة على الوصايا وحالات التبني والفصل في شرعية التبني، واقتصرت اجتماعاتها على الدعوة لتدريس بعض القوانين، وخاصة منها الدينية، على أن يترأسها الحبر الأعظم "Pontifex Maximus".

^(١) المرجع نفسه، ص ٦٤-٦٥.

وكان التصويت في الجمعية يتم بالمناداة علناً، إما برفع اليد وإما الوقوف، ولكن لكل كورة من الكور العشر صوت واحد فقط يمثل غالبيتها، إذ يعبر عن رأي الكورة بالرفض أو الموافقة، وكان للبطاركة تأثير قوي على التصويت بسبب ما يتمتع به البطاركة من نفوذ شخصي والتزام أتباعهم تأييد رغباتهم^(١).

ب- المجالس المئوية:

مع إدخال التغير في نظام تصنيف القبائل، كان لا بُدَّ من إعادة النظر في التنظيمات العسكرية، وبصفة خاصة نسبة عدد الجنود الذين تقدمهم كل قبيلة للخدمة في الجيش الروماني. فبعد أن كان النظام القبلي الثلاثي في العهد الملكي يحدد عدد جنود القرعة العسكرية بثلاثة آلاف جندي من المشاة وثلاثمائة من الفرسان، توزع نسبها بشكل متساوٍ على القبائل، نرى أن عدد الجنود الذين يجب تقديمهم بموجب التصنيف الجديد يرتفع إلى أربعين وحدة مئوية "Centuries" تتألف كل واحدة منها كما يدل اسمها من مئة جندي، يستدعون للخدمة بنسبة وحدتين من كل قبيلة. وهذا العدد المتزايد يدل بوضوح على تكاثر أعداد المواطنين الرومان الذين يستطيعون تجهيز جنود المشاة بالعتاد اللازم، ثم ما تلبث النسبة أن ترتفع من جديد خلال الحرب مع مدينة فيني فتصبح ستة آلاف جندي، إلى أن تبلغ عام ٣٦٦ ق.م. ٨٤٠٠ جندياً ينتظمون في فرقتين عسكريتين، ومما لا ريب فيه أن هذا التغير في التنظيم العسكري كان له تأثير بالغ أيضاً.

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٨.

ج- المجالس القبلية:

أخذ عدد القبائل الرومانية يزداد بعد زيادة عدد المواطنين واتساع رقعة الإقليم، فبعد أن كان عدد القبائل ثلاثاً في العهد الملكي، أصبح عددها في العام ٢٦٥ ق.م. من العهد الجمهوري، خمساً وثلاثين قبيلة: أربع منها داخل روما، وهم المواطنون الرومان في مختلف أنحاء الإقليم الروماني، وإحدى وثلاثون قبيلة من القبائل الريفية، خارج مدينة روما تعرف بـ "Tribus Rusticae" بينما تعرف القبائل داخل روما بالقبائل الحضرية "Tribus Urbanae". وقد أصبحت القبائل الدعائم الأساسية التي يعتمد عليها نظام التجنيد ودفع الضرائب الملكية، لأن كل مواطن كان يتم تسجيله وتسجيل ما يملك في سجل القبيلة على أساس تقسيم الرومان إلى قبائل إقليمية بحسب موقع مسكن كل منهم^(١).

وكان لهذه القبائل في البداية واقع إقليمي يمتاز به من يقيم فيه أو على الأقل يمتلك الأراضي فيه، ولكن مع تطور الحياة الرومانية ارتفعت أعداد القبائل الريفية مدة طويلة بشكل موازٍ للأراضي الرومانية، ثم توقف عن الارتفاع منذ عام ٢٤١ ق.م. ومنذ ذلك الوقت ارتبط المواطنون الجدد بإحدى القبائل التي خسرت الشيء الكثير من طابعها الإقليمي، حتى ولو حصلوا على المواطنة بشكل جماهيري في منطقة كاملة، ثم إن القبائل المدنية غدت دون القبائل الريفية شرفاً رغم كثرة عددها؛ لأنها تضم نسبة مرتفعة جداً من الفقراء. لذلك فقد درج ناظرو الإحصاء الذين يختارون على هواهم، في مواعيد الإحصاء، القبيلة التي يخصونها بلقب مواطن جديد، والذين ينعمون حتى بحق نقل مواطن قديم من قبيلة إلى أخرى، كعقوبة معنوية على أن يسجلوا كأفراد الطبقة الدنيا لاسيما المعتقين منهم في القبائل المدنية. وليس لكل من هذه القبائل المدنية

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٨-٥٩.

المتزايدة سوى صوت واحد شأن كل القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيها بجانب كبير من الأهمية.

أما من ناحية صلاحيات الجمعيات أو المجالس القبلية. فلقد كانت وقبل كل شيء آخر، جمعيات لعامة الشعب، يدعوها المحامون للاجتماع عن العامة ويقصى عنها النبلاء، وكانت من ثم تقرر الاستفتاءات أو مراسيم عامة الشعب، التي لا يتقيد بها سوى هذه العامة. بيد أن هذا التمييز فقد أهميته منذ أن أقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء فنتج عن ذلك أن النبلاء، الذين انخفض عددهم شيئاً فشيئاً من جهة أخرى، استطاعوا الدخول دونما صعوبة إلى الجمعيات القبلية. فلم تحتفظ الجمعيات القبلية إلا بالقليل من الصلاحيات، ومنها: انتخاب القضاة للمناصب الدنيا، غير أن أكثرية الأمور التي قد تطرح على الجمعية كانت مشاريع القوانين بشكل خاص^(١).

٣- سلطة المراقبة والاستشارة:

أ- مجلس الشيوخ:

يُعتبر مجلس الشيوخ ممثلاً لعظمة الشعب الروماني والدولة، ولهذا كان اسمه يرتفع دائماً على أعلام روما "S,R,R" أي "المجلس والشعب الرومانيان" وكان يعتبر أكبر سلطة رومانية في العهد الجمهوري وإن لم يكن له سلطة تنفيذية، وكان يتم تعيين الشيوخ من بين صفوف البطارقة، قبل سنة ٣١٨ ق.م. من جانب القناصل أو الحكام العسكريين الذين حشدوا أصدقاءهم في المجلس. بينما أصبح حق تعيين الشيوخ بعد سنة ٣١٨ ق.م، وصدور القانون الأوقييني "Lex Ovinia"، منحصرًا بمراقبي الإحصاء وحدهم والمعروفين باسم الكونسورس "Censores". وتستمر عضوية الشيوخ مدى

^(١) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٧٧-٧٨.

الحياة إلا إذا ارتكب عملاً مشيناً في سلوكه العام أو الخاص، ولم يزد عدد أعضاء مجلس الشيوخ في العهد الجمهوري على ٣٠٠ شيخ حتى بداية القرن الأول قبل الميلاد، وليس للمجلس مبدئياً حق التقرير أو التنفيذ لأن كل قرار عند الرومان خاصاً كان أو عاماً يؤخذ في مجلس الشورى. لكنه لم يلبث أن اكتسب حقاً هاماً وهو إبرام أو نقض قرارات الجمعية الشعبية بحيث أصبحت مصادقة الشيوخ على هذه القرارات شرطاً أساسياً لتكتسب قوة القانون، فتحول معها المجلس من هيئة استشارية إلى هيئة رقابة عليا.

وقد اختلفت لأصول المتبعة في تعيين الشيوخ باختلاف مراحل الحكم الجمهوري حيث كانت أسماء المرشحين تكتب بالفحم الأسود على لوح أبيض يسمى "Album". كل خمس سنوات شرط أن تكتب عليها أسماء أصحاب الوظائف الكبرى بموجب القانون الأوقيني. فأمكن القول: إن وظيفة الشيوخ أصبحت محصورة بالطبقة الأرستقراطية. كما أن تعيينهم اصطليح بصيغة ديمقراطية لأن الشعب هو الذي ينتخب الحكام، وبسبب وظائفهم هذه يعينون شيوخاً، ومن يرد اسمه في رأس اللائحة يكون رئيساً لمجلس الشيوخ "Principes Senatus"^(١).

وبموجب قانون "Ovinira" الذي نصّ على تعيين الحكام القدماء أعضاء في مجلس الشيوخ فقد تمكن بعض ممثلي طبقة العوام المنتخبين لمختلف مناصب القضاء من التسرب إلى داخل مجلس الشيوخ، ولكن عددهم ظلّ محدوداً.

وقد تم التمييز بين الشيوخ والعوام، فأطلقوا عليهم اسم المسجلين على اللائحة "Conscripti" بينما احتفظ الشيوخ النبلاء بلقب الآباء. وبذلك أصبح مجلس الشيوخ في الواقع مجلس قضاة قدماء^(٢).

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٤.

(٢) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٨٢.

وفي الواقع كان الشيوخ أوسع المواطنين ثروة وأعظم الملاكين العقاريين، وكان لديهم طرق واسعة للسيطرة على الناحيين، كما استطاعوا عن طريق المصاهرات توسيع نفوذهم، كما أن أبناءهم حدهم كانوا يدخلون مراتب الأجماد بقوة وحدهم تقريباً، وأن نبلاء المجلس كانوا مسيطرين على مناصب القضاء التي كانت وقفاً عليهم^(١).

وامتاز الشيوخ بلبس القميص الرومانية الفضفاضة الحلاة بشرائط حمراء على أطرافها سميت التوغا، ويتنعلون الأحذية الحمراء التي تزينها بكلة فضية بشكل هلال. تعقد جلسات مجلس الشيوخ في هيكل الكونكوردي، أو في هيكل جوبيتر بالكابيتول^(٢) أو خارج حرم المدينة. على أن تبقى الأبواب مفتوحة طيلة الانعقاد، حتى لو لم تكن الجلسات علنية، يجلس كل واحد من الشيوخ على مقاعد أكثرها من الحجر، إذ يجلس الشيخ في المكان الفارغ عند وصوله، كما أن العرف لم يحدد عدداً معيناً لاكتمال النصاب، والشيوخ الذين كانوا لا يزالون يمارسون وظائفهم ليس لهم مبدئياً حق الاقتراع، بينما الكبار منهم لهم حق التعاون مع المجلس أي حق رئاسة المجلس، وطرح الاقتراحات عليه، والتدخل في المناقشات، أما الذين ينتخبون للوظائف من بين أعضاء المجلس فقد جرت العادة بأن يمنحوا حق إبداء الرأي إذا دعت الحاجة، أي إنهم يدعون إلى حضور مناقشات المجلس، وذلك منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد^(٣).

(١) المرجع نفسه: ص ٨٥.

(٢) كان التقليد المتبع يحتم عقد الجلسة الأولى من كل سنة في هيكل الإله جوبيتر، على أن يقدم رئيس مجلس الشيوخ والداعي إلى جلسة الانعقاد ذبيحة لإله الهيكل الذي تنعقد فيه الجلسة.

(٣) إذا نال القرار أو المشروع أكثرية المجلس، تجتمع لجنة صياغة القرار أو إعداد المشروع على أن يشمل: أصحاب السلطة التنفيذية، الحكام أو القناصل، وتاريخ الجلسة ومكان انعقادها، وأسماء

أما سلطات مجلس الشيوخ فتشمل في الواقع نطاقات متنوعة جداً. فهو الذي يسهر على القيام بالاحتفالات والطقوس الدينية، ويقرر الأعياد، ويحدد ميزانيتها، ويجيز عبادة الآلهة الجديدة ويصدر حكمه عليهم، ويشرف مجلس الشيوخ على السياسة الخارجية ويدير المفاوضات مع أعداء وأصدقاء روما، كما أنه يستقبل مندوبي وسفراء الدول الأجنبية ويجيبهم عن أسئلتهم ويعين السفراء الرومان ويزودهم بالتعليمات: ومن ثمَّ ما من حرب نظامية دون رأيه، وما من صلح أيضاً إذا لم يوافق على بنود معاهدته، وهو الذي يمنح أو يرفض موكب النصر للقائد المنتصر، وإليه يرفع قادة الأقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع المشتكون من حكام الأقاليم مظالمهم، وهو الذي يحدد أثناء الحرب العدد اللازم للجيش والأساطيل والوسائل المالية المقابلة^(١). وقد حدد الدستور الروماني صلاحيات مجلس الشيوخ بثلاث قضايا أساسية: الشورى والحكم بالوكالة والوصاية.

• **الشورى:** كان دور المجلس في العهد الملكي والجمهوري استشارياً، إذ انعقد بدعوة من الذين لهم الحق بالعمل معه مثل كبار الموظفين الشيوخ، كما أنه لا يقرر بذاته جدول الأعمال، إنما يعرض الرأي عليه من قبل الحاكم الذي دعا إلى عقده، ثم يدعو بعد مناقشة المشاريع أو القرارات، إلى التصويت الإسمي من خلال المنادة بالأسماء، برفع الأيدي أو القيام والقعود. ويتم تدوين رأي المجلس في محضر يسهم المترس في نصه ويدعى "Senatus Consultus" وهو مجرد رأي أو مشورة لا أكثر. ويحق للحكام الكبار من قناصل وبريتور

لجنة الصباغة، ثم يأتي نص القرار نفسه، الذي يكتب على لوحات خشبية أو برونزية تثبت إحداها على هيكل فيدس "Fides" آلهة الشرف وحفظ العهود في روما، والأخرى في هيكل الأمة أو الجماعة صاحبة العلاقة.

(١) محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، ج ١، ص ٨٤.

الاعتراض على المشورة، ويسمى هذا الحق "Interkassto"، كما يحق لهم إلغاؤها أحياناً أو حق النقض "Veto".

- **الحكم بالوكالة:** في العهد الملكي، كانت السلطة عندما يموت الملك تنتقل سلطته إلى الآباء في المجلس، الذين يعينون ملكاً بالوكالة إلى أن يجري انتخاب الملك الجديد. أما السلطة بالوكالة في العهد الجمهوري فقد أعطت المجلس حق تعيين حاكم بالوكالة يشرف على إجراء الانتخابات في حال موت القناصل أو إقالتهم بسبب الطعن في شرعية انتخابهما، كما يلجأ المجلس إلى مثل هذه الحالة في حال انتخاب قناصل لا يروقون له.

- **الوصاية:** ولما كان بعض أعضاء المجلس آباء "Patres" كان لهم حق الأبوة والوصاية على الشعب تماماً كالوالد على أبنائه، لذلك يحق للمجلس بموجب سلطة الموافقة على القرارات التي يقرها آباء الشعب، حق الوصاية، حتى أصبح هذا الحق في القرن الثاني قبل الميلاد ذا أهمية خاصة لمقارنته قرارات الشعب الجديدة خاصة بالقرارات السابقة المنبثقة عن الانتخابات، والتي أعطت هذا الشعب ثقته للحكام الذين يؤلفون مجلس في العهد الجمهوري، وبذلك أصبح أعضاء المجلس يمثلون إرادة الناخبين بشكل دائم.

هكذا كانت سلطات مجلس الشيوخ، بموجب الدستور الروماني، إلا أن هذه السلطات ازدادت وتضاعفت على حساب سلطات الحكام، وذلك عندما حاول البطارقة إضعاف سلطة القناصل، لأن هذه الوظائف أصبحت في متناول أبناء العامة، حين قاموا بفصل بعض صلاحيات القناصل، اعتقاداً منهم بأنهم سيحتفظون بهذه الصلاحيات لأنفسهم^(١).

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٤-٥٧.

ب- جماعة الكهنة:

كان الملك يمارس سلطات دينية واسعة خلال العهد الملكي. بينما في العهد الجمهوري لم تنتقل السلطات الدينية إلى القناصل باستثناء حق استطلاع رغبات الآلهة لمعرفة رضاها أو سخطها قبل الإقدام على عمل عام، أما أغلب هذه الاختصاصات فشطرت منها وهو الخاص بتقديم القرابين كان يتولاه كاهن يسمى ملك القرابين "Rex Saerorum" على حين أن الشطر الأكبر، وهو الخاص بالعلاقات الرسمية بين المجتمع الروماني وآلهته التي ترعاه بعنايتها، كانت تتولاه جماعة من الكهنة يقوم على رأسها الكاهن الأكبر أو الحبر الأعظم "Pontifex Maximus"^(١). وقد وجدت عدة جماعات دينية من الكهنة يختص كل منها بإقامة شعائر وطقوس دينية معينة. مثل ما كانت تقوم به في عهد الملكية، واشتهر من جماعات الكهنة في العهد الجمهوري جماعتان:

- الجماعة الأولى: تجمع النبوءات وتحافظ عليها وتدعى "Sibyllae" ويتم استطلاعها كلما أمر مجلس الشيوخ بذلك خلال الأزمات.
- الجماعة الأخرى: هي جماعة العرافين "Augures" التي كانت تشرف على استطلاع رغبات الآلهة إزاء الشؤون العامة^(٢).

ومن الملاحظ أن الكهنة الرومان لم يؤلفوا فئة خاصة من فئات المجتمع، لأنهم كانوا في بداية عهد الجمهورية من البطارقة دون غيرهم. ولما كان الكاهن في الوقت نفسه عضواً في مجلس الشيوخ ويتولى أحد المناصب، فإن المصالح الطبقية والخاصة على السواء أخذت تطغى شيئاً فشيئاً على الديانة الرومانية الرسمية. وأخذت هذه الديانة تتسم شيئاً فشيئاً بطابع شكلي بحت.

^(١) ماري ماغريغور: التاريخ الروماني، ص ٢١.

^(٢) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ص ١٥٤.

وكان للكهنة دور كبير في بداية عهد الجمهورية، لأنهم كانوا حراس القانون الديني الذي يسري تطبيقه عقاباً على جرائم كثيرة كانت تعتبر ذنباً ضد الآلهة، ورجال الدين هؤلاء هم وحدهم الذين يعرفون هذا القانون والصيغ المتبعة في جميع أنواع التعاقد حتى يكون العقد صحيحاً من الناحية القانونية، أما رئيس الكهنة، وهو الحبر الأعظم، فيحدد سنوياً أيام الأعياد العامة، دينية أم غير دينية، ويعلن في كل شهر الأيام التي يجوز مباشرة العمل الرسمي فيها، وتواريخ الأيام التي يحظر العمل فيها، وهو بالاتفاق مع جماعة العرافين. كان من الممكن له أن يعطيل أي إجراء عام عندما يعلن وقوع نذر سيئة في الموعد الذي كان محددًا لاتخاذ هذا الإجراء.

إزاء هذا النفوذ الواسع، والمكانة العالية في الدولة، وإزاء ما كان من فرص لخدمة مصالح طبقتهم، فقد حرص البطارقة طويلاً على أن تقتصر عضوية الجماعات الدينية عليهم وحدهم^(١).

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٥٣.

ثالثاً- المجتمع الروماني في عهد الجمهورية:

١- الحياة الاجتماعية:

أ- بناء المجتمع:

بقيت الأسرة في عهد الجمهورية كما كانت في عهد الملكية الركيزة الأساسية في بناء المجتمع الروماني. لأن هذا المجتمع كان عبارة عن مجموعة من الأسر. فكان للفرد سواء في المجتمع أم في الدولة مكانته التي قد تنخفض تبعاً لمكانة الأسرة التي ينتمي إليها.

وتتألف الأسرة من الأب والزوجة والبنات غير المتزوجات والأبناء سواء بالمولد أو بالتبني، وزوجاتهم وأبنائهم وعبيد الأسرة، إذ يخضع جميع هؤلاء للسلطة المطلقة المتمثلة بأب الأسر، وتختلف هذه السلطة باختلاف أوضاع أصحابها من حيث التسمية، فعند الأحرار تعرف بسلطة الأب بينما عند العبيد فتعرف بالسيادة، وكانت سلطة الأب تشمل جميع أعضاء الأسرة وممتلكاتها التي تعتبر في قبضته، وهذه السلطة تشبه إلى حد بعيد سلطة القناصل في بداية العهد الجمهوري، ومقابل هيمنته على أسرته، كان لا بُدَّ من واجبات تفرض عليه مثل الرعاية وتأمين الحاجات المعيشية وتقديم القرابين وإقامة الشعائر الدينية استرضاءً للآلهة، ولكن بمشاركة أفراد أسرته.

أما نظام التبعية الذي كان معروفاً في العهد الملكي^(١) فقد بقي معمولاً به في العهد الجمهوري، وظل لكل أسرة عدد من الأتباع الأحرار الذين كانوا في السابق عبيد الأسرة، ثم أعتقوا وسُمح لهم باستئجار أرضها، ومن طلبوا حماية أب الأسرة فأصبحوا تبعاً لأراضيها، واختلف أيضاً عدد أتباع الأسرة باختلاف ثرائها ومكانتها ونفوذها، ولم يكن هؤلاء يعدون كأعضاء منها.

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢١٥.

ومن أجل الحفاظ على كيان الأسرة وبقائها، كان لا بُدَّ من أن تستمر سلطة الأب، لأنه لا يجوز أن تتحول هذه السلطة إلى المرأة، وهذا يقتضي وجود أبناء في الأسرة أو على الأقل وجود ولدٍ واحدٍ. وإذا لم يكن للأب نسيب أو ولد آخر، فإن باستطاعة هذا الأب أن يتبنى ولداً حتى تنتقل إليه السلطة بعد وفاة الأب، وهو يخضع لسلطة الأب الذي تبناه، ولا يتعبد إلا آلهة أسرته الجديدة، أما إذا كان للأب المتوفى أكثر من ولد، فعندئذ يصبح الراشدون منهم آباء ويتقاسمون أملاك الأسرة الأصلية، في حين تبقى الأم والبنات غير المتزوجات والأبناء القاصرين تحت سلطة أحد الأبناء الراشدين حتى تتزوج البنات ويبلغ الأبناء القاصرون سن الرشد، حيث ينتقل هؤلاء جميعاً إلى سلطة أب أحد أقرب أقارب أب الأسرة المتوفى.

والزواج عند الرومان ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول:** هذا النوع من الزواج كان الزوج فيه يكسب سلطته على الزوجة بخلعها عليه، ويعتبر أقدم الأنواع وأكثرها شيوعاً بين البطارقة، ويقام حفل ديني بحضور عشرة شهود وأحد كبار الكهنة لمباركة الزواج بتلاوة عبارات مقدسة.
- **النوع الثاني:** وفي هذا النوع من الزواج كان الزوج يكتسب سلطته على الزوجة، بمقتضى صفقة بيع صورية، وهذا النوع قديم أيضاً مثل الأول إلا أنه كان شائعاً بين العامة. ويتم بحضور خمسة شهود.
- **النوع الثالث:** هذا النوع من أبسط أنواع الزواج الرومانية. ويتم باتفاق الزوجين على أن يعاشربعضهما بعضاً معاشرة الأزواج مع تمتع كل منهما بسلطة متساوية، ولكن الزوج كان بإمكانه اكتساب السلطة كاملة على زوجته إذا عاشرته معاشرة زوجية منفصلة لمدة عام كامل.

ولكن قوانين اللوحات الاثنتي عشرة اعتبرت المعاشرة الزوجية غير متصلة، بمجرد قضاء الزوجة ثلاث ليالٍ في العام الواحد خارج بيت الزوجية وبذلك كانت الزوجة تستطيع الإفلات من سيطرة زوجها، وتتمتع بحقوق متساوية مع الزوج، وخاصة لأن قانوناً آخر من قوانين اللوحات الاثنتي عشرة منح المرأة الرومانية حق الملكية، والحد الأدنى لسن الزواج عند الرومان كان ١٤ سنة بالنسبة إلى الذكور و ١٢ سنة بالنسبة للإناث.

وفي جميع الأحوال كان الزواج مسألة شخصية لا تتم بموجب عقد قانوني أو صيغة خاصة، وما كان يصحبه من مراسم أو حفلات لم يكن لها أي طابع قانوني، وما دام الزواج مسألة شخصية، فالطلاق أيضاً مسألة شخصية من السهل الحصول عليه، ومع ذلك فقد كان الطلاق نادراً ولاسيما لدى الأسر الغنية والكبيرة للحفاظ على كيان الأسرة.

ومهما يكن فالمرأة كانت تتمتع بمكانة بارزة في حياة الأسرة، وتشارك زوجها مكانته الاجتماعية، كما كانت المرأة الرومانية بعكس المرأة الإغريقية، سواء في أثينا أو في غيرها من المدن الإغريقية، لأن الرومانيات كنَّ يشاركن في الحفلات الدينية وفي المآدب، ولم ينعزلن في جناح خاص بمنزلهن، كما كنَّ يغزلن الصوف اللازم لنسج ملابس الأسرة وتزيين أطفالهن.

وبما أنه لا بُدَّ أن يكون على رأس كل أسرة أب أي رجل. فقد كان في وسع الأبناء الذكور تكوين أسر جديدة بعد وفاة آبائهم، وبذلك يصبحون آباء أسرهم في حين أن البنات كن عاجزات عن ذلك؛ لأنهنَّ كنَّ عادة في عصمة أب الأسرة التي ينتمين إليها. وعلى ذلك فإن أفراد سلالة النساء كانوا بالنسبة إلى هؤلاء أقرباء قرابة الرحم.

وكل مجموعة من الأسر تنحدر من جد واحد مشترك عن طريق الذكور تؤلف عشيرة لكل منها اسم يجب أن يحمله كل فرد من أفرادها بعد اسمه الشخصي وقبل اسم أسرته مادام لا يحمل ولم يصبح في عداد عشيرة أخرى، إما بالتبني في حالة الرجال، وإما بالزواج في حالة النساء، وتمارس كل عشيرة طقوساً دينية خاصة وتقيم شعائرها الدينية إجلالاً وتقرباً للآلهة التي ترعاها بعنايتها، ولكل عشيرة مجلس يتألف من آباء أسرها للفصل في شؤونها مثل الوصايا والميراث والتبني والعق (للعبيد) وإقامة الأوصياء على القاصرين والمسرفين والمعتوهين، ويعتبر أتباع الأسرة أتباعاً للعشيرة التي تنتمي إليها الأسرة وينطبق عليهم ما ينطبق على الأسرة.

لم يكن انتظام أسر العامة في عشائر مألوفاً في العهد الملكي إلا بين البطارقة، أما في العهد الجمهوري فقد حذت الأسر الغنية حذو أسر البطارقة فنظموا حياتهم الاجتماعية مكونين عشائر جديدة عرفت بالأسر الأرستقراطية الرومانية. لذلك كانت الروابط بين أفراد العشيرة وبين أتباعهم تعتبر روابط قوية على الرغم من كونها روابط اجتماعية ودينية، ولم تكن سياسية. لهذا لا يمكن تجاهل أثر العشيرة في الحياة السياسية. ومن ثمَّ يمكن أن نقول: إنَّ قوة العشيرة من قوة أسرها ومن مكانة أفراد هذه الأسر^(١).

ب- الحياة اليومية والتربية والتعليم:

كما مر معنا، يرمى الأب شؤون الأسرة الزراعية والدينية، وتؤدي المرأة الواجبات البيتية، ويقوم عبيد الأسرة على خدمة مطالبها، وإذا كان قد ترتب على فتوحات روما زيادة عدد العبيد، فإنهم في ذلك الوقت لم يتمكنوا من تشكيل قوة ذات تأثير اقتصادي كبير، وكان أكثر هؤلاء العبيد أسرى حرب لم يحدث أن استبدلوا بأسرى رومان أو تمت فديتهم من قبل بلادهم الأصلية، لذلك كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى بيع

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٨٩-٩١.

عدد كبير من هؤلاء العبيد، عبر نهر التير للأتروسكيين، لكن فرض ضريبة عتق العبيد في عام ٣٥٧ ق.م، يدل على أن عدد العبيد ازداد في روما إلى أن صار عتقهم يؤلف مصدر دخل للدولة إلى جانب من الأهمية، لأن في وسع صاحب العبيد أن يعتقهم بعد اتخاذ إجراءات معينة، وبعد استكمال هذه الإجراءات يصبح المعتوق وسلالته أحراراً، لكن دون أن يحق له تولي الوظائف العامة. وفي حين أن أولاد المعتق الذين كانوا يولدون بعد العتق فإنهم يصبحون مواطنين روماناً كاملي الحقوق، إلا أنهم مع ذلك يبقون سلالتهم أتباعاً للعتاق.

لم تشكل الحياة اليومية في تلك الفترة عبئاً كبيراً لأنها كانت بسيطة من حيث المسكن والمأكل والملبس، فالمساكن عند الرومان في النصف الأول من عهد الجمهورية تتألف من نوعين أساسيين، مساكن الميسورين، ومساكن الفقراء. ومساكن الميسورين، حتى في روما نفسها، تتألف من طابق واحد، جدرانها مبنية بقوالب من اللبن ومغطاة بسقوف من الخشب، وتتوسط هذه المساكن قاعة كبرى تؤدي إلى عدد من الغرف الصغرى^(١)، وهذه القاعة الكبرى كانت تستخدم للأكل والجلوس واستقبال الضيوف، ويتم تزيينها بتماثيل الآلهة التي ترعى الأسرة وفيها مدفأة كبيرة. كما تعلق صورة كبيرة للموتى الذين شغلوا وظائف كبرى كانت تعرف بالوظائف الكورولية، واستحصلوا على حق عمل صورة لهم في حياتهم، في صدر القاعة الكبرى. وهذه الصورة كانت على هيئة أقنعة تطابق ملامح الوجه، درجوا على تسميتها أقنعة الموت أو صور الشمع، لأنها كانت تصنع بعد الوفاة من الشمع. فعند وفاة أحد الأشخاص من أصحاب المقامات الرفيعة، كانت الأسرة تستأجر ممثلين ليضعوا على وجوههم أقنعة موتاهم ويشاركوا مع المشيعين في الموكب الجنائزي الذي يقام في هذه المناسبة.

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٣١-٢٣٢.

بينما كانت مساكن الفقراء، ولاسيما في الريف، عبارة عن أكواخ صغيرة مبنية من أغصان الأشجار الرفيعة، ومغطاة بطبقة من الطين. أما ما كان منها في روما فإنه لم يتعدَّ الغرفة أو الغرفتين بشكل مستطيل بعضها إلى جانب بعض أو فوق بعض، وفي كثير من الأحيان كان يشغل الصانع منها إحدى الغرفتين ليحولها إلى حانوت يزاول فيه عمله، وهذه المساكن كانت مبنية في غالب الأحيان من اللبن والخشب فوق السقوف.

كان طعام الرومان بسيطاً قوامه اللبن مع سليقة القمح أو الخبز وبعض البقول أو الخضراوات وبعض الفاكهة، وقلما شكلت اللحوم عنصراً أساسياً في غذاء الرومان اليومي، ولا تؤكل اللحوم إلا في المناسبات كالأعياد وعند تقديم القرابين، ومن وقت لآخر كان الأغنياء يقيمون مآدب تنشد في أثنائها أغان تشيد بالأعمال التي قام بها أسلافهم العظام^(١). واعتمدت الأسر الغنية في سد حاجاتها على ما تستغله من أراضيها ومراعيها من طعام وشراب، وما ينقصها كانت تحصل عليه عن طريق المقايضة من الأسواق التي كانوا يقيمونها أسبوعياً. في حين اعتمدت الأسر الفقيرة على ما تستبدله ببعض الحاجات أو الخدمات الأخرى من تلك الأسواق.

وكان الصوف في الغالب المادة الرئيسية للملبس كما ذكرنا سابقاً، فربة البيت وبناتها يقرمن بغزل الصوف ونسجه وصنع الملابس منه، وهن يحتجن في ذلك إلى شرائط قرمزية لكي توضع على أطراف العباءة للفتيان، وبينما توضع فوق الأكتاف في عباءات الحكام. والعباءة في الأصل هي الرداء الذي كانت تستخدمه النساء والرجال على حد سواء. وإن استبدلتها النساء فيما بعد بثوب طويل والثياب الداخلية لرجال والنساء كانت عبارة عن قميص من الصوف. ولما كانت العباءة هي الرداء الصحيح الذي يرتديه المواطنون الرومان خارج بيوتهم، فقد أخذ عنهم حلفاء روما الإيطاليون

(١) المرجع نفسه: ص ٢٢٠.

استعمالها، وانتعل الرجال والنساء نعلًا من الجلد في أرجلهم، كما كان الروماني العادي يتزين بخاتم من الحديد في حين كان الروماني الثري، وبخاصة من كان منهم في بعثة رسمية، يتخذ في أصبعه خاتمًا من الذهب، أما النساء فكان الذهب هو حليتهن المفضلة على الدوام مع مراعاة تمشيط شعورهن وتصفيفهن، بينما كان الرجال يطلقون لحاهم وشعور رؤوسهم.

وقد درج بعض الرومان، في النصف الأول من عهد الجمهورية، على عادة حرق جثامين موتاهم، والبعض الآخر على دفن موتاهم. وفي كلتا الحالتين كانوا يعتقدون بأن الأرواح تنزل إلى عالم الأرواح السفلية ثم تعود لزيارة الأرض في أوقات معينة من السنة، وهي المناسبات، ويحتفلون بها إحياء لذكرى موتاهم وإرضاء لألهتهم وردًا لأي خطر يمكن أن يلحق بالأحياء من أسرهم إذا هم أهملوا هذه المناسبات، ومن عادة الرومان تشييع المتوفى وحسب مكانة أسرته. ومن كان من عظماء قومه يمضي المشيعون بالموكب حتى الفوروم حيث يعتلي منصة الخطابة أحد أفراد الأسرة ليعدد مناقب الفقيد وأعماله الجليلة، ولم يفت شيشرون^(١) ولا ليفيوس الإشارة إلى ما كان الخطباء يترلقون إليه من المبالغة في الإشادة بمناقب أسلافهم.

ومورست عادة حرق الجثث ودفن الموتى داخل روما نفسها في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية، وسط مظاهر اتسمت بالإسراف احتفاء بموتاهم. وعلى الرغم من أن اللوحات الاثنتي عشرة حظرت حرق الجثث ودفنها داخل المدينة، كما حظرت الترف والإسراف المرافقين لهذه المناسبة، فإن الرومان وإن راعوا الحظر الأول، لم يراعوا الحظر الثاني، لأن الأسر الكبيرة كانت تعتبر المناسبات الجنائزية مناسبات بالغة الأهمية. ثم ظهرت عادة المجالدة عند الرومان. التي أدرجها يوليوس بروتس

(١) ماري ماغريغور: التاريخ الروماني، عصر الثورة من تيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أوغسطس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١، ص ٥٣.

"Ugnun Prutus" أحد أفراد أسرة حديثة العهد بالثروة، بإقامة مباراة للمجالدين في جنازة والده في عام ٢٦٤ ق.م. شاعت فيما بعد عند الرومان.

أنشأت أول مدرسة في روما، نحو عام ٢٥٠ ق.م^(١)، وقبل ذلك لم يكن في روما من مدارس لتعليم النشء في تلك الفترة، لأن الرومان اعتبروا التعليم من واجبات المرأة التي تسهر على تربية أولادها الصغار وتعلم بناتها الغزل والنسيج وإدارة شؤون المنزل. وما إن يشب الأولاد حتى يتولى الأب تعليمهم الكتابة والقراءة ومبادئ الحساب والألعاب الرياضية، كالجري والسباحة والملاكمة والمصارعة واستخدام الأسلحة المعروفة آنذاك، ويعلمهم قواعد المحافظة على النظافة وآداب السلوك وأساطير الأبطال وتاريخ الوطن الذي يعيشون فيه. لكي يكتسبوا خبرة منذ صغرهم، كان الأب يصطحب أولاده معه في غدواته وروحاته لأداء واجبه اليومي، فكانوا يتدربون عملياً على الزراعة، ويتعرفون أساليب الحياة العامة مثل تقديم القرابين، وما شابه من الطقوس الدينية، وإتقان وحفظ أيام الأعياد الرسمية والأيام التي يمكن العمل فيها، والأيام التي يعطل فيها حتى لا تغضب عليه الدولة ولا الآلهة، بعدم مراعاته العمل بموجبها، والإجراءات التي تتبع في الجمعيات الشعبية عند الانتخابات أو إصدار التشريعات أو النظر في الأحكام المستأنفة، واختصاصات الحكام على اختلاف درجاتهم، وعقود البيع والشراء وانتقال الملكية... الخ. فما إن يبلغ الشاب سن الرشد حتى يكون قد اكتسب بعض المهارات والمؤهلات التي تجعله يضطلع بالمسؤولية وممارسة واجباته وحقوقه الدستورية على أكمل وجه. ويبدأ ذلك عادة مع بداية الثامنة عشرة من عمره عندما يصبح أهلاً للدخول كعضو في الجمعية الشعبية أو الخدمة العسكرية التي يقضي فيها مدة عشر سنوات قبل أن يتطلع إلى الحصول على أدنى وظيفة عامة.

^(١) H. Dessau: History of Education antiquity, Trans 1958, p 229.

كان هدف الرومان من التربية والتعليم خلق النشء، وإعدادهم لكي يكونوا مواطنين صالحين يتسمون بالرجولة والجد والبساطة والصلابة والقناعة والدأب على العمل والحفاظ على سنن الآباء وأداء الواجب نحو الآلهة والوطن وذوي القربى ليس إلا.

وبفضل العادات والتقاليد العسكرية كإطاعة النظام واحترام الأوامر، وتعلقهم بالآلهة وشعورهم بالفضل تجاهها، وما تبع ذلك من التزام الدقة في إقامة الشعائر الدينية في مواعيدها، ثم غرس صفات حميدة كثيرة وخاصة صفات الجد والميل إلى الحفاظ على سنن الآباء والشعور بالواجب في النشء، لأن أرفع الصفات عند الروماني كانت أداء الواجب على خير وجه نحو الوطن والآلهة وذوي القربى، وكان الوفاء للوطن يأتي في طليعتها. فمن أجله كانت تمون التضحية بالأصدقاء والأقارب وبالحياة العسكرية أو معاقبة من يقدم أية خدمة للعدو، حتى ولو كان المذنبون أبناءهم.

هذه السياسة التربوية التي تحدثنا عنها كانت كافية لبناء قوة روما على نحو مكنها من فتح إيطاليا، فإن القرنين اللاحقين لهذا الفتح سيكشفان أن ذلك النظام لم يكن كافياً. وسيبرز أمامنا عجز حكام روما ومخططي سياستها عن مواجهة ما سيصادفهم من مصاعب جديدة، فالقوة التي تمكنت روما بواسطتها من بناء إمبراطورية واسعة الأرجاء. سيتحول إلى عجز واضح يتجلى بأبرز صوره من خلال في عدم قدرتها على حكم تلك الإمبراطورية حكماً سليماً، أو حتى الحفاظ على النظام الجمهوري^(١).

جـ - الديانة:

لم يطرأ أي تغير يذكر على ديانة الأسرة في النصف الأول من عهد الجمهورية باستثناء المؤثرات الأتروسكية والإغريقية التي ظهرت جلية في الديانة الرسمية

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٩٥-٩٦.

منذ عهد الملكية، واستمرت في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية، فقد تابع الرومان بناء المعابد والهياكل والتماثيل للآلهة بدلاً من الذبائح^(١).

وهكذا دخل عدد آخر من آلهة الإغريق إلى مجموعة المعبودات الرومانية. فعبادة التوءمين كاستور وبولوكس الديوسكوري دخلت روما عام ٤٨٤ ق.م. بحسب ليفيوس المؤرخ الروماني^(٢)، ومع أن للرومان آلهة للشفاء تدعى سالوس إلا أنه بعد تفشي الطاعون في روما عام ٧٩٣ ق.م. واستطلاع الكتب السيولية ثم إدخال عبادة إله الشفاء الإغريقي إسكليوس الذي أسماه الرومان إيسكولابيوس، وازداد تعلق الرومان بالعرافة الأتروسكية لأمرين:

- أولاً: بسبب إيفاد أبنائهم إلى أتروريا لدراسة التعاليم الأتروسكية الخاصة بذلك.

- ثانياً: بسبب ازدياد استخدامهم خبراء العرافة الأتروسكية قد صار لهم جماعة من المؤيدين ازدادت أهميتهم بمرور الزمن، حتى شكلت منافسة شديدة لجماعة العرافين الرومان على الرغم من أن لكل جماعة من العرافين أساليبها الخاصة في التعرف على إرادة الآلهة.

والرومان، سواء في عبادتهم للآلهة، الأسرية أم في عبادتهم الرسمية، لا يتضرعون إلى الآلهة، من أجل أن تمنحهم بركات روحية تطهر قلوبهم ونفوسهم، وإنما من أجل أن تسبغ عليهم بركات مادية تكسبهم الصحة والثروة، وترجع سيطرة الديانة على عقول الرومان إلى ثلاثة عوامل:

- العامل الأول: كانت الديانة رمزاً للوحدة، وكانت عبادة الأسرة رمزاً لوحدة الأسرة، وكانت العبادة الرسمية رمزاً لوحدة الدولة.

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) المرجع نفسه: ص ٣٣٥.

- **العامل الثاني:** الإيمان العميق بقدرة الآلهة، على مساعدة من يكتسب رضاها عن طريق إقامة شعائرها طبقاً لأصولها الصحيحة بالخير والبركة. وقدرتها على أن تصب جام غضبها على من يقصر في إقامة هذه الشعائر بكل دقة.
- **العامل الثالث:** أن قوة التقاليد الدينية في احترام السلطة الأبوية دعمته مثل ما دعمت الشعور بالواجب.

كان لهذه الديانة الرومانية الأثر الخلقي الرفيع الذي سما بالنفس الإنسانية فوق مستوى الدناءات، وقد أسهمت في تنمية صفتين هامتين كانتا من أبرز ما اتسم به الخلق الروماني في هذه الفترة بوجه خاص، وهما: الشعور بالواجب والحفاظ على التقاليد.

وباعتقاد الرومان أن كل ما يصيبهم في حياتهم من خير أو شر لا يتوقف فقط على إقامة الشعائر الدينية للآلهة، بل على إقامتها طبقاً لأصولها الصحيحة، لذلك كان إقامة هذه الشعائر على هذا النحو تحتل أهمية كبيرة في الحياة العامة والخاصة على حد سواء، لأن قدرة الآلهة الرومانية كفيلة بأن تكلاً برعايتها المجتمع الروماني مثل ما تكلاً الأفراد، ومن هذه الشعائر وأصول تطبيقها كان يتألف القانون الروماني المقدس، وهو الذي صار جزءاً هاماً من القانون الروماني العام، ولما كان الكهنة هم حراس القانون المقدس، صار المصدر الذي استمد منه كبارهم ما تمتعوا به من مكانة ونفوذ عظيمين في الدولة الرومانية.

فقد كان الكهنة يهتمون بالحفاظ على التقاليد الدينية للدولة، ويثابرون على تفسيرها، وإضافة سوابق جديدة إليها ويباشرون بأنفسهم أو يشرفون على إقامة الشعائر الدينية في المناسبات العامة، وبعض المناسبات الخاصة، ويصفون للحكام الطقوس الدينية الواجب القيام بها عند الإقدام على أعمال عامة، كما كان العرّاف يستمدون قوتهم من الاعتقاد بأن الآلهة كانت تصدر تحذيرات على هيئة ظواهر معينة

كان يمكن عن طريق مراقبتها تبين اتجاهات الآلهة إزاء أي عمل يعتزمون القيام به، لذلك كان على كل حاكم قبل الإقدام على أي عمل عام استطلاع رغبات الآلهة، وعليه التزام إشارة العراف والانتباه إلى عدم الوقوع في خطأ من ناحية التطبيق؛ لأن ذلك سيرتد عليهم بالشر، وخاصة إذا أغفل نصيحتهم^(١).



^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٩٦-٩٨.

رابعاً- الحياة الاقتصادية:

أ- الزراعة:

أثرت الحروب المستعرة التي خاضتها روما على مدى قرنين ونصف من عهد الجمهورية الرومانية على تطور الزراعة ومن ثمَّ تطور الحياة الاقتصادية عامةً على الرغم من المساحة الواسعة من الأراضي العامة التي تملكها الدولة بعد اتساع نطاق الإقليم الروماني نتيجة لانتصارهم في حروبهم.

ولعل أهم ما طرأ على الزراعة، خلال النصف الأول من العهد الجمهوري، هو إدخال نوع جديد من القمح عرف باسم "Frumentum" تم استقدمه من الخارج، وبما أن هذا النوع أفضل من النوع القديم والمعروف عند الرومان باسم "Far" كما أنه أفضل لصناعة الخبز، لذلك أقبل الرومان على زراعته تدريجياً، وأصبح المحصول الرئيسي، إلى جانب أنواع أخرى من الحبوب، والبقول والخضروات مثل: العدس والفاصولياء والبازلاء والبصل والثوم والكراث والقنب والقرع.

وأما إدخال فلاحة أنواع متعددة من البقول والفاكهة المعروفة في جهات متعددة من العالم، فلم يأت إلا بعد مراحل لاحقة، وأما أنواع الحيوانات الرئيسية التي اعتنوا بها فأغلبها الثيران والأبقار والحمير والأغنام والخنازير، وكذلك الدجاج والأوز، وقد صاحب اتساع الإقليم الروماني، وزيادة رقعة المزارع وتنشيط تربية الحيوان وازدياد عدده، حيث ربيت الأغنام من أجل ألبانها وصوفها، والأبقار والحمير من أجل الحرث والنقل، كما احتل لحم الخنزير مكانة رفيعة. وقد شاعت تربية النحل لشدة حاجتهم إليه بسبب استخدامه بدلاً من السكر.

وكانت العادة المألوفة، حتى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، هي تأجير الأراضي العامة، وكان البطارقة يحكم نفوذهم وراثتهم وأنانيتهم يحتكرون ذلك ويعتبرون ما يستأجرونه في حيازتهم، بينما زادت الأزمة الاقتصادية على العامة بسبب

ازدياد عددهم وطول انقطاعهم عن رعاية الأرض وطول استغلال إقليم لاتيوم، وفي الوقت نفسه أدت الحروب إلى اتساع رقعة الإقليم الروماني.

وقد تم تأجير الجانب الأكبر من الأراضي الصالحة للزراعة، وأراضي المراعي والغابات، إلى البطارقة الذين كانوا يفوزون بها ويضمونها إلى أراضيهم على أن تبقى ملكيتها للدولة، ولما وجد العامة أن طغيان البطارقة قد استشرى في هذا المجال، استصدر تروبيونا العامة ليفينيوس وسكستوس في عام ٣٦٧ ق.م. قانوناً يقضي بمنع تملك أكثر من ١٠٠ رأس من الماشية أو ٥٠٠ رأس من الأغنام على سبيل التأجير لأي مواطن مستقبلاً^(١).

ب- مشكلة الديون:

كانت أولى المحاولات لمعالجة مشكلة الديون في عام ٣٦٧ ق.م، عندما أصدر ليفينيوس وسكستوس أيضاً قانوناً يقضي بحسم الفوائد السابق سدادها من المبلغ المتبقي على المدينين، وبأنه إذا بقي عليهم شيء بعد ذلك يتعين سداده خلال ثلاث سنوات بالتقسيط. وعيب هذا القانون أنه عالج أعراض الداء ولم يعالج الداء نفسه، إذ إنَّ الفائدة المرتفعة بنسبة ٨,٥ بالمئة جعلت المرايين يتحكمون برقاب المدينين. ثم قام القنصلان بإنشاء هيئة خماسية تعمل على تقديم القروض من الأموال العامة لقاء رهون مناسبة في عام ٣٥٢ ق.م، وتسوية ديون المعسرين بإشهار إفلاسهم، وفي عام ٣٤٧ ق.م. تم تخفيض سعر الفائدة إلى خمسة بالمئة وإمهال المدينين مدة ثلاث سنوات لتسديد ديونهم، وفي عام ٣٤٢ ق.م. حُظر إعطاء قروض بفوائد.

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٠٣-٢٠٥.

وأصدر بوتيلىوس في عام ٣٢٦ أو ٣١٣ ق.م. قانوناً يقضي بقبول أية ممتلكات يقدمها المدين وفاءً لدينه، وبعدد جواز الاستيلاء على شخص المدين أو استعباد المواطنين إذ لم يعمل طويلاً بالقانون الصادر عام ٣٤٢ ق.م. وعندما تجددت أزمة المدينين في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، أقرّ العالم الكورولي كوينتوس هورتنسيوس الذي عُيّن دكتاتوراً عام ٢٧٨ ق.م. معالجة هذه الأزمة^(١).

جـ- الحرف والتجارة:

كانت غالبية الرومان العظمى من المزارعين والرأسماليين الزراعيين. ولما كانوا يؤمنون بأن المشاركة في الحروب كانت الواجب الأول على كل روماني نحو وطنه، اعتبروا أن مزاوله مهنة التجارة والحرف المختلفة لا يمكن أن تعد المواطن لتحمل عناء الحرب مثل ما تعدّه ممارسة الزراعة، فتبعاً لذلك لم يستدع أرباب الحرف والتجار للخدمة العسكرية إلا في أوقات الضرورة القصوى، وقد جرت العادة باستخدامهم في السفن الحربية، فلم يكن يمارس التجارة من الرومان إلا بعض العامة فقط. ولم يكن يزاول الحرف آنذاك إلا أدنى فئات العامة في مدينة روما.

والواقع أنه لم يمارس هذين المجالين، إلا من كان من اللاتين والإيطاليين والإغريق نزلاء روما، الذين جلبتهم إليها أهمية مكائنها، وتشجيع الحكومة من أجل سد حاجات السكان الأساسية. وبما أن الرومان، في تلك الفترة، كانوا يعيشون حياة بسيطة اتسمت بالتقشف، لذا لم تزدهر الصناعات التي أخذت تنمو منذ أيام الملكية إلا ما اتصل منها بمعدات القتال، ودليلنا على ذلك وصول السفن الفينيقية والأتروسكية والإغريقية إلى إيطاليا وهي محملة بالبضائع التي كانت تسد حاجات سكانها.

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٠٠.

ويعزى الفضل في تقدم إيطاليا الاقتصادي في أثناء الفترة التي نحن بصددتها من عهد الجمهورية، إلى إغريق جنوب شبه جزيرة إيطاليا وإلى تلاميذهم من الإيطاليين الساكنين في كمبانيا وأبوليا، وكذلك إلى المدن الأتروسكية، حيث غدت كابوا "Capua" مركزاً رئيسياً للمصنوعات البرونزية، وأخذ صناع الفخار في كمبانيا وأبوليا في خلال القرن الرابع قبل الميلاد يقلدون الأنية المصبوغة بالألوان، وكانت المصنوعات الأتروسكية من المعادن والفخار تلقى سوقاً رائجة في روما، وفي لاتيوم تقدمت بعض المدن في صباغة وزخرفة الأدوات الذهبية والفضية تقدماً كبيراً.

وتجارياً، أصبحت تارنتم أهم مركز تجاري في شبه جزيرة إيطاليا، فبعدما فقدت سراقوسة مركزها المهم في تزويد روما باحتياجاتها من الخارج في نهاية النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، حلت ماسيليا "مرسيليا اليوم" محلها، وأصبحت أكبر مصدر إلى روما، وليس أدل على عدم اهتمام روما بشؤون التجارة الخارجية في النصف الأول من عهد الجمهورية سوى المعاهدتين اللتين عقدتهما روما مع قرطاجة^(١). وبمقتضاهما أمنت روما سلامة اللاتيوم من الاحتلال الأجنبي، ولكنها اعترفت لقرطاجة باحتكار التجارة في غرب البحر الأبيض المتوسط، وبالرغم من أن المعاهدة الأولى حرمت على القرطاجيين إقامة حصون لهم في اللاتيوم إلا أنها أباحت لهم دخول إقليم روما وأقاليم حلفائها اللاتين دون قيد أو شرط كتجار، وقد كانت الموانئ الوحيدة، التي سمح للرومان بموجب تلك المعاهدة دخولها من قبل الرومان وحلفائهم، هي موانئ صقلية، إلا أنها حظرت عليهم ألا يبيعوا أو يشتروا شيئاً إلا ما هو ضروري لإصلاح سفنهم وأداء الشعائر الدينية، وألا تطول مدة إقامتهم أكثر من

A. Aymard, Les deux premiers traités entre Rome et Carthage, Rev. ^(١)
Et Ane, 1957, Lix pp 277-293; Etudes d'histoire ancienne 1967. pp 373
ff.

خمسة أيام إذا اضطروا بسبب الطقس أو ظروف الحرب إلى الإبحار غرباً خارج صقلية.

كما أفقدت المعاهدة الثانية الرومان حق الإبحار مع سردينيا. وكذلك التجارة مع ليبيا وصقلية ضمن قيود معينة، في حين احتفظ القرطاجيون بامتيازاتهم التجارية في روما وفي اللاتيوم.

د- النقود:

وقد انعكس عدم إدراك الرومان لأهمية النشاط التجاري على بطء إدراكهم لضرورة أن تكون لهم عملة نقدية خاصة، لربط تطور نظام عملتهم، على الرغم من اتصالهم المستمرة بالإغريق في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية، الذين كان نظام النقود سائداً عندهم منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وكذلك مع الأتروسكيين الذين أخذوا بهذا النظام منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

فالرومان لم يعرفوا أي نوع من العملة قبل هذا التاريخ، وكان التداول عندهم يتم وفق قواعد موحدة تقدر على أساسها قيمة الأشياء في المعاملات العامة والخاصة للتبادل. فالكلمة "Pecunia" مستمدة من كلمة "Pecus" ومعناها قطيع، التي استخدمها الرومان للدلالة على النقود، في الوقت الذي كانت فيه قيم الأشياء تقدر بما تساويه من الماشية أو الأغنام على نحو ما كان متعارفاً عليه عند الإغريق وغيرهم من المجتمعات الزراعية والرعية.

كان هذا النظام البدائي للمعاملات لا يزال متبعاً حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لدى الرومان، ثم خلفه نظام أبسط للعملة بُدئ باستعماله منذ عهد بعيد، هذه العملة غير المسكوكة "Aces Rude" كالبرونز. ووزن كل منها رطل أو اثنتا عشرة أوقية. ولما كانت هذه الكتل لا تحمل طابع الدولة ضماناً لوزنها ونقاؤها، كانت

توزن عند التعامل بها. وهي على كل حال غير متوافرة بكثرة لدى الناس مما جعل الدولة تصدر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد قانوناً تقرر بمقتضاه اعتبار قيمة الثور الواحد أو عشر أغنام معادلة لعشرة أرتال "Asses" ومفردها "As" من البرونز تيسيراً للمعاملات وتسهيلاً لدفع الغرامات للدولة.

بدأت الدولة الرومانية باستخدام العملة في التبادل التجاري منذ عام ٢٩٨ ق.م. لذلك تم تعيين هيئة ثلاثية للإشراف على دار سك العملة "Triumviri monetales"، ومن أولى مهمات هذه اللجنة كان إصدار سبائك تحمل صورة "Aes Signatus" تزن كل منها نحو ستة أرتال، وإذا كانت هذه السبائك تعتبر عملة، فلا يمكن اعتبارها نقوداً بكل معنى الكلمة؛ لأن روما لم تسك نقوداً حقيقية لأول مرة إلا في عام ٢٦٨ ق.م، عندما استخدمت نوعين من النقود:

- نوع من الفضة على نسق إغريقي، وكان من فئتين إحداهما من فئة الدراختين، والأخرى من فئة الدراخمة الواحدة.
- نوع آخر من البرونز ويسمى الآس "As" ويتألف من عدة فئات هي فئات الرطل وأضعافه وأجزائه، وكانت قطعة النقد الفضية من فئة الدراخمة الواحدة تعادل خمس قطع من النقود البرونزية من فئة الرطل الواحد، أما قبل أن تسك روما نقودها الحقيقية بين عامي ٣٠٠ و ٢٧٠ ق.م. فقد كان الرومان يستخدمون النقود الفضية والبرونزية التي كانت مدن كمبرانيا تسكها من أجل سداد مشترياتهم الخارجية، ودفع مرتبات الجنود النازلين في جهات يسود فيها استخدام النقود.

والحدث الأهم في تبديل النقد الروماني كان عام ١٨٧ ق.م. عندما لجأت روما إلى سك نقود برونزية جديدة تسمى أيضاً الآس "As" وتزن أوقيتين رومانيتين على أساس أن أوقية الفضة تعادل في قيمتها ١٢٠ أوقية من البرونز، فقد سكّت عملة فضية

جديدة يبلغ وزنها سدس أوقية لكي تكون مساوية في القيمة لعشر قطع من النقود البرونز الجديدة ذات الأوقيتين. فسميت النقود الفضية الجديدة بالدينار "Denarrus"، وسميت هذه النقود الفضية الصغيرة سستريتي "Sestertii" واسمها بالجمع سسترتيوس "Sestertius". وقد شاعت بسرعة بين كل حلفاء روما في إيطاليا، وصارت هي العملة القياسية في كل أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية^(١).

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٠١-١٠٤.

خامساً- تأثيرات التوسع الروماني على المجتمع والاقتصاد الإيطالي في القرن الثاني قبل الميلاد:

١- التأثيرات الاجتماعية:

لم تقتصر التغيرات التي طرأت على عالم البحر الأبيض المتوسط على البلاد التي أخضعها روما لسيطرتها خلال قرنين من الزمن تقريباً فقط، بل انعكست آثارها قبل كل شيء على الدولة والمجتمع الروماني، الممثلين في مدينة روما التي غدت حاضرة عالم البحر الأبيض المتوسط بلا منازع، وقد تميزت هذه الفترة من العهد الجمهوري بإرساء قواعد عمليتين ضخمتين هما توحيد العالم الإيطالي سياسياً وإنشاء الإمبراطورية الرومانية.

ويمكن اعتبار نتائج التوسع الروماني البذور الأولى للتطورات العميقة التي عاناها المجتمع الإيطالي والتي قادت الدولة الرومانية بصورة محتومة إلى نظام حكم جديد يستطيع النهوض بأعباء إمبراطورية مترامية الأطراف.

وقد أبرزت الحروب البونية دور مجلس الشيوخ الروماني، وأعطته الفرصة المناسبة لقيادة الشعب وتوجيهه داخلياً وخارجياً في معاركه الكبرى، ومن ثمّ كان ازدياد أهميته في الدولة الرومانية نصراً لطبقة الخواص أو الإرسقراطيين التي تهيمن على المجلس، وقد أثبت زعماء الخواص الذين اختارهم مجلس الشيوخ كفاءة ومقدرة دفعت المجلس إلى التغاضي عن قانون عام ٣٤٢ ق.م. الذي يمنع إعادة انتخاب القناصل قبل انقضاء عشر سنوات على توليهم منصب القنصلية. وأعاد انتخاب القناصل ماكسيموس ومارسللوس وفلاكوس عدة مرات. ولاشك أن تجاوز مجلس الشيوخ للقواعد الدستورية المتعارف عليها في العهد الجمهوري، بتنصيب القنصل ماكسيموس ديكتاتوراً جاء بضغط من الأحداث السياسية والحربية التي كان الشعب الإيطالي يمر بها، وكما نرى ازداد نفوذ مجلس الشيوخ في هذه الفترة على حساب نفوذ القناصل،

وأمكن للمجلس تلافي معارضة المحامين، الذين يمثلون طبقة العوام، وذلك بأن رُفِع المحامون بموجب قانون خاص إلى مستوى شيوخ، كما أصبح للمحامين حق دعوة مجلس الشيوخ للانعقاد. وبالمقابل أصبح للقناصل حق إيقاف التصويت على القوانين، وبذلك ضعف دفاع المحامين عن العوام، أما مجالس الشعب الرومانية وهي المجالس المثوية، والمجلس القبلي، التي كانت المعبرة عن رغبات الأكثرية الساحقة من المواطنين الرومان فقد تضاءل دورها، ولم يعد يسمح إلا لأقلية صغيرة من المتمتعين بحق المواطنة الرومانية بحضور اجتماعاتها وممارسة التصويت فيها، وذلك لانتشار المواطنين الرومان في المستعمرات المقامة في أجزاء من شبه الجزيرة الإيطالية، أو لوجودهم في المقاطعات ضمن الحاميات العسكرية، وقد ارتكب الرومان خطأ جسيماً حينما لم يطوروا مؤسساتهم الشعبية التي تعد الحارس الأول للحكم الديمقراطي، أو يستبدلوها بمؤسسات أخرى تقوم مقامها.

وهكذا نرى أن الحروب البونية قد أفسحت المجال أمام الطبقة المهيمنة على مجلس الشيوخ لتتسلم مقاليد الحكم بشكل لا منازع له، وقد تضاعف نفوذ فئة الأرستقراطية الحاكمة منذ النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد نتيجة الثروات الكبيرة التي تمكنوا من جمعها، وقد دخلت إلى هذه الطبقة عناصر جديدة ونشأت طبقة جديدة هي عبارة عن خليط ما بين بقايا أغنياء طبقة الخواص وأغنياء طبقة العوام، وقد سهل التزاوج والتبني عملية التحام أفراد الطبقة الأرستقراطية الجديدة، ووحيد قضيتهم المصالح المالية والسياسية وبصورة خاصة الرغبة في الاستئثار بالحكم قضيتهم. ومن الطبيعي أن ينشأ تسلسل في المكانة ضمن هذه الفئة الحاكمة يعتمد على نوع الوظيفة والرتبة التي يشغلها الفرد في الدولة، وأن يخصص المركز الأعلى في قمة الهرم الاجتماعي لعدد محدود منهم أطلق المجتمع الروماني عليهم اسم النبلاء "Nobilitas"،

فشمل اللقب أولئك المنحدرين من الحكام والقناصل والمحامين والعسكريين والدكتاتوريين والمتمتعين بسلطات الإمبريوم والقنصلية.

وبما أن الوظائف العليا في الدولة لم يكن يخصص لها رواتب معينة باعتبارها شرفاً يمنح لفئة معينة، فإن شاغليها يجب أن يكونوا بالضرورة من الأغنياء الذين تهيئ لهم ثرواتهم القيام بالمهام الموكلة إليهم، لذلك نرى أن الأرستقراطية الجديدة اعتمدت على قاعدتين أساسيتين هما المال والوظيفة مضافاً إليها اسم وجاه العائلة المتوارثان، ومع مرور الزمن استطاع أفرادها احتكار الوظائف الحكومية التي تعتبر الموصلة إلى عضوية مجلس الشيوخ. وأصبح شاغلو هذه الوظائف يشكلون حلقة مغلقة يتوارثون الوظائف داخلها فيما بينهم أباً عن جد. وله شعارات وعلامات خاصة تميزهم. ويذكر أن ٢٦ أسرة من النبلاء أمدت الدولة الرومانية، في الفترة الواقعة بين ٢٣٤-١٣٤ ق.م. بثلاثة أرباع القناصل الذين شغلوا القنصلية خلال قرن من الزمن، أما الأشخاص العاديون من أفراد الشعب الروماني فلم يكن بمقدورهم اختراق هذه الحواجز المنيعة للوصول إلى الوظائف العليا، إلا عن طريق مواهبهم النادرة أو كفاءتهم العالية^(١).

٢- التأثيرات الاقتصادية:

لا يمكن إتمام دراسة التأثيرات الناتجة عن الحروب التوسعية دون أن نتعرض للناحية الاقتصادية في المجتمع الروماني في الفترة الواقعة ما بين ٢٥٤ إلى ١٣٣ ق.م. فقد طرأ على الاقتصاد الروماني تغيرات عميقة الأثر انعكست آثارها على تطور المجتمع نفسه ووجهته. فالطبقة الأرستقراطية الحاكمة أصبحت تتمتع بثروات ضخمة تدعم نفوذها السياسي. وكان أفضل مجال لاستثمار الأموال يتلخص في شراء الأراضي الزراعية

(١) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ١٩٧-٢٠٠.

والمزارع الكبيرة لتربية الحيوانات. وقد تم استخدام العبيد لإنتاج المحاصيل الزراعية على نطاق واسع، لم تكن الغاية منه تأمين حاجات الأسواق المحلية، بل توجهت الاستثمارات الزراعية في القرن الثاني قبل الميلاد للتصدير إلى الأسواق الخارجية.

و لم يقتصر الثراء المالي على الطبقة الحاكمة، بل شمل الدولة الرومانية ككل عندما تدفقت إليها ضرائب البلاد المفتوحة ومناجمها، كذلك وضعت الدولة الرومانية يدها على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في جنوب إيطاليا، وقد أعفت الدولة أبناءها من القيود الجمركية المفروضة على البلدان الخاضعة لروما، ومنحتهم امتيازات في التجارة وخففت عنهم الضرائب.

و خلاصة القول: لقد دفعت الظروف السياسية الاقتصاد الروماني في القرن الثاني قبل الميلاد الاتجاه الرأسمالي الذي نماه وأشرف عليه ممثلو النخبة العليا من الأسر النبيلة، الذين ارتبطت سياسة الدولة الرومانية بمصالحهم الخاصة.

وقد نتج عن الاقتصاد الرأسمالي في الزراعة والتجارة مشكلة خطيرة لم تحسب الإمبراطورية الناشئة لها حساباً، إذ إنَّ اتساع ملكيات الأراضي الزراعية في إيطاليا نفسها قضى على الفلاحين الصغار الذين يعتبرون الخلايا الأساسية في المجتمع الروماني، فمن الطبقة المتوسطة والعوام جندت روما الجيوش الجارية التي أمنت لها بنجاح وضع مبادئ الوحدة الرومانية والدفاع عنها، والآن وقد اتسعت أعباء الدولة الجديدة وازدادت حاجاتها إلى الحاميات العسكرية للدفاع عن المقاطعات المفتوحة، تجد روما أن رصيدها البشري في القوة المحاربة يأخذ طرداً بالتناقص والانكماش. وما ذلك إلا بسبب ابتعاد الفلاحين عن وسطهم السابق، وهجرهم للزراعة في وقت لم تكن الصناعة قد نمت إلى درجة تستطيع استيعاب أعدادهم الكبيرة، علاوة على ذلك فقد وجد الفلاحون في آلاف العبيد منافساً خطيراً لهم ينتزع منهم لقمة العيش، وكما هو واضح كان الوضع الاقتصادي في إيطاليا في القرن الثاني يتطلب معالجة سريعة

وإصلاحاً جذرياً يؤمن للبلاد اقتصاداً سليماً ومن ثَمَّ سياسة ناجعة في الداخل والخارج، إلا أن الأرستقراطية وطبقة النبلاء الجديدة كانوا يزدادون ضراوة في المقاومة كلما صدرت دعوة للإصلاح الاقتصادي، مما اضطر القنصل لايليوس "Laelius" قنصل عام ١٤٠ ق.م. للتراجع عن المقترحات التي وضعها لإعادة توزيع أراضي الدولة. ولن يكتب لمثل هذه المحاولات أن تنفذ إلا بعد سبعة عشر عاماً على يد المصلح تيبيريوس جراكوس وشقيقه جايوس من بعده اللذين سيدفعان حياتهما ثمناً لها^(١).

(١) هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ص ٢٠٤-٢٠٦.

سادساً- الأدب والقانون والفن:

أ- الأدب الروماني الباكر:

تعلم الرومان الكتابة من الأتروسكيين منذ القرن السادس قبل الميلاد. فدونوا القوانين والمعاهدات وقرارات مجلس الشيوخ "السناتوس" والجمعيات الشعبية والقوائم السنوية للحكام، وحوليات كبار الكهنة، والنقوش الجنائزية التي كانت توضع تحت صور أو أقنعة الموتى، وعلى التوابيت منذ القرن الثالث قبل الميلاد. ومن هذه النقوش، نقش تابوتي لوكيوس كورنيوس سكيبيو بارباتوس "Barbatus" وابنه المسمى باسمه، وهما اللذان تولى أولهما القنصلية في عام ٢٩٨ ق.م. وتوفي أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، وتولى الثاني القنصلية في عام ٢٥٩ ق.م، والقنصرية في عام ٢٥٨ ق.م. وتوفي في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. ويعتبر تابوتا هذين الرجلين أقدم ما عثر عليه حتى الآن من توابيت عليها نقوش رومانية^(١).

وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن القول: إنه قد نما عند الرومان أدب حين وحدوا شبه جزيرة إيطاليا تحت زعامة روما، وشأنهم في هذا شأن جيرانهم الأتروسكيين والإيطاليين، لكن هذا لا يمنع اعتبار الأغاني التي كانت تنشد في مآدب الأثرياء وقوائم الحكام، وحوليات كبار الكهنة والنقوش الجنائزية، البذور الأولى للآداب الرومانية. فهذه الأغاني وتلك المدونات كانت البداية الشعرية الحماسية في التاريخ الروماني.

كما ظهرت البذور الأولى للمسرح الروماني من خلال الأشعار الشعبية المبتذلة التي كانت تنظم على شكل حوار، وتنشد في حفلات الزواج وأعياد الحصاد ومواكب النصر التي كان يقيمها القادة العسكريون، وسميت هذه الأشعار بالأشعار

(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ٢٢٧. وانظر أيضاً:

H. Dessau, Inscriptions Latinae Selectae 1892-1916, nos. 1-3.

الفسكينية "Versus Fescennini" الدالة على أنها أخذت عن الحوار الشعري الذي كان ينشد في مدينة فسكينيوم "Fescennium" الأتروسكية، كما عُرضت لأول مرة مشاهد من الرقص والموسيقى قدمها ممثلون أتروسكيون في روما، واعتاد بعض الهواة أن يضيفوا إلى حوار الأشعار الفيسكينية تقليد الراقصين وأداء حركات وإشارات تعبيرية.

وعرف الرومان قبل أواخر القرن الرابع قبل الميلاد شيئاً من القصص المسرحية الساخرة، والتي اشتهرت بها مدينة أتلا "Atella" في كمبانيا. فأطلق الرومان على هذا اللون المسرحي اسم مسرحيات أتلا "Fabulam Atallanne". وتدل كلمة "Fabulla" على المسرحية فضلاً على القصة أو الأسطورة. وهذا النوع من المسرحيات كان لا يخلو من أربع شخصيات وهي: ماكوس "Maccus" (المهرج)، وبابوس "Pappus" (الرجل العجوز). وبوكو "Bucco" (البدين الصغير). ودسنوس "Dossanus" (الأحذب الذكي)، وفي أثناء التمثيل يضع الممثلون أقنعة مناسبة لها كما يضيفون بعض الكلمات أو العبارات.

وأول كتاب روماني له صبغة أدبية كان كتاب الأمثال "Sententia" وهو المؤلف الذي وضعه الكنصور أبيوس كلاوديوس الذي استمد مادته من الإغريقية، هذا وكان لعمل الجمعيات الشعبية الرومانية أثر كبير في نمو الخطابة عند الرومان. ومن أبرز الخطباء كان أبيوس في الخطاب الذي ألقاه في مجلس الشيوخ عام ٢٧٩ ق.م.^(١)

^(١) إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ١، ص ١٠٥-١٠٦.

ب- القانون:

بقيت قوانين اللوحات الاثنتي عشرة القوانين الأساسية للدولة مع تعديلات طفيفة طرأت عليها من جراء التفسيرات التي صاحبت تطبيق هذه القوانين، وكذلك على التشريعات التي صدرت في أثناء تلك الفترة، وهذه اللوحات الاثنتا عشرة التي جاءت بدائية من نواح كثيرة: منها أنها تدل على تطور الرومان في مجال القانون، إذ فصلت هذه اللوحات بين الدولة والدين في القانون، واستبدلت بحق الثأر التعويضات المعمول بها آنذاك التي يجب على الجاني أن يؤديها إذا قبل هو وذووه.

فأعطى التشريع الذي صدر عام ٣٠٠ ق.م. حق الاستئناف في جميع الأحكام التي يصدرها عليهم الحكام الرومان، ومنع أي حاكم من إنزال عقوبة الجلد أو عقوبة الإعدام بحق أي مواطن قدم استئنافاً من الحكم الذي صدر عليه. فأدى ذلك إلى تعديل ما قضت به اللوحات الاثنتا عشرة في هذه الأنواع من الأحكام. ويدل على ذلك من التشريع الذي صدر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد الذي اعترف بشرعية التزاوج بين البطارقة والعامة، والتشريع الذي صدر عام ٣٢٦ أو ٣١٣ ق.م. الذي يمنع رهن شخص المدين واستعباد المواطنين الرومان العاجزين عن وفاء ديونهم.

وكانت اللوحات الاثنتا عشرة التي حددت الإجراءات القانونية الواجب اتباعها عند رفع القضايا، شديدة التعقيد على كل حال، بحيث تعذر على غير القانونيين فهمها واتباعها واستخدام الصيغ القانونية الضرورية، ولما كان كبار الكهنة هم الذين يعرفون الأيام الرسمية للنظر في القضايا ويلمون بالإجراءات والصيغ القانونية، اعتبروا حراساً للتقاليد القانونية. وظلوا يحتكرون تفسير القانون وإعطاء الاستشارات القانونية وقتاً طويلاً وخاصة وأن طبقة البطارقة التي ينتمي إليها رجال الدين الرومان ظلت حتى عام ٣٠٠ ق.م. تحتكر جماعة الكهنة. لذلك لم تستفد طبقة العامة الفائدة المرجوة من وضع اللوحات الاثنتي عشرة.

وأفضل عمل قام به **خبايوس فلافيوس** "Gnneus Flavius" هو إصدار كتاب "Lus Civile Flavianum" شرح فيه بلغة سهلة القانون المدني والإجراءات القانونية الواجب اتباعها عند إقامة الدعوى أو الرد عليها، كما أورد الصيغ والعبارات الواجب إيرادها في كل حالة، وعندما تسلم وظيفة الأيديلية الكورلية عام ٣٠٤ ق.م. علق في الفوروم قائمة بالأيام الرسمية التي يمكن فيها النظر بالقضايا. وقد قام **فلافيوس** بجمع معلوماته التي نشرها من متابعته المحاكم ومناقشته كبار الكهنة المتفقهون في القانون، لذا جاء كتابه ثمة جهود متصلة في القانون استغرقت عدة سنوات. فكان كتاب **فلافيوس** أساساً لما بعده إذ قامت فئة جديدة من المتفقيين في القانون بنشر أعمالهم وتفسيرهم القانونية^(١).

ج- الفن:

تحدثنا عن بناء المساكن، في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية، وعن عناصر بناء المساكن وأقسام الوحدات السكنية عند الحديث عن الحياة اليومية والتربية والتعليم، لذلك سنتابع الحديث الآن عن فن بناء المعابد، ونشير إلى أنه في بداية العهد الجمهوري تم استكمال بناء المعبد الكبير وهو المعبد الذي بُدئ في إنشائه أواخر عهد الملكية للآلهة الثلاثية (**جوبيتر - جونو - منيرفا**). وفي القرن الأول من عهد الجمهورية تم بناء أربعة معابد: الأول للإله **مركوريوس** "Mercurius" في عام ٤٩٥ ق.م، والثاني معبد للثالوث المكون من (**قرس وليبر وليبرا**) "Ceres, Liber, Libera" في عام ٤٩٣ ق.م. والمعبد الثالث للإلهين التوأمين: **كاستور** "Castor" و**بولوكس** "Pollux" في عام ٤٨٤ ق.م. والمعبد الرابع للإله **أبولو** في عام ٤٣١ ق.م. وليس هناك ما يشير إلى

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٦-١٠٧.

إقامة معابد في خلال القرن الرابع قبل الميلاد إلا ما أقيم عند نهايته مثل معبد الآلهة سالوس "Salus" عام ٣٠٢ ق.م. ثم معبد الإله أسكولابيوس "Aesculapius" في عام ٢٩١ ق.م. إلى جانب هذه المعابد الكبيرة تم إنشاء عدد قليل من المعابد الصغيرة. ولم تكن هذه المعابد كبيرة كانت أم صغيرة تُبنى قواعدها إلاً بالأحجار، أما باقي أجزائها فكانت تبني من اللبن والخشب.

لقد استخدم الرومان الذين أخذوا عن الأتروسكيين بناء المعابد وأشكالها، وإقامة التماثيل للآلهة بداخلها، معماريين وفنانين أتروسكيين في بناء زخرفة أقدم معابدهم، ثم اعتمدوا بعد ذلك على الإغريق في بناء المعابد فاتسمت معابدهم حينذاك بالسمة الإغريقية على الرغم من الاختلاف الواضح بين المعابد الرومانية ومثيلاتها الإغريقية في عدة خصائص منها: ارتفاع قاعدة المعابد الرومانية، والتواء الظاهر في القاعدة عن البهو الذي يتقدم قاعة العبادة "Cella" وطرارز أعمدتها، إضافة إلى افتقارها عادة إلى هو من الأعمدة يحيط بالمعبد.

أما المنشآت الأخرى العامة التي أقيمت في تلك الفترة من عصر الجمهورية الرومانية فتتمثل في :

- أولاً: بناء سور ضخيم من الحجارة يحيط بمدينة روما بعد غزوها من الغال في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد.
- ثانياً: إنشاء طريقين عامين، طريق لاتيوم "Via Latium" الذي لا يعرف تاريخ إنشائه بالتحديد. والطريق الآخر هو طريق آبيوس "Via Appia" الذي أنشأه كلاوديوس في عام ٣١٢ ق.م. وهذا الطريق يصل ما بين روما وكابوا "Capua". ثم أكمل بعد ذلك، ليصل حتى بونديزيوم ماراً بثلاثة مواقع هامة هي بنفتوم وفنوسيا وتارنتم.

- **ثالثاً:** إنشاء قناتين لتوفير مياه الشرب إلى روما. وقد أنشأ أبوس كلاوديوس واحدة "Aqua Appia"، والثانية أنشئت في عام ٢٧٢ ق.م، وتعرف باسم الأنيو القديم "Anio Vetus" لأنها أخذت من مياه النهر.
- **رابعاً:** أعيد بناء المنصة "Rostra" في الفوروم.
- **خامساً:** إنشاء مجار في شوارع روما لتصريف مياه الأمطار وتم رصف هذه الشوارع بالأحجار.

هذا واقتصر فن النحت على إقامة التماثيل في المعابد، وهي مصنوعة إما من الصلصال على أيدي فنانين من الأتروسكيين، وإما من الحجر على أيدي فنانين من الإغريق. أما في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، فقد أخذ انتشار التماثيل يخرج عن إطار المعابد إلى القصور والساحات العامة بوضع تماثيل لأبطال روما العسكريين في الفوروم مثل التمثالين اللذين أقيما لقنصلي عام ٣٣٨ ق.م **لوكوس فوريوس كاميليوس** "L: Furius Camillus" و**غايوس مايينوس** "G. Maenius" بعد هزيمتهما للقوات اللاتينية. كما أقيم على مقربة من هذين التمثالين في عام ٢٩٦ ق.م. تمثال من البرونز لذئبة ترضع توعمين من البشر نسبة لأسطورة نشأة روما.

الواقع أن هذه التماثيل لم تكن من عمل رومانيين، بل أتروسكيين ثم إغريق، لكنها في جميع الأحوال كانت تصور تصويراً واقعياً سمات الأشخاص الذين أقيمت لهم، لذلك تسمى صوراً "Portraits" ولم يكن لفن النحت الروماني وجود قبل القرن الأول من عهد الإمبراطورية الرومانية.

ولكن البطارقة الرومان قد أخذوا عن الأتروسكيين عادة عمل أقنعة لموتاهم للاحتفاظ بأشكال أسلافهم، فكانت هذه الأقنعة نموذجاً استمدت منها التماثيل الروماني باعتباره قادراً على التصوير الواقعي اعتباراً من أوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

ويرجع ما عُثر عليه من صور بالألوان، إلى أوائل عهد الجمهورية، وهو لا يعدو كونه مناظر حربية تقليدية صورت دون عناية كبيرة على جدران مقبرة نحتت في صخور تل أسكوبيلينوس في خلال القرن الرابع قبل الميلاد. كما أن جدران معبد سالوس الذي أقيم في عام ٣٠٢ ق.م، زينت بمجموعة من الصور الملونة المنسوبة إلى أحد البطارقة المدعو ماييوس، فطغى عليه لقب بيكتور "Pictor" أي المصور، وأصبح ذلك لقباً عائلياً متوارثاً في أسرته.

وهناك أيضاً مجموعتان من الصور الملونة تعودان إلى عامي ٢٧٢ و ٢٦٣ ق.م تخليداً لذكرى انتصارين أحرز الرومان أولهما خلال الحرب مع بوروس وأحرزوا ثانيهما خلال الحرب البونية الأولى مع قرطاجية.

ويدل مستوى الفن الروماني في النصف الأول من عهد الجمهورية بالقياس إلى الفن الإغريقي أو الفن القرطاجي المعاصر، على أن طراز الصور التي نقشت على أولى النقود الرومانية، سكت في عام ٢٦٨ ق.م، هي دون مستوى طراز نماذجها الإغريقية والقرطاجية. أو مستوى طراز النقود الرومانية التي سكت فيما بعد^(١).

(١) المرجع نفسه: ص ١٠٧-١١٠.



القسم الثاني:
عصر الإمبراطورية الرومانية
د. زياد سلهب





الفصل الأول
انهيار الجمهورية وقيام الإمبراطورية الرومانية
نشأة الإمبراطورية الرومانية



تمهيد:

شكلت المرحلة التاريخية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية مرحلة حاسمة في التاريخ العالمي، فمن حيث التوسع شهدت الإمبراطورية امتداداً واسعاً جداً جعلها من أكبر إمبراطوريات العالم القديم، ومن حيث الأحداث شهدت هذه المرحلة حروباً متلاحقة، لكنها شهدت أيضاً ما وصفه بالسلم الدائم أحياناً، وقد تعزز هذا السلم، كما تعززت الحرب بالعديد من الأمور القانونية، إذ شهدت الإمبراطورية تطوراً لم يكن معروفاً في العالم القديم، وهو الاعتراف بحق المواطنة، فالمواطن الروماني لم يكن تابعاً لإقليم معين أو لأسرة معينة أو لمنتصر بعينه، بل كان ذلك حق اكتسبه جميع سكان الإمبراطورية الشاسعة، كما أن حق الوصول إلى لقب الإمبراطور مع ما تبعه وما يتعلق به، لم يكن حقاً محصوراً، بل كان حقاً تفرضه ظروف الحرب والسلم والانتصارات والهزائم، وهذا ما جعل الإمبراطورية تتعزز لفترة طويلة وتتفادى الانقسامات والمشاحنات، ولم يكن ذلك يعني عدم وجود تطاحن على السلطة، في مساحة ضمت الجرمان إلى الإيطاليين والأفارقة إلى الآسيويين، بل يعني إقراراً بحق الوصول دون عقبات مسبقة، وإن ظهرت العقبات لاحقاً، فإن إزالتها كان أمراً ميسوراً.

ولدت الإمبراطورية الرومانية رسمياً عام ٢٧ ق.م، وانتهت بحسب بعض وجهات النظر مع احتلال روما عام ٤١٠ م أو عام ٤٧٦ م تاريخ سقوط إمبراطورية الشرق نتيجة للغارات المتكررة التي قام بها الجرمان. في الواقع، يصعب الإحاطة بدقة بمقطع من التاريخ لا يفهم إلا بالإحالة إلى الماضي اللاحق للحرب البونية الثانية، والذي لا يأخذ وحدته إلا من التاريخ السياسي. وبقدر ما تفترض العودة إلى الحقب المتأخرة اللجوء إلى مصادر مختلفة في أجزاء كثيرة منها.

إذا أقمنا موازنة مع الجمهورية نجد في الإمبراطورية الرومانية إشارة إلى حقبة تاريخية عريضة من سيطرة القوة الرومانية في ظل قيادة القيصرية. وحدها الإمبراطورية تشير إلى شكل مؤسسي وإقليمي من ممارسة سلطة ملكية تجمع بين القيم الأرستقراطية التقليدية، والحق العام مصدر الشرعية والبعد الديني المترابط مع طرق تفكير النخب الرومانية أو الإقليمية. من حيث جغرافيتها جمعت الإمبراطورية الرومانية مزيجاً من الحواضر والجماعات المحلية التي انصهرت في جزء كبير منها مع شبكة العلاقات الاجتماعية التي انسكبت في قالب المجتمع الروماني لتؤلف كل واحدة منها مجتمعات ضرورية تراتبية ومتشابكة ثقافياً، بل متغيرة الأشكال. وأخيراً بالنسبة لغير المتخصصين يغطي المفهوم نموذجاً من اتساع المواطنة الرومانية وتفتح حضارة حاملة لقيم نبيلة حملتها الآداب اللاتينية تتصف أيضاً بالألقاب الإنسانية التي جرت في المسارح وباستمرار العبودية، دون أن ننسى غلطة الجيش غير المنضبط والمحدود. بمجرد أن يتخلى عن حقوق المعركة.

أولاً- سقوط الجمهورية الرومانية:

١- يوليوس قيصر وإصلاحاته:

ولد غايوس يوليوس قيصر في روما عام ١٠٢ ق.م، وتزوج وهو لا يزال في السابعة عشرة قورنيليا بنت قنا "Canna" معلناً تمسكه بأهداف العامة لا النبلاء. فأوغز إليه سوللا بالطلاق. فامتنع، وفرّ إلى بيشنة في الشرق، وعند وفاة سوللا في العام ٧٨ ق.م. عاد يوليوس قيصر إلى روما وتعاطى السياسة. فلفت الأنظار بفصاحته وقوة حجته عندما اهتم دولابلا "Dollabella" بابتزاز الأموال في مقدونيا. ثم ذهب إلى رودوس ليدرس البيان على يد مولو "Molo" كما فعل شيشرون، وهنا اختطفه فرسان من قليقية وهو في طريقه إلى الجزيرة. فافتدى نفسه، وفرّ منهم، وعاد إليهم بعد ذلك على رأس قوة صغيرة، فقبض عليهم وصلبهم في مدينته برجاما. وتشاء الظروف في العام ٦٨ ق.م. أن تموت زوجته قورنيليا، وجوليا أرملة ماريوس وهي عمته، في أثناء تأهبه للذهاب إلى ولاية إسبانيا ليتولى عمله بوصفه كوايستورا. فانتهاز فرصة تشييع جنازة عمته جوليا ليكسب لنفسه شعبية كبيرة تفيده في بناء مستقبله السياسي. حيث عرض في موكب الجنازة صور البطل الشعبي ماريوس، متحدياً بعمله هذا مجلس الشيوخ، كما أنه يعتبر إعلاناً صريحاً عن ميوله واتجاهاته الشعبية، هدف من ورائه إلى اكتساب رضى الشيوخ الذين كانوا لا يزالون من أنصار ماريوس.

وفي خطاب التأين الذي ألقاه قيصر أشاد بأصل عمته للافتخار بأصل أسرته، ذكر أنها تتحدر من ناحية الأم عن الملك أنقوس "Ancus" أحد ملوك روما القديمة، ومن ناحية الأب عن الآلهة فينوس "Venus" والدة المؤسس الأسطوري لمدينة روما، وكان يقصد من وراء ذلك إبراز أمرين: أولهما، الفارق بين سلالة أسرة يوليوس قيصر وبين سلالات الأسر العريقة الأخرى التي أوغلت في الفساد، والأمر الآخر، هو تأكيد

أن ميول أسرة يوليوس قيصر كانت ميولاً شعبية على عكس غيرها من الأسر العريقة، ولم يكن ثمة رجل آنذاك أحب إلى الشعب من رجل عريق الأصل شعبي الميول وفوق مستوى الشبهات. ثم انصرف إلى إسبانيا في أولى مهامه السياسية الرسمية.

وتم انتخاب يوليوس قيصر بعد ذلك عضواً في طغمة الكهنة، وتعاون مع الكونسور كراكوس لمحاكمة بومبي بعدما أصبح قيصر أيدليس لعام ٦٥ ق.م. فشهدت روما من الحفلات والمآدب ما لم تر له مثيلاً من قبل، ويعود الفضل في ذلك كله إلى ازدياد شعبية ومحبة يوليوس قيصر بين العوام؛ لأنه أعاد إقامة النصب التذكارية لانتصارات ماريوس على بوغورتا والتوتون والكيمبري والتي أمر سوللا سابقاً بإزالتها، وتولى أمانة الأبنية العمومية في السنة ٦٤ ق.م.

تقدم كراسوس بإيعاز إلى أحد ترابنة العامة، بمشروع قانون يقضي بتحويل مصر إلى ولاية رومانية وإسناد هذه المهمة إلى يوليوس قيصر، وجعلها قاعدة عسكرية ضد بومبي أو على الأقل استخدامها كورقة مساومة. فوقف بعض النبلاء و بصورة خاصة شيشرون ضد هذا المشروع لأنه كان صديقاً لبومبي ومن أقوى مؤيديه، فضلاً عن كونه ينتمي إلى طبقة الفرسان الذين عارضوه أيضاً.

تمكن يوليوس قيصر بفضل ذكائه أن يصبح كاهناً أكبر بعد ما شغل منصب الكاهن الأكبر بوفاة كوينتوس متلوس ييوس في العام ٦٣ ق.م، ثم لم يلبث يوليوس قيصر أن حقق نجاحاً آخر في الانتخابات لوظيفة البريتورية لعام ٦٢ ق.م، وذلك بفضل الرشوة^(١).

رجع يوليوس قيصر من إسبانيا، ورشح نفسه لقنصلية عام ٥٩ ق.م. فانتخب قنصلاً على الرغم من معارضة النبلاء وبعض الفرسان، وطالب مجلس الشيوخ بأن

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٢٦-٢٢٨.

يسمح له بإخضاع مصر وتحويل دخلها السنوي إلى خزانة روما. لكن المجلس رفض ذلك، مما جعله يتحالف مع كراسوس وبومبي، فنشأ بينهم ما سمي بالحلف الثلاثي الذي لعب فيه يوليوس قيصر دور العقل المدبر والرئيس الحقيقي بينما أوهم بومبي بأنه هو الرئيس وصاحب الأمر والنهي، إرضاءً لغروره.

وقد أصدر يوليوس قيصر في قنصليته الأولى عام ٥٩ ق.م. مجموعة التشريعات التالية^(١):

١. قانون الأراضي: ويقضي بتوزيع أراضٍ صالحة على جنود بومبي.
 ٢. قانون أرض كمبانيا: يقضي بتوزيع الأرض العامة في كومبانيا.
- إضافة إلى بعض التشريعات الأخرى وهي:
- إقرار تنظيمات بومبي في الشرق.
 - خفض المبلغ الذي تعاقدت عليه شركة جباية ضرائب ولاية آسيا بمقدار الثلث.
 - الاعتراف ببطلميوس الثاني عشر ملكاً على مصر.
 - إسناد حكم ولاية غاليا وهذه المنطقة من الألب إلى قيصر، ولمدة خمس سنوات ووضع ثلاث فرق عسكرية تحت إمرته.
- وقد تمكن يوليوس قيصر في غضون ثماني سنوات قضاها في الزحف على الغالين البرابرة، من إخضاع غاليا وراء الألب وفتحها من حدود المحيط الأطلسي وبحر المانش حتى نهر الرين، ثم صد القبائل الجرمانية من غاليا، فعادوا إلى بلادهم بعد أن تكبدوا خسائر جمة، وقد جعل يوليوس قيصر من نهر الرين حداً لولايته الجديدة، كما أنه غزا بريطانيا حتى نهر التايمز أيضاً، فأضاف إلى الإمبراطورية الرومانية مملكة واسعة شملت

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٩، ص ٣٤٩-٣٥٠.

فرنسا الحديثة وبلجيكا، وصنف كتاباً حول حروبه في غالبا عني به عناية شديدة، فجاء من أنفس ما كتب نثراً باللغة اللاتينية.

إشارة إلى القانون الوثيني "Lex Vatina" الذي أصدره التريبون بوبيليوس واتينيوس في السنة ٥٩ ق.م. حيث جعل مدة ولايته على غاليا وأليريه خمس سنوات. إلا أن تولي بومبي وكراسوس منصب القنصلية في العام ٥٥ ق.م. ومقتل كراسوس في السنة التالية في حرب ألبرت في الشرق، قد أدى إلى تفكك التحالف الثلاثي الذي قام عام ٦٠ ق.م. بحيث اقتصر فقط على قيصر وبومبي، فأصبح ثنائياً وعرف باسم الحلف الثنائي.

وقد استفاد يوليوس قيصر من تحالفه مع بومبي، ففي السنة ٥٢ ق.م. أوعز إلى مناصريه بتأييده في انتخابه للقنصلية وذلك أثناء غيابه. فأصدر قنصل هذا العام وهو حليفه بومبي من جهته استثناء خصوصياً يسمح ليوليوس قيصر بترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب عن روما.

ولما خشى مجلس الشيوخ عاقبة مجيء يوليوس قيصر إلى روما وترشيح نفسه للقنصلية، بدأ يفتش عن رجل قوي يقف في وجهه، ووجد ضالته في بومبي الذي أغرته القيادة العسكرية، فمال إلى مجلس الشيوخ وشرع في ترويج مبادئه، فكان ذلك بدء الخلاف بينهما^(١)، حاول يوليوس قيصر أن يصالح مجلس الشيوخ عبر وسطاء لكن جواب الأخير كان أمراً بتسريح الجيش الذي معه. فلم يتردد يوليوس قيصر بعد مرور أقل من ساعة على وصول جواب المجلس في الإيعاز إلى فرقة من جنوده بالزحف إلى روما في السنة ٤٩ ق.م. وبما أن المجلس لم يكن على استعداد لهذا الجواب السريع اضطر مرغماً إلى مفاوضة بومبي في الأمر الواقع، فكان جواب الأخير أن القوات

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٢٨-٢٢٩.

الحربية التي تحت إمرته ليست كافية لصد يوليوس قيصر عن روما^(١)، ولما دنا يوليوس قيصر من روما فرّ بومبي وجيشه منها مع معظم الشيوخ وعددٍ كبيرٍ من الوجهاء والأعيان.

وحتى لا يفكر مجلس الشيوخ أو بومبي ثانيةً في تعبئة الجيوش وتدريبها للهجوم على روما لسحق يوليوس قيصر الذي عقد النية على تنظيف الغرب من الجيوب الموالية للمجلس أو لبومبي. وبخاصة في إسبانيا التي وصلها بسرعة مدهشة في حزيران عام ٤٩ ق.م، فتمكن بعد بضعة أسابيع من أن يقطع المؤونة والذخيرة عن الجيش فيها. وأكرههم بعد ذلك على الاستسلام دون أن تنشب بينه وبينهم معركة واحدة^(٢).

٢- سقوط الجمهورية الرومانية:

أ- الحرب الأهلية الثانية:

في أثناء غياب يوليوس قيصر في إسبانيا استعد بومبي وأعوانه ليعبروا إلى إيطاليا. لكن يوليوس قيصر تمكن من العودة بحراً من برنديزي ونزل في إبيروس على الرغم من أن السيادة البحرية كانت لا تزال بيد مجلس الشيوخ وبومبي، فأثارت هذه المباغنة نفوس خصوم قيصر وأصابتهم بالحيرة لتملصه من مراكبهم الحربية، ثم نشبت بين الطرفين معركة في فرساليا في السنة ٤٨ ق.م، أسفرت عن انكسار بومبي ومجلس الشيوخ ولجوئهم إلى الاستسلام.

وقد نجح بومبي بنفسه إلى مصر حيث قتل هناك، إلا أن يوليوس قيصر لحق به مع قوة صغيرة من جيشه، فوجد كليوباترا السابعة وأخاها بطليموس الرابع عشر يتنازعان السلطة والزعامة، كما وجد الفوضى تضرب أطناهما من جراء هذا

(١) أسد رستم: عصر أغسطس قيصر وخلفائه، ج ١، ص ٥٦.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٢٩.

النزاع^(١). كان قيصر قد وصل إلى مصر بفرقتين وثمانمئة فارس، فأراد أن يأخذ دخلها العظيم بالسياسة والدهاء لا بالعنف والقوة، واستطاع أن يتغلب على فتنة خفيفة تعرض لها في الإسكندرية، ثم أفرّ كليوباترا على الملك على أن تتزوج أخاها الأصغر إذا كان الأكبر قد هلك، ثم غادر يوليوس قيصر مصر إلى إنطاكية، ومنها توجه إلى البونطس معقل مترايداتس وابنه فرانكوس فانتصر عليهما في زيلة حيث فرّ الابن هائماً على وجهه بعدها في العام ٤٧ ق.م. فقال يوليوس قيصر قوله الخالد: "أتيت ورأيت وغلبت" "Veni Cici Vici".^(٢)

عاد يوليوس قيصر إلى روما، وأعاد الثقة والطمأنينة إلى بعض صفوف الجيش. ثم انصرف نحو إفريقية لمقاتلة سقييو وجيشه من أجل إخضاعه. فهزمه بضربة قاضية عند تابسوس، وعاد بعد أربعة أشهر إلى إيطاليا، وفي السنة ٤٥ ق.م. غادر إلى إسبانيا لمحاربة من تبقى من أتباع بومبي ولابيانوس فانتصر عليهم في موندا.

استمرت هذه الحرب من السنة ٤٩ إلى ٤٥ ق.م. وكان مسرحها جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وقد خرج منها يوليوس قيصر ظافراً، وحين عاد إلى روما في السنة ٤٨ ق.م. حذا حذو سوللا واستصدر البرايكتور لبيدوس قانوناً بإقامته دكتاتوراً. لكنه لم يشغل هذا المنصب إلا أحد عشر يوماً، ثم تخلى عنه وأجرى الانتخابات وفاز بالقنصلية للمرة الثانية لعام ٤٨ ق.م. ثم عين حكاماً للولايات الرومانية الموالية له.

عندما وصل أنطونيوس إلى روما على رأس الفرق التي قرر قيصر إعادتها إلى إيطاليا، حاملاً معه رغبة يوليوس قيصر بتعيينه دكتاتوراً للمرة الثانية لمدة سنة من أول تشرين الأول عام ٤٨ ق.م، وانتخب بنهايتها قنصلاً للمرة الثالثة عام ٤٦ ق.م. ثم جعل دكتاتوراً لمدة عشر سنوات في السنة ٤٦ ق.م. وناظر السلوك والأخلاق، كما

^(١) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، ص ٦١.

^(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٣١.

انتخب قنصلاً للمرة الرابعة بنهاية عام ٤٦ ق.م. لقنصلية عام ٤٥-٤٤ ق.م. بعدها أصبح تريبوناً لا تخرق حرمة ولبس الأثواب الأرجوانية، كما أقيمت له التماثيل، وشيد هيكل يعبر عنه، وظهرت صورته على المسكوكات عام ٤٥-٤٤ ق.م. لكنه لم يؤله بعد وفاته. ورفض لقب ملك عندما قدم له في السنة ٤٤ ق.م. فعين دكتاتوراً مدى الحياة في منتصف شباط من هذه السنة .

ب- إصلاحات قيصر:

كان قيصر رجلاً من الطراز الأول أتاحت له الفرصة ليعث الحياة في الجمهورية الرومانية من جديد بعدما تسرب الضعف إلى جسمها، فشرع في إصلاحاته التي أنجز بعضها ووضع خططاً لإصلاحات أخرى عظيمة الشأن. ورغم أن إقامته في روما لم تزد على ١٦ شهراً استخدم هذا السلطان المطلق لتنفيذ سياسته الجديدة التي ظهرت في سلسلة من التشريعات الثورية. من ذلك أنه سمح باستمرار الجمعيات التشريعية ولكنه منحها سلطة محدودة وجعل السناتوس مجرد هيئة استشارية، و قد زاد عدد أعضائه من ٦٠٠ إلى ٩٠٠ مضيفاً أفراداً من طبقة الفرسان ومن جنوده القداماء، من ولاية غالية، وكان هدفه من ذلك هو أن يجعل السناتوس. بمرور الزمن ممثلاً لكل الإمبراطورية. ومن جهة أخرى، اهتم كثيراً بنظام حكم الولايات وعمل على إصلاحه، فقرر إلغاء نظام الالتزام في جمع الضرائب، وفرض بدلاً منه ضريبة سنوية حتى يمنع الرأسماليين من استغلال الولايات. وأتبع ذلك بتعيين حكام وموظفين أكفاء في الولايات، وشدد عليهم الرقابة، كما زود الجهاز الإداري في الولايات بعدد من عبيده المحررين مما يضمن نفاذ إرادته بدقة.

كما توسع في منح المواطنة الرومانية للولايات وخاصة إلى إسبانيا والغالية، ومنح المواطنة اللاتينية لكثير من المدن في الولايات، وكان يهدف إلى تعميم المواطنة الرومانية بين سكان الإمبراطورية الأمر الذي لم يتحقق إلا بعد ٢٥٠ سنة .

كما أنشأ عدداً من المستعمرات الجديدة في البحر الأسود، وفي موقع كورنثة قرطاجة وإسبانيا.

ومن أخلد أعمال قيصر هو تغيير التقويم الروماني الذي كان يقوم على السنة القمرية ٣٥٥ يوماً، واستبداله بالتقويم المصري الذي يقوم على السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً على أن يضاف إليها يوم كل أربع سنوات، كما جعل السنة تبدأ في كانون الثاني بدلاً من آذار، وأطلق اسمه على الشهر الذي ولد فيه وهو شهر تموز، وهذا الإصلاح لا يزال باقياً إلى الآن، بعد أن أضيف عليه تعديل البابا غريغوري الكبير سنة ١٥٨٢م.

إلى جانب هذا اتخذ عدة خطوات نحو تجميل روما، فجمّل لها أسواقها الفسيحة، وأنشأ أول مكتبة عامة في روما، وشيّد فيها بعض المعابد كما وسّع ميناء أوستيا وميناء روما. وبدأ بتجفيف المستنقعات وبناء الطرق، وما إلى ذلك من إصلاحات^(١).

ت-مصرع يوليوس قيصر:

لم ينتقم يوليوس قيصر من أعدائه، ولم يقتل أحداً لمجرد عداوته له، بل عامل الجميع بالرفق واللين، وحقن دم عدوه اللدود الخطيب شيشرون، فحاز بذلك رضى الطبقة الأرستقراطية، لكن سلطته الواسعة والمطلقة، وسيطرته في الانتخابات والتعيينات وعظمة ألقابه النادرة أثارت المخاوف، وأقضت بعض أعضاء حزبه^(٢).

^(١) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، ص ٦٥-٦٧.

^(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٣١.

إضافة إلى أن عدداً من الأشراف ظلّ ينقم على مجد قيصر، ويتطلع إلى استعادة السلطة القديمة، لاسيما أن سياسته اتخذت ذلك المظهر الدكتاتوري الذي لم يسمح بقيام أي شخص آخر غيره في الدولة، وبدأت المؤامرات تحاك ضده، إذ قام ستون عضواً من السناتوس بالتآمر عليه عام ٤٤ ق.م، حين كان يستعد لقيادة حملة ضد البارثيين، ولما دخل مجلس السناتوس في ١٥ آذار التف حوله المتآمرون عند تمثال بومبي وطعنوه حتى الموت. ورغم أن المتآمرين قد اغتالوا قيصر لإنقاذ الجمهورية، لم تعد الجمهورية أبداً إلى روما بعد ذلك، بينما بقي اسم قيصر خالداً، بل أصبح لقباً يتوارثونه الأباطرة من بعده في روما^(١).

لقد وصف مقتل قيصر على أنه أعظم خطأ في التاريخ بحق لأنه لم يأت بشيء سوى إزاحة أعظم روماني عن المسرح، وبعد ثلاثة عشر عاماً من الحرب الأهلية أعاد وريثه تكوين الإمبراطورية كما سنرى.

وجدير بالذكر أن اغتيال يوليوس قيصر لم يعط للنظام الجمهوري مجالاً لإثبات وجوده لأنه كان مجرد امتداد زمني شهد مزيداً من الصراع على السلطة بين القادة الطامحين، فقد أعقب اغتيال قيصر فترة من الفوضى السياسية والعسكرية وظهرت فيها شخصية اثنتين من القادة هما: أنطونيوس الذي كان الساعد الأيمن ليوليوس قيصر وأوكتافيوس الذي كان ابناً بالتبني لقيصر نفسه^(٢).

(١) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، ص ٦٨.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٣٣.

٣- الحرب الأهلية الثالثة (الصراع بين أنطونيوس وأوكتافيوس):

• أنطونيوس:

بعد مقتل يوليوس قيصر فرّ أعضاء مجلس الشيوخ مذعورين. وتحصّن القنصل أنطونيوس في بيته بينما عبر لبيدوس كبير فرسان قيصر نهر التيبر، أما القتلة الفائزون فقد انطلقوا وحدهم من قاعة المجلس، منادين بالحرية، حيث اضطروا إلى اللجوء إلى الكابيتول بضغط من الشعب عندما انتشرت الأخبار. وبات زعماء السياسة يترقبون إعلان هؤلاء عن مواقفهم. وجرت الاتصالات بعد يومين بين أنطونيوس والقتلة، كما التأم مجلس الشيوخ في هيكل تيلوس بالقرب من بيت أنطونيوس، إذ طالب تيريوس تيرون بمكافأة القتلة الذين أنقذوا روما من يد المعتصب المستبد، في حين طالب غيره بإلقاء جثته في نهر التيبر.

وذكر أنطونيوس أن إلغاء أحكام يوليوس قيصر سيؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، وإلى تنازل كثير من أعضاء مجلس الشيوخ عن مقاعدهم فيه، بينما نصح شيشرون بالاعتدال شأنه شأن الكثير من الأعضاء. وامتنع الشيوخ عن محاكمة القتلة، واعترفوا في الوقت نفسه بأحكام قيصر، وأوجبوا تنفيذ وصيته والاحتفال بدفن جثمانه احتفالاً رسمياً، وبعد الاحتفال دعا أتباع قيصر القتلة إلى عشاء مشترك.

ولما تليت الوصية في بيت أنطونيوس، وتبين منها أن يوليوس قيصر كان قد تبني أوكتافيوس وأوصى له بما عنده، واكتفى بذكر أنطونيوس بين الورثة الثانويين، انفصمت عرى آماله وتقوضت حصونها، ولكنه رأى الظرف مناسباً والفرصة سانحة لتسلم المراتب العالية، فاندفع يستغل الحوادث لصالحه، وصالح القتلة، وأخذ يتقرب ويتودد إلى أتباع قيصر، وأقنع مجلس الشيوخ بأن يحافظ على النظم الجمهورية والتقاليد، وسعى إلى تكوين جيش يقاتل تحت إمرته عند الضرورة، وذلك بتسلم مقاليد الحكم في إحدى الولايات القريبة من إيطاليا.

وما إن علم الشعب بوصية يوليوس قيصر حتى هاج وطالب بإعدام القتلة عند الاحتفال بجنائزته في العشرين من آذار، وبعد تلاوة القرارات المتعلقة باحترامه وإكرامه، وتم عرض رداءه الملوث بالدم، الأمر الذي اضطر بروتوس وكاسيوس إلى الهرب خارج المدينة، ولم يعارض دولابلا القيصري وصول أنطونيوس إلى **القنصلية**، ولا وصول لبيدوس القيصري إلى رتبة **الحبر الأعظم**. بل استرضى مجلس الشيوخ لاتخاذ قرار يقضي بإلغاء الدكتاتورية، وأظهر المجلس الرضى بمنح أنطونيوس حكومة مقدونية ودولابلا ولاية سورية، لكن أنطونيوس لم يكتف بهذا القدر من السلطة، فلجأ إلى استمالة الجنود الذين كانوا يحاربون مع يوليوس قيصر، وأغواهم بتوزيع الأراضي عليهم، ومنح الصقليين حقوق المواطن الروماني، وأعطى ديوتاروس أرمينية الصغرى، وأدخل أنصاره في مقاعد مجلس الشيوخ، وغض النظر عن عودة كليوباترا وابنها الصغير إلى مصر، فارتاب الشيوخ الأرستقراطيون في أمره. وقال شيشرون: **"إن الدكتاتورية لا تزال حية على الرغم من وفاة الدكتاتور"**. وشاع خبر وصول أوكتافيوس إلى روما في أيار، فأسرع أنطونيوس بالرجوع إليها^(١).

• أوكتافيوس:

هو غايوس أوكتافيوس "Gaius Octavius" ابن آتيا "Julia" أخت يوليوس قيصر، وابن غايوس أوكتافيوس الذي تحدر من أسرة وليترو النبيلة. ولدى الاطلاع على نص وصية خاله الكبير يوليوس قيصر، اتخذ أوكتافيوس لنفسه اسم: **غايوس يوليوس قيصر**، أو **أوكتافيوس**. فعرف بهذا الاسم حتى السنة ٢٧ ق.م. ثم اشتهر بعد ذلك باللقب أوغسطس "Augustus".

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٣٥-٢٣٦.

ولد أوغسطس في الثالث والعشرين من أيلول عام ٦٣ ق.م. وتوفي والده وهو لا يزال في الرابعة من عمره، ورغم أن والدته تزوجت **مارفيوس فيليوس**، عنت عناية فائقة بولديها: أوكتافيوس وأوكتافيا وربتهما تربية صالحة، واهتمت بتعليمهما أيضاً، فقد نال أوكتافيوس قسطاً وافراً من العلوم على يد أشهر الأساتذة حينذاك وهما: **كابولو ذوروس البرجامي وأريوس الإسكندري**.

وأرسله خاله، الذي أحبه وشمله بعطفه إلى أبولونيا في خريف عام ٤٥ ق.م. ليكمل علومه، ويختبر الحياة العسكرية مع الضباط والجنود الذين كانوا يتدربون فيها. ولكن أوكتافيوس تلقى في أواخر آذار عام ٤٤ ق.م. وهو في أبولونيا رسالة من والدته تنبئه فيها بمقتل خاله يوليوس قيصر. فأسرع بالعودة إلى روما، وأكد له الضباط وبعض الرفاق استعدادهم للزحف معه، ولدى وصوله إلى روما عن طريق برنديزي أعلن اسمه الجديد كما ذكرنا "**غايوس يوليوس قيصر أوكتافيوس**" وطالب بصفته ابن يوليوس قيصر، ووريثه بالإرث المتروك. وكان لا بدّ من موافقة مجلس الأحياء أو العشائر على الاسم الجديد قبل اتخاذه رسمياً. فعرقل أنطونيوس هذا السعي مدة من الزمن، ولكن أوكتافيوس لم ينتظر صدور الموافقة ومضى يتكلم ويطالب كأنه الوريث الوحيد، ولم يكتفِ أنطونيوس بادئ ذي بدء لمقاومة أوكتافيوس، واستخف به لصغر سنه وقلة خبرته. فكان يشير إليه بلفظ "**الولد**" ولم يعلم أنه كان يحمل رأس شيخ حنكته السنون.

وفي نفس الوقت خرج أنطونيوس من روما ليلاقي الجيش القادم من مقدونيا، قام أوكتافيوس إلى كمانيا ليستميل جنود قيصر الأبطال المحربين، فالتفوا حوله، وانضم إليهم نصف الجنود القادمين من مقدونيا، وهكذا وجد أنطونيوس نفسه قبل انتهاء

السنة ٤٤ ق.م، بين عدوين هما ديقيموس بروتوس في الشمال^(١)، وأوكتافيوس في الجنوب، فقرر أن يهاجم بروتوس أولاً، وانطلق إلى وادي البو على رأس ما تجمع لديه من جنود، وخشي بروتوس أن ينتصر عليه جنود أنطونيوس فعسكر في مودينا، فاضطر أنطونيوس أن يحاصرها، وانتهت السنة ٤٤ ق.م. إبان الحصار، وتم انتخاب القناصل الجدد، فنجح كل من هورتوس "Hurtius" وبنسا "Pansa" اللذين رشحهما قيصر قبل مقتله.

وقد أخافت مطامع أنطونيوس مجلس الشيوخ الذي تردد في اختيار من يساعد بروتوس. ولم يجد لدى القنصلين الجديدين من القوة العسكرية ما يكفي لمواجهة أنطونيوس، وعندئذ اضطر لقبول مساعدة أوكتافيوس، بالرغم من كرههم قبول مساعدة رجل يحمل اسم يوليوس قيصر، الذي انتصر شيشرون له داخل المجلس واكتسح الموقف المؤيد له، وهكذا أعطى مجلس الشيوخ السلطة "Imperium" لأوكتافيوس وخوله حق التجيش والتعاون مع القنصلين لرفع الحصار عن مودينا وسار الجميع إلى الشمال، ونشبت موقعة حاسمة عند الفوروم غالورم "Forum Gallorum" أدت إلى انسحاب أنطونيوس من ميدان القتال في إيطاليا وانسحابه باتجاه غالية نفسها لاستمالة لبيدوس وجيوشه.

عاش مجلس الشيوخ نشوة الفرح، ولم يتمكن أعضاؤه من ضبط أنفسهم، فاعتبروا أنطونيوس وجنوده مجرمين لا يؤاخذ أحد على قتلهم، بينما وقفوا من جنود أوكتافيوس وضباطه موقف الحذر، وكان القنصلان هورتوس وبنسا قد توفيا في الميدان. لذا أسند الشيوخ قيادة جيشهما إلى بروتوس، فتمرد هؤلاء الجنود والتحقوا بجيش أوكتافيوس، وطالب جنود أوكتافيوس بإشراكه في لجنة التحقيق بأعمال أنطونيوس، وانتخابه قنصلاً حتى آخر السنة، فرد مجلس الشيوخ بأن أوكتافيوس لا

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٩، ص ٤٠٥-٤١٠.

يستوفي كامل الشروط، مما أدى إلى زحف الأخير على رأس جيشه إلى روما، وهنا استفاق الشيوخ من ذهولهم وأدركوا سوء العاقبة، وفاوضوا على أساس مطالب الجنود، ثم ترددوا في ذلك إثر وصول الجنود من إفريقيا، ولكن إعلان هؤلاء انضمامهم أيضاً إلى صفوف أوكتافيوس، جعل الشيوخ يوافقون على انتخابه قنصلاً، وكذلك انتخاب بديوس "Pedius" أحد أنسبائه في آب سنة ٤٢ ق.م. ثم اتخذ مجلس العشائر قراراً اعترف بموجبه ببنوة أوكتافيوس ليوليوس قيصر، ولم يلبث القنصل الجديد طويلاً في روما، بعد أن أصدر مجلس الشيوخ قانوناً يوجب إنزال العقاب بقتلة يوليوس قيصر، واتجه صوب الشمال لينهي قضية أنطونيوس^(١).

• حكم الثلاثة:

تمكن أنطونيوس من التفاهم مع لبيدوس قائد الجيش في إسبانيا، وبلانكوس قائد القوات في غالية. فأصبح بذلك سيد الموقف في الغرب، واستمال الجنود الذين كانوا لا يزالون تحت إمرة بربرونتس الذي فرّ هارباً. لكن أمير غالية ألقى القبض عليه بإشارة من أنطونيوس وقتله، فقرر أنطونيوس آنذاك القضاء على بروتوس لكونه زعيم المؤامرة على حياة يوليوس قيصر، مع لونجينوس كاسيوس الذي كان شريكه فيها، وقد أصبحا سيدي الموقف في الشرق، ومن أجل الوصول إلى غايته تلك تودد إلى أوكتافيوس الذي وجد أن مصلحته تقضي بالتفاهم مع أنطونيوس لا باللجوء إلى العنف. فلما زحف أوكتافيوس على رأس جيشه من روما إلى الشمال التقى أنطونيوس ولبيدوس في بونونيا في وادي البو، ففاوضهما واتفق معها على إنشاء حكومة ثلاثية

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٣٦-٢٣٧.

تنظم أمور الجمهورية وتضبطها، واعترف بالواقع وأقر القانون التيتيا "Lex Titia" في السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٤٣ ق.م. وبذلك أنهى النظام الجمهوري.



ثانياً- قيام الإمبراطورية الرومانية:

١. تطهير إيطاليا:

بعد الاتفاق على الحكم الثلاثي بين أنطونيوس وأوكتافيوس وليبيدوس عقد الثلاثة أول اجتماع لهم اتفقوا فيه ضرورة اتباع سياسة القسوة والعنف التي اتبعها سوللا بدلاً من سياسة اللين والحلم التي سار عليها يوليوس قيصر، والتي أدت في النهاية إلى اغتياله. وإلى إمكانية اللجوء إلى المصادرة لسد العجز الطارئ على الخزينة، ولكنهم لم يتفقوا في اجتماعهم ذلك على أسماء الأشخاص الذين سيتم إعدامهم، أو إبعادهم، أو مصادرة أملاكهم، سواء أوافق الآخرون أم لم يوافقا، فاضطر أوكتافيوس أن يضحى بشيشرون ليرضى أنطونيوس، الذي لم ينس تهجم الخطيب عليه بفيليباته (خطاباته).

وهكذا أوعز الثلاثة إلى القنصل الثاني بادايوس "Pedius" الذي كان لا يزال في روما بالقبض على كبار الرجال الذين تقرر إعدامهم وتنفيذ الحكم فيهم حالاً وسريعاً^(١).

وبعد أن تم ذلك انطلق الثلاثة على رأس أفضل ما لديهم من الجند إلى روما، ولدى وصولهم إليها لم يجدوا من أعضاء مجلس الشيوخ فيها أية مقاومة لمشروعهم المفاجئ. فاتخذ حكمهم الثلاثي شكلاً قانونياً بإصدار قانون التيتيا الذي حوّل الثلاثة صلاحيات واسعة لإعادة النظر في نظام الجمهورية لمدة خمس سنوات.

وفور صدور هذا القانون أعلن الثلاثة، أسماء جميع من شملهم التطهير. وأكدوا أن مصلحة الدولة قضت بتطهير روما من عناصر الفساد قبل الشروع بملاحقة قتلة قيصر في بلاد بعيدة، وبالرغم من أن شيشرون هرب عائلتة عبر الأدرياتيك، فقد فضل الموت مع الجمهورية التي أحبها ودافع عنها على النجاة والالتحاق بعائلته، ولقي حتفه بقطع

(١) أسد رستم: أوغسطس قيصر وخلفائه، ج ١، ص ٩٦.

رأسه في السابع من كانون أول سنة ٤٣ ق.م، وحمل إلى روما فوضعه أنطونيوس على الدكة نفسها التي كان شيشرون يقف عليها، وجاءت فولفيا "Fulvia" امرأة أنطونيوس وزوجة كلوديوس بوبليوس سابقاً، وشكت مثقباتاً في اللسان الذي هجا زوجها الأول والثاني بفصاحته النادرة.

وما كاد الثلاثة يتفاهمون ويتسلطون في الغرب حتى اتجهوا بأنظارهم شطر الشرق لتعقب القتلة والتخلص منهم. فبقي لبيدوس في روما يدير شؤونها. وسافر أنطونيوس وأوكتافيوس على رأس قواتهما، فعبرا الأدرياتيك ونزلا في بلاد اليونان؛ وكان بروتوس وكاسيوس من جهة ثانية قد وصلا بقواتهما إلى فيليبي "Philippi" في شرق مقدونيا، عند شاطئ إيجيه، لملاقاة القائدين، وانتقيا ميدان القتال خارجها، في موقع تفصله عن البحر مستنقعات واسعة، فلما أطل أنطونيوس وأوكتافيوس في أوائل تشرين الأول سنة ٤٣ ق.م. على فيليبي، ودرسا ميدان القتال، وشرع أنطونيوس في إنشاء طريق عبر المستنقعات يهدد بها مؤخرة كاسيوس، ثم انقض على معسكر كاسيوس وأعمل السيف في رقاب رجاله حتى اضطره إلى الانتحار، بينما تمكن بروتوس من الصمود أمام معسكر أوكتافيوس مدة عشرين يوماً، وكاد ينجح في الانتصار عليه في بادئ الأمر. لكنه أسرع في النهاية إلى الانتحار عندما علم بانتحار زميله، وذلك في الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ٤٣ ق.م. فأصبح الثلاثة أسياد الموقف في عالم البحر الأبيض المتوسط^(١).

٢. أوكتافيوس والغرب:

اتفق القائدان الكبيران أنطونيوس وأوكتافيوس بعد معركة فيليبي على اقتسام ممتلكات الدولة الرومانية، على أن يتجه الأول إلى الشرق لضبط أموره وفرض السلطة

^(١) المرجع نفسه، ص ٢٣٨-٢٤٠.

فيه واستعادة هيبة روما، وأن يعود الثاني إلى إيطاليا ويتدبر شؤونها ويدبر الأموال اللازمة لإرضاء الجنود، فما كاد يصل إلى إيطاليا، ويبدأ في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه مع أنطونيوس حتى جوبه بمشاكل متعددة أهمها رغبة الجنود بمصادرة الأموال في المدن، بينما احتج سكانها على ذلك ورأوا فيه إجحافاً، وتدخلت فولوفيا زوجة أنطونيوس في هذا الأمر، واتفقت مع سلفها لوكيوس أنطونيوس شقيق زوجها القنصل آنذ على حماية المدن وترغم معارضتها، الأمر الذي نتج عنه نزاع بين لوكيوس وزوجة أخيه أنطونيوس من جهة وأوكتافيوس من جهة ثانية في بيروسيا "Perusia" واستسلم لوكيوس بعد فترة من الزمن، لذا لم يعاقبه أوكتافيوس ويحرمه إدارة غالية بعد أن توفي واليها، فأصبح لوكيوس سيد إيطاليا وغالية وإسبانية. أما إفريقية فكانت لا تزال بيد لبيدوس أحد أعضاء حكم الثلاثة.

٣. أنطونيوس والشرق:

توجه أنطونيوس إلى الشرق، فأحبه الأثينيون، واستقبله أهل أفسس استقبال الأبطال الآلهة، إذ رأوا فيه ذيونيوساً جديداً واهباً للفرح والنعمة، والتف حوله الأمراء المحليون الشرقيون، طالبين للرضى مقدمين للهدايا.

استقر أنطونيوس بعد ذلك في مدينة طرسوس من أعمال كيليكيا. فاستدعى في السنة ٤١ ق.م. كليوباترا إليها ليناقشها ويحاسبها حول موقفها من الحرب الأهلية، فلبت الدعوة بعد ماطلة ونزلت في طرسوس، ولما دعاها أنطونيوس إلى تناول الطعام معه، أبت وأصرت أن يكون هو ضيفها في السفينة التي أقلتها، فلبى الدعوة، وذهل بما رأى من ألوان الطعام والآنية. واندesh للعظمة التي تعيشها خاصة حين قالت: هي لك هدية صغيرة، فأمر بإخراج أرسنوة منافسة كليوباترا من هيكل أرتميس في أفسس، وبقتلها، وقضى. يمثل هذا على كل من بطليموس الثالث عشر الكاذب، الذي ادعى أنه

ابن كليوباترا الحقيقي وعلى سيراينون الذي كان قد التحق بكاسيوس على رأس الأسطول المصري، ثم عادت كليوباترا إلى مصر خريف السنة ٤١ ق.م، تاركة في طرسوس قائداً كاد قلبه يطير وراءها.

وواجه أنطونيوس مشاكل الشرق الإدارية والسياسية الملحة. فثبت بطليموس خلقيس في إمارة البقاع والغوطة^(١)، وأبقى السلطة في حمص ونواحيها بيد يميلغوس، وطرد غيرهما من الأمراء المحليين، كما جعل خيرودوس وأخاه، ابني أنتيباتر صديق يوليوس قيصر ونصيره، على فلسطين، وعين ديكيدوس سكسا "Docidius Sexa" والياً على سورية، وأغار على تدمر لابتزاز المال وأثقل كاهل السكان بضرائب جديدة، فثارت أرواد في وجهه ثم تابع سيره إلى مصر لتمضية شتاء السنة ٤٠/٤١ ق.م. فيها.

٤. الحكم الثلاثي يصبح ثنائياً:

لما علم أنطونيوس بما يجري في إيطاليا، وهو لا يزال في مصر، ولاسيما حوادث الحرب البروسية، انتقل من الإسكندرية إلى صور، فأصدر منها التعليمات اللازمة لدرء الخطر القادم من بعض الجيوب الشرقية السلوقية. ثم تابع إلى قبرص ورودوس فأثينا حيث التقى زوجته فولوفيا، التي روت له ما جرى، وكيف أن نجمه بدأ بالأفول في إيطاليا وغالية، فأسرع في سيره وحاول النزول في برنديزي، وهناك منعه قائد حاميتها من النزول، فنزل في ضواحيها، ووصل إليها أوكتافيوس بعد فترة قصيرة، وعسكر الطرفان استعداداً للقتال، لكن مجيء خبر وفاة فولوفيا زوجة أنطونيوس من أثينا، فضلاً عن رفض الجنود للقتال بتحريض من الإيطاليين والرومانيين آخر القتال بين القائدين، فوقّع الطرفان اتفاقاً في برنديزي خريف السنة ٤٠ ق.م، قضى بتقسيم

(١) أسد رستم: أوغسطس قيصر وخلفائه، ج ١، ص ٧٠.

المتوسط وحوضه إلى قسمين رئيسيين: غربي وشرقي يفصل بينهما خط يمر بمدينة إشقودرة في ألبانيا من الشمال إلى الجنوب، فتولى الشرق أنطونيوس، وتسلمت على الغرب أوكتافيوس، وظلت إفريقيا بيد لبيدوس، على أن تبقى إيطاليا مباحة للقائدين الكبيرين يجندان فيها من يريدان وتوثقت أواصر القرى بين القائدين الكبيرين، عندما حلت أوكتافيا أخت أوكتافيوس محل فولوفيا زوجة أنطونيوس التي توفيت، وهتفت الجيوش للزوجين وللكبيرين وقام الاثنان إلى روما فقابل أهلها خبر الاتفاق بالارتياح. ولم يضع اتفاق برنديزي حداً للمشكلات التي واجهت أنطونيوس وأوكتافيوس، بل ظهرت مشكلة جديدة أمامهما، وهي تعذر وصول الحبوب إلى العاصمة مما أدى إلى ارتفاع أسعارها، وهدد الجوع الجماهير الذين ألحوا بوجوب تسوية الأمور والوصول إلى تفاهم مع سكتوس بومباي^(١)، فأراد القائدان الكبيران مهاجمته بحملة كبيرة لكن الشعب لم يرض أن يتحمل نفقاتها، فعادوا إلى المفاوضة مع سكتوس الذي طلب أن يكون الطرف الثالث في الحكم بدلاً من لبيدوس، ثم عدل طلبه وقبل بحكم صقلية وسردينيا، على أن يرشح إلى القنصلية في المستقبل القريب. ووقع الطرفان المتفاوضان في العام ٣٩ ق.م. اتفاق مسيناً، ومن شروطه ما يلي :

- أن يبقى سكتوس على حكم صقلية وسردينيا.
- أن يسهل تموين روما بالحبوب اللازمة.
- أن يحصل جنود سكتوس من التعويض مثلما حصل عليه جنود الحاكمين الثلاثة.
- أن ينتخب سكتوس قنصلاً في القريب العاجل.

^(١) هو الابن الأصغر لبومبي، استغل مقتل يوليوس قيصر ودخول روما في حربها الأهلية، فثبت أقدامه في إسبانيا وصار صاحب جيش وأسطول فيها إلى أن جاء حكم الثلاثة سنة ٤٣ ق.م فورده اسمه ضمن لائحة المحكومين بالإعدام، فعاد إلى الأسطول والقرصنة واحتل صقلية وجعلها قاعدة له.

- أن يتم إعتاق الأرقاء الذين التجؤوا إلى سكتوس.
- أن يصدر عفو عن جميع الذين لجؤوا إليه أثناء الحرب الأهلية ما عدا الذين اشتركوا في التآمر على قتل يوليوس قيصر، وأن يعاد إلى اللاجئين ربع أموالهم المصادرة.

وقبيل انتهاء مدة حكم الثلاثة، عاد أنطونيوس من الشرق إلى إيطاليا، وكان قد ذهب إلى الشرق إثر اتفاق مسينا، وذلك ليضمن تمديد هذا الحكم، وليعجل إرسال الإمدادات إليه وليتمكن من تثبيت دعائم حكمه وإعادة النظام إليه، وفأوض أوكتافيوس على ما يقدمه له مقابل التخلي عن سكتوس، وأبرم اتفاقاً جديداً في برنديزي سنة ٣٧ ق.م. كان من شروطه:

- يتخلى أنطونيوس عن تأييده لسكتوس.
- يتعهد بتقديم معونة بحرية إلى أوكتافيوس.
- يجند عشرين ألف روماني، ويرسلون إلى الشرق.

ثم قام القائدان الكبيران إلى روما، فجددا حكم الثلاثة، ومدداه خمس سنوات أخرى، ثم عاد أنطونيوس إلى الشرق، وانصرف أغريبا "Agrippa" ساعد أوكتافيوس الأيمن في السنتين ٣٨-٣٦ ق.م. إلى إنشاء أسطول نزل به على شاطئ صقلية الشمالي، كما اتجه توروس "Taurus" من جهة ثانية مع مئة وعشرين سفينة إلى شاطئ الجزيرة الشرقي، وعبر لبيدوس البحر من إفريقيا مهدداً الشاطئ الغربي. فتمكن الثلاثة من تحطيم أسطول سكتوس الذي فرّ إلى آسيا الصغرى حيث لقي حتفه على يد تيتيوس "Titius" أحد قواد أنطونيوس سنة ٣٥ ق.م. فاحتل لبيدوس صقلية وخضعت سردينيا وكورسيكا إلى أوكتافيوس.

ثم عمل أوكتافيوس على استمالة جنود لبيدوس، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً، فصل لبيدوس على أثره نهائياً من الحكم الثلاثي سنة ٣٦ ق.م. كما أرغم على الإقامة في

إيطاليا إقامةً جبرية، فأُمسى الحكم الثلاثي ثنائياً وبات الفصل بين سيد الغرب، وسيد الشرق واقعاً لا محالة لأنهم كانوا قد حددوا حكم الثلاثة خمس سنوات أخرى في السنة ٣٧ ق.م. وذلك بعد اتفاق تارنتوم "Tarentum".

وفي هذه السنة نفسها ذهب أنطونيوس إلى إنطاكية، وأرسل يستدعي كليوباترا إليها لتمضية الشتاء هناك معها، فجاءت إليها في شتاء السنة ٣٦/٣٧ ق.م. وشاركت مشاركة سياسية وجرامية في آن معاً، بالنصر على ألبرت السلوقي. إذ توج أنطونيوس غرامه بالزواج من كليوباترا في السنة ٣٧ ق.م، لكن هذا الزواج قد سبب له متاعب كثيرة منها أن:

- القانون الروماني قضى بزوجة واحدة وكانت أوكتايفيا لا تزال زوجة أنطونيوس الشرعية.
- حرّم القانون والعرف زواج الروماني من أجنبية، ولم تكن كليوباترا مواطنة رومانية.
- أسبغ هذا الزواج من كليوباترا على أنطونيوس صفة ملكية لم يرض الرومان عنها.
- اضطره هذا الزواج أيضاً إلى توسيع رقعة ملك البطالمة على حساب روما، إذ أدخل في السنة ٣٧ ق.م. كبرونا وإمارة خلقيس البقاعية، والشاطئ الفينيقي حتى النهر الكبير تحت حكم البطالمة.
- خسرت كيليكية أحواض السفن المصرية وجزءاً من جزيرة كريت.
- اعترف أنطونيوس ببنوة التوعمين اللذين ولدا له من كليوباترا في السنة ٤٠ ق.م. بعد خروجه من مصر سابقاً، وبولد ثالث أبصر النور في السنة ٣٦ ق.م. ووافق على تسمية التوعمين: إلكسندروس وكليوباترا تيمناً، وعلى إطلاق اسم بطليموس فيلادلفيوس على الولد الثالث.

وبعد أن انتصر أنطونيوس على ملك أرمينيا في السنة ٣٤ ق.م، أحب أن يحتفل بالنصر، فخالف العرف الروماني، واحتفل بفوزه في الإسكندرية لا في روما، ووزع المنح لهذه المناسبة، فأعلن كليوباترا ملكة الملوك واعترف بشرعية ابنها من قيصر الذي دُعي قيصرون "Caesariun" وأشركه في الحكم معها، وجعل بطليموس ابنه منها ملكاً على سورية وكيليكية. وكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني بهذا كله، وطلب الاعتراف بقانونية عمله، لكن المجلس سكت عن رسالة أنطونيوس، ولم يعلن مضمونها، ولم يوافق عليها، ولم يرَ الشيوخ في الوقت نفسه الخطر الكامن في إجراءات أنطونيوس الذي رآه أوكتافيوس^(١).

٥. قيام الحكم الإمبراطوري:

وفي هذه الفترة نفسها، تمكن أوكتافيوس من تحقيق انتصارين، الأول: عندما تمت له السيطرة على صقلية، والقضاء على سكتوس بومبي، والثاني عندما نجح أيضاً في عزل لبيدوس، وفرض سلطته على إفريقيا.

فأبعد بهذين الانتصارين شبح المجاعة عن روما، وأعاد إلى مزارعها أكثر من ثلاثين ألف رقيق، فاستحق شكر مجلس الشيوخ، وأقيم له تمثال ذهبي في الفوروم يحمل على قاعدته العبارة التالية: "بعد اضطراب دام طويلاً أعاد السلم في البر والبحر"، وظهر هذا التمثال على النقود، وأضيفت عبارة "الإمبراطور قيصر"، وخطب أوكتافيوس في الناس، وأكد حلول النظام والأمن، وأشار إلى انتهاء الاستبداد، وألغى عدداً من القوانين الاستثنائية التي كانت قد سنت في أثناء الحرب الأهلية، وأضاف أنه سيكون مستعداً للتنازل عن السلطة الاستثنائية التي مارسها بصفته أحد الثلاثة إذا قبل

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٤١-٢٤٤.

أنطونيوس بذلك وعمل به. فقابل الشعب هذه التصريحات بارتياح عظيم، ومنحه مجلس الشيوخ حق الجلوس مع الترابنة، واعتبر شخصه مقدساً لا تحرق حرمة، وأعلن أوكتافيوس في السنة ٣٦ ق.م. عزمه بناء هيكل لأبولون "Apolon" إله بيته وحاميّه، وإله النظام والانضباط.

وجعل أوكتافيوس الرومانيين، في السنة ٣٥ ق.م. يقارنون بين ارتقاء أنطونيوس في حزن خليلية شرقية وبين نفوره من سيدة رومانية شريفة هي زوجته الشرعية. فأوكتافيوس رأى أن الحكمة السياسية تقتضي بأن تتولى شقيقته أوكتافيا زوجة أنطونيوس الشرعية تسليم المعونة المادية والعسكرية التي قرر أوكتافيوس إرسالها إلى أنطونيوس في الشرق، ولما رفض أنطونيوس مقابلة زوجته الشرعية، وأثر رفقة خليلته على التعايش مع زوجته، اقترح أوكتافيوس منح أوكتافيا شقيقته وليفيا زوجته شرف التساوي مع عذارى ويستة آلهة الموقد العائلي الروماني، فاعتبرتا مقدستين لا تحرق حريتهما، كما اعتبرتا حرتين غير خاضعتين لأية رقابة ومنحتا حق إقامة صور لهما، فأسمى توفير أوكتافيا وتفخيمها تحقيراً واستصغاراً لزوجها أنطونيوس الذي امتنع عن استقبالهما^(١).

ثم بدأت الحرب الكلامية بين القائدين الكبيرين، يهجو بعضهما بعضاً بالسنة سليطة تتفوه بأقبح العبارات ويلصق بعضهما ببعض التهم جاعلين حركهما هذه دفاعية في سبيل المحافظة على كيانهما، وواكب مجلس الشيوخ هذه الأمور كلها ولم يغفلها طرفة عين. ولكن أعضاء المجلس كانوا واقعيين يعملون بما تمليه عليهم تطورات القوة التنفيذية المتسلطة، وروابط الحسب والنسب، ودوافع المصلحة الشخصية، ثم جرت الانتخابات القنصلية لسنة ٣٢ ق.م. فوصل اثنان من أصدقاء أنطونيوس ومؤيديه إلى هذه المرتبة وهما: دوميتيوريوس أهونوريوس "Domitius Ahenobarbus"

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٤-٢٤٦.

وغايوس سوسيوس "Gaius Sosius" حاكم سورية، ولدى تسلمهما زمام الأمور في أول كانون الثاني سنة ٣٢ ق.م، وقف سوسيوس خطيباً، فمدح أنطونيوس ولام أوكتافيوس وأوجع في كلامه، ولكنه لم ينجح في اتخاذ أي قرار من مجلس الشيوخ باللوم لأن التربيون نونيوس بالبوس تدخل واعترض. فأبطل اتخاذ أي قرار ضد أوكتافيوس الذي كان قد تعمد التغيب لتفضي المعارضة بما لديها. ولما حل موعد الجلسة الثانية دخلها محاطاً بجنوده وأصدقائه، ورد على سوسيوس، واقترح متهمكاً أن يوزع أنطونيوس الأراضي على جنوده في مادي وأرمينية. ثم احتج على موقف أنطونيوس من كليوباترا وتصرفه بأملاك الدولة لصالح هذه المرأة وأولادها، وقال: إنَّه سيوافي الشيوخ في الجلسة المقبلة بما لديه من أوراق ورسائل تثبت سوء تصرف أنطونيوس وسوسيوس أيضاً.

خاف سوسيوس وزميله أهينو بربوس مغبة ما جرى، وشاركهما في ذلك الشيوخ أصدقاء أنطونيوس، ففروا من روما قبل موعد الجلسة التالية، وأبحروا إلى أفسس مقر زعيمهم أنطونيوس، وكان عدد هؤلاء الشيوخ ثلاثئة شيخ من أصل ألف شيخ يؤلفون مجلس الشيوخ آنذاك.

ثم تبدلت الأمور وتغيرت الأحوال إذ انتقلت الحرب الكلامية إلى قتالية بين الاثنين، لاسيما بعدما طلق أنطونيوس زوجته أوكتافيا بتحريض من كليوباترا، وبعدما وصل القنصلان إلى معسكره، ووصل معهم الشيوخ الثلاثئة معهم. استنكر الجمهور الروماني الموالي لأنطونيوس هذه المظاهر، وكان في طليعتهم بلانكوس ونسييه تيتيوس "Titius" حيث أعلنوا انضمامهما إلى معسكر أوكتافيوس فور وقوع الطلاق، ونقلوا محتويات الوصية التي كتبها أنطونيوس وتركها وديعة لدى عذارى ويسته "Vesta" لتفض بعد وفاته، فهب أوكتافيوس فوراً من أجل الحصول على هذه الوصية ليثبت بها ما كان قد شاع عن أنطونيوس من تبذير وإسراف، ورفضت العذارى تسليم الوصية

وقلن لأوكتافيوس: "وإذا كان لا بُدَّ من الاطلاع عليها، فخذها أنت بنفسك".
فاخترق أوكتافيوس حرمة المعبد وتناول الوصية بيده وفَضَّها: فإذا أنطونيوس يعترف
بقيصرون ابناً شرعياً لقيصر، وإذا به يوزع الأراضي الرومانية في الشرق على كليوباترا
وأولادها. وإذا به يوصي أنه في حال وفاته في روما يجب نقل جثمانه إلى الإسكندرية،
وتليت الوصية تلاوة علنية في مجلس الشيوخ^(١). فاستغل أوكتافيوس هذا كله في
خريف السنة ٣٢ ق.م وعلا تأييده بالقسم "Conguratio" وتم اعتباره قائداً عاماً في
جهاد مقدس لدرء الخطر القادم من الشرق. وشمل هذا القسم الغرب كله، فنزع
أوكتافيوس سلطة الحكم الثلاثي من يد أنطونيوس واعتبره جديراً بأن يكون قنصلاً في
العام ٣١ ق.م. ثم توجه إلى هيكل بلونا "Bellona" إلهة الحرب بصفته رئيس الكهنة
الفيتيالس "Fitiales" وغمس سهماً في الدم، وسدده نحو الشرق بلاد العدو، وأعلنها
حرباً مقدسة على كليوباترا لا على أنطونيوس.

وأطلقت السنة ٣١ ق.م فأصبح أوكتافيوس قنصلاً للمرة الثالثة يعاونه في هذه
الوظيفة فاليريوس ميسلا كورفينيوس "Valerius Missalla Corvius" بدلاً من
أنطونيوس. وتمت الاستعدادات للحرب وذلك بتنصيب مكيناس "Maccenos"
حاكماً على إيطاليا والعاصمة، وتم إرسال كورنيلوس غالوس "Cornelius Gallus"
إلى إفريقيا ليصد كل هجوم قد يأتي من الشرق، وأقلعت قوة بحرية إلى الغرب لتحمي
شواطئه.

وفي الربيع عبر أوكتافيوس شواطئ الأدرياتيك يحيط به عدد من الشيوخ، على
رأس ثمانين ألفاً من المشاة واني عشر ألفاً من الفرسان، وأربعمئة سفينة حربية ما بين
بوارج ثقيلة وسفن خفيفة السريعة. وقد تولى أغريبا "Agrippa" قيادة الأسطول،

(١) أسد رستم: أوغسطس قيصر وخلفائه، ج ١، ص ٧٩.

فتمكن من الانتصار على أسطول أنطونيوس في قاعدته في خليج أمبراكيا "Ambracia".

ثم كانت معركة أكتيوم "Actium" الفاصلة حيث استسلم أنطونيوس بعد مفاوضات دامت سبعة أيام، وذلك في التاسع من أيلول سنة ٣١ ق.م. فحيا الجنود جميعهم أوكتافيوس، ونادوا باسمه إمبراطوراً للمرة السادسة.

وفي صيف السنة ٣٠ ق.م. تابع أوكتافيوس ملاحقة أنطونيوس وجنوده الذين نجوا وفروا إلى مصر، فوصلت طلائع جيشه إلى ضواحي الإسكندرية في الحادي والثلاثين من تموز سنة ٣٠ ق.م. ثم لحق بهم أوكتافيوس ودخل الإسكندرية في الأول من آب من العام نفسه، وظهر دخوله إليها في التقويم "Fasti" ليخلد ذكرى خلاص روما من الخطر الذي أحرق بها، واستولى أوكتافيوس على أموال كليوباترا، ونقلها إلى روما، وبذلك تمكن من تلبية مطالب الجنود، ودفع أثمان الأراضي التي صودرت، كما تمكن من إنشاء بعض المنشآت العمومية، وتوزيع الحصص على أفراد الشعب. في حين انتهت معركة الإسكندرية بانتحار أنطونيوس وكليوباترا ليصبح أوكتافيوس السيد الوحيد لروما^(١).

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٤٦-٢٤٩.





الفصل الثاني
تأسيس الإمبراطورية
عصر أغسطس



أولاً- أوكتافوس الإمبراطور:

١- عودة أوكتافوس إلى روما:

في نهاية صيف عام ٢٩ ق.م. عاد أوكتافوس إلى روما في موكب نصر عظيم، إذ أقر مجلس الشيوخ جميع أعماله، وأعلن يوم ميلاده عيداً رسمياً في الإمبراطورية، كما قرر إقامة أقواس نصر في برنديزي وفي روما. وعلى مدى ثلاثة أيام متعاقبة سارت مواكب النصر، تمثل انتصاراته الثلاثة في دلماتيا وأكتيوم ومصر، وقد فاقت جميعها ما سبق أن أقيم ليوليوس قيصر من مواكب النصر، بذخاً وجلالاً، ولأول مرة في روما منذ نهاية الحرب البونية الأولى في سنة ٢٤١ ق.م. بقيت أبواب معبد الإله يانوس مغلقة في إشارة واضحة وصامتة على استتباب السلام في البر والبحر في جميع أرجاء العالم الروماني، فقد كان التقليد المتبع في روما هو فتح أبواب هذا المعبد للصلاة والعبادة ما دام هناك جيوش رومانية تحارب، ولا تغلق أبوابه إلا في الأيام التي يستتب فيها السلم فقط، وهكذا بعد أكثر من قرن مضى على العنف والحرب الأهلية، أصبح باستطاعة الناس، لأول مرة أن يتنفسوا بحرية، وأن يحيا، وأن يتمتعوا بالسلام والرخاء دون خوف من مصادرة الأملاك أو أوامر الاعتقال أو الموت البشع. إلا أن السلام الذي ساد داخل الإمبراطورية، لم يكن ليشمل الحدود التي كانت لا تزال بحاجة إلى حماية بسبب تجمع المتبررين وراء نهر الراين والدانوب أو بسبب هجمات البرثيين على حدود سورية الشرقية.

كما أن مشكلة الجيوش الرومانية التي كانت تشكل خطراً على الأمن والاستقرار في الداخل، يفوق خطر المتبررين على الحدود، وذلك خوفاً من القادة الطامحين، وللدلالة على مدى الخطورة والعبء الذي تمثله هذه الجيوش، نذكر أن أوكتافوس كان يقود سبعين فرقة، في حين أن أقل من ثلاثين فرقة كانت كافية للدفاع عن الإمبراطورية بأسرها، وكان عليه أن يحتفظ بهذا القدر من الفرق تحت سلطة عليا لا

تنقسم، ويسرح الباقي، إلا أن تسريح الجنود لم يكن بغير مشاكل، فكان عليه أن يعمل على استيطان الجنود المسرحين لأكثر من أربعين فرقة، وكان لابد له أن يمنحهم أرضاً يستقرون عليها، إلى جانب منحهم المكافآت المالية المعتادة، وكان عليه أن يحقق ذلك كله، دون أن يلجأ إلى مصادرة الأملاك الخاصة، أو فرض ضرائب جديدة.

علاوة أنه كان يحمل على عاتقه مهمة أشد صعوبة، وهي إعادة بناء الدولة التي كانت الحروب الأهلية قد تركتها مفككة توشك أن تتداعى وتنهار، ولهذا كان لا بُدَّ من العمل على تكوين إدارة مركزية جديدة وإعادة مكانة السناطوس التي عمل يوليوس قيصر على سحقها، إضافة إلى جملة من المهمات الصعبة ومنها: تكوين ما يشبه مجلس الوزراء لإدارة الدولة، والإبقاء على القيادة العسكرية العليا في يد رئيس الدولة، وإقامة إدارة مدنية للإمبراطورية إلى جانب تنظيم الميزانية العامة، وإصلاح حكم الولايات والإشراف على السياسة الخارجية، هذا مع العناية بإحياء الأخلاق القديمة وبعث حيوية دين الدولة، وبالإضافة إلى هذا كله، كان أمامه مهمة العثور على شخص صالح لخلافة الحكم.

وكانت كل هذه المهام كفيلاً بأن تستنزف أكثر البشر طاقة وحيوية، ولكن أوكتافيوس، الذي تميز بصحة ضعيفة، عليل، استعاض عن القوة البدنية، بقوة إرادته الحديدية، وتصميمه واتزان تفكيره وإحساسه السياسي المرهف الذي ظهر منذ بداية طريقه الشاق في صعوده إلى السلطة، ولقد عاد أوكتافيوس من الشرق، بطلاً معبوداً من الشعب وله من المكانة والسطوة ما لم يتمتع به حتى يوليوس قيصر نفسه، فالشرق والغرب الآن مدينان له بالولاء ومرتبطان بشخصه من خلال القسم والمواثيق، كما كانت له وحده مهمة قيادة أضخم جيش في تاريخ روما، بالإضافة إلى تحكمه في موارد وأموال إمبراطورية عالمية غنية، فعلى سبيل المثال كانت كنوز مصر التي استولى عليها، كانت كافية وحدها لتقديم منح الأرض والمكافآت اللازمة لجنوده المسرحين،

هذا بالإضافة إلى إمكانيات مصر في إنتاج الغلال، الذي كانت روما تستورده من قبل وتشتره بالمال، وها هو الآن يأتي إلى شعبها، جزية مفروضة ومجاناً.
ولعل من أهم ما تمتع به أوكتافيوس، إضافة إلى موارده المالية، وسلطاته العسكرية وشعبته بين الجماهير، هو ما كان يتمتع به من مكانة وجلال فريدين إذ لم يجرؤ أي إنسان على مجرد التفكير بمنافسته في منصب أو زعامة، وأصبح هو وحده على رأس الدولة، مصدر كل حماية وسلطة في الإمبراطورية^(١).

٢- ألقابه الخاصة:

أول لقب اتخذ أوكتافيوس في قائمة ألقابه المهيبة هو **قيصر** الذي اتخذ اسماً له بعد وفاة يوليوس قيصر مباشرة إذ تثبت العملة التي أصدرها بوضوح أنه احتفظ بهذا الاسم حتى بعد أكتيوم، فرغم أنه لم يعد في حاجة إلى الدعم الأدبي لهذا الاسم من أجل اجتذاب الجنود له، ولهذا استبعده مؤقتاً، ومحا من السجلات، ومع ذلك فقد كان لاسم قيصر مستقبل عظيم، اقترن بالمجد والسلطان والحكم المطلق، وأصبح من بعد ذلك لقباً لكل إمبراطور من خلفائه.

وثاني ألقابه هو لقب **إمبراطور** "Imperator"، الذي جعله أيضاً جزءاً من اسمه الرسمي، كان لقباً يتميز بالعراقة والاستعلاء. فكان القائد الأعلى للجيش المنتصر يُحيا دائماً بإمبراطور، وكان يحتفظ باللقب حتى بعد موكب النصر، تلقب به من قبل ماريوس وسللا وبومبي ويوليوس قيصر، وتلقب به أوكتافيوس نفسه سبعا وعشرين مرة في حياته لانتصارات حققها بنفسه أو بواسطة نوابه من القادة. وعلى خلاف قيصر وبومبي وسائر قادة العصر الجمهوري الذين كانوا قد مُنحوا هذا اللقب، نجد أن

(١) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، ص ٧٧-٧٩.

أوكتافيوس اتخذ اسماً يسمى به "Praenomen"، واحتفظ به بصورة مستمرة كجزء من اسمه الرسمي، مؤكداً بذلك ماضيه العسكري، ورغم أن خلفاءه المباشرين استبعدوا هذه التسمية (كما فعل تiberius وكاليجولا وكلوديوس)، إنه ابتداء من فسباسيان عادت كلمة إمبراطور لتصبح اللقب الرسمي لكل حاكم روماني، وكثيراً ما تسمى به الملوك من بعد في العصور الوسطى والحديثة.

هناك لقب ثالث لم يستخدم في التسمية الرسمية، ولكنه احتفظ بأهمية خاصة بين ألقاب أوكتافيوس، وهو لقب "رئيس الدولة" *Princeps civitatis* وكثيراً ما كان يختصر إلى رئيس "Princeps" فقط، ومنه اشتق الاسم الذي أطلق على النظام السياسي الذي أنشأه أوكتافيوس "Principate" أي النظام الرئاسي، ومنه اشتقت أيضاً كلمة أمير "Princ". ورغم أن هذا اللقب استخدم بمعنى ملك أو إمبراطور، لم يكن له هذه الدلالة من قبل في العصر الجمهوري.

كان سلطان أو قوة أوكتافيوس تقوم على أساس الجيش والشعب، واعتمد حكمه على دعامتين: السلطان البروقنصلي، والسلطة التريبونيه، منحه الأولى سلطة قيادة الجيش ومنحته الثانية حق تمثيل الشعب مع التمتع بحق الاعتراض "Veto" على أعمال السناطوس أو رجال الحكم مثل القناصل، وينبغي أن نلاحظ أنه تمتع بسلطان عسكري أعلى من سلطان جميع حكام الولايات التي كانت بها جبهات قتال تحارب فيها فرق رومانية، مثل إسبانية والغالة وسورية، وجميعها كانت خاضعة لحقه المطلق في القيادة العسكرية "Imperium Maius"، وهذا الأمبريوم الأعلى منحه سلطاناً مطلقاً على القوات المسلحة، وحرّم القواد العسكريين من فرصة اغتصاب السلطة من الدولة، وهي الظاهرة التي أدت إلى سقوط الجمهورية.

كان باستطاعة أوكتافيوس، بفضل ما يتمتع به شعبية منقطعة النظير أن يجعل نفسه دكتاتوراً أو حاكماً عسكرياً، ولكنه كان مصراً على أن يقتسم الحكومة مع السناطوس

طالما أنه كان يتعامل مع السناتوس من مركز القوة، ومن أجل تحقيق هذا الهدف على أي حال قام في سنة ٢٨ ق.م. بتطهير السناتوس من الأعضاء الدخلاء من العناصر غير المرغوب بهم والذين أدخلوا في فترات الحرب الأهلية، وقد بلغ عدد الذين حرموا من العضوية في عام ٢٨ ق.م. مئتي عضو، ثم أعقب ذلك عمليات تطهير أخرى في عام ١٨ ق.م. و١٣ ق.م. وبذلك هبطت عضوية السناتوس من ٩٠٠ إلى ٦٠٠ عضو. ثم وضعت قواعد لعضوية السناتوس تفرض على من يقترح لعضوية السناتوس أن يكون قد تولى الكويستورية من قبل، وأن ينتمي إلى أسرة من أسر السناتوس، وأن يكون متمتعاً بحسن الأخلاق، إضافة إلى النصاب المالي، وقد طبق أوكتافيوس سياسة يوليوس قيصر في السماح لأفراد أثرياء من البلديات الإيطالية ومن بعض المستعمرات الرومانية الغالية والإسبانية بدخول طبقة السناتوس وطبقة الفرسان، وسنجد الأباطرة الذين جاؤوا من بعده يتوسعون في تطبيق هذه السياسة^(١).

٣- دستور عام ٢٧ ق.م.:

في الثالث عشر من كانون الثاني عام ٢٧ ق.م. وقف أوكتافيوس أمام السناتوس، بعد أن تم تطهيره، وعرض عليهم التنحي عن جميع سلطاته وصلاحياته للسناتوس والشعب الروماني، وهذا العمل الدرامي من جانب أوكتافيوس كان يعني في ظاهره إعادة العمل بالنظم الجمهورية، كما يتوقع أيضاً أن يكون قد حرك الخوف الكامن في النفوس بدلاً من أن ينشر الفرح، وكان رد فعل السناتوس هو رد سلطاته إليه على معظم أرجاء الإمبراطورية. ولفهم ما حدث في ذلك الاجتماع، يجب أن نذكر أن أوكتافيوس عندما هزم أنطونيوس كانت قوته تعتمد على حقه وحده في سلطة القيادة العسكرية في الدولة، وعندما اعتزل سلطة القيادة العسكرية في الدولة، واعتزل سلطاته

^(١) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، ص ٧٩-٨٣.

الاستثنائية في سنة ٢٧ ق.م. واعتزل كذلك سلطة قيادة الجيوش، كان في الحقيقة يحتفظ بلقبه العسكري "كامبراطور"، أما سلطة القيادة العسكرية فقد ردها إليه السنتاتوس حالاً، وقد يتساءل الإنسان ماذا كان ليفعل، إذا لو لم يتصرف السنتاتوس على هذا النحو؟ والجواب أنه من الواضح أن السنتاتوس لم يحاول أخذ السلطة العسكرية منه، ولعل السبب هو أن ارتباط الجيش بأوكتافيوس كان من القوة بحيث لا يمكن معه الفصل بينهما بأي قرار من قرارات السنتاتوس. أو بعبارة أخرى نقول: كان السنتاتوس مدركاً أنه إذا فعل ذلك، فعليه أن يستعد لمواجهة الجيش. ولذلك فإن ما فعله السنتاتوس هو كل ما كان بوسعه أن يعمل به وهو منح أوكتافيوس الإمبريوم البروقنصلي لمدة عشر سنوات في جميع الولايات التي كانت الجيوش الرومانية فيها، باستثناء شمال إفريقية ومقدونيا، وعدد من الولايات الأخرى التي ليس لها جبهات قتال. وهكذا انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى ولايات إمبراطورية يحكمها أوكتافيوس عن طريق وكلائه ومندوبيه، وولايات أخرى يعين السنتاتوس لإدارتها، كما كان الوضع في الجمهورية، ممن بلغوا درجة البروقنصل أو البروبرتيوس. ومع ذلك كان أوكتافيوس يمارس في واقع الأمر نوعاً من الإشراف على حكام ولايات السنتاتوس بفضل مركزه كرئيس للدولة، وبفضل ما منح من السلطان العسكري الأعلى.

وبعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع، اجتمع السنتاتوس مرة أخرى ليعبر عن شكره واعترافه بالجميل اتجاه أوكتافيوس باعتباره باعثاً لروح الحياة في الجمهورية. وكانت القرارات التي اتخذها في ٢٦ كانون الثاني عام ٢٧ ق.م. هي وضع إكليل الغار على أعمدة باب منزله، وأن يُعلّق في السنتاتوس درع ذهبي مسجل عليه فضائل أوكتافيوس وهي "الشجاعة، الرحمة، العدل، الإيمان". وكذلك تقرر أن يمنح لقباً جديداً يفوق جميع ألقابه السابقة بريقاً ومجداً وهو لقب "أغسطس Augustus" ويعني الجليل المحترم. وهو لقب اقتصر استخدامه من قبل على بعض الآلهة، باعتبارها متميزة

بالكمال والقدرة على خلق ما هو أكمل وأفضل، وهذا هو أوكتافيوس قد أوجد النظام الأكمل للدولة، وسوف يغلب عليه اللقب الجديد، ويصبح اسماً يخاطب به ويفضله على غيره من الألقاب والأسماء، ونظراً لشهرته بهذا اللقب أصبح من المؤلف تسميته بأغسطس. ولم يكن في هذا التلقب الرسمي أي جديد، فسوللا كان "سعيداً" وبومبي كان "عظيماً" ولكن انتقاء اللقب الجديد موفقاً من الناحية السياسية؛ لأنه حمل شيئاً من التعظيم الديني لاسيما إذا ذكر الرومانيون برومولوس الذي أسس المدينة^(١).

وقد جرى أغسطس مجلس السناتوس في هذه المحاملات وزاد من سلطته. فأعاد إليه الإشراف على الشؤون المالية، كما منحه سلطة القضاء في قضايا الابتزاز في ولايات السناتوس، ورغم أنه أقر حق الجمعية القبلية في إصدار القوانين، سمح للسناتوس بإصدار قرارات لها قوة القانون دون إقرار الجمعية القبلية لها.

وهكذا يمكن أن يقال إن السناتوس قد أصبح رسمياً شريكاً كاملاً في الحكم، ولكن إن إجراءات إعادة الجمهورية في الواقع لم تزد على أن تكون واجهةً دستوريةً لنظام إمبراطوري اقترب من الحكم الفردي المطلق، سواء أراد أغسطس للنظام الجديد أن يسير إلى الاستبداد أم لم يرد، إذ إن قوى الواقع الناجمة عن تكوين إمبراطورية عالمية قد وضعت حداً للنظام الجمهوري في روما، ويعد الجيش واحداً من هذه القوى. وهو الذي أصبح الآن جيش الثورة كما أصبح أغسطس قائد الثورة، وهو سيد الدولة وحارسها والمدافع عنها. وإن تحكمه في ذلك الجيش هو الذي منحه قوةً وسلطةً ماديةً وواقعية لا يمكن إخفاؤها وراء واجهة مزيفة بإعادة الجمهورية.

كان لأغسطس حق دعوة السناتوس، وإدارة أعماله وتطهير أعضائه، وحق رئاسة عمليات الانتخاب في الجمعيات الشعبية واقتراح أو التوصية بأسماء المرشحين، وحق الإشراف على القضاء، وله أن يقبل أية شكوى باعتباره أعلى سلطة قضائية في

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٢٥٣.

الإمبراطورية، وفوق كل ذلك كان شغل وظيفة رئيس السناتوس " Princeps Senatus " يعتبر منصباً يمنح الحق في أن يكون أول المتكلمين، وبذلك يتمكن من توجيه القرارات.

ومن وجهة نظر السناتوس، فلعل أكثرية أعضائه لم تكن راغبة حقاً في إعادة الجمهورية. إذ إن جميعهم يعرفون ما انتهت إليه الجمهورية السابقة من فوضى واضطهاد وحرب أهلية، كما أن مجرد التحكم في الجيش ومشكلة الدفاع عن الإمبراطورية كانا يبدوان مهمتين مستحيلتين لأكثر الأعضاء. وكان يطارداهم دائماً شبح أبطال الحرب المنتصرين من أمثال ماريوس وسوللا وبومبي وقيصر مخافة أن يعودوا إلى تمزيق الدولة، ثم إن هناك جبهات حرب لازالت مشتعلة، فإسبانية ما زالت غير آمنة ولم يتم إخضاعها، وكذلك الغالة في حاجة إلى إعادة تنظيمها، كما يخشى على سورية من هجمات البارثيين ووراء الراين والدانوب وهي قبائل متبربرة تتحين الفرص لتتقضى على أراضي الإمبراطورية، ومن لكل هذه الإنجازات الملحة غير أغسطس بما يمتلك من سلطان عسكري قل نظيره على الجيوش، ودون أن يصيب الدولة بويلات حرب أهلية جديدة^(١).

(١) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، ص ٨٣-٨٦.

ثانياً- أعمال أغسطس الإدارية والسياسية:

١- إيجاد نظام للحكم في شكل مجلس:

لقد غلبت الحكومة الرومانية في أوائل عصر الإمبراطورية أي حتى الإصلاحات العظيمة التي أدخلها دقلديانوس في أواخر القرن الثالث طابع الحكومة الملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهوري السابق، أو بعبارة أكثر دقة نقول إنَّها ظلت جمهورية مع ظهور رأس للدولة وللجيش الروماني يتمتع بمنصبه طوال حياته، وهكذا ظل السناتوس يباشر سلطاته الواسعة، واستمرت المناصب العليا في الدولة بأيدي الطبقة الأرستقراطية من كبار ملاكي الأراضي، وظلَّ المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وإن كانوا قد فقدوا كثيراً من أهميتهم السياسية، ولذلك يبدو من الخطأ أن نعتبر هذه الحكومة حكومةً عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة، لأنها في حقيقة الأمر لم تكن ملكية دستورية، ولكنها امتازت بسيادة العرف والتقاليد والقانون ولا سيما في العصر الأول للإمبراطورية، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهوري. مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهراً دستورياً واضحاً.

في واقع الحال يُعد النظام السياسي الذي وضعه أغسطس حلاً وسطاً بين النظامين الملكي الاستبدادي والجمهوري الدستوري، ذلك أنه كان أمام أغسطس أن يختار بين نظامين للحكم، الأول: **نظام قيصر** الذي قام على أساس حكم عسكري اعترف بموجبه جميع الناس لاسيما في إيطاليا أو الولايات بالطاعة العمياء لسيدهم الأعلى، والثاني: **نظام الحكم الجمهوري** الذي يقر أهمية المواطنين الرومان في إيطاليا والولايات إلى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة في الدولة، وهنا لجأ أغسطس إلى التوفيق بين النظامين، أي بين الزعامة العسكرية التي ورثها عن أسلافه والتي أضحت ضرورية للمحافظة على سلامة الإمبراطورية وأمنها وصالحها العام من جهة، وبين رغبة المواطنين الرومان في الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة على الأقل في الميدانين

الاجتماعي والاقتصادي، إن لم يكن في الميدان السياسي من جهة ثانية، وهكذا نبذ أغسطس حكم قيصر المطلق، ولكنه ركز في يد الإمبراطور معظم السلطات التي اعتاد أن يباشرها كبار الموظفين في العصر الجمهوري، وبخاصة القيادة الحربية التي انتقلت من أيدي القناصل إلى يد الإمبراطور. وإذا كان السناتوس قد ظل محتفظاً بهيبته ومكانته القديمة في ظل النظام الجديد، إلا أن سلطته التشريعية والقضائية والإدارية قد تناقصت بصورة واضحة، كما أصبح يتألف من أعضاء يختارهم الإمبراطور من مختلف أنحاء الإمبراطورية على الإطلاق، بعد أن كان يمثل في العصر الجمهوري أقلية ممتازة ومحدودة، مما جعل الطبقة السناتورية تعتمد على أغسطس اعتماداً تاماً^(١).

ومن خصائص النظام الإمبراطوري الذي أعلنه أغسطس أن يحكم الإمبراطور إلى جانب مجلس الشيوخ على أن يتمتع أغسطس بسلطة أكبر من سواه، وهذه السلطة كانت تحولها حق الاعتراض على أية سلطة أخرى في كافة أرجاء الإمبراطورية، إلى جانب احتكاره للسلطة العسكرية، إذ قضى على الجيوش الخاصة مستخدماً سلطات استثنائية ما أمكن حاذياً حذو الذين فعلوا ذلك قبله أمثال القائد الروماني بومبي وقيصر، ولكن أوكتافيوس دعم سلطاته العسكرية حتى أضحى القائد الأعلى والأوحد للجيوش الإمبراطورية^(٢).

ورغم ذلك فقد تنفست الإمبراطورية الصعداء باستقرار أحوالها على يد أغسطس بل إن كثيراً من الناس رحبوا بهذا الاستقرار ترحيباً شديداً، وأطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم: الحكم الثاني^(٣).

(١) المرجع نفسه، ص ٩-١١.

(٢) سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ص ٢٦.

(٣) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان، ص ٦.

لقد عاب بعض المؤرخين على الإمبراطورية الرومانية في أوائل عهدها افتقارها إلى وجود قانون وراثي ثابت ينظم وظيفة الإمبراطور، ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة في النظم الرومانية عندئذ، ولكننا يجب أن نعترف بأن علاجها لم يكن أمراً يسيراً كما قد يتصور البعض، ذلك أن ثمة حقيقة كبرى ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا، هي أن الإمبراطورية الرومانية في عصرها الأول لم تكن مجرد إمبراطورية في قالب جمهوري فحسب، بل كانت استمراراً للنظام الجمهوري السابق وامتداداً له، مما تعذر معه وضع قانون وراثي ثابت للحكم دون التخلص من هذا القناع الجمهوري الذي استترت خلفه الإمبراطورية الجديدة، وعلى هذا فمن الصواب -بل من الضروري من الناحية السياسية- أن تحتفظ الإمبراطورية بهذا المظهر الجمهوري في عصرها الأول عندما كان أنصار التقاليد والمبادئ الجمهورية القديمة مازالوا يمثلون أغلبية تتمتع بنفوذ قوي في السنااتوس^(١).

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١١-١٢.

ثالثاً- بناء الإمبراطورية في عهد أغسطس:

بعد أن انتهى أغسطس من وضع الأسس في مجال السياسة والحكم، واطمأن إلى أن مقاليد الأمور أصبحت في يديه وحده، واطمأن أيضاً إلى استتباب الأمن والقضاء على عناصر الفتن والانقسامات الحزبية، شرع بعد ذلك في بناء النظام الإداري وإصلاح المرافق العامة في روما وإيطاليا وإقرار الأوضاع في الإمبراطورية وتنظيم المالية العامة، كما حاول أن يحل مشكلة الجنود الذين كانت قد تكاثرت أعدادهم في ظروف الحرب الأهلية، فسمح كثيراً منهم ومنحهم بعض الولايات الغنية الجديدة التي تمكن من إضافتها إلى الإمبراطورية. ويأتي في مقدمة هذه الولايات الجديدة ولاية مصر التي ألحقت بالإمبراطورية سنة ٣٠ ق.م. بعد انتصاره على كليوباترا وأنطونيوس، كما أنه ألحق سورية أيضاً التي كانت تمثل الحدود الشرقية للإمبراطورية، وذلك لمواجهة البارثيين الذين كانوا يشكلون دولة في أرض الرافدين بالعراق، وحاول أن يوسع من حدود الإمبراطورية وكان هذا واضحاً في اتجاهين أساسيين، الأول: نحو الجنوب ولهذا أمر واليه على مصر سنة ٢٩ ق.م. أن يهاجم القبائل الأثيوبية في الجنوب وهي التي يطلق عليها الآن بلاد النوبة، وفي سنة ٢٤ ق.م. كلف والياً آخر على مصر بأن يقود حملة إلى جنوب الجزيرة العربية أو ما يعرف حالياً باليمن، وكان الهدف من هذه الحملة الأخيرة هو إخضاع القبائل العربية الموجودة في الجنوب والتي كانت تتحكم في التجارة الشرقية مع شرق إفريقيا والهند، كما امتد نشاطه إلى حدود أوروبا الشرقية، إذ تمكن من ضم ولايات جديدة في تلك الأقاليم مثل ولايتي باتونيا وداكيا "المجر ورومانيا حالياً"، كما وجه ضربات قوية في شمال أوروبا إلى الغالة وألمانيا وراء الدانوب، مما ألزم القبائل الجرمانية المتبربرة أن تلتزم حدودها وألا تتعرض للممتلكات الرومانية.

وهكذا نجد أن أغسطس لم يترك إقليماً من أقاليم الإمبراطورية دون أن يوليّه عنايته واهتمامه سواء بالنشاط العسكري أو بالإصلاحات الإدارية والمالية أو بإقامة المنشآت والمباني العامة مثل الطرق والحصون وقناطر المياه وأعمال الري وغيرها من الأعمال التي لا زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا في كل من إفريقيا وآسيا وأوروبا.

١ - الإصلاحات الاجتماعية:

لم يقتصر اهتمام أغسطس على الحرب والسياسة والمال والإدارة وحسب، بل اهتم أيضاً اهتماماً خاصاً بإصلاحات اجتماعية اقترنت باسمه، ونحن نهتم بالتعرف على إصلاحاته الاجتماعية والدينية؛ لأنها إلى جانب أعماله السياسية تمثل طريقة تفكيره ومنهاج أيديولوجيته، فقد كان أغسطس شخصية محافظة في فهمه للأخلاق والمجتمع، وكان هدفه الأسمى أن يعالج المجتمع الروماني من مظاهر الانحلال والتفكك التي أصابته نتيجة للحروب الأهلية المتصلة، وذلك بأن يعيد له أخلاق البساطة الرومانية الأولى، ولكن كما نعلم أن لكل عصر ظروفه وأسلوبه الخاص به في التفكير والسلوك فمجتمع عصر أغسطس كان مجتمعاً يختلف كل الاختلاف عن المجتمع الروماني قبل أن تنشأ الإمبراطورية وتتدفق الأموال على الرومان، وقبل أن يحتدم الانقسام الطبقي والصراع الحزبي، وقبل أن تزدحم روما بالعناصر الأجنبية التي حضرت إليها من جميع أقطار الأرض، والذين جاؤوا بعقائد وتقاليد وأخلاق تختلف عن الأخلاق الرومانية القديمة، وينبغي ألا ننسى اعتماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية على العبيد الذين جلبتهم الانتصارات العسكرية المتلاحقة، لذلك كانت محاولة أغسطس في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء محاولة خيالية من نوع مثالي لا يتفق مع الواقع ولا يناسبه، ولهذا السبب لم يكتب النجاح ولا الاستمرار لكثير منها، ومع ذلك فهي تفيدنا في التعرف على واقع المجتمع وعلى عقلية الطبقة الحاكمة في عصر أغسطس، وحتى مع افتراض

حسن النية وراء محاولة إصلاح الأخلاق العامة فإن كثيراً مما قام به أغسطس من إصلاحات في هذا المجال قد تنال المدح والإعجاب نظراً لهدفها النبيل ولكن إصلاحاته لا تتحقق عن طريق التشريع والقانون.

ولعل من أكثر أعمال أغسطس نبلاً في هذا المجال هو محاولته تحسين معاملة العبيد. ولكن من ناحية أخرى نجده لا يحترم الحرية الفردية، وذلك بإعادته القانون الخاص بالخيانة ضد شخصه "Maiestas" وهو قانون غامض غير محدد يشمل كثيراً من المخالفات ابتداء من تهمة التآمر ضد الدولة إلى تهمة السب والقذف بحق الإمبراطور، سواء بالقول أم بالكتابة أم بالفعل. وتطبيقاً لهذا القانون فقد أحرقت الكتب التي تهاجمه أو تنتقده في الميادين العامة، كما أنه كافأ الوشاة بمنحهم مكافآت وصلت إلى إعطائهم ربع ممتلكات ضحاياهم، وهكذا أصبح القانون أداة للقهر والطغيان في يد الأباطرة من بعد أغسطس، لكنه أصدر بالمقابل بعض القوانين الأخرى التي تهدف إلى وضع حد للإباحية الجنسية، وتنظيم الزواج وحياة الأسرة، ومن أشهر هذه القوانين: قانونا يوليوس "Leges Juliae" ١٩-١٨ ق.م، وقانون القنصلين بابيوس وبوبايس "Lex Papia Poppaea" عام ٩ ق.م، وكان الهدف منها هو مقاومة الانحرافات الأخلاقية وزيادة النسل وإحياء الفضائل الرومانية القديمة^(١).

وقد تضمنت هذه القوانين الجديدة مواد تمنع إطالة مدة الخطوبة والطلاق؛ وفرضت على جميع العازبين من الرجال والنساء الزواج في أقرب وقت ممكن، كما فرضت على جميع المطلقات تحت سن الخمسين والمطلقين تحت سن الستين أن يتزوجوا خلال مدة أقصاها ثلاث سنوات، وفرضت على المخالفين عقوبات جزائية كثيرة، منها: الحرمان الكلي أو الجزئي من الميراث، أو من تولي المناصب العامة، والمنع من حضور الألعاب والمهرجانات العامة، وفرض مثل هذه الجزاءات على المتزوجين الذين

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٩٨-١٠٠.

لم ينجبوا، حتى في حالة العقم، في حين كوفئ من لهم ثلاثة أولاد أو أكثر ، بتفضيلهم في تولي المناصب العامة، ومما أضعف هذه التشريعات، منح هذا الحق لأصحاب النفوذ دون أن يكونوا قد استوفوا شروطه. ومما يدعو إلى السخرية هو أن نجد بعضاً من أهم رجال الدولة يتمتعون بالاستثناء من هذه القوانين، من ذلك أغسطس نفسه الذي كانت له ابنة واحدة والإمبراطورة ليفيا ذات الولدين، والوزير مايكيناس "Maecenas" المتزوج الذي لم ينجب، والقنصلان اللذان سميت القوانين باسميهما وهما بايوس وبوبايوس عَزَبَان، وكذلك كان الشاعران فرجيليوس "Vergilius" وهوراس "Horatius".

ومن أجل مقاومة الانحلال الأخلاقي الذي كان منتشرًا في ذلك الوقت تضمنت التشريعات الجديدة قوانين قاسية ضد الزنا، إذ سمح لرب الأسرة أن يقتل الطرفين الزانيين في أسرته، كما سمح للزوج بممارسة هذا الحق، كما يعاقب الزوج الذي يتستر على انحراف زوجته؛ ويقدر ما اعتنى أغسطس بالأخلاق العامة وازدياد أعداد السكان من المواطنين الرومان، فقد قاوم بشدة أن تختلط بالدماء الرومانية، دماءً أخرى أجنبية وخاصة عن طريق ظاهرة تحرير العبيد التي بدأت تعم لدى بعض الأسر الثرية، فمعظم هؤلاء العبيد كانوا أسرى حرب، كما كان كثير منهم يتميز بالذكاء والمهارة أو الجمال، فكان أرباب بعض الأسر الثرية لكثرة ما عندهم من العبيد، يؤثرون بعضهم فيحرروهم ويجعلوهم مواطنين رومانيين، وبهذا يحق الزواج منهم بعد ذلك، نساء كانوا أو رجالاً. وقد خشى أغسطس أن تختلط الأنساب الرومانية أو أن يضعف الولاء بين هذه العناصر نحو روما، ولذلك أصدر عدداً من التشريعات التي تمنع تحرير العبيد بأعداد كبيرة حتى لا تتضخم أعداد المواطنين الرومان كما منع الزواج بالمواطنين الرومان كي لا يدنس نقاء دم الجنس الإيطالي، أما العبيد الذين يتم تحريرهم دون استيفاء جميع الشروط القانونية فقد حرّمهم القانون من التمتع بالمواطنة الرومانية

ومنحوا منزلةً أدنى، وبذلك أصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية باعتبارهم إيطاليين وليسوا رومانيين، ويمكن لهؤلاء أن يحوزوا المواطنة الرومانية إذا تزوجوا زوجاً شريعياً وأنجبوا أطفالاً^(١).

٢- سياسة أغسطس الاقتصادية:

ما لا شك فيه أن استتباب السلم والاستقرار في البر والبحر كان له أهميته القصوى بالنسبة للحياة الاقتصادية في الإمبراطورية، فبعد انقضاء عدة قرون من حروب لم تنقطع تمتع عالم البحر المتوسط لأول مرة بسلم حقيقي شامل، وتحقق ذلك الحلم الذي كان يعيش في أذهان الناس منذ أجيال طويلة، ألا وهو حلم العصر الذهبي الذي يسود فيه السلام والطمأنينة. فلا عجب إن ظهرت بوادر الانتعاش الاقتصادي في جميع أنحاء الإمبراطورية خلال وقت قصير، كما غدت المنافسة الاقتصادية بين رجال الأعمال أمراً سائداً لا يعيقه أو يمنعه أو يؤثر به أية اعتبارات سياسية. ولم تتدخل الدولة ولا الإمبراطور في هذه المنافسة، وإنما تركت الحياة الاقتصادية وشأنها يتحكم بها قانونا العرض والطلب، والعائق الوحيد الذي كانت التجارة تواجهه داخل الإمبراطورية هو تلك الضرائب التي كانت تجبى على حدود الولايات الرومانية، ولكنها لم تكن مرتفعة أو باهظة، علماً أننا لا نعرف بالتحديد مقدار الضرائب التي كانت مفروضة على الزراعة والصناعة. أما الضرائب التي كان يدفعها أحرار الرومان على الميراث أو على إعتاق العبيد، أو تلك التي كانوا يدفعونها لصالح مدينتهم إلا أنها كانت قليلة لا تتجاوز الخمسة في المئة.

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ٩٨-١٠٢.

وخير دليل على أن هذه الضرائب لم تكن تشكل عائقاً حقيقياً أمام النشاط الاقتصادي هو ما عرفته المدن من انتعاش ازدهار سواء في إيطاليا أم في الولايات الأخرى.

لقد ساد عصر أغسطس حرية شبه مطلقة بالنسبة للتجارة إذ هَيأت للأفراد أفضل الفرص لإظهار كفاءاتهم وقدراتهم، ولم تتبع روما في العصر الجمهوري ولا في العصر الإمبراطوري الأول تلك السياسة التي سارت عليها بعض الدول الهلنستية سابقاً، ولاسيما البطالسة، ألا وهي سياسة تدخل الدولة في شؤون التجارة والصناعة واحتكارهما. أما في نطاق الحياة الاقتصادية في الإمبراطورية فيبدو أن السيطرة قد بقيت في أيدي الرأسماليين الكبار من العصر الجمهوري. وقد كان بعضهم من طبقة الأشراف وكان البعض الآخر ينتمي إلى طبقة الفرسان، ولكن عدداً لا بأس به من هؤلاء الرأسماليين كان من العتقاء والعبيد السابقين.

وكان الإمبراطور أحد هؤلاء الرأسماليين، ولكنه كان أعظم شأنًا على الإطلاق، وقد كان أوغسطس يدبر أمور ثروته الخاصة الطائلة بواسطة عبيده ومواليه، ولكنه لم يستطع الفصل بصورة تامة بين ثروته العامة وبين الأموال والثروات التي كان يملكها بوصفه أعظم موظف في الدولة الرومانية، ووالياً على أكبر الولايات وأغناها وحاكماً على مصر وخليفة عليها بعد البطالمة. وهكذا نشأت بعض الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية تشبه إلى حد كبير تلك التي سادت الملكيات الهلنستية، وكلما توسع الإمبراطور في الإنفاق على الأغراض والمشاريع أصبح من العسير التمييز بين موارده الخاصة وبين الدخل العام للدولة. وكان ذلك يعني أنه أصبح يتصرف في موارد الدولة كما لو أنها موارده الخاصة.

ومن المعروف أن أغنى الناس من الأرستقراطية الرومانية كانت تربطهم بالإمبراطور أغسطس أقوى الروابط، وكان كثير منهم من أعضاء أسرته وأصدقائه المقربين أمثال: أغريبا ومايكناس.

ولكن إلى جانب هؤلاء ظهرت فئة كبيرة من رجال الأعمال في الحياة الاقتصادية وكانوا ينتمون إلى الطبقة البورجوازية في المدن، وهي الطبقة التي نشأت بشكل تدريجي خلال القرنين الثاني والأول ق.م. في إيطاليا والولايات الغربية التي لم تنل الحروب الأهلية منها مثلما فعلت بالأرستقراطية العليا في روما. واستأنف هؤلاء الرجال نشاطهم في مختلف مجالات الأعمال بمجرد عودة السلام والنظام إلى ربوع الإمبراطورية، وصادف أغلبهم بلا شك نجاحاً كبيراً في هذا المضمار.

ويمثل عصر أغسطس دون شك فترة الرخاء الحقيقي بالنسبة لإيطاليا، وكان السبب في إحراز إيطاليا قصب السبق في عالم السياسة والاقتصاد، هو أن الشرق لم يكن قد تمكن بعد من إصلاح ما تحطم من موارده وقواه خلال الحروب المتواصلة، في الوقت المناسب لكي ينهض مسرعاً نحو حياة اقتصادية مزدهرة.

ولم تؤثر الحروب الأهلية كثيراً على الزراعة في إيطاليا، كما أنه لم يطرأ بعد انتهاء هذه الحروب أي تغيير جوهري على أسس السياسة العقارية والملكية، إذ ازدادت مساحة الضياع والأرياف زيادة مطردة وذلك على حساب المزارعين بوجه خاص، وكانت الأملاك الواسعة والمتوسطة تدار على أسس رأسمالية، لقد كانت ملكاً لأناس يعيشون في المدن ويكاد معظمهم ينتمي إلى طبقة المحاربين القدماء الذين استولوا على هذه الأراضي في عهود سوللا وبومبي وقيصرو أوكتافيوس.

إن التغيير التدريجي الذي طرأ على المظهر الاجتماعي في إيطاليا، وتزايد جموع العبيد، وكذلك تحول الكثير من المزارعين إلى عناصر نازحة استقرت لدى ملاك الأراضي "كولوني Coloni" كانت بؤادر عصر جديد في تاريخ البلاد.

وبالرغم من أن موضوع اختفاء صغار المزارعين كان شائعاً ومعروفاً، وأن الرأي العام كان يستغيث بأغسطس لينقذ هؤلاء الفلاحين من مصيرهم، إلا أن هذه النداءات لم تلق أي صدى لها، ولم تتدخل الإمبراطورية مطلقاً من أجل تغيير الأوضاع السائدة بالنسبة لنظام تملك الأراضي الزراعية في إيطاليا، فبعد انتهاء الحرب الأهلية لم يصدر أي قانون خاص يتعلق بملكية الأراضي الزراعية، بالرغم من حاجة البلاد الماسة له؛ وفيما عدا الزراعة، تعتبر التجارة بالتأكيد العامل الرئيسي في الحياة الاقتصادية في العصر الإمبراطوري الأول، فقد تفتحت الآفاق وتعددت الفرص أمام النشاط التجاري لسكان الإمبراطورية، وذلك بعد الانتهاء من الحروب الأهلية، لأسباب كثيرة أهمها:

- توحيد العالم المتمدن آنذاك وتحوله عملياً إلى دولة عالمية موحدة.
- سيادة السلم والأمن في الداخل والخارج.
- تأمين الملاحة في عرض البحر وحمايتها بفضل الأسطول الروماني القوي.
- الزيادة الكبيرة في هذه الطرق التي بلغت مستوى عظيماً من التقدم والتنظيم.
- فتح أسواق تجارية جديدة في ولايات إسبانيا وبلاد الغال والدانوب.
- إعادة تعمير قرطاجة وكورينث اللتين أصبحتا في وقت قصير من المراكز التجارية بالغة الأهمية.

ولقد أسهمت كل هذه العوامل مجتمعة في إيجاد حالة انتعاش وازدهار اقتصادي وكان من نتائجها البارزة الزيادة الملحوظة في النشاط التجاري في الإمبراطورية^(١).

إن معظم المنتجات في التجارة الخارجية كانت تنحصر في مواد الترف، ولم تكن لها أهمية حقيقية بالنسبة للحياة الاقتصادية في الإمبراطورية، على عكس التجارة الداخلية التي كانت أهميتها تفوق ذلك بكثير، وكانت تشمل التجارة المتبادلة بين

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ٢، ص ٤٦-٥٠.

إيطاليا والولايات، وكذلك تجارة تلك الولايات فيما بينها، وكانت في معظمها تدور حول المتاجرة في المنتجات ذات الضرورة القصوى: كالقمح كان يجري استيراده وتصديره بكميات كبيرة، ولم تكن إيطاليا قادرة على تغطية احتياجاتها من القمح الذي تنتجه. وكذلك الخشب الذي كان يجري تصديره واستيراده بكميات هائلة لاستخدامه في صناعة السفن الموجودة في أمار وبحار الإمبراطورية.

أما المعادن فلم تكن موجودة بكميات كافية في إيطاليا، لأن المناجم الكبرى كانت موجودة في إسبانية وبلاد الغال والدانوب إضافة إلى البلدان الشرقية. وقد لعبت تجارة زيت الزيتون والنبذ دوراً رئيسياً في الحياة الاقتصادية في إيطاليا وبلاد اليونان وآسية الصغرى، وكان الجيش الروماني بلا شك من كبار المستهلكين لهذه المادة.

أما تبادل البضائع المصنوعة والسلع اللازمة للاستعمال اليومي فقد كان يجري على نطاق واسع. ولكن التجارة في مواد الترف كانت أقل أهمية^(١).

أما فيما يتعلق بالصناعة فقد كانت إيطاليا أكثر أجزاء الإمبراطورية نجاحاً فيها ولاسيما أترورية وكمبانية. وقد اشتهرت المدن الكمبانية بتفوقها المتميز في مجال الصناعات التقليدية الإسكندرانية، كما نلاحظ تقدماً كبيراً في صناعة الملابس الصوفية، وأصبحت مدينة أكويليا "Aquileia" من أهم المراكز الصناعية في شمال إيطاليا بسبب علاقاتها التجارية الوثيقة مع الأقاليم الشمالية.

ومما لا شك فيه أن النهضة الصناعية قد عمّت مراكز كثيرة في باقي الإمبراطورية كالإسكندرية مثلاً، التي شهدت الحياة الاقتصادية فيها عقب الحروب الأهلية نجاحاً وتقدماً منقطع النظير.

(١) روستوفنزف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ص ٢٠٧.

وأخيراً يمكننا القول: إنَّ الحالة الاقتصادية في العصر الأغسطي كانت تتميز بطابعين هامين:

- الأول: عدم تدخل الحكومة بالحياة الاقتصادية في الإمبراطورية، فقد سادت فيها سياسة ليبرالية بحتة، كتلك التي سادت أوروبا في بداية الثورة الصناعية.
- الثاني: أهمية إيطاليا بالنسبة للحياة الاقتصادية في الإمبراطورية. إذ بقيت إيطاليا بقيت أغنى بلد في الإمبراطورية دون منافس وأعظم مركز في الغرب في كافة المجالات الزراعية والتجارية والصناعية بلا منازع. ولكن بواذر تحدي هذه السيادة الاقتصادية قد أخذت تظهر بصورة تدريجية. فإنتاج السلع ذات القيمة العظيمة في عالمي الزراعة والصناعة كان متركزاً بالدرجة الأولى في آسيا الصغرى والإسكندرية وسورية، كما أن الحياة الاقتصادية في الولايات الغربية، التي ظلت فترة طويلة من الزمن مقتصرة على إنتاج المواد الخام، ابتدأت تتعقد وتتطور، واقترب اليوم الذي استطاعت فيه تلك الولايات أن تطور اقتصادها إلى الحد الذي جعلها منافسة خطيرة لإيطاليا، ولكن هذا لم يتبلور إلا في القرن الثاني الميلادي^(١).

٣- الإصلاحات الدينية:

انتهج أغسطس بشأن الدين سياسةً شبيهةً بسياسته الأخلاقية، وهي الرجوع إلى الأصول والتقاليد الرومانية، بمعنى أن النظرة الرجعية غلبت عليها أيضاً؛ وذلك في عصر صار فيه العهد بعيداً عن العقائد القديمة التي كانت تتمثل في عبادة الأرواح الكامنة في

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ٢، ص ٥١-٥٢.

مظاهر الطبيعة، مثل أرواح النهر والحقل والبيت، والغابة ومفترق الطرق، والتي كانت قد اختلطت بالعقائد الإغريقية المتمثلة في التجسيد البشري لبعض قوى الطبيعة مثل أبولو إله الشمس، وهذه العقائد تقادم بها العهد وفقدت تأثيرها في المجتمع الروماني؛ حتى إن محاولة إحيائها بدت كأنها محاولة مصطنعة ومفتعلة، نتيجة لظهور عقائد دينية جديدة آتية من الشرق أكثر تأثيراً وجاذبية في المجتمع الروماني، وذلك مثل عبادة الآلهة إيزيس المصرية والإله مشرا من آسيا الصغرى، وأدونيس من الكنعانيين والفينيقيين، وسرعان ما شاعت هذه العبادات الجديدة بين عامة المجتمعات الإيطالية؛ أما الأوساط المثقفة فقد اتجهت إلى الفلسفة، وشاعت فيها مذاهب الرواقية والأبيقورية؛ وهناك من مزج بين الفلسفة والعبادات الشرقية.

في حين أن أغسطس أغفل كل ما طرأ من تطور ديني أو فلسفي، واتجه إلى إحياء التقاليد الرومانية القديمة. وبدأ منذ عام ٤٢ ق.م. ثم في عام ٢٨ ق.م.، بتطبيق برنامج ضخم لإعادة بناء المعابد القديمة، فأصلح منها اثنين وثمانين معبداً حسب قوله في سجل أعماله، كما أنشأ سنة ٢٩ ق.م، معبدين جديدين، أحدهما: ليولوس قيصر المقدس والآخر: للإله أبولو، وذلك باعتبارهما إلهين حاميين لأسرة الإمبراطور المعروفة بالأسرة اليوليية، ثم أنشأ معبداً للإله مارس المنتقم سنة ٢ ق.م. وكانت إعادة بناء أو ترميم المعابد القديمة، مناسبة عظيمة استدعت ممارسة بعض الشعائر القديمة، مثل عيد الحصاد أو الخصب في شهر أيار، أو إحياء الاحتفال بما يسمى المباريات العلمانية "Ludi Saeculare" سنة ١٧ ق.م، وهو احتفال للتكفير والتوبة وحمد الآلهة، وكان يحتفل بها حسب النظام الأفرودي القديم كل ١١٠ سنوات، وقد وضع الشاعر هوراتيوس لهذه المناسبة قصيدته "Carmen Saeculare" التي تم إنشادها في معبد أبولو المقام على تل البلاتين.

وربما ساعد إحياء الطقوس العتيقة على إذكاء روح الورع والبسالة، لكنها لم تقترن بمشاعر الولاء أو الإخلاص للحكومة الجديدة، فضلاً عن كونها لم تخدم أغراض الدعاية للنظام الذي أقامه أغسطس الذي كان في طبيعته يحمل طابعاً ملكياً لا جمهورياً.

ولعل محاولة استغلال الدين في أسباب الدعاية السياسية تتمثل على ما يسمى بمذبح السلام الأغسطسي الذي تصور بعض لوحاته "الأرض الأم- Terra Mater" جالسة على صخرة، وعلى حجرها طفلان من ثمار الأرض؛ وفي لوحة أخرى نرى صورة أغسطس مع الأرض التي ترمز للعالم الروماني في إشارة إلى أن أغسطس هو الذي حقق السلام والرخاء على الأرض، ويعود ذلك كله إلى ورعه ورضى الآلهة عنه، وهو الصلة بين الأرض والآلهة، ومن المعاني الأخرى التي روج لها، عبادة الربة روما، وقد وجدناها مصورة على مذبح السلام الأغسطسي الذي أقيم في مدينة قرطاجنة، وعليه صوّرت الربة روما جالسة على كومة من الأسلحة، وهذه دلالة على دور أغسطس في خدمة روما. فهي الآن آمنة تتركز على قوة السلاح. وهكذا اقترن شخص أغسطس بالآلهة وبالربة روما، واقترب كثيراً من الآلهة، وأصبح هناك مراسيم لعبادة الإمبراطور في الأقاليم والولايات^(١).

٤ - خلافة أغسطس:

كانت مشكلة الخلافة من أهم الأمور التي واجهت أغسطس، إذ كان حريصاً على أن يبقى الحكم في أسرته، رغم أنه تجنب استخدام لقب ملك، وحاول أن يوحي للآخرين بأن حكمه مؤقت، بينما كان في الواقع ينظر إلى حكمه الرئاسي على أنه ملك لعائلته، لأنه ورث الحكم هو نفسه عن خاله الأكبر يوليوس قيصر، ولذلك فقد

^(١) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٠٢-١٠٤.

اختار لخلافته أو مشاركته في الحكم عدداً من أقربائه وأصدقائه المخلصين وعلى رأسهم ماركوس فيسانيوس أغريبا وغيوس مايكيناس اللذان وقفا إلى جانبه منذ ظهوره على مسرح السياسة في روما بعد مقتل قيصر.

لم ينجب أغسطس نفسه ولداً ذكراً كي يخلفه، كان في البداية متزوجاً من **كلوديه** إحدى قريبات ماركوس أنطونيوس، ولكنه انفصل عنها عام ٤١ ق.م، ليتزوج من **سكريبونيه**، التي أنجبت له بنتاً سماها **يوليه "Iulia"** ولكنه طلقها في عام ٣٨ ق.م. ليتزوج من **ليفيه دروسلا "Livia Drusella"** التي كانت امرأة بارعة الجمال وذكية. وهذا ما دعا أغسطس إلى إرغام زوجها تييريوس كلاوديوس نيرو على تطليقها ليتخذها زوجة له.

بيد أن ليفيه هذه لم تنجب له أولاداً، وإنما كان لها ولدان من زوجها السابق وهما تييريوس ودروسوس، وإلى جانب هؤلاء كان ولدا أوكتافيه أخت أغسطس من زوجها كلاوديوس ماركيلوس اللذان يعتبران من العائلة الإمبراطورية.

كان من المقرر في البداية أن يصبح ماركيلوس، ابن أوكتافيه، خليفة أغسطس لهذا قام بتزويجه من ابنته يوليه، ولكنه مات مبكراً كما رأينا عام ٢٣ ق.م. وهكذا حل محله صديق أغسطس الحميم وساعده الأيمن أغريبا الذي تزوج أرملة ماركيلوس وابنة الإمبراطور يوليوس، وأثمر هذا الزواج بإنجاب حفيدين لأغسطس هما **غايوس** الذي ولد عام ٢٠ ق.م. و**لوكيوس** الذي ولد في عام ١٧ ق.م. وتبنى أغسطس حفيديه في هذه السنة وجعلهما قيصرين. ومنذ حادثة سنيهما استعان أغسطس بوالدهما أغريبا وبابني زوجته ليفيه من زوجها الأول وهما تييريوس ودروسوس.

وقد وثق الإمبراطور بهم جميعاً ولم يساوره الشك في إخلاصهم، وفي عام ١٦ ق.م. توجه أغريبا إلى الشرق لتدبير شؤونه ولم يعد من مهمته إلا بعد ثلاث سنوات. وجددت **بروقنصلية** أغسطس لمدة خمس سنوات أخرى، وكذلك جددت السلطة

التربونية له بمدة مماثلة لمساعدته أغريبا، ثم ظهرت بعض القلائل في البلقان فأُسرع أغريبا إليها لإخمادها، وعاد إلى روما ربيع عام ١٢ ق.م، وقد أنهكه المرض ليفارق الحياة بعد زمن قصير، وكان موته خسارة كبرى لأغسطس الذي فقد صديقاً مخلصاً ومعاوناً قديراً ووصياً أميناً على الأحفاد الخلفاء. وقد ولد له ولد ذكر بعد وفاته حمل اسم أغريبا بوستموس، وهكذا اضطر أغسطس إلى إعادة النظر في أمر الوصاية على حفيديه القاصرين، فأكره تيربوس على الزواج من يوليه المترملة سنة ١١ ق.م. وفي عام ٩ ق.م. وقع دروسوس من على صهوة حصانه في إحدى جولاته العسكرية الموفقة في جرمانية وفارق الحياة على إثرها، وهكذا أصبح تيربوس الخلف المنتظر لأغسطس في حال وفاته قبل بلوغ حفيديه السن القانونية، وانتهت مدة بروقنصلية أغسطس في السنة الثامنة ق.م، فقام بتجديدها لمدة ١٠ سنوات أخرى وأشرك تيربوس فيها، وفي السنة السادسة ق.م. تقلد تيربوس السلطة التربونية لمدة خمس سنوات. وفي هذه السنة بلغ الحفيد غايوس الرابعة عشرة من عمره، فمهد جده لانتخابه قنصلاً، وفوجئ أغسطس باعتزال تيربوس الحياة في هذه السنة في مدينة روما واعتكافه في جزيرة رودوس، وذلك بسبب عبث زوجته يوليه واستهتارها، ولم يعد إلى الحياة العامة إلا بعد أن قرر أغسطس إبعاد ابنته في عام ٢ ق.م، بسبب سوء تصرفها. وفي غضون ذلك كان الحفيد قد جاوز الطوق وفاز غايوس في السنة ٤ ق.م. بمقعد في مجلس أغسطس الخاص. ثم هب في العام التالي إلى الشرق بصفته بروقنصلاً في مهمة إدارية سياسية، وبعد ذلك ذهب أخوه لوكيوس أيضاً بمهمة مماثلة في الغرب، ولكنه توفي في مرسليليا وهو في طريقه إلى إسبانيا عام ٣ م. وفي عام ٤ م تبعه أخوه غايوس نتيجة جرح أصابه في أرمينية. وكان ذلك ضربة شديدة لجده أغسطس الذي اضطر على إثرها إلى تبني تيربوس ومنحه السلطة التربونية لعشر سنوات.

وقد تميزت السنوات العشر الأخيرة من حكم أغسطس بتعاون متزايد بينه وبين خليفته المنتظر تيبريوس، إذ اعتمد عليه في المهمات العسكرية، ولاسيما في جرمانيا وعلى نهر الراين^(١).

٥- موت أغسطس:

هذه الشخصية الفذة التي دخلت معترك السياسة في خضم محنة من أقسى المحن في تاريخ البشرية، ألا وهي الحرب الأهلية الرومانية، ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره بعد، لقد كان بحق بمثابة الترياق لسموم الدولة الرومانية، ولقد تميز بالصرامة والقدرة الفذة على العمل المتواصل، ولقد ألزم نفسه الجِد قبل أن يلزمه الإمبراطورية، ولذلك استطاع أن يفرض نفسه على الدولة كلها؛ وما من شك أنه استطاع أن ينتشل العالم الروماني من بعد أن أوشك أن ينقسم ويتوزع، ورغم تعقيداته التي لا تكاد تحصى فقد رد للمجتمع الروماني وحدته عسكرياً وسياسياً واجتماعياً، كما جاء على لسان أمهر مؤرخي الإمبراطورية الرومانية **تاكيتوس**، الذي لخص دور أغسطس في هذه العبارة:

"Legiones, classes, provincias, cuncta inter se conexa"

"إن الجيوش والطبقات والولايات، التحمت جميعها بعضها في بعض".^(٢)

وفي صيف عام ١٤ م حضرت الوفاة أوغسطس فقال لذويه المجتمعين حوله :
"لقد نجحت في الدور الذي مثلته، فصفقوا، واصرفوني من المسرح مصفقين مهللين". وبعد أيام قليلة حمله أعضاء مجلس الشيوخ على أكتافهم إلى حقل مارس، وأحرقوا جثته وسط ترانيم الوداع الحزينة. وفي أيلول رفعه مجلس الشيوخ إلى مصاف

^(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ٢، ص ٦٦-٦٨.

^(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، ص ١٠٤.

الآلهة، وأصبح يطلق عليه الإله أغسطس "Divus Augustus" أسوة بسلفه العظيم يوليوس قيصر^(١).

٦- الحكم على أغسطس:

مما لا شك فيه أن أغسطس كان رجلاً عظيماً، وأن الدستور الذي أعطاه للدولة الرومانية استمر في تطوره وتقدمه طوال قرنين من الزمن على الأقل وفق الأسس نفسها التي كان أغسطس أول من وضعها. ومما لا جدال فيه أيضاً أن عصراً جديداً من تاريخ العالم قد ابتدأ بأغسطس، وأصبح يعرف بعصر الإمبراطورية الرومانية. ولكن هذه الإمبراطورية كما أسسها أغسطس كانت ثمرة الاضطراب والارتباك والفوضى السائدة خلال الحروب الأهلية التي اشتعلت في إيطاليا والولايات الرومانية على حد سواء ودامت قرناً من الزمن، إضافة إلى اندلاع الحروب الأهلية نفسها.

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ج ٢، ص ٦٩.



The logo of Damascus University is a circular emblem. It features a central yellow sunburst with a black outline of a dome or minaret in the center. The sunburst is set against a light purple background. The entire emblem is enclosed in a circular border. The top half of the border contains the Arabic text 'وقل رب زدني علما' (O God, increase my knowledge) in white. The bottom half of the border contains the Arabic text 'جامعة دمشق' (University of Damascus) in white. Below the Arabic text, the English name 'Damascus University' is written in a grey, sans-serif font.

الفصل الثالث
من الازدهار إلى السقوط
خلفاء أغسطس



تمهيد:

لا بُدَّ لنا من التعرف على الظروف التي وضعت بعض الأباطرة في طريق القدر الملكي الذي حملهم إلى العرش دون أن يكونوا قد حلموا بذلك ولو للحظة، لأنه لم يكن ممكناً أن يخطر على بال أحدهم أن يصبح إمبراطوراً يوماً ما على مئة مليون مواطن في إمبراطورية مترامية الأطراف شرقاً وغرباً، وذلك قبل الدخول في تفاصيل السير الذاتية لهؤلاء الأباطرة.

وجدير بالذكر أن هناك فرقاً جوهرياً بين تاريخ الجمهورية وتاريخ الإمبراطورية، لأن اختفاء الأحزاب السياسية والنقاش العلني، جعل التاريخ السياسي يقتصر على موضوعات قليلة خاصة بالإمبراطور والبلاط، مثل شخصية الإمبراطور والطريقة التي اعتلى بها العرش، وعلاقته بمجلس الشيوخ والمؤامرات التي كانت تحاك في البلاط، وموته والشكوك التي كان يثيرها.

وسنحاول من خلال عرضنا الموجز ألا نتعرض لتفاصيل علاقات أشخاص تلك الفترة بعضهم ببعض، ذلك لأننا لا نؤمن بأن التاريخ القديم هو تاريخ سير وقصص حياة أشخاص، بل هو دراسة لعلاقة الأحداث والقوانين التي تحكم وقوعها والآثار المترتبة على ذلك سلباً أم إيجاباً.

وسنعرض لأهم الأباطرة الذين حكموا الإمبراطورية مع عرض لأهم الأعمال التي قام بها هؤلاء الأباطرة، والدور الذي لعبوه في نهضة الإمبراطورية الرومانية.

أولاً- عصر السلام الإمبراطوري (١٤-١٩٢م):

١- الإمبراطور تيريوس "Tiberius" (١٤-٣٧م)^(١):

لم يشأ أغسطس أن يسمي أو يعلن شخصية نائبه على عرش الإمبراطورية الرومانية، ولكن المواقف أكدت أن تيريوس كان ذلك النمط من الرجال؛ لأنه كان الحاكم الذي تحتاج إليه الإمبراطورية في ذلك الزمان، وذلك بالرغم مما قيل عن شخصه وما ذكرته تواريخ السير عنه.

لم يكن تيريوس رجلاً محبوباً، ولكنه كان رجلاً يتمتع بإحساس قوي جداً بالواجب، وقد استطاع خلال السنوات الأولى من حكمه أن يدعم أركان الإمبراطورية دعماً قوياً من الناحية الاقتصادية والإدارية، التي كان أغسطس قد وضع قواعدها.

حاول تيريوس جاهداً أن يهدئ ويرضي مشاعر المحافظين من فئات الشعب الروماني، ولذلك تقرب من السناتوس، محاولاً أخذ رأيه واستشارته في أمور كثيرة هامة، بما في ذلك الشؤون العسكرية، رغم أن هذا القرار من وجهة النظر الدستورية كان وفق نظام المواطن الأول الذي وضعه أغسطس في يد الإمبراطور نفسه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ترفه وسلوكه، في عكس هذا الاتجاه، فقد أقام وسكن في مقر السناتوس نفسه، مما زاد شكوك الأعضاء في نوايا الإمبراطور، لهذا جاء التناقض والتضارب واضحاً وجلياً، مما أوغل صدر السناتوس ضده^(٢).

(١) للاطلاع على حياة وسيرة الإمبراطور تيريوس انظر: إرنست ماسون: الإمبراطور الرهيب تيريوس، تعريب جمال السيد، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥.

(٢) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٥٩-١٦٠.

كان تيبيريوس إدارياً ممتازاً، إذ عاشت الإمبراطورية في عهده زمن سلام ورفاهية، وعلى يديه بدأ عهد السلام الروماني، إذ أعلن أنه "لا غزو ولا توسع بعد اليوم". ولم تكن أسباب ذلك القرار عسكرية. بل كانت أسبابه اقتصادية. فقد كان يريد للقوات الرومانية أن تستقر في المستعمرات، وأن تحصى عملية جباية الضرائب وتؤمنها، كما أن أي حروب جديدة كانت جديدة بأن تكلف الخزنة غالباً^(١).

وكان من ضمن واجبات الإمبراطور أن يزور الولايات والمستعمرات ويراقب القوات والموظفين ويفوز بصداقة شعوبها، ولقد حاول تيبيريوس كثيراً أن يؤدي تلك الزيارات، ولكن مشاغل الحكم والمشكلات المتلاحقة في روما كانا يجبرانه على إلغاء الزيارة بعد أن يكون قد قرر موعدها. لذا راح الرومان يسخرون منه ويطلقون عليه اسم كاليبديوس، وكان كاليبديوس ممثلاً هزلياً، وكانت هزليته المفضلة هي التظاهر بالاستعداد للحري، ولكنه كان لا يتحرك من مكانه.

ومع تزايد الأعباء التي أثقلت تيبيريوس، فإن اعتماده على قائده سيجانوس راح يتزايد حتى أصبح سيجانوس عينيه وأذنيه، ولم يعد تيبيريوس يثق بأحد غيره^(٢). ولكن سيجانوس استغل الأحقاد المريعة التي تحكم البلاط الإمبراطوري حينذاك. إذ تم استبعاد أغريبا أرملة جرمانيكوس هي وأطفالها عن تيبيريوس، وحاول كسب ثقة الإمبراطور، وتولى منصب قائد الحرس الإمبراطوري.

وفي عام ٢٦ م انعزل تيبيريوس في منزله الريفي المقام في جزيرة كابري مما سبب تراجع شعبيته في روما، وفي ٢٩ م ماتت ليفيا ونفيت أغريبا وأطفالها، وبدأ سيجانوس برسم الخطة ليزيح الإمبراطور نفسه، ولكن الإمبراطور اكتشف خطته في آخر الأمر. وفي ١٨ تشرين الأول عام ٣١ م عُقدت جلسة خاصة لمجلس الشيوخ تلي فيها خطاب

^(١) إرنست ماسون: الإمبراطور الرهيب تيبيريوس، ص ٨٣-٨٤.

^(٢) المرجع نفسه، ص ٨٦-٨٧.

طويل جاء من كابري، وقد بدأ الإمبراطور هذا الخطاب بوعد غامض عن منح سيجانوس وظائف أخرى مشرفة واختتمه بإعلانه خائناً، فحُمِل إلى السجن وشنق، ومزق غوغاء المدينة جسده إرباً إرباً.

وفي كابري قضى تيبيريوس السنوات الباقية من حكمه في عزلة تامة، وابتهج الشعب الروماني لوفاته عام ٣٧ م حتى مجلس الشيوخ رفض أن يغدق عليه ألقاباً مقدسة^(١).

وخلاصة القول: إنَّ تيبيريوس بسبب ما أصابه في سنوات حكمه الأخيرة من شك دائم وزيادة كبيرة في نشاط الجواسيس والمخبرين كما توسع في تطبيق قانون الخيانة العظمى، وإجبار السناتوس على أن يشارك في هذه اللعبة القذرة للحكم في محاكمات الخيانة، خلق جواً من الفساد والخوف والذعر بين الناس جميعاً، حتى إنَّهم تنفسوا الصعداء عندما سمعوا خبر وفاته في ١٦ آذار سنة ٣٧ م، ولم يتمكنوا من إخفاء مشاعرهم. ولهذا فإنَّ تيبيريوس برغم بعض نواياه الحسنة لم يكن من الأباطرة الناجحين.^(٢)

٢- الإمبراطور كاليغولا "Caligula" (٣٧-٤١م):

كان غايوس يوليوس قيصر ابن جرمانيكوس وأغريينا قد تربى منذ طفولته في معسكرات الجيش إذ أطلق عليه اسم مستعار هو " كاليغولا " أي ذو الحذاء الصغير. لذلك كان يتمتع بشعبية كبيرة بين الجنود، ولم يفعل تيبيريوس شيئاً لتعليمه، فتلقى دروساً لا تليق من هيرودوس أغريبا ومن بعض الأمراء الشرقيين الشبان، الذين سمح له

^(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١٠٨-١٠٩.

^(٢) Sinnigen, W.& Book, A., A History of Rome, 6th edition, New York, London, 1977, p 287.

بالاختلاط بهم، وقد كان كاليغولا يؤمن تماماً بأن العالم ملك له يفعل به ما يشاء، وكان معنى ذلك وفقاً لما هو مألوف أن ينقب عن إمكانيات هذا العالم بحثاً عن الشهوة واللذة والسادية.

كان مضطرباً ذهنياً، لذا فإن أعماله ومشاريعه السياسية كانت تبدو وكأنها صادرة عن رجل مجنون مثل انتصاره المضحك على الألمان بأسرى لهم شعر مستعار، وحملته الفاشلة على بريطانيا بجنود تلقوا أمراً بجمع قواقع البحر. وبالرغم من الإصلاحات العديدة التي قام بها في بداية حكمه كان من المؤكد أن الإمبراطورية في ظل حكم كاليغولا، قد انتقلت إلى أسوأ مراحل حكم السيادة المطلقة^(١).

وفي عام ٣٩ م حدث تحوّل هام في سياسة كاليغولا، حيث كوّن قوة معارضة لكل سياسات السناتوس، كما قام باعتقالات واسعة، وأعدم الكثيرين، وقام بتعذيب أعداد كبيرة من الشخصيات الهامة من المجتمع الروماني في روما. وفي العام ٤١ م ، ازدادات المؤامرات حول شخص الإمبراطور، وقد حاك ضباط الحرس البريتوري أغلبها، لأنهم اعتبروا تأييدهم السابق له مخاطرة سيئة، وقررت مجموعة منهم، وعلى رأسها أحد حراسه ويدعى كاسيوس خايريا قتله، وظلوا يطعنونه حتى فارق الحياة.

ويمكن القول: إنّ كاليغولا لم يترك أية بصمة إصلاح في إدارة الإمبراطورية الرومانية سواء في روما أم في الولايات، ما عدا أمره بتحويل قيادة الفرقة الإفريقية من رتبة بروقنصل إلى رتبة جنرال، وذلك بحيث يكون مسؤولاً مباشراً أمام الإمبراطور.

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١١٠-١١١.

لقد كان كاليغولا وما قام به من مهازل، وصمة عار في جبين روما وتاريخها المجيد، ولذلك جاء قرار من نصبوه إمبراطوراً بأن يضعوا حداً لهذه المهزلة، فطعنوه وقتلوه هو وزوجته وابنته الصغرى^(١).

٣- الإمبراطور كلاوديوس "Claudius" (٤١-٥٤م):

إنها المرة الثالثة - في مسلسل سخرية القدر من تاريخ روما المجيد- التي يأتي فيها إلى عرش الإمبراطورية الرومانية في روما، رجل أبله، وغبي، وقد جاوز الخمسين من عمره، ولكنه لا يخلو من الحكمة، كما أنه يتمتع بإحساس ذكي بالذوق العام، وذو خيال واسع لم يتمتع به لا أغسطس ولا تيريوس^(٢).

كان كلاوديوس عم الإمبراطور الراحل، مضحكة القصر وموضع احتقار كاليغولا، وقد أمسك به أحد حراس القصر مخبئاً خلف الستائر داخل غرفة الجريمة عند مقتل الإمبراطور السابق، ومرت لحظات، تبادلت مجموعة الحرس البريتوري فيها النظرات إلى أن قام أحدهم وفاجأ الجميع وتوجه إلى كلاوديوس حاملاً إياه على كتفيه هاتفاً بحياته إمبراطوراً جديداً خلفاً لكاليغولا.

تمتع كلاوديوس بموهبة عجيبة في كسب عطف الناس، وهناك مبالغة كبيرة في وصفه بالغباء، ويُعتقد بأنه كان يتغالي ولم يكن غيباً، وذلك لأنه ظهر في كثير من المشكلات دبلوماسياً ماهراً، ولكن طيبة قلبه هي التي جعلته يتساهل في بعض الجوانب لاسيما مع زوجاته وأصدقائه وموظفيه وعتقائه^(٣).

(١) محمود إبراهيم السعدني: حضارة روما، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) White & Kennedy, Op.Cit., p. 128.

(٣) سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، دار النهضة العربية ١٩٨٥، ط ٢، ص ١٥١-

أ- السياسة الداخلية:

وقع كلاوديوس للأسف ضحية جبهتين على شخصيته الطبية، وكانت هاتان الجبهتان متعارضتين، أو بالأحرى متناقضتي التأثير، فقد وقفت زوجات الإمبراطور في ناحية وهن مسالينا "Massalina" وأغريبيينا الصغرى "Agrippina" وكانت امرأتين لا أخلاق لهما، وكثيراً ما أزعجتا الإمبراطور، واستغلتا ضعفه أمامهما، ثم الجبهة الأخرى المكونة من ثلاثة موظفين تم إعتاقهم يديرون شؤون القصر.

وكانت نتيجة الصراع في صالح الجبهة الثانية من الرجال الذين استطاعوا إقناع الإمبراطور باتخاذ إجراء ضد مسالينا، فأمر بقتلها بعد أن شاع في روما سيطرة نساء القصر على كلاوديوس، وكان ذلك في سنة ٤٨ م، وقرر السناتوس بعد ذلك إبعاد كل تماثيل هذه المرأة من الأماكن العامة، وكان له ما أراد، وبهذا كسبت جبهة ناركيسوس الجولة، وكانوا دائماً ينصحونه بأفكار مأكرة ونصائح سديدة^(١).

أظهر كلاوديوس احتراماً شديداً لسياسة أغسطس، واتخذ لقبه شأناً عظيماً لديه، كما أظهر تبحره للسناتوس ولكن القيادات الأرستقراطية ساءها اعتماد الإمبراطور على العبيد والعتقاء في إدارة شؤون الإمبراطورية واتصاله مباشرة بهم، ولاسيما بعد أن تعارضت مصالح هؤلاء المحرومين وتلك الطبقة المكدومة بتطلعاتها المادية مع مصالح الطبقة الأرستقراطية ورجالات السناتوس أكثر من مرة. كان كلاوديوس يخطط لوضع نواة لجهاز تنفيذي جديد للإدارة المركزية في روما على أساس فكرة الدواوين والوزارات، وتقوم على أكتاف طبقة العبيد والعتقاء، كما عرفنا من قبل بخصوص وظائف المستشارين الثلاثة من الرجال.

(1) Grant, M.: Tacitus, The Annals of Imperial Rome, Penguin Classics, (revised ed.) 1971, pp 231-251.

وكان الإمبراطور كلاوديوس كذلك قد وجه ضربة قاسية للطبقة الغنية الأرستقراطية، في عام ٤٧ م، عندما أعاد إلى الوجود وظيفة **الكنسور** "الرقيب" وحصرها في يده. وفعلاً استطاع أن يوقف بعدها مهازل طبقة السناتوس وتعدياتها على حساب المصلحة العامة، كما أوقف العمل بقانون الخيانة العظمى الذي أُرهب الجميع.

كما اهتم الإمبراطور شخصياً بالشؤون القضائية اهتماماً خاصاً، وسيطر معه أمناء ومديرو الشؤون المالية على السلطة الفعلية في البلاد.

هذا بالإضافة إلى أنه أولى اهتماماً خاصاً بحركة الإنشاء والتعمير، فأكمل الإمبراطور بناء جسور المياه العلوية والمحاري، وافتتح طريقاً وبنى ميناء أوستيا "Ostia". وأشرف على إنشاء الطرق والمرافق العامة، كما قام الإمبراطور بتسهيل إجراءات تفريغ ودخول البضائع إلى روما، وشجع أصحاب السفن وأعطاهم امتيازات عدة لتوصيل الغلال إلى العاصمة من الميناء. وحرص الإمبراطور، كذلك على تسهيل توزيع القمح على عامة الشعب الروماني، وكان ذلك تحت إشراف الإمبراطور شخصياً^(١).

ب - السياسة الخارجية:

لم يكن كلاوديوس تقليدياً في إدارته للإمبراطورية الرومانية، وعمل ما كان من شأنه تغيير صورة أباطرة الرومان السابقين عليه الذين فقدوا الثقة في تيبيريوس وكاليغولا. وكان عليه أن يحمل عبئاً ثقيلاً مما جعله يعود بسياسته إلى سيرة أغسطس الأولى، بل سياسة التوسع الخارجية في عهد يوليوس قيصر الطموحة التوسعية.

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٦٩.

لقد نجح كلاوديوس في ضم كل من بريطانيا عام ٤٣ م، وكذلك موريتانيا عام ٤٤م، وفي عام ٤٦م أبقى وضع الولايات الصديقة قائماً على ما هو عليه مثل ولاية ثراكي "Therake" في شمال اليونان، وجعلها ولاية رومانية بعد موت ملكها.

كما حرص كلاوديوس على قيام علاقات وثيقة مع ممالك البحر الأسود، وقام بتطهيره من القراصنة، بهدف تحقيق أكبر قدر من الطمأنينة والأمان لقوافل التجارة البحرية في منطقة القمح الأوكراني الشهير.

ولم يفرق كلاوديوس بين المواطنين الرومان وبين سكان الولايات، فقد منحهم الجنسية الرومانية، ولاسيما شعوب الغال، وقد عين بعض زعمائهم في مجلس الشيوخ بالفعل كأعضاء وعاملين لهم نفس حقوق المواطنين الرومان في العاصمة.

والمفاجأة في رد كلاوديوس على طلب الإسكندرانيين بعودة مجلس الشورى إليهم، وفي رده كذلك على اليهود الذين أثاروا الفتن والاضطراب في الإسكندرية مرة ثانية، إذ يشكل رده عليهم دليلاً لا يقبل الشك، على دبلوماسية هذا الإمبراطور ومدى حرصه على مصالح إمبراطوريته وعاصمتها على وجه الخصوص.

وفي رده على اليهود، كان يبدو قوياً، عالماً بكل تفاصيل الصراع، منذ البداية، وهو يحاول ألا يغلق الباب تماماً، بل يعمل على تهدئة الخلاف، ولكنه يتوعد البادئ بالعدوان، وأرسل لهم رسالة أنهاها قائلاً: "ولئن لم يمتثلوا لأنتقم منكم بكل الوسائل بوصفهم قوماً ينشرون الوباء الشامل في أنحاء المعمورة، فإن كفّ كل منكم عن هذه الأعمال، ورضي بأن يعيش في تسامح وود مع الآخر فسوف أولي من جانبي اهتماماً للمدينة التي تربطها بنا صداقة تقليدية قديمة"^(١).

(١) عبد اللطيف أحمد علي: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٠٧-١٠٨.

ولكن هذه الرسالة المترنة التي تنم على فطنة ولباقة دبلوماسية، والتي أنصفت كلاوديوس لدى المؤرخين وغيّرت رأيهم فيه، لم تُرضِ اليهود؛ لأنها قضت على أملهم في الحصول على مزيد من الامتيازات، ولم ترض كذلك الإسكندرانيين لأنها أقرت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم، والأدهى من ذلك أنها أرجأت البت في طلب إنشاء مجلس الشورى، وهو إرجاء لم يقصد به سوى التخلص من الحرج والتهرب من مطلب لم يكن يتفق ومصلحة الإمبراطور^(١).

وتجد هذه الشخصية الخبيرة نهايتها على يد زوجته الأخرى "أجريبينا الصغرى"، القاسية التي دسّت له السم في طعامه حتى تضمن الحكم لابنها نيرون "Nero"، وتتمكن من إبعاد ابن زوجها الإمبراطور الطيب، وكان ذلك عام ٥٤م.^(٢)

٤- نيرون (٥٤-٦٨م):

تعد دراسة نيرون دراسة لشريحة معينة من الطغيان، لا تتكرر كثيراً في التاريخ لما تحمله من أشكال القسوة والتحجر. لقد كانت أيام حكمه عذاباً لا ينسى ولحظات سلطانه ذكريات لا تمحى، إلى درجة يمكن القول معها إن التاريخ حجل مما فعله، وإنّ الشيطان احتقر نفسه؛ لأنه رأى أستاذاً له بين البشر^(٣).

وصل نيرون إلى العرش الإمبراطوري في هدوء، وذلك بمساعدة مربيه الكاتب الكبير والفيلسوف سينيكا "Seneca" وكذلك رئيس الحرس البرائيتوري بوروس "Burrus".

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٩.

(٢) محمود إبراهيم السعدني: حضارة روما، ص ١٧١.

(٣) محمود متولي: طغاة التاريخ، كتاب مصر اليوم (١)، القاهرة ١٩٨٦، ص ١١.

وهكذا وللمرة الثالثة، يلعب الحرس البرائيتوري لعبة صناعة الأباطرة التي ظهرت بعد أغسطس، واستمرت حتى عام ٥٤م وهكذا أيضاً للمرة الثانية، تزداد ضراوة السلوكيات اللاأخلاقية والتكالب على العرش والسلطة والنفوذ بأي سبيل، حتى وصلت إلى حد أن قتلت الزوجة زوجها.

إنه شاب، بل غلام مدلل، ذو ستة عشر عاماً رتبته امرأة لكي يحكم إمبراطورية، هي أقوى وأكبر كيان في ذلك الزمان، من أب نبيل عرف بأنه أغلظ الناس قلباً وأقساهم طباعاً^(١)، وقام على تثقيفه فيلسوف عصره، سينيكا وهياًه بالفعل خلال خمس سنوات متصلة منذ عام ٤٩م للقيام بأعباء الإمبراطورية داخلياً على الأقل قدر المستطاع. هذا كله بالإضافة إلى أن أمه كانت متسلطة تريد أن تجمع كل الخيوط في أيديها، ولم تضع ابنها على العرش إلا كصورة وغطاء يخفي وراءه ممارساتها الفعلية.

لقد استطاعت الأم أجريينا "Agrippina" أن تسيطر على زمام الأمور بيدها لمدة قصيرة، ولكن سرعان ما نهض الابن نيرون بأعباء الحكم الإمبراطوري، وحاول القيام ببعض الإصلاحات انطلاقاً من بعض الأفكار الليبرالية فيما يخص بعض التعديلات الضريبية ومنع ألعاب ومنافسات المبارزة الانتحارية "Gladiatores"، التي كان يفضلها كلاوديوس.

وعندما ثبت عدم إمكانية تحقيق وتنفيذ تلك الأفكار، فقد نيرون الرغبة في الإصلاح، واندمج في اهتمامات أخرى تتفق مع سنه، مثل سباق العربات والموسيقى والمسرح وسهرات الجحون والعبث، مما أطلق يد سينيكا وبرورس لتسيير دفة الأمور في الإمبراطورية، وقد ساندتها ووقف وراءها رجالات السناتوس الأقوياء.

وهنا نشأ صراع بين جبهتين، جبهة الأم وجبهة مستشاري الإمبراطور الصغير الذي بدأ يحس بمضايقات الأم في كل تصرفاته، وأراد أن يتخلص منها نهائياً، فأمر

(١) سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، ص ١٥٩.

بقتلها، وتمت المؤامرة بإغراقها عام ٥٩م. وكانت هذه ثاني جريمة يقدم عليها هذا الصبي ليتخلص ممن حوله من الذين يحاولون التأثير عليه أو تحديد تصرفاته، إذ الجريمة الأولى كانت عام ٥٥م، أي بعد عام واحد من توليه العرش، عندما خطط لمقتل بريتانيكوس "Britannicus" بن كلاوديوس الإمبراطور السابق، ونفى كذلك ابنة الإمبراطور نفسه، أوكتافيا حتى لا يبقى أي أثر لورثة العرش الشرعية^(١).

وعندما مات بوروس عام ٦٢م، وتقاعس سينيكا عن مساعدة الإمبراطور، وذلك بعدما فقد مساعده الأول، وأدرك استحالة الاستمرار مع نيرون، انزاحت من أمام نيرون كل المعوقات، وبدأ يتصرف وفق هواه.

أصبح تيجلينيوس "Tigellinus" مستشاراً جديداً للإمبراطور، وكان رجلاً وصولياً خطيراً عينه نيرون كذلك رئيساً للحرس البرائتوري، ولا يخالف للإمبراطور أية رغبة حتى لو أفلس الخزنة العامة من كثرة المصروفات والبذخ الخرافي، مما ألجأه إلى مصادرة الأموال وتعيين مسؤول من الحرس على الخزنة العامة. بدلاً من السناتوس، فضلاً عن إعادة قانون الخيانة العظمى إلى حيز الوجود، فعاد الوضع السيئ إلى سابق عهده إبان حكم كاليغولا، وراح ضحية ذلك العديد من نبلاء المجتمع الروماني بحجة الخوف من المؤامرات ضد العرش.

وفي عام ٦٣م أنجب من عشيقته بوبياسينا ابنةً لم تعيش طويلاً، وكان قد تزوج بهذه العشيقة بعد طلاقه لزوجته الشرعية أوكتافيا بنت كلاوديوس وقتلها بفضاعة شديدة.

وفي عام ٦٤م، تعرضت روما لحريق كبير عاقبت الحكومة عليه الفئة المسيحية القليلة الموجودة في روما، ودارت الشكوك حول اشتراك الإمبراطور في إشعال النيران في المدينة. ولكن هذه الشكوك زادت ووصلت إلى درجة اليقين، عندما أدرك الشعب

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٧٣.

الروماني أن الإمبراطور أمر ببناء قصر منيف له، وتم بناؤه بعد ذلك بالفعل، على نفس الأراضي التي احترقت^(١).

وفي عام ٦٥م، تزعم أحد رجالات السيناتوس مؤامرة ضد الإمبراطور الشاب، وكان يُدعى السناتو بيزو "Piso" ولكن انكشف أمره مع أعوانه وملاقاهم لمصيرهم وهو الإعدام مثل كثيرين آخرين، وذلك بسبب اعتراضهم على الإرهاب الإمبراطوري، جعل سمعة الإمبراطور تتدهور تدهوراً واضحاً في روما، ولاسيما عندما ظهر على المسرح أمام النظارة، ليقدم أول أعماله الفنية في نفس العام، وكانت هذه الفضيحة بالنسبة لإمبراطور روما هي المحرك الأول للمؤامرة سالفة الذكر.

والأكثر غرابة أن نيرون أجبر كوربولو "Corbulo" الذي كان قد أصبح بطلاً قومياً، بفضل انتصاراته العسكرية في أرمينيا على الانتحار وفعل الشيء نفسه مع شخصيات أخرى مرموقة، سواء أكانوا قادة عسكريين أم رجالاً مفكرين، مثلما فعل مع سينيكا. لقد كان يخالف أولئك جميعاً، مما جعل الجميع يقتنعون على اختلاف مواقعهم، بأن دوام الحال من المحال، ومن ثم فكروا جميعاً في التخلص منه، وأن "يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم".

هكذا كانت سياسة نيرون الداخلية، إن جاز لنا أن نستخدم هذا المصطلح على هذا الكم الهائل من الصراعات الدموية وعمليات الإعدام المستمرة لشخصيات رومانية كبيرة، وكان دافعها هو حب الظهور والاهتمام بالثقافة اليونانية.

وحدث في عام ٦٨م، أن قامت ثورة بقيادة قائد يدعى فندكس "Vindex" وهو حاكم غاليا الوسطى. ولكن جالبا حاكم إسبانية (الذي كان على علاقة طيبة مع

^(١) يؤكد عدد من المؤرخين عدم وجود دليل مادي واحد على صحة الاتهام الذي وجه إلى نيرون بأنه حارق روما، واختلف المؤرخون القدماء في ذلك. سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، ص ١٦٥.

نيرون) كان قد اتصل سراً بفندكس، ولحق به أوتو "Otho" أيضاً وهو زوج بوبيا السابق، عشيقه نيرون وزوجته فيما بعد. ونادى به جنوده إمبراطوراً، وأكد السناتوس ذلك في روما، وأعلن الحرس البرائيتوري تضامنه مع جالبا، وعندئذ أدرك نيرون سوء موقفه، فهرب ومعه بعض رجاله المخلصين، وأخيراً فقد عقله وراح يصرخ قائلاً: "واحسرتاه علي، أنا الفنان ألقى حتفي". وأخيراً دفع بجنجره إلى عنقه، ومات منتحراً في تموز عام ٦٨م^(١).

٥- عام الأباطرة الأربعة أو عام الثورات (٦٨-٦٩م):

وبانتحار نيرون في عام ٦٨م، تصارع على السلطة قيادات الجيوش الرومانية، إلى أن اعتلى عرش روما الإمبراطوري، أقواهم وأكثرهم سنداً من غيره، وذلك بفضل قادة الجيوش الأخرى.

وازداد ضعف الأباطرة بعد أغسطس، لأنهم لم يكونوا على مستوى المسؤولية الخطيرة لمن يجلس على العرش الإمبراطوري، فظهروا أقزاماً أمام قيادات الجيش، وطفح الكيل لديهم، واستبد بهم القلق على مصير الإمبراطورية كما زادت طموحاتهم فليسوا أقل قدرة أو إمكانية من أولئك الصبية الذين يتناوبون عرش روما، وكلهم متناقضون، يلعبون بالمؤسسات المتعارف عليها، وأهمها السناتوس، ويكيلون الضربات للطبقة الأرستقراطية النبيلة التي كانت هي المسؤولة يوماً ما عن مقدرات الشعب الروماني السياسية، فكان منهم زعماء السناتوس، وكذلك العسكرية إذ كان منهم أعظم قادة جيوش روما قبل ذلك.

آن الأوان إذاً بعد مرور نحو ١٠٠ عام على نظام المواطن الأول "Principatus" الذي لم يجرؤ أحد من القادة على أن يقف في وجهه عام ٦٨ م وبعد صور الفشل

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٧٤-١٧٥.

المتكرر والمهازل والفضائح الدائمة لأباطرة روما ورجالات القصر الإمبراطوري، كان لا بُدَّ من تدخل العسكريين لإنقاذ الموقف.

➤ جالبا "Galba":

جاء جالبا إلى عرش روما وقد بلغ من العمر ٧١ عاماً، وكان بحق أول حاكم، من خارج الأسرة الإمبراطورية، يجلس على عرش البلاد^(١).

كان جالبا قد على رأس قواته بهدوء إلى روما في تشرين أول ٦٨م، بمجرد انتحار نيرون، ولكنه لتشده وتطرفه، أقدم على قتل عدد من البحارة كانوا قد جاؤوا لمقابلته مما ترك أثراً سيئاً على بداية حكمه، فضلاً عن وضاعته مقارنة بغيره من الأباطرة وسوء اختياره لمستشاريه، كل ذلك ساعد في الإسراع بإبعاده عن السلطة وإحساسه بعدم الأمان، وانتشرت الأنباء السيئة عنه.

وفي أوائل العام الجديد هو عام ٦٩م، تحرك جيش ألمانيا العليا ودمر تماثيل جالبا، وطالب السناتوس والشعب الروماني باختيار خليفة جديد، ولكن قوات ألمانيا السفلى في اليوم التالي نادت بإمبراطور جديد، لحسابها الخاص، كما هو معروف، وهو فيتليوس "Vitellius" وقبلت قوات ألمانيا العليا هذا الترشيح الجديد وأيدته.

ولكن تسليم الأمور لم يكن سهلاً على جالبا، ولهذا فرَّ لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وهذا ما سيصبح تقليداً فيما بعد كما سنرى لدى تبني آخر، وهو الأمل الأخير في خطوة أحزنت كثيراً صديقه ومسانده الأول القائد أوتو "Otho" حاكم لوزيتانيا "Lusitania" (البرتغال حالياً)، مما زاد في حنقه عليه، لذلك دبر مقتل جالبا بنفسه، ليصبح أول إمبراطور روماني يرتب عملية التخلص من سلفه، وكذلك أتم القضاء على كل مستشاريه، وبالطبع أعدم خليفة جالبا الذي كان ينوي أن يتبناه

⁽¹⁾ Grant, M.: Tacitus, The Annals of Imperial Rome, p. 231.

كل ذلك في يوم ١٥ كانون ثاني عام ٦٩م، وهكذا كانت بداية حكم أوتو بدايةً
درامية إلى أبعد درجة^(١).

➤ أوتو "Otho":

بعد الانتهاء من عمليات القضاء على أذئاب جالبا وما تبع ذلك من إجراءات
مرعبة، هدأت الأحوال، وبدأ حكمه بإظهار الاعتدال.
وقد نال أوتو تأييد وموافقة القوات الرومانية المربطة في كل من مصر وشمال
إفريقيا وشرق الدانوب والفرات، وبالرغم من ذلك كان عليه أن يواجه تأييد الفرق
الرومانية في ألمانيا لشخصية أخرى هي فيتليوس، وكانت قد نادى به إمبراطوراً، كما
أنه كان عليه أن يفعل شيئاً إزاء تحرك القوات في اتجاه الجنوب صوب روما.
تسرع أوتو في مواجهة قوات فيتليوس القادمة عند نهر بو "Po" ولم ينتظر المساعدة
من قوات الدانوب، وكانت نتيجة المعركة أن هزم هزيمة نكراء في بلد كريمونا
"Cremona"، مما اضطره إلى الانتحار في ١٦ نيسان من نفس العام "٦٩م"، وبهذا
سهل المهمة أمام قوات القادم الجديد من الشمال الألماني الذين دخلوا روما، وجلس
فيتليوس، على عرش روما، وسارع السناتوس إلى الاعتراف به إمبراطوراً جديداً.

➤ فيتليوس "Vitellius":

بالرغم من أن فيتليوس كان رجلاً ذا قدرات عادية، رفض أن يقلد سابقه في
تسمية نفسه بألقاب مثل قيصر وأغسطس، كما فعل كل من جالبا وأوتو.

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٧٦-١٧٧.

وقد حرص هذا الإمبراطور الجديد على تأكيد سيادة السلطة القنصلية ودوامها كأساس لحكمه عقب صراع مسلح مع غريمه أوتو، وهو النموذج أو المثل الثاني لصراع القادة العسكريين الدموي (لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بعد الحروب الأهلية قبل الميلاد)، معتمداً على قدرته في تكوين أسرة سياسية جديدة عكس سلفه ولاسيما أنه كان لديه ابن أكبر ليورثه العرش.

ولهذا نراه يُبعد الحرس البرائتوري الذي كان في عهد أوتو، ويبدله بقيادة من فرقته الخاصة، ولكنه بمجرد أن وصل إلى العاصمة روما، أحزنه ما علمه حول الفرق العسكرية الرومانية في الشرق التي غيرت ولاءها وحولته إلى قائد آخر، وهو فسباسيانوس "Vespasianus" حاكم يوديا "Judea" المملكة اليهودية التي ثارت في وجه الحكم الروماني.

وحملت الأيام له كذلك أخباراً أسوأ، فقد فعلت فرق الدانوب الشيء نفسه، وهكذا فرضت الأوضاع الجديدة، هذه الصورة على القائدين، وكادت البلاد تصبح على أعتاب حرب أهلية رومانية جديدة في سبيل الوصول إلى عرش روما، وستكون حرباً للمرة الثالثة لا محالة.

ويشاء القدر أن يعطي فيتليوس نفس الدرس الذي أعطاه لسلفه أوتو، فتأتي هزيمته على أيدي أحد قواد فسباسيانوس، ويدعى بريموس "Primus" في نفس المكان، الذي كان فيليوس قد هزم فيه أوتو، ويهرب فيتليوس ويتم القبض عليه بواسطة الجيش الغازي لروما من قوات روما الخارجية في الولايات الشمالية.

لقد استطاعت قوات موكيانوس وهم أخلص رجال فسباسيانوس له، أن يحدوا من طموحات بريموس، وقد حكم موكيانوس روما باسم الإمبراطور الجديد لمدة نحو ١٠ أشهر إلى أن استقرت الأوضاع ودخل الإمبراطور فسباسيانوس روما منتصراً.

➤ فسباسيانوس "Vespasianus" (٧٠-٧٩م):

كانت شخصيته حازمة لكنه ينحدر من أصل غير مرموق كأسلافه، إذ إنّه ينتمي إلى طبقة الفرسان، وقد كانت له ميول واهتمامات واضحة يفخر بها، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يستمر أسلافه في حكم روما لبضعة شهور قلائل فقط لكل منهم بينما نجد هذا الإمبراطور فقط يستمر بالحكم لمدة عشر سنوات ثم يموت بنهاية المطاف ميتة طبيعية.

كان إمبراطوراً عظيماً أرسلته العناية الإلهية لإنقاذ روما، ولهذا يمكن اعتباره الرجل المناسب في الوقت المناسب، إذ تسلم زمام الأمور بعد أن عم روما الخراب والدمار وساد التدهور أرجاء الإمبراطورية.

ويعتبر فسباسيانوس بحق قدوة صالحة لكل الناس، لأنه كان رمزاً للبناء والتشييد، وكان يحمل التراب والرماد بنفسه، ويساعد العمال بلا راحة ولا هدوء، وكان إدارياً ناجحاً، دقيقاً، حازماً، بخيلاً في الترف ومقتراً في الإسراف الذي عرف عن السابقين، عملياً إلى أقصى درجات الواقعية، لا يهتم بالمظاهر مطلقاً، ورغم ذلك أنفق بسخاء على مشاريع العمران وترميم المباني العامة وإعادة بناء الكابيتول، وقد اهتم بجباية الضرائب جدياً، حتى على المراحض في داخل روما.

كما أعاد منصب الرقيب (٧٣-٧٤م) حتى يستطيع أن يطهر السناتوس من أعدائه ويتمكن من إدخال العناصر المؤيدة له، وفي نهاية المطاف، أشرك ابنه في الحكم كخليفة له^(١).

(١) محمود إبراهيم السعدي: حضارة روما، ص ١٧٧-١٨١.

٦- الإمبراطور تيتوس "Titus" (٧٩-٨١م):

هو ثاني أباطرة عائلة فلافيوس، ولد عام ٣٩م، وقد فاق أباه في شعبيته أثناء حكمه القصير الأمد، وكان معروفاً باسم "حبيب الجنس البشري". لقد بدأ بداية طيبة، تمتعت روما فيها على الأقل لمدة عامين بإمبراطور أصيل سخي عطوف على كل الناس. وكان والده قد أشركه في الحكم منذ عام ٧٠م، بعد عودته من حربه الظافرة ضد اليهود، وقد جرى تشييد قوس النصر الشهير له والذي لا يزال قائماً حتى اليوم على الفوروم رومانيوم تخليداً لأجاده الحربية، وعلى الرغم من أن مدة حكمه كانت قصيرة تتميز بحدوث عدة مصائب وكوارث طبيعية، فقد انتشر الطاعون في عهده انتشاراً مهلكاً، كما شب حريق هائل في روما، وثار بركان فيسوف ثورته الشهيرة التي دمرت مدينة بومبي وهيركولانيوم الواقعتين في مقاطعة كمبانيا إلى الجنوب من روما، والتي ذهب ضحيتها أيضاً العالم الروماني الشهير بليبيوس مؤلف موسوعة التاريخ الطبيعي، وقد ظهرت حكمة تيتوس واهتمامه برعيته من خلال مساعدته لضحايا هاتين الكارثتين.

وخلال حكم هذا الإمبراطور تم تدشين مسرح فلافيوس الدائري عام ٨٠ م والمعروف باسم كولوسيوم، وكان العمل به قد بدأ في حياة والده وهو يتسع لخمسين ألف متفرج، وقد استمرت احتفالات الافتتاح ما يزيد على مئة يوم قتل فيها نحو خمسة آلاف حيوان متوحش.

٧- الإمبراطور دوميتيان "Domitianus" (٨١-٩٦م):

وهو ينتمي أيضاً إلى أسرة فلافيوس، وقد شهدت فترة حكمه معارضة كبيرة، إذ دمرت تماثيله ومحى اسمه من النقوش، ولعنت ذكراه، ولكن من اللافت أن عدواته اقتصرت على الطبقة الأرستقراطية الرومانية، وظهرت بشكل واضح خلال السنوات

الأخيرة من حكمه (٩٣-٩٦م)، عندما أصبح طاغية مستبدًا متقلب الأطوار، فنتج عن ذلك ما يسمى حكم الإرهاب، وانتشر الوحشة بصورة لم يسبق لها مثيل أبداً، وقد استطاع القضاء على كل من كانوا يقفون في طريقة.

برهن دوميتيان على أنه إداري قدير، وقد أمضى معظم فترة حكمه على نهج تيريريوس. ولعل وجهة نظر دوميتيان في سلطته المتطرفة وطبيعة حكمه الاستبدادي قد أوجبت على الناس مخاطبته بمولانا وإلهنا، وقد حدّ من سلطات مجلس الشيوخ حتى أصبح لا حول له ولا قوة، وذلك عندما حصل على السلطة الكنسورية التي مكنته من السماح للأعضاء بدخول المجلس أو طردهم منه مدى الحياة.

تميزت سياسته الخارجية بتطورات هامة على الحدود، ففي بريطانيا كان يقوم تحت خدمته حاكم قدير يدعى جانيوس يوليوس أجريكولا، وفي جنوب غرب ألمانيا أكمل دوميتيان عملاً كان قد بدأه والده فبسياسيان كان الغرض منه احتلال الزاوية الواقعة بين الراين وأعالي الدانوب، وظهرت نذر الخطر من مملكة داكيا (وهي رومانيا الحديثة). وكانت هذه البقعة أرضاً غنية بمعادنها كالفضة والحديد والذهب، بالإضافة إلى كونها صالحة للزراعة تماماً في الاودية، وكانت القلاع الهائلة المقامة على التلال تتحكم في الطرق الإستراتيجية، وفي عهد يوليوس قيصر كان يحكمها حاكم قوي هو بروبيستا الذي أقام مملكة قوية حتى إن قيصر كان يعدّ العدة ليشتبك معه لولا وفاته؛ ولكن بعد موت بروبيستا تضاعف خطر مملكته داكيا طوال قرن من الزمن، ثم ظهر الخطر من جديد على يد ملك أكثر طموحاً وهو دكبالوس، وقد خلق هذا الرجل أقوى مملكة في وسط أوروبا، واتخذ من جيرانه القاطنين على طول نهر الدانوب حلفاء له، وأقام علاقات دبلوماسية مع بارثيا. وفي عام ٨٥م أرسل جيوش مملكته داكيا لغزو ولاية موسيا، وجابهت روما حرباً شعواء، ومنيت بهزيمة منكرة عام ٨٦م، ولكن في العام التالي أحرزت روما نصراً في تاباي حيث قتل دكبالوس، ولكن اندلاع الثورة في

أعالي الدانوب مع جيوش الدانوب قد منع دوميتيان من الوصول إلى حل نهائي لمشكلة مملكة داكيا، فتم عقد السلام بشروط غير مشرفة .

وفي الوقت نفسه، دفعت ثورة لوكيوس أنتونيوس ساتورنينوس في عام ٨٨م حكم دوميتيان إلى مرحلة أسوأ. وبدأ في ذلك الوقت باضطهاد الطبقة الأرستقراطية. وأصبحت مدينة روما عبارة عن خليط من الرعب والتملق ولا تتبع منها أية معارضة إلا من جانب الرواقين، وهم أحفاد الرواقين الشهداء الذين عاشوا في ظل حكم نيرون، والفلاسفة والمستشارين.

وأخيراً تم اغتيال دوميتيان نتيجة مؤامرة حيكت في القصر عام ٩٦، وأصبح من الواضح أن تولي الرئاسة لا يمكن أن يستمر على سياسة التوارث العائلي السابقة^(١).

٨- الإمبراطور نيرفا "Nerva" (٩٦-٩٨م):

حلت فاتحة عصر جيد، وذلك باختيار عضو من مجلس الشيوخ ليصبح إمبراطوراً وهو نيرفا، ويرجع هذا الاختيار إلى خصائصه الطيبة، وكونه رجلاً مسناً في السادسة والستين من عمره. لقد كان رجلاً مدنياً يليق بمجلس الشيوخ، وكان حكمه بمثابة نقاهة للدولة استطاع الناس فيها أن يتنفسوا الصعداء، وأن يتوصلوا إلى حل أكثر دواماً، استطاع نيرفا أن يمزج شيئين كانا متعارضين فيما سبق، ألا وهما الرئاسة والحرية. وتعني كلمة الحرية هنا حرية مجلس الشيوخ. ولقد أظهر نيرفا للناس اختلافاً بيناً عن الذين سبقوه ووضع مصالح روما وإيطاليا نصب عينيه، ولكن إدارته كانت إدارة ضعيفة ولم يتمكن من تحاشي الوقوع في مشاكل جديدة لم تكن أهمها تبنيه لقائد جيوش جرمانيا العليا ماركوس أورلييوس ترايانوس ليخلفه.

^(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١٢٣-١٢٧.

لقد كان لهذا الاختيار للرجل الذي وقع عليه الاختيار أهمية كبيرة، فالكل كانوا مقتنعين بضرورة دوام الرئاسة والمشكلة السياسية القومية التي ترتبت على هذه الضرورة هي أن الرئيس لا بُدَّ أن يكون أقدر رجل في الدولة، وقد اتضح لمدة طويلة أن هذا قد يتم باتباع وسيلة التبني حسب رأي المفكرين الرواقيين هذه الوسيلة لروما فرصة التمتع بأطول فترة تتولى فيها حكومة صالحة زمام الأمور (٩٨-١٨٠م)، وذلك خلال حكم ترايان وهادريان على وجه الخصوص.

٩- الإمبراطور ترايان "Trajanus" (٩٨-١١٧م):

كان ترايان مواطناً إسبانياً من عائلة رومانية حديثة العهد بإدارة الدولة، وهو أول إمبراطور ينتمي إلى ولاية خارج إيطاليا، ويتمكن من أن يعتلي العرش، وقد اعتبره معاصروه وخلفاؤه من أقدر الأباطرة الرومان ووضعه في مرتبة أغسطس، وكان حكمه يتميز ببرنامج اجتماعي في إيطاليا كما يتميز بإدارة ممتازة للولايات وبأعلى درجة من درجات التوسع للنفوذ الروماني بعد أن قام بغزواته في داكيا وبارثيا، وعلاوة على ذلك فإن بناء ترايان لسوق جديدة إلى جانب السوق الرومانية قد توج روعة روما الحضارية.

كما أن إمدادات إليمته "Alimenta" وهي الهبات التي كانت تمنحها الدولة لمساعدة الأطفال الفقراء في إيطاليا، كانت أكثر المراحل وضوحاً في مجال الحياة الاجتماعية في العالم الروماني، وقد بدأ هذا المشروع كمشروع خاص ثم تولته الدولة أثناء حكم نيرفا وتوسع فيه ترايان فيما بعد. وكانت تموله السلف التي تمنحها الدولة للفلاحين، وكان الفلاحون يدفعون لهيئاتهم المحلية أرباحاً بنسبة منخفضة لا تتجاوز الخمسة بالمئة. وكانت الهيئات المانحة تقوم بتوزيع هذا الدخل من الأرباح على شكل منح لآباء الأطفال الفقراء.

وكان إشرافه على المصروفات العامة في كل أجزاء الإمبراطورية لا ينقطع، بل ربما كان مبالغاً فيه، لقد كانت أكثر من ٧٠ مدينة من مدن الولايات الرومانية التابعة لمجلس الشيوخ ملزمة أن تقدم تقاريرها إلى مبعوثي المجلس الشخصيين، وفي بعض الأحيان كانت ولايات كاملة تحظى برعاية فائقة مثلما حدث عندما عين بلينيوس الأصغر حاكماً لولاية بيثونيا في آسيا الصغرى. وعلى الرغم من ذلك فقد وصلت السيطرة المركزية على هذه الولاية درجة مذهلة من الدقة والتنظيم.

وعلى الرغم من ذلك كان ترايان يتمتع دائماً بشهرة الإمبراطور العسكري، إذ إنه يتميز من كل الأباطرة بحروبه في داكيا وبارثيا، وربما تظهر حروب داكيا الجيش الروماني وهو في قمة عظمته، وذلك بالتأكيد بفضل إمرة قائده المغوار، ومما يدعو إلى الأسف أننا لا نستطيع أن نضع تعليق ترايان حول هذه الحروب إلى جوار النقوش البارزة المحفورة على عمود في روما لنصدر حكماً عادلاً تماماً على كل ما يحتويه من أعمال مجيدة. والحقيقة أننا نستمد من عامود ترايان صورة رائعة للجيش الروماني وهو في أرض المعركة، وذلك بالتعرف على التفاصيل الكاملة عن تحركاته العسكرية ومهامه، وهذا ما يبرز بالتأكيد قوة اعتماد هذا الجيش على قائده، كما يظهر العمود أيضاً مقاومة أهل داكيا العنيدة وعتادهم وقلاعهم الهائلة وملكهم دكبالوس العظيم، وهو رجل جدير بأن يكون خصماً لترايان نفسه. وقد فشلت كل محاولات العلماء المحدثين بتكوين تاريخ متصل للحمالات التي قام بها، وذلك من خلال النقوش المحفورة على العمود. ولكن يمكن القول: إن حملات ترايان ابتدأت عام ١٠١م واستمرت عدة سنوات، وما إن جاء عام ١٠٦ حتى كان دكبالوس قد مات، ووقعت داكيا في أيدي الرومان، وضمت إلى الإمبراطورية بوصفها ولاية رومانية، وقد طرد منها معظم سكانها، وذلك لإيجاد أراضٍ جديدة للمستوطنين. لقد ترك استعمار داكيا الذي قام به سكان عدة أجزاء من الإمبراطورية أثراً لا يمحو للحضارة اللاتينية في روما، كما

أنه قد دعم الخزانة الرومانية بإمدادات هائلة من الذهب والفضة جاءت من كثر ملك داكيا.

وتعتبر أسباب قيام ترايان بحروبه في بارثيا (١١٤-١١٦م) أسباباً غير واضحة تماماً، ولكن من المحتمل أنها جاءت نتيجة لخرق الاتفاق الذي عقده نيرون حول أرمينية، وقد قام ترايان بثلاث حملات مظففة ضم على إثرها كلاً من أرمينيا وبلاد ما وراء النهرين بوصفها ولايات جديدة، كما استولى على عاصمة بارثيا "كتسيفون"، ثم اتجه جنوباً إلى رأس الخليج العربي بالقرب من مدينة عبدان الحديثة، وهناك رأى سفينة تمرّ باتجاه الهند فعاد بذاكرته إلى الإسكندر الأكبر، وتمنى لو كان بسنه ليحذو حذوه ويتابع السير إلى الهند. وكان ذلك ذروة نجاح روما ضد بارثيا. ولكن سرعان ما حدثت المتاعب ففي عام ١١٧م اندلعت ثورة في الولايات البرثية المهزومة، كما حدثت انتفاضة يهودية رهيبة أثرت على مصر وقبرص، وكذلك حصل العديد من المشاكل أثناء غياب الإمبراطور. لهذا اتجه ترايان إلى وطنه، ولكنه توفي وهو على طريق العودة في كيليكيا، وكان مجلس الشيوخ قد أصدر حكمه على رئاسته، وأغدق عليه لقب الأول و الأعلى "Optimus" وهو لقب لم ينله أحد قبله، وكان حتى ذلك الوقت موقوفاً على جوبيتير نفسه، رئيس مجمع الآلهة الرومانية^(١).

١٠ - الإمبراطور هادريان "Hadrianus" (١١٧-١٣٨م):

لقد مهد نظام التبني الطريق أمام خليفة جدير بأن يخلف هذا الإمبراطور العظيم، ألا وهو حارسه الخاص الذي كان مواطناً من نفس بلده يدعى بوبليوس إيلْيوس هادريانوس، وكانت تربطه به صلات قرابة بعيدة، فقد كان هادريان رجلاً لكل المواقف ذا طاقة عقلية وجسمانية خارقة للعادة يحمل شوقاً شديداً لمعرفة كل شيء عن

^(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١٢٧-١٣٣.

الدنيا، وكان يشارك الجندي العادي تدريبه عندما كان مع الجيش، ويزاول التمارين العسكرية وتدريبات السير، ويرفض أن يستخدم عربةً لتنقلاته، وقد تسلق جبل أتنا في صقلية وهو في سن الخمسين من عمره، وقام شخصياً بعمل مسح للمكان كي يحدد موقع السور الروماني في بريطانيا، ولما كان طوال حياته نصيراً متحمساً للثقافة اليونانية فقد اطلع على أسرار اليوسيس "Eleusis"، وقام ببناء حي جديد في مدينة أثينا. وقد كان راعياً للفنون كما كان هو نفسه مهندساً معمارياً مرموقاً ومبدعاً، والقليل من الرجال في التاريخ هم الذين ترتبط أسماءهم بقائمة تشييد هذه الأبنية الضخمة مثل الألبيون في أثينا والمعبد المقام في كوزيكوس ومعبد فينوس في روما والمنزل الريفي، أو بالأحرى قصره الصيفي في تيفولي قرب روما وضريح هادريان.

وكان عليه أن يواجه في بداية حكمه، مشكلة اتخاذ قرار حاسم بشأن فتوحات ترايان، وقد فضل التخلي عن سياسة التوسع والتنازل عن كل المناطق الواقعة شرقي نهر الفرات، ويقال إنّه فكر أيضاً في التخلي عن داكيا، ولكنه تراجع لأن الاستعمار كان يسير سيراً حسناً، ربما كان تغيير سياسة ترايان التوسعية هو الذي تسبب في مؤامرة القناصل الأربعة عام ١٧ م كلهم كانوا أعضاء في هيئة قادة سلفه العظيم.

وتميزت سياسة هادريان بالحزم في شتى أوجهها، فقد أرجع نظام الضرائب، وألغى المستحق منها، وضع خططاً لمشروع جديد يستمر لمدة خمسة عشر عاماً، كما تولت مصلحة إمبراطورية، توسعت في عهده وكان أعضاؤها من الفرسان الرومان، جمع الضرائب بشتى الأنواع، ومن الممكن معرفة النظام الذي اشتق منها مباشرة في شكل البيروقراطية التي تكونت في الأزمنة المتأخرة من عصر الإمبراطورية.

لم تتوقف عناية هادريان بالجيش أبداً. بل زاد من صرامة نظمته، وبدأ استخدام تكتيكات جديدة ووصلت وحدات الجيش إلى مستوى عالٍ من التدريب.

وبنفس المقدرة راجع القوانين الرومانية قام بتصنيفها على أيدي خبراء القانون في ذلك العصر، ولاسيما "المرسوم الدائم - Edicton Perpetuum" الذي قام بوضع الفينوس يوليانوس ويعتبر مؤرخو القانون هذا العمل من أروع الأعمال التي أتى بها القانون الروماني قبل جستنيان.

ويجب أن نضيف إلى كل هذا الإصلاحات المحلية التي لا حصر لها وقد نتجت عن رحلات هادريان في الولايات حيث تكتظ بها السنوات العشر من حكمه (١٢٠-١٣٠م)، فقد قام بجولة أولاً في بلاد الغال وبريطانية وإسبانية وموريتانيا (١٢٠-١٢٣م)، ثم في آسيا الصغرى واليونان وبنطوس وصقلية (١٢٣-١٢٧م)، وبعدها في إفريقية عام ١٢٨م، وأخيراً قام بجولة أخرى في الشرق تضمنت سورية والولاية العربية ومصر. ولم يحدث أن رأى أي رئيس آخر للدولة جزءاً كبيراً من الإمبراطورية كهذا مثلما فعل هادريان.

لم يرزق هادريان بأطفال، ولهذا فقد أصبح من الضروري أن يتخذ خليفة له عن طريق التبني. وتتفق كل المصادر التي وصلتنا عنه أن الرجل الذي وقع عليه أول اختيار له هو **لوكيوس كومودوس** وقد مات قبل أن يموت هادريان نفسه، أما ثاني اختيار له فقد وقع على رجل قدر له أن يتمتع بأكثر نصيب من التقدير في كل أنحاء الإمبراطورية دون غيره من كل الحكام الرومان وهو **أنطونيوس بيوس**^(١).

١١ - الإمبراطور أنطونيوس بيوس "Antoninus Pius" (١٣٩-١٦١م):

كان أنطونيوس في سن الواحدة والخمسين عندما تبناه هادريان، وكانت فترة حكمه في أوج مجد السلام الإمبراطوري طويل الأمد الذي اعتقد أحد كبار المؤرخين

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١٣٤-١٣٦.

أن أحوال الجنس البشري خلاله كانت أكثر الأحوال يمناً وازدهاراً خلال هذه الفترة، إذ أصبح العالم الروماني يحكمه رجل مهذب مستقيم كرس حياته لخدمة رعاياه، صارم في ميوله يجد متعة في الحياة العائلية التي يقضيها في المقاطعات الريفية.

وفي الواقع يبدو من غير الممكن أن تجد حاكماً في منأى عن اللوم كهذا الحاكم، أما فترة حكمه فلم يتخللها وقوع أحداث مهمة، كما أنه لم يقيم برحلات إلى الولايات، وكانت علاقته بمجلس الشيوخ علاقة توافق وانسجام، وكان يراجع القانون بصفة مستمرة، فأصبح هذا القانون أكثر إنسانية، وتتلخص فحوى حكمه في كلمة السر التي قالها لحارسه وهو على فراش الموت وهي الموازنة والاعتزان، وعندما نقارن بين هذا الاعتزان الذي ساد عصره وبين الكوارث المفاجئة التي حلت بالإمبراطورية في عهد خليفة ماركوس أوريليوس نجد أن هذه الطريقة جافة وصعبة، حتى إن المؤرخين قد لجؤوا إلى استخدام الصور البلاغية عند عرضها، فهم يصفون عصر أنطونيوس بأنه يوم مشرق في أواخر أيام الصيف أو كهدهوء يكتنف البحر ستهب بعده رياح لتسير سفينة الدولة من جديد.

ويميل المؤرخون إلى اعتبار فترة حكم أنطونيوس السنوات العجاف للإمبراطورية الرومانية، في وقت ترك فيه الجيش ينزل من علياء مستوياته الرائعة التي كان قد وصل إليها في عهد هادريان، وقد بلغت الولايات مرحلة الانحلال أثناء غياب الإمبراطورية، كما كانت فاتحة الاتصال بالشعوب المتبررة القاطنة على الحدود، ولم تتخذ في هذا العصر أية حركة تقدمية إلا في بريطانيا حيث أقام أنطونيوس سوراً جديداً في أقصى الشمال، وكان هذا السور بمثابة خط دفاعي أقصر من الخط الذي أقامه، ولكن وراء تلك الأسوار الرومانية وبين ربوع هذا العالم المتبرير الممتد من غابات ألمانيا وبولندا حتى أبواب روسيا ومنغوليا، عاشت شعوب هذه المناطق حركة قلقة لا يهدأ لها حال، ولم يعلم الرومان عنها شيئاً حتى ارتطمت أمواجها في آخر

مراحل اكتمالها بأسوار الراين والدانوب الدفاعية، وجاء الوقت الذي يجب أن يدفع فيه العالم ثمناً باهظاً عن الأيام السعيدة التي قضاهَا أنطونيوس وهو يجمع محاصيل الكرم في بلدته الريفية، لكن أنطونيوس على الأقل لم يفشل في اختيار خليفته ماركوس أوريليوس^(١).

١٢ - الإمبراطور ماركوس أوريليوس "Marcus Aurelius" (١٦١-١٨٠م):

ولد في عام ١٣١ م من عائلة تنتمي إلى طبقة العامة، وقد تبناه أنطونيوس بيوس بناء على رغبة ووصية الإمبراطور هادريان، لم يحدث أن تربع على العرش حاكم قد تسلح بالعلم أكثر منه حتى إنه دعي بفيلسوف على العرش، ولو قدر لفترة حكمه أن تأتي في أحوال أكثر ملاءمة لأصبحت بمثابة حكم عادل حافل بالنعم التي افترض الفيلسوف أفلاطون أنها تعم الدنيا عندما يصبح الفلاسفة ملوكاً، ويعود السبب في ذلك أن ماركوس قد تشبع تماماً بطابع الفلسفة الرواقية المتأخرة التي تقتصر في جوهرها على علم الأخلاق.

ولكن فلسفته هذه لم تعلمه كيف يحكم على الرجال، ففي بداية حكمه استدرجه مجلس الشيوخ ليوافق على اقتراح فريد من نوعه: ألا وهو أن يكون لوكيوس فيروس أخوه بالتبني إمبراطوراً مساعداً له. وقد كان هذا الاختيار سيئاً؛ لأن لوكيوس لم يكن جديراً بحمل هذا العبء، وسرعان ما برهن على ذلك عندما تم إرساله ليتصدى لغزو قام به ملك بارثيا **فلوجيسيس** على ولاية سورية. فبينما كان لوكيوس يستمتع بمباهج مدينة أنطاكية كان قادة جيشه الأكفاء يجمعون شتات الجيش الروماني في سورية ثم تمكنوا من صد البرثيين، واستولوا على مدينة كتيسفون كما فعل تاريان من قبل.

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١٣٦-١٣٧.

وكان أقدر هؤلاء القادة هو أفيدوس كاسيوس الذي ينحدر من أصل سوري، وقد اكتسب هذا الرجل شهرة ذائعة الصيت في كل بلدان الشرق، وكان انتصاره تأكيداً قوياً للنفوذ الروماني، ولكن جيوش كاسيوس جلبت معها إلى الوطن وباء من أخطر الأوبئة التي عرفها التاريخ وهو وباء الطاعون، مما أدى إلى انتشاره في الإمبراطورية، فانتشر الدمار في كل العالم الروماني.

وتبع ذلك حدوث كارثة أخرى وقعت في الشمال، إذ قام ائتلاف قوي مكون من الشعوب المتربصة بالهجوم على خط نهر الراين الدفاعي كله، وشمل هذا الهجوم داكنيا وولايات الدانوب ووصل حتى البحر الإدرياتيكي عند بلدة أكويلا الإيطالية عام ١٦٦م، ولم يحدث أن تفاقت مثل هذه الأزمة منذ زمن طويل، وقد تطلب هذا الموقف الخطير حضور الإمبراطور، كما أدى إلى ضياع ثلاثة عشر عاماً في قتال مرير، عُرف باسم الحروب الماركومانية "Bella Marcomana"، التي لم يصلنا عنها إلا بعض المعلومات الضئيلة، ولكن يبدو أن ماركوس قد أعد بالفعل خلال هذه السنوات خطة رائعة للإطاحة بـ مثل هذه الأخطار إلى الأبد، وقد أدى هذا إلى الرجوع إلى خطة أغسطس من جديد، والتي تهدف في طياتها إلى توسيع الحدود شمالاً، حتى نهر الألب عن طريق بوهيميا، وإلى التوسع حتى تلتقي هذه الحدود بحدود داكنيا الشمالية على طول الخطوط الدفاعية الموازية لجبال الكاربات في رومانيا، وما إن جاء عام ١٧٥م حتى كان المشروع قد أصبح يتخذ صورته المرسومة، ولكن اندلاع الثورة في الشرق وإعلان أفيدوس كاسيوس إمبراطوراً، دفع ماركوس بمغادرة الدانوب مسرعاً باتجاه إلى سورية، ولكنه وجد كاسيوس قد فارق الحياة والثورة في طريقها إلى الانهيار. وفي الوقت نفسه فشل مشروعه في الشمال، فشرع بالقيام به مرة أخرى بنفس تملؤها الحسرة.

كان ماركوس أول إمبراطور من الأباطرة الذين تولوا العرش الثاني ينبغي أطفالاً، وقد كانت الرغبة في خرق نظام التبني إحدى الرغبات التي لم يستطع مقاومتها. ولم يثنه فشله عن تجربته لإقامة حكم مشترك مع لوكيوس فيروس ولم يلغ الفكرة من رأسه بل أجرى تجربة أخرى مع ابنه كومودوس الذي نصبه إمبراطوراً في عام ١٧٧م.

١٣ - الإمبراطور كومودوس "Commodus" (١٨٠-١٩٢م):

يعد لوكيوس أوريليوس كومودوس ابن الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس من أشهر الأمثلة المعروفة في التاريخ عن الآباء الصالحين الذين ينجبون أبناء فاسقين. وكانت فترة حكمه كارثة حقيقية من كافة الوجوه على الإمبراطورية، فقد بدأ حكمه بتخليه عن غزوات أبيه ماركوس ومشاريعه على حدود الدانوب لكي يوفر لنفسه حرية التمتع بالملذات في روما، كما وقع تحت تأثير حلقة من الأصدقاء التافهين وأصبح أكثرهم تأثيراً هم قادة الحرس البريتوري الذين بدؤوا يديرون عملية منجلة لبيع الوظائف العامة. ونبع من ذلك حكم يشبه إلى حد كبير أسوأ أيام حكم كاليغولا ونيرون، وقد كان كومودوس يتمتع بنصيب وافر من الشعبية بين غوغاء الرومان باعتباره شريكاً لهم في ملذاتهم الوضيعة. ولم يجرؤ أحد على اغتياله إلا في عام ١٩٧م، ذلك العام الذي جعل كومودوس بدايته فريدة من نوعها، وذلك بظهوره بين الشعب بوصفه قنصلاً مجالداً محترفاً في اليوم نفسه، أما ما تركه وراءه من شرور فلم يزل موجوداً من بعده، ذلك لأنه لم يكن هناك من يخلفه. وحدثت الأزمة نفسها التي وقعت في عام ٦٩م، ونشبت سلسلة من الحروب الأهلية جلبت الخراب والدمار، ولكن في هذه المرة لم يكن هناك فسياسيان آخر ليعيد الحكم الصالح في العالم^(١).

(١) محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، ص ١٣٧-١٤٢.

ثانياً-عصر الاضطراب والفوضى (١٩٢-٢٨٥م):

لقد بدأت الإمبراطورية تعاني بعض التصدع السياسي والاجتماعي إبان القرن الثالث، فقد نشب صراع مرير بين الأباطرة والسناطوس حول مسألة الحكم، فضلاً عن ازدهار طبقة الفرسان التي فتحت الأبواب على مصراعيها للجنود المسرحين، واستولت هذه الطبقة على كافة المراكز الحيوية في الإمبراطورية، كما سيطر الجنود الأليريون والبانونيون على الجيش الروماني، واستولوا على المستوطنات العسكرية عند الحدود، وفرضوا قادهم على العرش بقوة السلاح، وتحولت المجالس المحلية التي أنشأها الأباطرة بهدف الحكم الذاتي بين هذه الشعوب المختلفة إلى أجهزة الحكومة الرومانية من أجل تحقيق مآربها حيث فرضت الضرائب الباهظة على السكان، وأهملت الزراعة لقلة العناية بالري والصرف، كما أن نقص في الأيدي العاملة في مجال الزراعة قد ظهر واضحاً بسبب الخسائر البشرية نتيجة للهبوط الشديد في نسبة المواليد، وارتفاع نسبة الوفيات بسبب نقص في التغذية.

وقد عصف الفقر بالناس وأرهق كاهل الحكومة الإمبراطورية، فاضطرت في عصر سبتيميوس سفيريوس إلى زيادة الضرائب والمكوس لتعويض العجز العام في دخل الخزينة ومجابهة نفقات الحروب المدمرة على الجبهات المتعددة، لقد كان على الناس أن يتحملوا نفقات إطعام الجيوش وصناعة ملابسهم وسلاحهم، وأن يعبدوا لهم الطرق ويحفروا الخنادق، وبنوا الأسوار الدفاعية مجاناً فانتشرت الأوبئة الفتاكة بين السكان.

ومن أهم ما يبرز في هذا المجال الدور الذي قام به الجيش، فبعد أن كان فيما سبق أداة يستغلها الإمبراطور لخدمة مصالح الإمبراطورية أصبح الجيش في هذه المرحلة الجديدة يتزايد وينحرف، فبدلاً من أن يحكم الإمبراطور بواسطة الجيش أصبح الجيش هو الذي يحكم بواسطة الإمبراطور، وتحكم القادة العسكريون في شؤون الحكم، وأخذوا يعزلون الأباطرة ويقيمون غيرهم، مما أدى إلى انعدام الاستقرار داخلياً، ومنذ

أواسط القرن الثالث بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين، وأخذت الدولة تتباعد عما بقي من التقاليد الجمهورية السابقة، وظهرت الثورات التي هددت وحدة الإمبراطورية وتماسكها^(١).

حتى في أوج حالة الفوضى السياسية والاجتماعية كان هناك أباطرة ناضلوا بجهود مضنية من أجل الدفاع عن الإمبراطورية الرومانية، فقد نجح جماعة من القادة الذين تولوا منصب الإمبراطور أن يغيروا مجرى الأحداث، وأن يستعيدوا الحدود، وأن يقضوا على جيوش الغزاة من البرابرة الجرمان والفرس، وأن يضموا الأقاليم التي انفصلت عن الإمبراطورية في بلاد الغال والشرق، وفي الوقت نفسه اتخذوا بعض الإجراءات الكفيلة بإيقاف التدهور والانهيار الاجتماعي والاقتصادي الذي جعل الإمبراطورية في حالة من الضعف والوهن، وقد انتشرت تلك السياسات وأثمرت في عهدي دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م)، وقسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م)، اللذين يعود إليهما الفضل والمسؤولية في إعادة بناء الإمبراطورية^(٢).

ولكن لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع أباطرة القرن الثالث كانوا غير أكفاء، فقد أظهر أول الأباطرة العسكريين في ذلك القرن وهو سبتيموس سيفريوس (١٩٣-٢١١م) مقدرة كبيرة على الرغم من نزعته الاستبدادية، حتى إنَّ عهده يُعدُّ مرحلة تحول في تاريخ الإمبراطورية والنظم الرومانية جميعاً، وقد استطاع هذا الإمبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت في الحكم حتى سنة ٢٣٥م، واشتهر من أباطرتها كاراكلا (٢١١-٢١٧) بسبب القانون الذي منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالي

(١) عقاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية ٢٠٠٢، ص ٧-٨.

(٢) س. ورن هلستر: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحى الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨، ص ٣٨.

الإمبراطورية من الأحرار. ومهما يكن من أمر فإن الفضل يرجع إلى الإمبراطور سبيريوس في تأجيل الكارثة التي حلت بالإمبراطورية الرومانية. ويتضح نفوذ الجيش الروماني في ذلك الوقت ونظرة الأباطرة إلى رجال الجيش في النصيحة التي قدمها هذا الإمبراطور إلى أبنائه وهو على فراش الموت، إذ قال: "أجزلوا العطاء للجند، ولاهتموا بالآخرين"^(١).

وبتولي الإمبراطور دكيوس (٢٤٩-٢٥١م) منصب الإمبراطورية، بدأت سلسلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهوري، حتى جعلوا من الجمهورية نظاماً استبدادياً يعتمد على الجيش في تنفيذ مشيئة الإمبراطور والضغط على أهالي الإمبراطورية. وهكذا أصبحت الحاجة ملحة في الداخل إلى إصلاح النظم الإدارية الخاصة بالولايات فضلاً عن نظم الضرائب والعملة. أما في الخارج فقد أخذ ضغط الجرمان يتزايد ولاسيماً على جبهتي الراين والدانوب، في الوقت الذي ازداد الخطر الفارسي على الولايات الآسيوية.

^(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص



The logo of Damascus University is a circular emblem. It features a central yellow sunburst with a stylized lamp or torch in the center. The sunburst is surrounded by a purple ring. The outermost ring of the logo contains the university's name in Arabic script at the top and English script at the bottom. The text in the center of the page is overlaid on this logo.

الفصل الرابع
سقوط الإمبراطورية الرومانية



تمهيد:

بلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها في عهد الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م)، فقد أصبح حدّها الشمالي عند السور الذي شيده ذلك الإمبراطور في بريطانيا. ممتداً من البحر الشمالي حتى البحر الأسود، بموازاة نهري الراين والدانوب، وهي حدود رسمتها الطبيعة، وقد شمل النفوذ السياسي للإمبراطورية كل آسيا الصغرى، كشريط يمتد على طول السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، ويشمل الشام ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش.

ويمكن القول إنّ أراضي الإمبراطورية امتدت حول البحر المتوسط مركز العالم القديم، غير أن نفوذ الإمبراطورية من الناحية الواقعية لم يقتصر على البلاد الواقعة داخل حدودها السياسية، بل امتد حتى بلغ فارس والهند، وتطرق إلى بلاد النوبة والسودان، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة في مجاهل أوروبا شرقي الراين وشمالي الدانوب^(١).

وبوجه عام يعد القرنان الأول والثاني من حياة الإمبراطورية الرومانية قرني ازدهار ورقي سلمي، إذ اصطبغت منطقة غرب أوروبا بالصبغة الرومانية، حتى باتت الصورة في القرن الرابع مغايرة تماماً لما كان مألوفاً في القرنين الأولين، ذلك أن الإمبراطورية التي مرت بفوضى القرن الثالث واضطراباته، قد تغير شكلها، ولم تكد تتماسك إلا بفضل الجهود الياثسة للإمبراطورين دقلديانوس وقسطنطين^(٢).

وحق القرن الثاني أيضاً، تمتعت الإمبراطورية بالأمن والسلام، ولم يعكر صفوها إلا بعض الغارات الخفيفة التي كان يقوم بها جيران الإمبراطورية على حدودها. وذلك الشرق والجنوب الشرقي، فقد كان البربر في المغرب والقبائل في الصحراء مصدر إزعاج من وقت إلى آخر، ولكنهم لم يشكلوا خطراً فعلاً، وكذلك كانت أحياناً

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٥، ج ١، ص ١١-١٢.

(٢) Banow (R.H.), The Romans, Butam 1975, pp 163-164.

شعوب البكت "Picts" والسكوت "Scots" تعبر سور هادريان أحياناً، وتقوم بإحداث القلاقل وإزعاج الحاميات الرومانية، ولكن الإمبراطورية كانت بعيدة عن أية أخطار حقيقية قد تأتي من ناحيتهم، أما الخطر الأعظم فقد كان خطر الجرمان في الشمال، فيما وراء نهر الراين والدانوب، ذلك أن التصاقهم بحدود الإمبراطورية، فتح أعينهم على ما احتوته ولايات تلك الإمبراطورية من ثراء ورخاء، الأمر الذي جعلهم يغيرون عليها بين وقت وآخر بغية الحصول على غنائم مجزية وخيرات وفيرة. ومن الملاحظ أن الحكومة الرومانية كانت قادرة على حماية حدودها، ورد غارات الجرمان بالقوة أحياناً، وبالطرق الدبلوماسية أحياناً أخرى، فقد جرى عقد عدة اتفاقيات بين الحكومة الرومانية وزعماء القبائل الجرمانية المجاورة لحدود الإمبراطورية، نصت على أن تقوم روما بحماية تلك القبائل من جيرانها، مقابل أن تقوم تلك القبائل بمنع رعاياها من الإغارة على أراضي الإمبراطورية.

وعلى أية حال، فقد قامت القوات الرومانية المسلحة على امتداد جبهتي الراين والدانوب في القرنين الأول والثاني بواجبها لكبح جماح الغزاة المحليين، سواء في صورة شن هجوم واسع أو قيادة حملات تأديبية⁽¹⁾، ولكن الأمر اختلف منذ السنوات الأخيرة للقرن الثاني، وابتداء من القرن الثالث.

وعلى الرغم من الحروب الدائرة هنا وهناك على امتداد حدود الإمبراطورية، ساد السلام بقاعها الواسعة نتيجة النظام في مجال الطرق الواسعة الرائعة الذي ابتدعته العبقرية الرومانية، والذي وحد بين عواصم الإمبراطورية ومدنها من بريطانيا وإسبانيا في الغرب، حتى نهر الفرات في الشرق، وكذلك قامت المواصلات البحرية بدور حضاري لا يقل شأناً عن الدور الذي قامت به الطرق البرية، فقد شهد البحر المتوسط حركة ملاحية دائبة، ويعود الفضل فيها إلى مياهه التي لم تعرف القراصنة آنذاك في

(1) Jones (A I I, M), The Decline World., London 1975, pp 10-11.

توحيد المدن الكبيرة القائمة على شواطئه، ولما كان الأمن منتشرًا في جميع أنحاء الإمبراطورية، صار السفر ميسرًا للمواطنين بشكل تام سواء للعمل أم الصحة أم المتعة، وما ساعد على إتاحة السفر وتسهيله أيضاً اللغة السائدة في الإمبراطورية، وتوفر العملة الدولية الصحيحة، وحماية القوانين، وهي أمور لم تعرفها الإمبراطورية في القرون التالية، بدليل أن المرء كان بوسعه السفر من الفرات إلى إسبانيا، مستخدماً لغة واحدة مشتركة يمكنه التفاهم بها في كل مكان، وصار من المستطاع سماع من يتحدث باللغة اليونانية في شوارع المدن التجارية مثل روما ومرسيليا والإسكندرية وبوردو، إضافة إلى ضفاف أنهار النيل والعاصي ودجلة^(١).

ومن السمات المميزة للإمبراطورية الرومانية، اختلافها عن أية إمبراطورية أخرى شاهدها العالم القديم، فمنذ أن اتسعت دائرة نفوذ الرومان، دخلت في حوزتهم شعوب وأجناس متباينة، مارست أنظمتها الاجتماعية ومعتقداتها الدينية ولغاتها وتقاليدها وقوانينها الخاصة بها، دون تدخل من قبل الحكومة الرومانية، طالما أن تلك المعتقدات والنظم لا تتعارض مع سلامة الإمبراطورية وأمنها من ناحية، ومادام السكان يدفعون الضرائب المقدرة عليهم من ناحية أخرى، وانطلاقاً من روح المرونة الكافية التي أظهرها الرومان تجاه الشعوب الخاضعة لهم. فضلاً عن الوحدة الحضارية والحكومة المنظمة التي أعطوها لجميع دول العالم المتمدن، فلم تعرف شعوبها العنصرية التي تعتبر آفة العصور القديمة.

وفي الأيام الأخيرة من حياة الإمبراطورية، اعتبر سكان الولايات البعيدة "رومانين" مثل الذين ولدوا في روما نفسها، وبذلك ألغيت الفوارق البغيضة في الإمبراطورية، وصارت جميع الوظائف، بما فيها المنصب الإمبراطوري نفسه، ميسرة لجميع المواطنين

(1) Lindsay (T M.), "The Triumph of Christianity", in Carob. Med., Hist., Vol. 1, pp 87-88.

شريطة استخدام اللغة اللاتينية في الأعمال الرسمية والإدارات الحكومية والمعاملات العامة^(١).

ولكن أحوال الإمبراطورية الرومانية أصابتها يد التبديل والتغيير في القرن الثالث، بسبب ما حلّ بها من ضعف وجمود، انعكسا سلباً على جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما أدى في النهاية إلى القضاء على مجدها الزاهر ومكانتها العالمية، وأيسر ما يقال في هذا الصدد إنّ الرومان في القرن الثالث كانوا يخدعون أنفسهم، صحيح أن البناء الخارجي لاجتماعهم ظل قائماً إلى حد ما، إلا أن روح الإمبراطورية كانت قد ماتت حقيقة من الداخل.

وبمعنى آخر يمكن القول: إنّ المشاكل العديدة التي ألت بالإمبراطورية قد تضافرت معاً ابتداءً من ذلك القرن، وعملت على إيجاد ثغرة عملت ضدها ساعدت القبائل الجرمانية والمثيرة في المستقبل على أن تنفذ منها إلى قلب الإمبراطورية، وتعمل على سقوطها في القرن الخامس.

^(١) Ibid., p4.

أولاً-الحياة السياسية والإدارية في الإمبراطورية الرومانية :

كانت الإمبراطورية الرومانية أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ، إذ لم يقدر لأية إمبراطورية أخرى في تاريخ البشرية القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الإمبراطورية الرومانية من قوة واتساع، ذلك أن هذه الإمبراطورية قد ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند، وذلك عندما بلغت أقصى اتساع لها في عهد الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م)، وقد امتدت الإمبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً، فشملت في الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وإيبيرية وإيطاليا وإليريا فضلاً عن شمال إفريقيا من المحيط الأطلسي حتى طرابلس، في حين شمل الجزء الشرقي من الإمبراطورية البلقان وآسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين فضلاً عن الشام ومصر وبرقة، هذا مع ملاحظة أن نفوذ روما امتد بعيداً إلى ما وراء حدودها السياسية، حتى بلغ فارس والهند، وتطرق إلى النوبة والسودان، ونفذ إلى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال أطلس، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة في مجاهل شرقي الراين وشمالي الدانوب.

وترجع عظمة الإمبراطورية الرومانية إلى أن السلطة المركزية فيها استطاعت أن تحكم سيطرتها على هذه المسطحات الجغرافية المترامية الأطراف، وعلى تلك الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات، الأمر الذي تطلب من الحكومة الرومانية إصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التي اختلفت بعضها عن بعض في تراثها التاريخي وحضارتها ولغاتها ودياناتها، وليس هذا وحده مصدر عظمة الإمبراطورية ومثار الإعجاب بها فحسب، وإنما تبدو هذه العظمة واضحة جلية في مقدرة إمبراطورية الرومان على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين، جنباً إلى جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد، وما زالت في فجر تاريخها مثل الغاليين والرومان، وهنا نلاحظ امتداد الإمبراطورية الرومانية على

شواطئ البحر المتوسط مما جعل من هذا البحر شرياناً رئيسياً يربط بين مختلف أجزائها، في حين ساعدت الأنهار الداخلية على الربط بين أطراف الولايات، هذا فضلاً عن الطرق المعبدة التي اشتهرت بها حضارة الرومان، والتي أقاموا منها شبكة واسعة مترامية لأطراف ليس لها نظير في التاريخ^(١).

وكانت الإمبراطورية الرومانية في أزهى عصورها وهي الفترة الواقعة بين قيام أغسطس سنة ٢٧ ق.م. ووفاة ماركوس أورليوس عام ١٨٠م تمثل بناء اجتماعياً سليماً مترابط البنين، ذلك أنها كانت في نظر الطبقات العليا تعبر عن نظام إداري امتاز بالكفاية والدقة، في حين اعتقدت الطبقات الدنيا أن الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح في ظل قانون عادل دون أن تحاول التدخل في أنماط حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم أو معتقداتهم أو نظمهم الاجتماعية.

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٧-٨.

ثانياً- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية الرومانية:

خلال القرنين الأولين للميلاد أي منذ اعتلاء أغسطس للعرش حتى وفاة ماركوس أورليوس عام ١٨٠م، اتسعت حدود الإمبراطورية الرومانية شيئاً فشيئاً، لتشمل منطقة شاسعة من نهر الفرات إلى المحيط الأطلسي، ومن المناطق الصحراوية في شمالي إفريقية حتى نهر الدانوب والراين، وتلال شيفوت بشمال بريطانيا.

ووقع عبء الدفاع عن الحدود المترامية الأطراف على جيش بلغ تعداده نحو ثلاثمائة ألف إلى خمسمائة ألف مقاتل، وقام الإمبراطور بوضع المبادئ التنظيمية والتخطيطية، بينما تتولى قوات المشاة "Infantry Legions" المهمات العسكرية لفترات طويلة الأمد، هذا بالإضافة إلى القوات الأجنبية المساعدة التي كانت من المشاة والخيالة خفيفي العدة، وكانوا يحصلون على حق المواطنة الرومانية في نهاية فترة الخدمة الطويلة، وكان الجيش يتمركز على طول حدود الإمبراطورية باستثناء حرس قليل العدد، ويتمتع بمزايا خاصة، لتأمين سلامة الإمبراطور، وقد عرف هذا الحرس باسم الحرس البريتوري.

وقد تم ربط مدينة روما وهي العاصمة بالأقاليم النائية بفضل شبكة المواصلات التي وضعها نظام الطرق الرائع موضع التنفيذ، ولما كانت هذه الطرق معبدة بأحجار متينة لذلك ظلت باقية بقاء روما نفسها، وسهلت هذه الطرق تدفق التجارة بالإضافة إلى تنقلات الجنود، وظلت صالحة للاستعمال طوال قرون عديدة بعد السلام الروماني الذي حطمته الفوضى السياسية والاجتماعية وغزوات البرابرة.

ولم يكن شريان المواصلات الرئيسي الذي يخدم التجارة مبنياً من الأحجار، وإنما كان البحر المتوسط الذي أحاطته الأقاليم من جميع الجهات التابعة للإمبراطورية، ومن هنا أطلق عليه الرومان مجرنا "Mare Nostrum" تعبيراً عن حبهم واعتزازهم به، إذ كانت الأساطيل الرومانية القوية تحرس البحر المتوسط، وجعلته في مأمن من القراصنة

لأول مرة في العصور القديمة، وبذلك تمكنت السفن المحملة بالبضائع من الإبحار دون أن يعترض أحد سبيلها بين أرجاء الإمبراطورية المتعددة في ذلك الحين، وكانت الحدود الشاسعة للإمبراطورية خاضعة للإرادة الحكومية الجيدة التي عملت على حفظ النظام، والمراقبة لكي تحمي البلاد بفضل الطرق البرية والممرات المائية التي حظيت بالأمن والأمان وهو الأمر الذي لم يسبق أن حدث مثيل له من قبل على الإطلاق.

وتحت مظلة السلام الروماني انتشر الرخاء الاقتصادي، وكثرت المؤسسات الاجتماعية، وانتعش التراث الثقافي، وانتشر في كل مكان عبر الإمبراطورية، ونظراً إلى أن الأقاليم البعيدة صارت تأخذ الطابع الروماني بشكل متزايد. لذلك تغير معنى كلمتي روما وروماني رويداً رويداً، فمنذ عهد الإمبراطور أغسطس لم يعد هذان التعبيران يطلقان على العاصمة الرومانية وسكانها فحسب، وإنما امتدا ليشملا الجزء الأكبر من إيطاليا، وبمرور العقد تلو الآخر في السلام الروماني امتدت المواطنة الرومانية تدريجياً أكثر فأكثر إلى الأقاليم الريفية حتى وصل الأمر إلى أن حصل كل ساكن حر في الإمبراطورية على حق المواطن الروماني سنة ٢١٢م، بل يبدو أن الأباطرة أنفسهم في ذلك الحين كانوا يميلون إلى الإقليمية على غير المؤلف، فتراجان "Trajan" وهادريان "Hadrian" اللذان ربما كانا من أعظم أباطرة القرن الثاني، كانا من أهالي إسبانية، وبمرور الوقت اكتسب تعبيرا روما وروماني دلالة عالية؛ فالملك الإغريقي في القسطنطينية، والملك الفرنجي في آخن "Aschen" والملك السكسوني في ألمانيا، جميعهم أشاروا إلى أنفسهم على أنهم أباطرة رومان وذلك في القرون التالية.

وكان ظهور المدن في أنحاء الإمبراطورية إحدى النتائج الرائعة لعملية إضفاء الصبغة الرومانية، ففي ذلك الحين انتشرت دولة-المدينة، وهي الظاهرة السياسية المميزة للعالم الإغريقي الروماني، وفي بلاد الغال وإسبانية، وعلى امتداد نهر الراين، والدانوب، وحتى في بريطانيا البعيدة، وقد احتفظت المدينة بقدر طيب من الحكم الذاتي المحلي،

وسيطرت بشكل طبيعي على المناطق الريفية الواقعة في نطاقها. ومعنى آخر كانت المدينة الوحدة الأساسية للإدارة المحلية، إذ ظلت حكومة الدولة الرومانية منسوبة للمدينة بصفة أساسية، على أنه من ناحية التناقض الظاهري، بدت مدن الإمبراطورية، وبخاصة تلك التي في الغرب على أنها قليلة الأهمية قليلة نسبياً كمراكز تجارية وصناعية، ولم تمارس روما أية ثورة صناعية. وبالرغم من أن ازدهار الصناعات في المدن كان على نطاق ضيق وبخاصة في الشرق، فإن اقتصاد الإمبراطورية ظل زراعياً بصفة أساسية فمعظم مدن الغرب وعلى وجه الخصوص روما نفسها كانت تستهلك أكثر بكثير مما تنتج، وعلى عكس مدن أوروبا في العصور الوسطى والحديثة، لم يكن لدى المدن في تلك الفترة اكتفاء ذاتي من الناحية الاقتصادية. بل كانت تعيش عالة أو متطفلة على الاقتصاد الإمبراطوري، إذ كانت هذه المدن مراكز إدارية وحرية في المقام الأول، أما أهميتها التجارية فكانت في المقام الثاني، وإبان القرنين الأولين للميلاد كان اقتصاد الإمبراطورية مزدهراً بالقدر الذي يسمح بالإنفاق على تلك المدن، بيد أن هذا الوضع لم يستمر بصفة دائمة، وذلك حتى تدهورت المدن ومعها كل النظام السياسي للعالم الإغريقي الروماني.

وفي السنوات الأولى للإمبراطورية كما في السنوات الأخيرة من الجمهورية، لعب العبيد دوراً حاسماً في الاقتصاد، وبصفة خاصة في الزراعة، بيد أنه نظراً لأن حدود الإمبراطورية لم يعد يضاف إليها أراضٍ جديدة رويداً رويداً. كما تناقص تدفق الأسرى لأن المصدر الرئيسي للعبيد قد نضب معينه. وفي ذلك الحين اتجه كبار ملاك الأراضي إلى تأجير أجزاء كبيرة من أقطاعاتهم إلى مزارعين أحرار مقابل حصول هؤلاء المزارعين على جزء من المحصول، وأطلق عليهم لفظ أقنان "Coloni". وهم الذين كانوا يعملون في أراضي السيد الإقطاعي، ثم تنتقل ملكيته من هذا السيد إلى سيد آخر وذلك عندما تؤول ملكية الأرض إليه، ولم ينعم الأقنان، مثلهم مثل الجماهير الفقيرة،

التي ظلت تتدفق على المدن الأكبر، سوى بأقل القليل من مظاهر الترف والرخاء الاقتصادي في الفترة الأولى للإمبراطورية. وكان القرن الثاني للميلاد على المستويات القديمة عصرًا للشراء المادي الملحوظ، على أنه من السخف مقارنته بالوفرة الناجمة عن تقدم الأحوال الصناعية في أيامنا هذه. وقد شمل المجتمع الروماني في قاعه بصفة دائمة أعداداً لا حصر لها من البؤساء، الذين يمثلون البنية الأساسية للمجتمع وهم الذين كانوا من الفلاحين والمعدمين الذين عاشوا على الكفاف.

وكان من الممكن أن تظل أحوال الطبقات الدنيا على ما هي عليه من سوء لولا سياسات الحكومة الرامية إلى محبة الخير العام، والإصلاح الاجتماعي. ولاسيما أن وجهات النظر الرواقية قد رسخت الأخوة الإنسانية، والرحمة والمسؤولية الاجتماعية، والسياسية بين أباطرة القرن الثاني العظام. واعتبر كل من الإمبراطور هادريان، والإمبراطور ماركوس أورليوس سلطتيهما أمانة ومسؤولية صعبة وأن عليهما أن يحكما لصالح الشعب سواء كان الفرد غنياً أم فقيراً، يتمتع بامتيازات أم كان مهيبض الجناح، وازدانت الإمبراطورية في القرن الثاني بضميرها الحساس بما لا يقل عن حكمتها وقيادتها القوية في المجال العسكري والشؤون الإدارية^(١).

(١) س. ورن هيلستر: أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣-١٦.

ثالثاً- الأدب والفكر الروماني:

كان للأدب الروماني الذي اعتمد على التراث الإغريقي العظيم، وعلى ما استمدته من المصادر الثقافية الرومانية، تأثير قوي على الغرب في العصور الوسطى والحديثة. فقليل من العلماء والشعراء كانوا يعرفون اللغة اليونانية، بيد أنهم جميعاً كانوا يعرفون اللغة اللاتينية من الناحية العملية، وبالرغم من أن الترجمات اللاتينية للمؤلفات اليونانية الفلسفية والعلمية المهمة بدأت تتدفق تجاه الغرب في العصور الوسطى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، إلا أن غرب أوروبا لم يشعر بالأثر الكامل للتراث اليوناني في الآداب إلا عند قيام النهضة الإيطالية، ولهذا كان تأثير الأدب الروماني في العصور الوسطى أعمق بكثير من تأثير الأدب اليوناني.

وكقاعدة فإن الكتاب الرومان لم يهتموا بالنظرية العلمية أو بالفكر الفلسفي العميق بصفة خاصة، ونتيجة لذلك كان الإغريق يتفوقون عليهم في هذا المجال . بيد أنهم نجحوا في جعل اللغة اللاتينية أداة أدبية رائعة لمثلهم الأخلاقية والسياسية العليا وللملاحمهم وقصائدهم العاطفية، وإبان العقود الأخيرة للجمهورية الرومانية التي تميزت بالاضطراب قدمت روما مجموعة من المؤلفين والشعراء أثارت الإعجاب، وكان شيشرون "Cicero" الخطيب السناتوري، من أعظمهم شهرة. فلقد أكسبه تمكنه الشديد من الأسلوب اللاتيني في خطبه وكتاباتة، مركزاً فريداً في مجال الأدب الروماني بالرغم من أن حياته السياسية قد انتهت بكارثة وأن جهوده المضنية لإنقاذ الجمهورية المتداعية قد فشلت فشلاً ذريعاً.

وبقيام حكومة إمبراطورية قوية في عهد الإمبراطور أغسطس في الأعوام التي تلت سنة ٣١م دخلت الآداب اللاتينية طوراً جديداً، كما أن تحقيق الاستقرار السياسي بعد عقود من الاضطراب والوعد بالسلام الدائم، وسياسة الإمبراطورية القائمة على أن

التقدم في العمل يفضي إلى ظهور المواهب. كما أن القيادة المهمة للإمبراطور أغسطس كل هذه العوامل اتحدت جميعاً، وتمخض عنها وجود موجة قوية من التفاؤل، وحب الوطن والأصالة حيث يشكّل عصر أغسطس الذروة في العبقورية الرومانية المبدعة، متفوقاً على التألق الأدبي إبان الفترة المضطربة الأخيرة من الجمهورية، وفي عهد أغسطس استوعب الفنانون والشعراء الرومان التراكم اللغوي الأساسية للغتين اليونانية والرومانية، وسار فن المعمار الروماني على النمط الإغريقي، بيد أنه في الوقت نفسه كان تعبيراً عن الشخصية الرومانية. وقد ارتفعت المعابد الرومانية أكثر من المعابد اليونانية بكثير، ونقلت شعوراً كان أقل جلالاً – وأكثر دلالة على القوة – وأقل من الناحية الأفقية وأكثر دلالة على الناحية الرأسية.

وظهرت في قصائد الشعر العظيمة في عصر أغسطس، وقصائد الشعر الغنائي المهذبة والخالية من العيوب للشاعر هوراس "Horace"، وأبيات الشعر الغزلي للشاعر أوفيد "Ovid"، ونغمات فيرجيل "Virgil" الرائعة سمات الأفكار اليونانية الأصيلة، وذلك بأساليب رومانية على نحو مميز، فأعظم قصيدة في روما كانت الأنيادة "Aeneid" للشاعر فرجيل، التي قامت على نط ملحمة الشاعر هوميرو "Homer" الذي ألف ملحمة الأودسه "Odyssey"، وهي عن رحلة لشخصية مهمة إبان الحرب الطروادية "Trojan War"، بيد أن إينياس "Aeneas" بطل فرجيل كان أيضاً المؤسس الأسطوري لمدينة روما، وتصور القصيدة من البداية إلى النهاية العديد من النبوءات الوطنية فيما يتعلق بالدولة التي يتعين على إينياس إقامتها، وفي الحقيقة وجد بعض القراء في إينياس رمزاً للإمبراطور أغسطس نفسه، وتحتوي الأنيادة أيضاً، بشكل يثير الدهشة، اتجاهات قوية نحو الرحمة، وحب الخير العام، وهو الأمر الذي لا يوجد عموماً عند الشاعر هوميرو، لكنه كان واضحاً في سياسة أغسطس وخلفائه المستنيرين، وبصفة خاصة أباطرة القرن الثاني الميلادي. علاوة على ذلك يبدو الشعور بالأمل واضحاً في

الدولة الرومانية، التي شيدها إينياس وقادها أغسطس العظيم وصناع السلام، وذلك لكونها أنجزت هدفها النهائي في تحقيق السلام الدائم والعدل للعالم الذي عانى طويلاً من القلق.

فالثقافة في الفترة التاريخية الممتدة من وفاة أغسطس إلى وفاة ماركوس أورليوس تعرف باسم **العصر الفضي**، وبالرغم من أن تلك الفترة كانت أقل شهرة من العصر الذهبي للإمبراطور أغسطس شهدت إنجازات أدبية وفكرية وفنية من الطراز الأول، ورأى بعض المراقبين لكتّاب العصر الفضي، أمثال سنيكا الرواقي "Stoic Seneca" ولوكيان المهجاء "Satirist Iucian" وبلوتارك مترجم السير "biographer Pitutarch" نوعاً من التضاؤل العبقريّة الإبداعية، وأكدوا التشابه المبتذل للفن الروماني مع الأدب في القرن الثاني للميلاد، نتيجةً لغياب الحرية الحقيقية، وتمثال الثقافة، وفتور السلام والطمأنينة. وتلك الأوهام هي بالضرورة نسبية، إذ إن كثيراً من الشخصيات التي تتمتع بالشعور الرقيق عبر القرون قد عبّرت عن إعجاب كبير بكتّاب العصر الفضي، بيد أنه مهما فكرنا في أصالة وتفوق أدب العصر الفضي، فليس هناك شك في أن الثقافة والمعرفة انتشرت خلال تلك الفترة بشكل كبير في الداخل والخارج. إذ تأخرت المدن في الأقاليم الريفية البعيدة بتشديد المعابد والحمامات المثيرة للإعجاب. والمسارح وأقواس النصر التي أقيمت على النمط الروماني، وانتشرت المكتبات والمدارس بوفرة في كل أنحاء الإمبراطورية. وانتشرت معرفة القراءة والكتابة في نطاق المدينة بوضوح، وذلك بفضل وجود النقوش وشعارات الحملات التي كشف عنها علماء الآثار والحفريات المحدثون، على مباني مدينة بومبي التي دُفنتها وحفظتها ثورة بركان فيزوفوس "Vesuvius" المدمرة سنة ٧٩م.

واحتفظت الإسكندرية المدينة العظيمة في الأزمنة الهيلينية بأهميتها الاقتصادية والفكرية طوال العهد الباكر من الإمبراطورية، حيث قدمت ألمع علماء اللاهوت

المسيحيين، بالإضافة إلى العديد من العلماء المشهورين الذين طوروا وحققوا إنجازات للعلوم الهلينية الباكرة. وعملوا في الوقت نفسه على زيادة الشهرة الفكرية للإمبراطورية في القرن الثاني الميلادي إلى حد كبير، فعلى سبيل المثال تطور الفكر الفلكي الإغريقي والهيليني إلى نموذج شامل رفيع المستوى للكون على يد بطليموس الإسكندري الذي توفي نحو ١٨٠ م، والذي كتب بالتفصيل عن أعمال من سبقوه فيما يتعلق بالنظام الكوني، وقام بتفسيره بدقة بالنسبة للحركات الملحوظة للشمس والقمر والكواكب التي بين النجوم، وظل نظام بطليموس المحاولة الناجحة والبعيدة المدى للبشرية من أجل تفسير حركات الأجرام السماوية حتى ظهر كوبرنيكوس في القرن السادس عشر الميلادي. وكتب بطليموس أيضاً أعظم كتب الجغرافية شمولاً في العصور القديمة، وأخرج جالين "Galen" (١٣١-٢٠١م). وهو عالم في علوم الطب من برجاموم "Pergamum" الهلينية سلسلة من المؤلفات الرائعة عن علم الأحياء والطب التي ظلت تقيمن على هذه الميادين العلمية لأكثر من ألف عام. كما يعبر كتاب التأملات "Meditations" لمؤلفه ماركوس أورليوس آخر أباطرة القرن الثاني العظام عن تلك العصور إلى حد بعيد، ففي الأدب والفن والعلوم الفلسفة أنتج العصر الفضي اندماجاً معنوياً للتراث اليوناني والروماني، فالميراث التراثي الوافر لليونان وروما والشرق القديم تم إجماله ودمجه من أجل الفائدة الكبرى لحضارة المستقبل.

ومن المؤكد أن تطوير القانون الإمبراطوري كان أعظم إنجازات هذا العهد، وهو الشيء الذي يمتاز به الرومان، إذ أعيدت صياغة القانون القديم المعروف بالألواح الاثني عشر بالتدريج مع شيء من التفصيل، بشكل يجعلها ملائمة للطبيعة البشرية على يد رجال القضاء في أواخر العصر الجمهوري، وفي عصر الإمبراطورية الباكرة، وعلى يد المشرعين العظام للقرنين الثاني والثالث للميلاد، هذا بالإضافة إلى تدخل الأباطرة المثقفين أنفسهم في ذلك. وعندما ازدادت معرفة الرومان بالشعب أكثر، وعرفوا أن

لكل شعب جملة من القوانين التي يحترمها وعاداته الخاصة التي يمارسها، حرروا أنفسهم رويداً رويداً من كون القوانين خاصة بهم، وجاهدوا من أجل إحلال مجموعة من المبادئ الأساسية التي استمدوها من قوانين كل تلك الشعوب محلها.

ولقد حول قانون الشعوب مجمل القانون الروماني تدريجياً إلى نظام قانوني مناسب لإمبراطورية الأطراف، ومختلف العناصر البشرية الموجودة فيها، وتأثر هذا التحول بالمفهوم اليوناني حول قانون الطبيعة "Jus Naturale" الذي لعب دوراً بارزاً في تاريخ الفكر الغربي، على أن قانون الطبيعة كان أكثر مثالية من قانون الشعوب، إذ إن الأول كان مبنياً على الاعتقاد بوجود نظام عالمي مقدس يحوي معايير خاصة للسلوك الإنساني الذي يتحتم على كل الناس اتباعها بغض النظر عن عاداتهم الفردية وتقاليدهم. وكانت تلك المعايير مبنية على رفعة شأن العدالة السياسية والاجتماعية. وقد أثرت في صياغة قانون الإمبراطورية، وجعله ملائماً للطبيعة البشرية، وأمدته بأساس فلسفي قوي. وهكذا يعتبر القانون الروماني نتاجاً للعبقريّة السياسية العملية اللاتينية التي تأثرت بالفكر اليوناني التأملي، وهي التي قدمت جوهر مفهوم العدل في عصر أغسطس، ولقد أصبح القانون الروماني جزءاً أساسياً في التراث الغربي بعد أن أعيد تنسيقه بفضل الجهود المضنية في عصر جوستينيان إمبراطور القرن السادس الميلادي، بل أساساً العديد من النظم القانونية حتى يومنا هذا في أوروبا، وفي الأراضي التي كانت يوماً ما إحدى مستعمراتها^(١).

(١) س. ورن هليستر: أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٦-٢٠.

رابعاً- أزمة القرن الثالث الميلادي:

• أهم المشكلات التي عانت منها الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث:

أ- المشاكل السياسية والإدارية:

أخذت مشكلة التعاقب على العرش أو وراثة العرش تتفاقم في القرن الثالث، ولكن قبل ذلك القرن لم تقف أية عقبات في طريق وراثة المنصب الإمبراطوري، لاسيما إذا خلف إمبراطورٌ قديرٌ ولداً يتميز بالمقدرة أو الكفاءة، أو إذا أتاحت الظروف لذلك الإمبراطور أن يتبنى زميلاً له يكون جديراً بالعرش، بيد أن أحوال المنصب الإمبراطوري قد كشفت بوضوح منذ القرن الثالث أن العصر الذهبي للإمبراطورية قد ولى بلا رجعة، وأن عصراً جديداً هو عصر الأباطرة العسكريين قد بدأ، وفي ظل غياب السلطة المركزية، صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، وأضحى بالإمكان تنصيب إمبراطور في مكان غير روما مقر الحكومة الرومانية، وفي الوقت الذي كان فيه واجب الفرق العسكرية دفع الأخطار الخارجية عن الإمبراطورية، صار هدف قادتها الوصول إلى المنصب الإمبراطوري، وبلغ الأمر بتلك الفرق أنه كان باستطاعتها المناادة بقائد عادي حامل الذكر إمبراطوراً في إحدى الولايات، رغبة بالمكاسب الوفيرة التي ستعود عليها عندما يصير ذلك القائد إمبراطوراً.

وفي ذلك الجو الذي صار فيه ارتقاء العرش الإمبراطوري أمراً تتحكم فيه أهواء الجيش، افتقد مجلس السنتوس سلطاته تماماً وأُهمِل شأنه؛ وبعد أن كان ذلك المجلس تجسيداً حياً للأرستقراطية يوماً ما صارت مهمته قاصرةً على تأييد رغبات الإمبراطور الجالس على العرش، حتى إن الموافقة الشكلية التي كان يبيدها السنتوس في تنصيب الأباطرة ضُربَ بها عرض الحائط، ولم تعد أمراً مرغوباً به آنذاك. وهنا نلاحظ أن السنتوس كان يتمرد على وضعه الشائن أحياناً عندما يعتلي العرش إمبراطور ضعيف، فيمارس نفوذاً ضئيلاً، ولكنه كان يقف موقف العاجز أمام قوة جيش زاحف

على روما يريد تنصيب أحد القادة المتمردين على عرش الإمبراطورية، والحق أن أزمة المنصب الإمبراطوري إبان القرن الثالث قد أخذت تزداد سوءاً على مر الأيام، فضلاً عن المخاطر التي انطوى عليها، ولم يعد يخلو عهد أي إمبراطور من أخطار خارجية تدفعه إلى التحرك، أو منافسين طامعين في العرش من الداخل، وأحياناً كلاهما معاً^(١). ومن الملاحظ أن الأباطرة العسكريين قد أحاطوا مناصبهم بمالة من القداسة، فكما كان الحال في ممالك الشرق منذ أقدم العصور، تم إضفاء طابع الألوهية والقدسية، على الإمبراطور فكل ما يمس بشخصه مستمد من مفاهيم دينية مقدسة يفرضها على الشعب الروماني^(٢)، وبعد أن كان الإمبراطور في أوائل عصر الأمبراطورية المواطن الأول أو الرئيس. أخذ حكمه الآن يميل إلى الاستبداد، وصارت مقاليد الأمور، الأمر والنهي، وذلك ما دام يستمد سلطته من قوى إلهية، ولم يعد خافياً على الناس أن أوريليان عندما اعتلى العرش الإمبراطوري سنة ٢٧٠ م، كان هو السيد والإله، وبهذه الصفات حدد أوريليان المعنى النهائي لمفهوم السلطة الإمبراطورية، التي سوف تتبلور على عهد دقلديانوس^(٣).

(١) محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٥، ط٣، ص ٢٤-٢٥.

(٢) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، محمود زايد، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٠٥.

(٣) علي الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الوسيط، القاهرة ١٩٧٧، ص ١٩١.

ب- الأزمة الاقتصادية:

لقد واكب فتوحات الإمبراطورية واتساع أملاكها في أيامها الأولى تدفق الثروات الهائلة عليها، وكان لذلك أثره على ميل الطبقات العليا في المجتمع الروماني إلى الترف والرفاهية والإسراف الشديد، والتطلع إلى الكماليات، وتكالب تلك الطبقات - بصفة خاصة- على معدني الذهب والفضة، اللذين ظهرتا في صورة أدوات للزينة أو أوان وصحاف، ولا ريب أن استغلال الذهب والفضة بهذه الطريقة أدى إلى تجميدهما واستبعادهما من سوق التداول؛ وظل الوضع على ذلك حتى بعد أن توقفت الفتوحات، وأضحى لزوماً على الإمبراطورية أن تحافظ على حدودها ضد هجمات وإغارات القبائل الجرمانية خلال القرن الثالث، في الوقت الذي قل فيه الذهب ونضب معينه، ورغم ذلك لم تحاول الحكومة أن تبحث عن مصادر جديدة للمعادن الثمينة، تحل محل المصادر المألوفة في أيام الإمبراطورية الأولى.

ومن الواضح أن ما جرى من نفقات باهضة قد حمل الإمبراطورية ما لا تطيق. وألقى على كاهل الخزانة عبئاً جسيماً، فقصور الأباطرة الرائعة والباذخة، والحشد الهائل من موظفي القصور والخدم والحرس، ونفقات الجيش، وانتشار الرشوة والفساد، وقسوة الموظفين على أهالي الولايات التابعة للإمبراطورية، وثقل الضرائب المفروضة عليهم، وأعباء الحروب الأهلية، كل ذلك يفسر لنا أسباب المتاعب الاقتصادية التي كانت تعانيها الإمبراطورية إبان القرن الثالث. مما أصاب التجارة بالأضرار وتوقفت مسيرتها، ولم تعد طرق البحر المتوسط العظيمة تموج بالأساطيل التجارية الرومانية، بل صارت وكراً يعج بقراصنة البحار، أما الطرق الرومانية البرية التي كانت دائماً دليلاً على عظمة الرومان وإعجازهم الهندسي، أضحت أطلالاً غير آمنة، لا تخلو من قطاع الطرق، وتبعث الأسى في النفس لمجتمع عرف تجارة عظيمة يوماً ما.

وقد أدى استمرار الانهيار الاقتصادي إلى حدوث آثار سيئة على قيمة العملة النقدية المتداولة في ولايات الإمبراطورية، فالغزوات الجرمانية التي تعرضت لها الإمبراطورية في القرن الثالث، بما تخللها من نهب المزارع وإحراقها، وإفساد المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضي الزراعية خراباً ، والحاجة الماسة إلى المال لدفع رواتب الجند، أجبرت الأباطرة على إنقاص قيمة العملة المتداولة، وكان نصيب الدينار الفضي "Denarius" أكثر من الأوريوس الذهبي "aureus" وغيره من العملات النقدية الأخرى. ويلاحظ أن قيمة العملات الذهبية أخذت في الهبوط المستمر منذ عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، الذي أنقص الدينار إلى خمسة وسبعين في المئة من الوحدات الفضية، وبلغ مقدار النقص في قيمته خمسين في المئة من الوحدات الفضية تحت حكم سبتيوس سيفيروس (١٩٣-٢١١م). ثم واصل الدينار انخفاض قيمته، حتى صار في عهد جالينوس (٢٦٠-٢٦٨م) عملة نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة بلغت خمسة في المئة من الوحدات الفضية، وعلاوة على ذلك، كان السستريوس البرونزي "Sesterius" (وقيمته ربع دينار) لا يزال يصدر حتى سنة ٢٧٠م. ثم اختفى من التداول بسبب الارتفاع الكبير في الأسعار.

والأمر الذي لا خلاف فيه أن إنقاص العملة، وما صاحبها من ارتفاع كبير في الأسعار، وقد أدّى إلى التضخم "inflation". هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض من يمتلك عملة فضية خالصة أن يتعامل بالعملات المخلوطة الشائبة، فأدى ذلك إلى اختفاء المعادن الثمينة من التداول، في وقت كانت الحاجة أشد ما تكون إليها، بسبب تلك الأحوال السيئة التي تدهورت خلالها العملة النقدية، أضربت الأسواق التجارية، ورفع التجار أسعار سلعهم، وتعدّ مزاول التجارة في ذلك المناخ أمراً متعذراً، فبعد أن كانت قائمة على قدم وساق في ولايات الإمبراطورية، لا تقف في سبيلها أية عقبات أو حواجز، وصلت إلى درجة بالغة السوء، فاختفى الإنتاج الكبير، وحل محله الانتاج

المحلي الذي يتم تصريفه محلياً، وفي غياب عملة مستقرة، حلت المقايضة في المعاملات التجارية بين الأهالي، وهي طريقة لا تفني بالغرض المنشود.

ويمكن القول: إنَّ ما عرفته الإمبراطورية من ازدهار تجاري في القرن الثاني، لم يعد بإمكانها استعادته في معظم أنحاء الغرب الأوربي، وإن كان هناك استثناء وحيد نلمسه في الأقاليم البعيدة، مثل بريطانيا، التي وصلت تجارتها إلى مرحلة عالية من التطور في القرنين الثالث والرابع^(١).

وبطبيعة الحال، انعكس التدهور الاقتصادي على الزراعة أيضاً، وكما ذكرنا من قبل، أصبحت حدود الإمبراطورية في القرن الثالث عبارة عن مناطق تتنازعها رياح القلق والخراب، وأصاب الجفاف مساحات هائلة من الأراضي الزراعية، ولحق التدمير بالمزارع ومبانيها ومخازنها، حتى صار من الصعب على مالكي الأراضي الزراعية استصلاح ما تحرب منها والبدء من جديد، لقلة المال وارتفاع التكاليف، لاسيما محصول القمح، وبات من الواضح أنه منذ منتصف القرن الثالث، لم يعد لإسبانيا أي فائض من محاصيلها ترسله إلى روما، وصارت أرض مصر الخصبة بوراً، ولذلك اضطر الإمبراطور أوريليان (٢٧٠-٢٧٥م) وخلفاؤه إلى إصدار قرارات كان الهدف منها تأمين مزارعين للحقول المهملة.

كذلك أدت قلة المحاصيل الزراعية إلى استحالة مواجهة الضرائب الفادحة، التي وقع عبئها على صغار المزارعين والمستأجرين، في الوقت الذي كان فيه كبار الملاك الزراعيين لا يلتزمون دفع ما يستحق عليهم من ضرائب. وعندما عجز المزارع الصغير عن الوفاء بديونه في موعدها، اضطر إلى رهن أرضه لكبار الملاك الزراعيين، وتحول في نهاية الأمر إلى قن^(٢)، أو نزرح إلى المدن للانغماس في زحمتها، والانضمام إلى جموع

(١) محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٤-١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧.

الدهماء الذين ازدحمت بهم المدن الرومانية. وثمة ورقة من أوراق البردي يرجع تاريخها إلى بداية القرن الثالث، وبالتحديد عام ٢٠٢م، توضح حالة الزراعة في ولاية مصر الرومانية، ففيها يطلب أحد أثرياء مدينة الإسكندرية من الإمبراطور أن يأذن له بإنشاء صندوق خيري لإعانة المكلفين بالخدمات الإلزامية في بعض القرى بإقليم أكسورونخوس (البهنسا) لأن هذه القرى على قوله "قد أصبحت من جراء الأعباء السنوية المرهقة الملقاة على عاتق أهلها، مهددة بالخراب، مما يعود بالضرر على الخزانة، ويؤدي إلى ترك أراضيكم غير منروعة"^(١).

وفي غضون القرن الثالث أيضاً، لم يعد الحرفيون أسعد حالاً من المزارعين والتجار، إذ أصاب الصناعات ما أصاب الزراعة والتجارة من خراب وكساد، ففقدت بلاد الغال وأراضي الراين الكثير من صناعاتها، واندثرت صناعة الزجاج في كولون، وصناعة الفخار في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية^(٢).

ج- الحالة الاجتماعية:

من المعروف أن المجتمع الروماني كان مجتمعاً طبقياً، ازدادت فيه الفوارق والتناقضات بشكل واضح وبالغ، فالطبقة العليا الثرية الأرستقراطية التي تألفت من العائلات السناتورية الرومانية وكبار الموظفين وأصحاب الملكيات الزراعية الواسعة عاشت في المدن، غير عابئة بالنظم والقوانين، وكان عليها دفع الضرائب للسلطات الرومانية أسوة ببقية الطبقات، ولكنها من الناحية العملية استطاعت التخلص أو التهرب من الكثير منها. كذلك لم تتأثر تلك الطبقات بالأزمات الاقتصادية التي ألمت

^(١) هـ. أيدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، نقله إلى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد علي، القاهرة ١٩٦٨، ص ١١٧.

^(٢) محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٧-١٨.

بالإمبراطورية في القرن الثالث، إذ امتلك أفرادها الثروات الضخمة، وعاشوا في قصورهم وسط أملاكهم الواسعة، ويحيط بهم الخدم والعبيد، كما استأجر الكثير منهم حراساً خصوصيين لحمايتهم، وغالباً ما يكونون من الجرمان. بيد أن اضطرابات الحياة السياسية في ذلك القرن كان لا بُدَّ أن تؤثر في تلك الطبقة، فأخذت أعدادها تتناقص، ونفوذها يتضاءل وينكمش. ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الأباطرة الذين وصلوا إلى العرش الإمبراطوري، قاموا بقتل خصومهم السياسيين من أعضاء السناتو، واستبدلوا بهم رجالاً أقل كفاءة ومقدرة داخل مجلس السناتو، كما صادروا ممتلكات البعض منهم أحياناً^(١). وإبان تلك الظروف قلَّ ولاء السناتو للحكومة الرومانية، وسرعان ما بدأت التقاليد القديمة التي حرصوا عليها في الأيام الأولى للإمبراطورية في الانهيار، حتى إنَّ رتبة السناتورية غدت في القرن الرابع مجرد لقب شرفي يمن به الإمبراطور على من يشاء من أتباعه والمقربين إليه، وقد كان سخياً في ذلك^(٢).

أما الطبقة الوسطى القديمة، التي كانت عصب الحياة في المجتمع الروماني، وقامت بدورها الرائع في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة خلال القرنين الأول والثاني، فقد قدر لها أن تنهار تحت وطأة الكوارث الاقتصادية التي ألمت بالإمبراطورية من ناحية، وتحت عبء المطالب الباهظة التي فرضت عليها من ناحية أخرى. وبعد أن كانت تلك الطبقة تؤلف الغالبية العظمى من صغار الملاك، انتهى مصيرها إلى الاضمحلال، وأخذت أعدادها في التناقص تدريجياً، وانحدر أفرادها إلى حالة من البؤس تزيد قليلاً عن حالة الأقنان الذين يعملون في الضياع السناتورية. ومن الملاحظ أن العديد من صغار الفلاحين الأحرار، آثروا التخلي عن أراضيهم لكبار الملاك الزراعيين بغية التخلص من أعباء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص، بعد أن

(١) Glanville Downey, The Late Roman Empire, U.S.A., 1969, pp 6-7.

(٢) إسحق عبيد تلوزروس: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة ١٩٧٢، ص ٤٢.

طحنتهم متاعب القرن الثالث، وأصبحوا أقناناً "Coloni" ويتوجب على كل قنّ لديه قطعة من الأرض يتولى زراعتها أن يتعهد بدفع إيجارها نقداً أو عيناً أو خدمة، وليس من حقه مغادرة الأرض التي يقوم بزراعتها، بعد أن منعتة قوانين الإمبراطورية من ذلك^(١).

وإذا انتقلنا إلى طبقة العبيد التي كانت تمثل نسبة عظيمة من سكان إيطاليا، نرى أن ثمانين في المئة من العمال في الصناعة وفي التجارة كانوا من العبيد، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية في المصالح يؤديها عبيد عموميون "Servi publici"^(٢). وقد عمل العبيد في ظروف صعبة وسيئة، جعلت حياتهم بائسة معذبة. ومما يدل على ذلك حالة أولئك العبيد الذين كانوا يعملون في طاحونة، فهم شاحبو الوجوه، عراة الأجساد إلا مما يكاد يستر عورتهم، وقد تم تعليق أجراس في أقدامهم، وتحددت أجسادهم من جراء العلامات السوداء التي خلفتها ضربات السياط. أما عبيد المنازل كانوا أنواعاً لا حصر لها، تنوعت أعمالهم وقد لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة على يد سادتهم الذين اختلفت أهواؤهم ومشاربهم، فكانوا أحياناً يقتلون وأحياناً يضربون، ويمكننا أن نلمس المعاملة السيئة التي لقيها عبيد المنازل إذا علمنا أن أحد السادة الرومان كان يصبر على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين، وكان يعاقب من يعطس منهم بالجلد، كما كان يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا ما ضايقها اضطرابها في تصفيف شعرها، على أن متاعب العبيد أيام الإمبراطورية أخذت تقل شيئاً فشيئاً إثر قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها، يضاف إلى ذلك أن العبد كان بإمكانه الإفلات من أغلال العبودية، وينال حريته عادة في ست سنوات، بفضل أمانته

(١) Glanville Downey, Op. Cit., p 47.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، مجلد ٢، ج ٢، ص ٢٣٩.

وتفانيه في خدمة سيده. كما أن ضعف الحكومة في القرن الثالث قد جعل فرار العبيد من سادتهم أمراً سهلاً ميسوراً^(١).

ومن الملاحظ أن عدد سكان الإمبراطورية خلال القرنين الثاني والثالث قد نقص إلى حد كبير، بسبب المجاعات والأوبئة والطواعين التي انتشرت آنذاك ومن أسباب النقص أيضاً إغراض الرومان عن الزواج، بعد أن ساء سلوكهم وحادوا عن الطريق القويم. وقد أجمع المؤرخون على أن جميع المآسي التي تعرضت لها الإمبراطورية، إنما ترجع إلى الفساد والتدهور الخلقي اللذين تغلغلا في جوانبها. والحقيقة أن الرومان كانوا يميلون إلى الإكثار من النسل، ولكنهم خلال تلك الفترة نظروا إلى الزواج على أنه مغامرة قصيرة الأجل خالية من كل معنى روحي، من السهل التحلل منه، وكانت موانع الحمل واسعة الانتشار، رغم أن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونها، إلا أن أرقى الأسر الرومانية كانت تلجأ إليها^(٢).

د- الأخطار الخارجية:

وبالإضافة إلى المفاسد والمشاكل الداخلية، فقد تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه الحدود في القرن الثالث. فقد أغار الفرنجة على أراضي الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦م، واجتاح القوط إقليم داشيا وغزوا مواشيا سنة ٢٥١، ولم يكن طردهم من هذا الإقليم ليتم لولا كلوديوس الذي انتصر عليهم سنة ٢٩٨م، وفي سنة ٢٧٠ اندفع الألمان خلال ممرات الألب مهددين شمال إيطاليا، وفي عهد الإمبراطور فاليريان (٢٥٣-٢٦٠م) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية

(١) محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٢٠.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، مجلد ٢، ج ٢، ص ٣٠٣-٣٠٤.

إفريقية الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد أخرى لنهب مدنها ومزارعها، هذا في الوقت الذي عبرت فيه جموع البرابرة المعروفين باسم اللان إلى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقي عبر القوقاز.

وزاد من هذه الأخطار الخارجية التي هددت الإمبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التي أخذت منذ سنة ٢٣٣م تهدد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسورية تهديداً خطيراً ومستمراً، حتى تمكن الفرس في النهاية من إنزال الهزيمة بالإمبراطور فالريان وأسرته سنة ٢٥٩. وإذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك في إحراز شيء من الانتصارات الجزئية على الفرس، إلا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسي أو حتى الإقلال منه^(١).

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٧-١٨.

خامساً- عصر الإمبراطورين دقلديانوس وقسطنطين:

١- الإمبراطور دقلديانوس "Diocletian" (٢٨٤-٣٠٥م):

لقد قُدِّرَ للإمبراطورية الرومانية أن تصحو على يد إمبراطور مصلح هو دقلديانوس الذي يعد تاريخ اعتلائه للعرش نقطة تحول في التاريخ الروماني. وترجع نشأة دقلديانوس إلى إقليم الليريا المطل على البحر الأدرياتي حيث كان جندياً متزناً، وكان وإن افتقر إلى النبوغ سياسياً واسع الأفق خصب التفكير ذا مقدرة على الابتكار ومطبوعاً على البشر والتفاؤل. وقد لقيت على عاتقه مهمة من أشق المهام ألا وهي إنقاذ الإمبراطورية من براثن الانحلال، ولم تكن تعوزه الشجاعة أو القدرة على النهوض بها، وتعد إصلاحاته إحدى نقاط التحول الهامة في التاريخ^(١).

كان والداه عبيدين في بيت أحد أعضاء مجلس الشيوخ، استطاع والده الحصول على حرية الأسرة، وقد حصل دقلديانوس على وظيفة كاتب. وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة القنصل، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري، وتجلت كفاءته العسكرية في حرب فارس. وبعد موت نومريانوس (٢٨٣-٢٨٤م) اعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الإمبراطورية^(٢).

وعندما أحس دقلديانوس بجسامة مهام الإمبراطورية، قرر بأن يستعين بزميل له على أعباء الحكم، وكان النظام في شكله النهائي يقضي بأن يتولى الحكم في نفس الوقت إمبراطوران يحمل كل منهما لقباً على أن يستعين كل منهما بمساعد يُعدّ وريثاً له يحمل لقب قيصر، وقسم بذلك الإمبراطورية إلى أربعة أقسام كبرى تعرف باسم "Prefectus" وهي إيطاليا وغالة والليريا والشرق، وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه

(١) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص ٩.

(٢) محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١،

بالشرق ومركزه نيقوميديا وقد قرر ضرورة بقاء الإمبراطورين في منصبهما لمدة عشرين عاماً على أن يحل محلهم القيصران. وسمي الحكم بذلك حكم الأربعة. وحرصاً منه على تجنب الإمبراطورية خطر الاضطرابات الناجمة عن أطماع حكام الولايات الذين يتمتعون بالسلطتين العسكرية والمدنية، وربما لإحساسه بأن الأعباء المالية الملقاة على عاتق حكام الولايات متشعبة إلى حد أنهم لا ينهضون بها على الوجه الأكمل، فقد أعاد تنظيم الولايات وألغى التفرقة بين الولايات السناتوسية والإمبراطورية، وقلل مساحة الولايات، وفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، ثم دمج الولايات في وحدات إدارية كبيرة يرأسها نائب عن الحاكم العام، وتشمل عدداً من الولايات، وأصبح عدد هذه الولايات مئة ولاية، ولكل منها ثلاث إدارات هامة تشرف إحداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصة بالأباطرة. وهكذا أصبح حكام الولايات مسؤولين أمام نواب الحاكم العام والنواب مسؤولون أمام الحاكم العام للإقليم، وهؤلاء الحكام مسؤولون أمام دقلديانوس الذي كان يتمتع بسلطة تامة في تعيينهم وعزلهم^(١).

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم إلى أكثر شعوب الإمبراطورية تخلفاً في الميدان الحضاري، وبخاصة الجرمان، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة السير إلى الحدود في أي وقت يطلب منهم ذلك. وقد ازداد عدد أفراد الجيش الروماني في عهده، كما أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجندي ليترقى، ويصبح ضابطاً ثم يتدرج حتى يصل إلى مرتبة القائد الأعلى للجيش، وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات في هذه الحالة هو أن يكون شجاعاً خبيراً بفننه مخلصاً للإمبراطور^(٢).

(١) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص ٩-١٠.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٢.

اتجه دقلديانوس بعد ذلك إلى إصلاح النظام المالي إصلاحاً جوهرياً شاملاً متخذاً من ضريته التموينية "annona" أساساً لهذا الإصلاح، بعد أن نظم ميعاد جبايتها وثبت معدلها، وكانت حتى ذلك الحين ضريبة تجى في أوقات غير محددة، ففي كل عام كانت الحكومة تقوم بتقدير الضريبة اللازمة لسد حاجات الإمبراطورية خلال السنة، وتحدد فيه نصاب كل ولاية، ثم تخطر بها بذلك عن طريق المنشور أو التفويض الإمبراطوري الخاص بفرض الضريبة. وقد نجم عن هذه التغييرات تبسيط كثير من النظم المعقدة التي كانت سائدة في العصر الروماني، واختفت معظم الضرائب التي كانت مألوفة في ذلك العصر. كما قام دقلديانوس بإصدار مرسوم الأسعار عام ٣٠١م حدد فيه التسعيرة الثابتة لكل البضائع المتداولة في الإمبراطورية والأسعار الخاصة للخدمات، كما سكّ دقلديانوس عملة صحيحة وذلك لعدة أسباب أهمها: حماية الفقراء من جشع المستغلين من جهة، ومن أجل حيالة ثقة التجار والمتعاملين من جهة ثانية، إلى جانب تحديد كميات البضائع المتداولة، والتي تعرض للبيع من جهة أخرى^(١).

وكان من أكبر المشاكل التي سادت عهد دقلديانوس مشكلة المسيحية التي عارضها الإمبراطور بعنف حتى إنّه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحيين من إقامة شعائهم وألزمهم عبادة الأوثان. وكان تعسف دقلديانوس مع المسيحيين سبباً لتسمية عصره بعصر الشهداء.

وفي عام ٣٠٥م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسون عاماً بعد أن أصيب بعلل الشيخوخة المبكرة، وقضى أعوامه التسعة الأخيرة من عمره معتكفاً عن

(١) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص ١١.

الحياة العامة، وفي الوقت نفسه اعتزل زميله مكسمليان الحكم في ميلان وفقاً لاتفاق سابق مع دقلديانوس^(١).

ومهما يكن من أمر فإن دقلديانوس قد بذل كل ما في وسعه محاولاً إصلاح المفاسد التي عمت البلاد راغباً في إحكام السيطرة على الولايات وتدعيم المركزية الشديدة في الحكم وبذلك قُدر للإمبراطورية البقاء بعد أن كادت تنهار^(٢). وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الإمبراطورية قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة، وبرزت خلالها شخصية قسطنطين الذي استطاع أن يتغلب على خصومه واحداً بعد الآخر حتى تم توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣، وعندئذ أخذ هذا الإمبراطور على عاتقه مهمة إتمام الإصلاحات التي بدأها دقلديانوس^(٣).

٢- الإمبراطور قسطنطين الكبير "Constantin the Great" (٣٠٦-٣٣٧م):

إن الحديث عن الإمبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الإمبراطوري وعن شخصيته وعهده حديثٌ طويلٌ تضيق به هذه الصفحات، لذلك فإننا نكتفي بإلقاء الضوء على عمليتين من أهم أعماله، وهما اللذان يعدان بداية للإمبراطورية البيزنطية. أولهما: الاعتراف بالمسيحية كديانة مصرح بها في الإمبراطورية الرومانية. والثاني: انتقال العاصمة الرومانية إلى الشرق وتأسيس مدينة القسطنطينية.

(١) محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ص ٢١.

(٢) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص ١٢.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٣.

أ- الاعتراف بالمسيحية كديانة مصرح بها في الإمبراطورية الرومانية:

عندما اعتلى قسطنطين العرش الإمبراطوري كانت الديانة المسيحية قد تغلغت في كيان الإمبراطورية منذ نحو ثلاثة قرون، وقد حاول بعض الأباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالريوس. إذ كان جالريوس رجلاً دموياً شديداً البأس على المسيحيين، ولم تُجد قسوته نفعاً، بل انتشرت المسيحية بقوة أكثر من ذي قبل. وقد وجد جالريوس بعد سنوات من الاضطهاد أن سياسة العنف هذه سياسة فاشلة، واقتنع آخر الأمر بأن العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية، ولعل ذلك ناتج عن اعتلال ألم بصحته لفترة ليست بقصيرة، فأصدر عن طيب خاطر - لإصلاح ما أفسدته يده - مرسوماً عاماً يحمل اسمه واسم ليسينيوس، وعلى ما يبدو أن أعوان جالريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو، وإنما نشروا تعليمات إلى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الأباطرة بالمسيحيين وأشاروا فيه على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وغض الطرف عن الاجتماعات السرية. وأعقب ذلك إطلاق سراح المعتقلين منهم، ولكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب حكم جالريوس القصير (٣٠٥-٣٠٦م) وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الإمبراطورية.

وفي عام ٣١٢م أعلن الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذي أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة المسيحية. وواقع الأمر أن قسطنطين لم ينفرد بإصدار هذا المرسوم، بل شاركه في مسؤوليته شريكه في الحكم على النظام الدقلديانوسي الأغسطس ليسينيوس، وقد استقبل هذا المرسوم على أنه قانون أساسي من قوانين العالم الروماني؛ وقد قضى المرسوم برد كل الحقوق الدينية إلى المسيحيين بعدما حرموا منها ظلماً وعدواناً، ونصّ على أن تعاد للمسيحيين كل أماكن عبادتهم والأراضي العامة التي تم مصادرتها دون جدل أو إبطاء أو تكلفة، واقرن هذا الإنذار الصارم بوعد كريم

يقضي بأن يدفع إلى الذين اشتروا أملاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة تعويضاً من خزينة الإمبراطورية^(١).

واستكمالاً لهذه القضية هناك سؤال يطرح نفسه وهو: ما هي الدوافع التي جعلت قسطنطين يعترف بالمسيحية؟ البعض يرى أن قسطنطين اعترف بالمسيحية عن اقتناع وعن إيمان، وحجتهم في ذلك من خُلق قسطنطين وتصرفاته إزاء المسيحيين، والرأي المضاد يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التي لا تقل سخاء عن ما قدمه للمسيحيين. ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه الدوافع السياسية حيث كان يريد الشرق ومن ثمَّ عليه أن يكون مسيحياً أو صديقاً للمسيحيين، ولم يكن قسطنطين يستطيع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء الغني من الإمبراطورية برجاله وموارده إلا بمهادنة المسيحيين، لاسيما في الوقت الذي بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الإمبراطورية.

وفي نهاية الأمر نستطيع القول: إنَّ قسطنطين كان رجلاً على مستوى عالٍ من الذكاء، فلم يكن يستطيع أن يعلن أنه مسيحي فيُغضب الوثنيين، ولم يكن يستطيع أن يعلن أنه باقٍ على وثنيته. وفي هذه الحالة يتطلب الأمر منه أن يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث، بل عايش الاثنين معاً، ولكنه كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى أصبح في آخر الأمر مسيحياً^(٢).

ب- نقل العاصمة الرومانية وتأسيس مدينة القسطنطينية:

ليس هناك من شك في أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية، يدل على أن قسطنطين أوتي بصيرة نافذة وسياسةً حكيمة.

(١) محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ص ٢٤-٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦-٢٨.

وفي حقيقة الأمر فالفضل لا يرجع إلى قسطنطين وحده في نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الشرق بقدر ما يرجع إلى دقلديانوس، الذي أقام في مدينة نيقوميديا على الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة، واختصها برعايته، وأنشأ فيها كثيراً من المباني الجميلة والرائعة، ولكن إصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسمياً يدل على بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التي أمست فيها الإمبراطورية الرومانية، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من تنفيذ رأيه^(١).

والواقع أن هناك آراء متعددة حول الأسباب التي دفعت قسطنطين إلى نقل عاصمته من الغرب إلى الشرق، ومنها بعض الاعتبارات الحربية والدينية.

والحقيقة أن قسطنطين رأى بثاقب نظره أن روما حصن الوثنية لم تعد صالحة لأن تكون عاصمة الإمبراطورية بعد أن بدأت المسيحية في الانتشار، كما أن قسطنطين نفسه كان من أبناء البلقان، فتوقع أن أهل هذه المنطقة سيكونون أكثر إخلاصاً وطاعة له من الرومان الغربيين، إلى جانب أن روما في هذه الآونة كانت تتعرض لهجمات الجرمان من الشمال والشرق، ولم تكن تمتلك القدرة الكافية لصد هذه الهجمات مما دعا أباطرتها إلى ضرورة الاستعانة بهؤلاء الجرمان في صفوف الجيش الروماني، فأصبح هؤلاء يكونون قوة جديدة لا يستهان بها داخل المجتمع الروماني ويشكلون خطراً حقيقياً نظراً لرغبتهم في الاستيلاء على السلطة. لذلك رأى قسطنطين أن نقل العاصمة إلى الشرق سيحقق لها ملاذاً وملجأً من هذه الأخطار الخارجية والداخلية^(٢).

إن فكرة انتقال العاصمة الرومانية من روما إلى الشرق ليس جديداً، وترجع أهمية القسطنطينية إلى أنها المكان المثالي لأهميتها التجارية؛ ولأنها تتحكم في الطريق البحري الكبير من الشمال إلى الجنوب الذي يربط عالم البحر المتوسط المتحضر بمنطقة روسيا

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٥.

(٢) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص ١٣.

ذات المصادر الغنية، كما أنها تتحكم في المنطقة التي تتلاقى عندها الطرق البرية لآسيا الصغرى، ومناطق شرق أوروبا مع المضائق البحرية، إضافة إلى أنها وقفت كخط دفاعي مع بحر مرمرة في الجنوب والقرن الذهبي في الشمال، أضف إلى ذلك اعتدال مناخها الذي لم يكن شديد الحرارة، ولا شديد البرودة، إلى جانب أن جميع المناطق المحيطة بها كانت من الأراضي الزراعية الخصبة التي تتمتع بإمكانيات ضخمة تساعد على الزراعة، إلى جانب أن مياه البحر أمدت المنطقة بالأسماك؛ لذلك فقد اكتفت الإمبراطورية ذاتياً من الناحية الغذائية ولم تكن في حاجة إلا إلى القمح فقط^(١).

ويرى المؤرخون كذلك أن ظروف هذه الفترة كانت تتطلب بقاء الأباطرة في الشرق أكثر من الغرب، وذلك يرجع إلى التطور الذي طرأ على الجبهة الأرمنية والشامية والجبهة الدانوبية، فعلى الجبهة الأولى أعادت الأسرة الساسانية الفارسية نشاطها وطموحها، وأخذت بلاد فارس تحاول التوسع على حساب الإمبراطورية في الشرق، كما أن القبائل الجرمانية أخذت تهدد حدود الإمبراطورية الواقعة على نهر الدانوب، هذا وكانت الولايات الشرقية الإمبراطورية تتميز بنشاطها وتفوقها الاقتصادي على الولايات الغربية^(٢).

ولهذه الأسباب مجتمعة قام قسطنطين بتأسيس مدينة القسطنطينية الجديدة المنسوبة إليه التي بنيت محل مدينة بيزنطة القديمة التي أنشأها بيزاس عام ٦٥٧ ق.م، ولم يلتفت أحد إلى موقعها وأهميتها إلا عندما اختارها قسطنطين عاصمة للإمبراطورية^(٣). وقرر سنة ٣٢٤ بناء عاصمته الجديدة التي اتخذ المؤرخون تاريخ إنشائها بداية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

(1) David, T. Rice, The Byzantines, M,B, E. 1962, p 19.

(٢) عمر كمال توفيق: الإمبراطورية البيزنطية، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٥.

(3) David, Op. Cit., p20.

يُعدّ تأسيس القسطنطينية نقطة تحول جديدة في التاريخ الروماني، إذ بدأ القسم الشرقي من الإمبراطورية يتميز كثيراً عن الغربي من حيث الاستقرار والتقدم، وورثة مجد الإمبراطورية الرومانية، في حين أضحت روما العاصمة الرومانية تعيش حياة قلقلة مزعجة نتيجة اشتداد غارات الجرمان عليها، وتمكنهم من القضاء على معظم التراث الحضاري العظيم^(١).

ج- وفاة قسطنطين

توفي قسطنطين في عام ٣٣٧م بعد أن أمضى سنواته الأخيرة في سلام نسبي هياً له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم الإداري المدني والعسكري للإمبراطورية. وخلفه على العرش أبناؤه الثلاثة مجتمعين. وبعد صراعهم على العرش ولاسيما في وقت كانت الأخطار الخارجية تحدق بالإمبراطورية من كل الجهات تولى الحكم ابن عم الإمبراطور جوليان عام ٣٦٠ م، وخلفه على العرش القائد الروماني المسيحي جوفيان، ولكنه ما لبث أن مات عام ٣٦٤م، ونادى الجيش بالقائد فالنتيان إمبراطوراً بعد وفاة جوفيان والذي أثر حكم الإمبراطورية من روما وترك أخاه فالنزي إمبراطوراً شريكاً له في القسطنطينية، ولكنه قتل في معركة أدرنة عام ٣٧٨ ضد القوط وبموته يبدأ عصر جديد للإمبراطورية البيزنطية، وهو عصر أسرة ثيودوسيوس^(٢).

(١) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص ١٥.

(٢) محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ص ٣١-٣٣.

سادساً- سقوط الإمبراطورية الرومانية:

عُرفت مشكلة سقوط الإمبراطورية الرومانية بأنها أكبر مشكلة في التاريخ، لأنها جزء من المشكلة المتعلقة بالأسباب التي تؤدي إلى إخفاق أية حضارة من الحضارات، ولهذا السبب حاول كثير من المؤرخين اكتشاف عيوب الحضارة الرومانية وتمثلت نتيجة هذه المحاولة في عدد كبير من الاستنتاجات.

كانت روما في قمتها في القرن الثامن، ولكن عيباً أساسياً كان كامناً في بنائها السياسي، إذ لم يكن ثمة مبدأ محدد لطريقة ولاية العرش الإمبراطوري، فقد كان اعتلاء العرش في القرن الثاني يتم بالتعيين من قبل الإمبراطور السابق، إلا أن هذا النظام انهار في القرن الثالث، وهو ما أدى إلى صراع مرير لعب فيه الجيش دوراً كبيراً تسبب في الاضطراب وعدم الاستقرار، وكانت الفوضى هي النتيجة المتوقعة إذ أخذت كل فرقة من فرق الجيش تحاول تولية قائدها عرش الإمبراطورية، وفي النصف الأخير من القرن الرابع تقرر مبدأ وراثة العرش، وهو المبدأ الذي ساد في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى، وقد نشبت قبل استقرار هذا النظام، حروب أهلية وثورات متوالية، وكان احتمال تمرد الجيش يشكل خطراً يهدد الإمبراطور على الدوام، وبالرغم من أن روما أنجبت الكثيرين من رجال الدولة والسياسيين ورجال القانون، فشلت في إنجاز ثورة صناعية، ولهذا السبب تفاقمّت الأزمات الاقتصادية في أواخر القرن الثاني، وبقيت الأساليب الصناعية على حالتها؛ ومعنى ذلك أن الصناعة ظلت معتمدة على العمالة اليدوية، ولم يتم تطوير سوى عدد قليل من الآلات بعد بداية العصر المسيحي. وبالرغم من أن الإغريق عرفوا فكرة الآلة البخارية، لكنها لم تستخدم في الصناعة على الإطلاق فلماذا كان هذا الفشل في تطبيق العلم على التكنولوجيا؟ لقد كان هناك خطأ ما في الفلسفة السائدة بين القادة الأرستقراطيين الذين لم يجذبوا مثل تلك الأساليب، ولم يكن هناك دوافع قبل نهاية القرن الثاني يحث على اكتشاف مصادر جديدة للطاقة،

كما أنه لم تكن هناك حاجة لذلك طالما أن طاقة العبيد المستقدمين من البلدان المستعمرة كانت كافية للإنتاج، وكان يمكن مضاعفة الإنتاج عن طريق مضاعفة عدد العاملين من العبيد. كما أن سهولة الحصول على الطاقة الإنتاجية من أعمال العبيد لم تشجع على اختراع آلات أو أساليب صناعية جديدة، ولذلك يمكن القول: إن الخطأ الجوهري في نظام الاقتصاد الروماني كان ماثلاً في نظام العمالة.

وفضلاً عن عدم تشجيع البحوث الصناعية فإن تشغيل العبيد حدد نوعية السلع المنتجة؛ فقد أدى الإنتاج البسيط نسبياً إلى سهولة التقليد، كما وقف عقبة في تطوير المنتجات. فعلى سبيل المثال كانت الملابس المنتجة سهلة التقليد بسبب بساطة تصميمها، وتقدم صناعة الفخار مثلاً آخر على السهولة في تقليد السلع البسيطة، فالواقع أن صناعة الفخار اليونانية القديمة واجهت منافسة من جنوب بلاد الغال في القرن الثاني، وأدت هذه الحال إلى عدم انتعاش التجارة الخارجية لعدم وجود المنتجات المحلية الجيدة، وبدلاً من التوسع في تنشيط التجارة الخارجية كان هناك اتجاه متزايد نحو الاكتفاء الذاتي، أي الإنتاج من أجل الاستهلاك المحلي والاستغناء عن الاستيراد من الولايات الأخرى، وإذا كانت هناك بعض المحاولات الناجحة لإحياء التجارة الخارجية في القرن الرابع. فإن الإمبراطورية الرومانية، كوحدة اقتصادية كانت قد بدأت في التحلل والتفكك باطراد منذ أواخر القرن الثاني بشكل عام.

ومع ذلك فإن الرغبة المستمرة في الحصول على السلع الترفيهية أبقت على التجارة مع العالم الواقع في شرق الإمبراطورية ولما لم يكن لدى روما من السلع الجيدة ما تقايض به السلع الشرقية الفاخرة، كان عليها أن تدفع ثمن هذه السلع الشرقية بالنقد. ومن ثم لوحظ نزيف مستمر للذهب باتجاه الشرق، مما أحدث صدعاً في نظام الإمبراطورية الاقتصادي، وهكذا كان الإقبال على استيراد البضائع الفاخرة من الشرق مؤشراً لإخفاق الرومان في تثبيت نظام اقتصادي سليم، لقد كان للرومان في

الماضي نظام نقدي ثابت، لكن أباطرة القرن الثالث خفضوا قيمة العملة في محاولة لتدعيم مالية الدولة، ولم يدرك أغلب الأباطرة أن مثل هذا الإجراء لا بُدَّ أن يؤدي إلى ارتفاع الأسعار، لأنهم لم يفهموا هذه الأمور على أنها تضخم.

وكانت عيوب الإمبراطورية في مجالات التجارة والصناعة والمالية تقابلها أزمات في الحياة الزراعية، فقد كانت الزراعة في زمن الجمهورية تعتمد على صغار المزارعين الذين كانوا يمثلون العماد السكاني، والذين قدموا للجمهورية قيادات في المجالات السياسية والعسكرية، ومنذ القرن الأول قبل الميلاد بدأت المزارع الصغيرة تتراجع اللاتيفوندا "Latifundia" وهي الضياع الكبيرة التي تعتمد على عمالة العبيد، والتي تعد الأساس لإقطاعيات العصور الوسطى. والحقيقة أن تشغيل العبيد كان يتم بصورة سيئة جداً، وكان صغار المزارعين ينزحون إلى المدينة، بينما كان العبيد يواصلون العمل في الأرض، وكان مالك الضيعة هو الذي يجني وحده الأرباح والمكاسب. وهذا النحو الذي سارت عليه الحياة الزراعية كان له أثر بعيد المدى على الحياة العسكرية، لأن المواطنين الذين يعملون بالزراعة كانوا يشكلون العمود الفقري للجيش الروماني الجمهوري والفرق العسكرية في عهود الإمبراطورية الأولى، ولذلك فما إن حل القرن الثاني بعد الميلاد حتى برزت مشكلة الحصول على الجنود اللازمين لتكوين نواة جيش يعتمد عليه، ويبدو أن الإمبراطورية في عهدها الأخيرة عانت تدهوراً في عدد السكان، وهو التدهور الذي كان نتيجة لانتشار الأوبئة على الرغم من أن مشكلة القوة البشرية كانت نتيجة عوامل اجتماعية أكثر من كونها نتيجة عوامل سكانية، لأن الإمبراطورية كانت في عام ٣٠٠ م تضم عدداً يتراوح بين خمسين وسبعين مليون نسمة، وهو عدد كبير يكفي للاحتفاظ بجيوش قوية، غير أن الأباطرة كانوا يخشون تزويد الفرق العسكرية بأبناء الطبقة الأرستقراطية حتى لا يحاولوا الاستيلاء على الحكم، كما أن أبناء الطبقة المتوسطة ما كانوا راغبين عندئذ في ترك

أعمالهم، بل كانوا شغوفين بأي شيء سوى الالتحاق بالخدمة العسكرية. وبقي مصدران للقوة البشرية وهما: العبيد وعمال المدن، والأعداء الرابضون على الحدود الشمالية ونعني بهم العشائر الجرمانية، لقد كان الجرمان يريدون الأخذ بأسباب الحياة في عالم البحر المتوسط، وفي أواخر القرن الثاني بدأ الأباطرة في توطين القبائل الجرمانية داخل حدود الإمبراطورية لتكون بمثابة حزام أمان ضد القبائل الجرمانية الأخرى. وقد منح الأباطرة هؤلاء المتحالفين الأرض والامتيازات في مقابل هذه الخدمة أما المتاعب التي نجمت عن هذه السياسة فقد كانت كامنة في زعماء الجرمان، إذ ارتقى هؤلاء الرجال وتولوا مناصب قيادية عليا في الجيش الإمبراطوري، وكادوا يستولون على العرش على حين كانوا يتوانون عن مهاجمة أبناء عشائرتهم من الجرمان، فقد كشف تاريخ الغزوات الجرمانية عن خيانة بعضهم للإمبراطور.

وكانت المشكلة النهائية للإمبراطورية تتمثل فيما أصابها بالصميم، فقد تدهورت روما نفسها كمركز اقتصادي، بينما ظلت مركزاً للحكم، وبحلول عام ٢٠٠ كانت روما تغص بشراذم الغوغائيين التواقين إلى التمرد والإخلال بالأمن. واضطر الأباطرة في بعض الأحيان إلى مقابلة العنف بإجراءات بالغة القسوة، واضطروا في أحيان أخرى إلى استمالة الرعاع بحفلات السيرك وعطايا القمح^(١).

(١) نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط قصة حضارة: البداية والنهاية. القسم الأول، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ٥، ١٩٩٧، ص ٤٠-٤٢.

مراجع الكتاب

المراجع العربية

١. إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني، طبعة أولى، الشركة العالمية للكتاب، لبنان ١٩٩٦.
٢. إبراهيم رزق الله أيوب: محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية، كلية الآداب- الجامعة اللبنانية، ١٩٩١.
٣. ج، هـ، بروستد: العصور القديمة، ترجمة قربان داود، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣.
٤. هـ. أيدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، نقله إلى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد علي، القاهرة ١٩٦٨.
٥. نورمان بيتر: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، محمود زايد، القاهرة ١٩٥٧.
٦. إسحق عبيد تاووضروس: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة ١٩٧٢.
٧. عمر كمال توفيق: الإمبراطورية البيزنطية، الاسكندرية ١٩٦٧.
٨. إدوارد جييون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ترجمة محمد علي أبو درة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩، ح ١.
٩. نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٨.
١٠. محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٥، ط ٣.

١١. شوقي خير الله: قرطاجة العروبة الأولى في المغرب، مركز الدراسات العلمية، طبعة أولى ١٩٩٢.
١٢. فرانسوا ديكريه: قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ترجمة عز الدين أحمد عزو، طبعة أولى، الأهالي للنشر، دمشق ١٩٩٦.
١٣. ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، الجزء الأول من المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، دار الجليل، بيروت ١٩٨٨.
١٤. أسد رستم: عصر أوغسطس قيصر وخلفائه، جزأين، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦١.
١٥. روستوفتوف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٧.
١٦. أحمد سراج: في التاريخ الروماني، نشأة الجمهورية، إفريقيا الشرق ٢٠٠١، بيروت لبنان.
١٧. محمود إبراهيم السعدي: حضارة الرومان "منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي" الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص ٢٧.
١٨. حسين الشيخ: الرومان، دار المعرفة الإسكندرية ١٩٨٩.
١٩. عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية ٢٠٠٢.
٢٠. هشام الصفدي: تاريخ الرومان، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧.
٢١. نجيب إبراهيم طراد، محمد زينهم عزب: تاريخ الرومان، مكتبة ومطبعة الغد، الجيزة مصر ١٩٩٧.
٢٢. سعيد عبد الفتاح عاشور:

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ١٩٧٢.
- أوروبا العصور الوسطى، جزآن، القاهرة ١٩٧٥.
٢٣. سليم عادل عبد الحق: روما والشرق الروماني، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٩.
٢٤. علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، طبعة أولى، إربد، الأردن ١٩٩٠.
٢٥. عبد اللطيف أحمد علي:
- مصادر التاريخ الروماني، القاهرة ١٩٧٠.
- روما، الجزء الأول/ تاريخ الجمهورية والإمبراطورية/، القاهرة ١٩٦٠.
- مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥.
٢٦. محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.
٢٧. علي الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الوسيط، القاهرة ١٩٧٧.
٢٨. محمد حرب فرزات: موجز تاريخ روما في العصر الجمهوري، محاضرات أُلقيت على طلاب قسم التاريخ جامعة دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٦٤.
٢٩. نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط قصة حضارة: البداية والنهاية. القسم الأول، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٥، ١٩٩٧.
٣٠. إرنست ماسون: الإمبراطور الرهيب تييريوس، تعريب جمال السيد، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥.

٣١. ماري ماغريغور: التاريخ الروماني، عصر الثورة من تيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أوغسطس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١.
٣٢. محمود متولي: طغاة التاريخ، كتاب مصر اليوم (١)، القاهرة ١٩٨٦.
٣٣. محمد محفل، محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان، الطبعة الخامسة، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٣.
٣٤. جورج مصروعة: هنيعل، جزأين، بيروت ١٩٥٩.
٣٥. سيد الناصري:
- تاريخ الإمبراطورية الرومانية، دار النهضة العربية ١٩٨٥، ط ٢.
- تاريخ وحضارة الرومان، القاهرة ١٩٨٢.
٣٦. إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، جزأين، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب ١٩٧١.
٣٧. س. ورن هليستر: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨.

المراجع الأجنبية :

1. **Dudley**, Roman Society, (Pelican books), Great Britain 1970.
2. Salvatore **Settis**, The Land of the Etruscans, from Prehistory to the Middle Ages SCALA, Istituto Fotografico, 1985.
3. Gary **Forsythe**, A Critical History of Early Rome, *From Prehistory to the First Punic War*, university of California press, 2005.
4. **Petrie**, A., An Introduction to Roman history, Literature and antiquates, New Edition 1956.
5. Cary, M. **Scullard**, H., A., History of Rome, 3ed edition 1975, Great Britain.
6. George **WILLIS BOTSFORD**, Lillie SHAW BOTSFORD: The Store of Rome As Greeks and Romans tell it an elementary source-book, The Macmillan Company, London 1903.
7. H. **PETER**: *Historicorum Romanorum Reliquiae*, I 2nd ed 1914; II 1st ed 1906.
8. Samuel **BOCHART**, *Géographia sacra*, Leyde, 1676, 2 vol.
9. **Perizonius**, *Animadversiones selectee*, 1685.
10. Louis **BEAUFORT**, *Dissertation sur l'incertitude des cinq premiers siècles de l'histoire Romaine*, Utrecht, 1738/
11. Barthold Georg **NEIBUHR**, *Histoire Romaine*, 1811-1812.
12. Georges **Dumézil**: *De la société sur les origines de Roma*, Paris 1941.
 1. : *Naissance de Roma*, Paris, 1944.
13. H. **Dessau**: *History of Education antiquity*, Trans 1958.

اللجنة العلمية:

الأستاذ الدكتور: مفيد رائف العابد

الأستاذ الدكتور: مأمون عبد الكريم

الأستاذ الدكتور: عبد المجيد همدان

المدقق اللغوي:

الدكتور: محمد قاسم

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات